سلسلة روايات نور العادلين

هنري ترويًّا

مجد المهزومين

ترجمة

علي باشا

دار علاء الدين



Henri Troyat

كاتب ومؤلف روسي الأصل كان يسمى (ليف تاراسوف) ولد في موسكو عام ١٩١١ ، وهاجر مع أسرته إلى فرنسا في عام ١٩١٨ ، نال شهادة الإجازة في الحقوق وبدأ سيرته الأدبية بعملين هما:

Faux Jour (1935)

و(1938) L'Araigne التي حاز بفضلها على جائزة غونكورت Prix Goncourt في العام ذاته.

نشر سلسلةً من الروايات الرومانسية التي عاصرت التاريخ الروسي آنذاك منها:

Tant que la Lumière durera (1947 - 50).

La Lumière des Justes (1959-63).

Le Pain de l'Etranger (1984).

Les Héritiers de l'Avenir (1968-70).

أما عمله(1946) Les Vivants فقد كتب للمسرح.

نشر أيضاً عدداً من بيوغرافيات مشاهير وأعلام روس منها:

Dostoevsky (1940).

Peter the Great (1979).

Maupassant, Zola, Verlaine (1993).

Flaubert, and Baudelaire (1994).

أصبح عضواً في الأكاديمية الفرنسية عام ١٩٥٩.

Henri Troyat

La Gloire Des Vaincus

La Lumière des Justes

هنري تروَيّا

مجد المهزومين

سلسلة روايات نور العادلين

ترجمة

علي باشا



منشورات دار علاء الدين

- مجد المهزومين
- تأليف: **هنري ترويّا.**
- ترجمة: **علي باشا.**
- الطبعة الأولى ٢٠٠٤.
- عدد النسخ /١٠٠٠/ نسخة.

- تمت الطباعة في دار علاء الدين للنشر.
- **هيئة التحرير في دار علاء الدين.**

- الإدارة والإشراف العام: **م. زويا ميخائيليلينكو.**
- الغلاف: **م. محمد طه.**
- التدقيق اللغوي: **صالح جاد الله شقير.**
- المتابعة الفنية والإخراج:
  أسامة راشد رحمة.

دار علاء الدين

للنشر والتوزيع والترجمة

سورية، دمشق، ص.ب: ٣٠٥٩٨

هاتف: ٥٦١٧٠٧١، فاكس: ٥٦١٣٢٤١

البريد الإلكتروني: ala-addin@mail.sy

الجزء الأول

١

- ماذا؟ ألست مستعداً، بعد؟

هذا ما قاله «كوستيا لادوميروف» بأعلى صوته وهو يفتح باب الغرفة.

فردّ عليه «نيقولا» مغمغماً بتذمر، وهو ينظر إليه بطرف عينه، ثم تابع حلاقة ذقنه. فهل كان يمكنه أن يعترف بأنه يتباطأ عمداً بالحلاقة والتزين، منتظراً مرور ساعي البريد؟ فقد حلم في هذه الليلة أيضاً، وبدقة عجيبة أنه تلقى رسالة من «صوفيا». رسالة تشرح له فيها كل شيء، وتسوّي كل الأمور! وشفرة الحلاقة، التي كان يمسك بها بصورة منحرفة، سارت على خده من الأسفل إلى الأعلى، بعكس ميل الشعر، فامتد خط أحمر في رغوة الصابون.

وقال «كوستيا» بلهجة تنم عن الغيظ:

- و «ريلييف» الذي ينتظرنا؟!

-إنه لم يحدّد موعداً.

- كلا، ولكني متأكد أنّ الآخرين جميعهم قد سبقونا إلى منزله. ولا بدّ من أن يكون هنالك أخبار جديدة.

فقال «نيقولا»

- منذ مساء البارحة وحتى الآن؟ لو حدث شيء من هذا القبيل لأثار دهشتي!

ولكم كان يتمنى لو أنّ تاريخ العالم يتوقف طوال الزمن الذي لا يتلقّى فيه رسالة من زوجته. فلماذا لم تعد تردّ على رسائله منذ ثلاثة أسابيع؟ وماذا لو أنها أخطأت في العنوان؟... ولكن، لا، فقد قال لها إنه يقيم في منزل

«كوستيا لادوميروف»، بالقرب من ميدان «سان- إسحاق»! وليس لذلك سوى تفسير واحد: وهو أنّ بريده تراقبه الشرطة.

وسأل «كوستيا»:

- ألا تعتقد أنّ الرقابة تحتجز رسائلنا؟

فأخرج «كوستيا» ورقة من جيبه.

فسأله «نيقولا»:

- ما هذه؟

- رسالة، لقد تلقيتها للتوّ.

- وهل مرّ ساعي البريد؟

- نعم.

فتساءل «نيقولا» وقد شعر بخيبة الأمل، عما إذا لم يكن من الأفضل بالنسبة له، أن يمضي مسرعاً في إحدى عربات البريد إلى «كشتنوفكا» لكي يرى «صوفيا». أربعة أيام للذهاب من «سان بطرسبورغ» إلى «بيسكوف» ومثلها للعودة... كان الأغراء قوياً، ولكنه لم يستطع أن يتصور نفسه وقد تخلّى عن رفاقه، في وقت، ربما كانوا، يفكرون بعمل جريء يقومون به جميعهم، سيحققون الحرية لروسيا. وبكثير من الثبات والتصميم، وكأنه قد حسم مسألة سياسية، أنهى بسرعة حلاقة ذقنه، ولم يبق عليه سوى أن يغسل وجهه، ينشّفه، يعقد ربطة عنقه، يرتدي صدريته البنفسجية اللون وسترته الرمادية، ويقول، بعد ذلك:

- «كوستيا»! إني أشعر أننا سنقوم صباح اليوم بعمل جيد!

وأسرعا إلى الرواق، حيث كان العجوز «بلاتون» يجلس قرب النافذة مرتدياً بزته الرسمية الخضراء التي تزينها شرائط فضية اللون، وقد انهمك في حياكة جورب. وعندما ناداه سيده، أسرع ليحضر المعطفين، القبعتين، والجرموقين[1].

---

[1]- الجرموق: وقاء الحذاء.

وقبل أن يخرجا، أخذ «كوستيا» الذي كان متأنقاً، يتأمل نفسه بإعجاب في المرآة. كانت الذؤابة التي تعلو جبهته معطرة بعطر الياسمين، وأنفه الذي يشبه المنقار كان يعلو شفة حليقة. وفي إصبعه يلمع خاتم مرصع بحجر من الزمرد. وساقاه الطويلتان اللتان تشبهان سيقان الطيور المائية، «الطويلات الساق» كانتا مكسوّتين بسروال رمادي اللون.

وقال «كوستيا»:

- لست على ما يرام! والحقيقة أنّ هذه الثورة تثير أعصابي! هيا بنا، يا عزيزي!...

وفي الشارع، كانت الريح الشديدة البرودة تلسع وجهي الرجلين. وبدت على الأرصفة طبقة رقيقة وشفافة من الثلج. وعلى قارعة الطريق، التي تغطيها طبقة لماعة من الجليد كانت أحصنة العربة تسير بصعوبة وقد باعدت ما بين قوائمها. وكان بعض المارة الذاهبين إلى أعمالهم يسيرون بسرعة وقد أحنوا ظهورهم، ووضعوا أيديهم في أسفل جيوبهم، وأنوفهم في ياقات معاطفهم. وعلى الرغم من أنّ الوقت كان باكراً، فقد أخذت بعض الحوانيت في جادة «نيفسكي» تفتح أبوابها. ورأي «نيقولا» على واجهة إحدى المكتبات صورة كبيرة للدوق الأكبر «كونستانتان بافلوفيتش»، وتحتها هذه العبارة: «صاحب الجلالة الإمبراطور «كونستانتان» الأول، قيصر جميع الدويلات الروسية». والحال هي أنه لم يكن أحد يجهل، منذ اليوم السابق، الثاني عشر من تشرين الأول - ديسمبر» ١٨٢٥، أنّ الدوق الأكبر «كونستانتان بافلوفيتش» الذي اغتاظ من الشائعات الكثيرة التي كانت تروى عنه، كان قد أرسل موفداً من «فرسوفيا» إلى «سان بطرسبورغ» لكي يؤكد تخلّيه عن العرش.

وقال «نيقولا»، متأوّهاً:

- بالحقيقة، لقد كان باستطاعتهم إزالة هذه الصورة!

فردّ عليه «كوستيا» قائلاً:

- إنهم ينتظرون أن يعرفوا أي صورة عليهم أن يضعوها مكانها: فـ «أليكسندر الأول» قد توفي، و «كونستانتان بافلوفيتش» الذي لم يتزحزح من «فرسوفيا» يرفض تسنّم العرش، و «نيقولا بافلوفيتش، بعد أن بايع أخاه ونادى به إمبراطوراً، يتساءل الآن، فيما إذا كان يستطيع أن يجعل الجيش يرتد ويحنث بقسم الولاء الذي أدّاه لأخيه. وعليك أن تعترف أنّ هذه أغرب فترة في التاريخ يخلو فيها العرش من عاهل يحكم الدولة! فالإمبراطورية الروسية تقدّم كقدح من الشاي إلى هذا وإلى ذاك، ولا أحد يريدها!

وأخذ «نيقولا» يتأمل عن قرب صورة الدوق الأكبر «كونستانتان بافلوفيتش»، ذلك الوجه «الكارلان» الذي يشبه كلباً أفطس الأنف، ذو الجبين المنحني، والشفة السفلى السميكة والمتدلية، وقال:

- على الرغم من مظهره الفظ، فإني مع ذلك أفضله على سميّي، الصلب والفارغ كالطبل. وربما كان «كونستانتان» يوافق على إصلاح المؤسسات!

فقال «كوستيا»:

- لا أعتقد ذلك، ولكن، من المناسب أن يعتقد الناس أنه يوافق على تلك الإصلاحات. وإذا رفض الجيش أن يؤدّي القسم الثاني الذي سيطلب منه تأديته، فستكون جميع الفرص متاحة لنا. ولكن إذا انصاع ورضخ.... ورفع يده قليلاً، ملوّحاً بها، كأنه يطرد أحد طيور الشؤم.

فقال «نيقولا» بقوّة:

- إنّ الجيش لن يرضخ، ولا يمكن أن يرضخ!

- لماذا؟

- لأنّ مصلحته تملي عليه أن يتبعنا! لأنّ... لأنني أشعر أنّ كل شيء سيسير على ما يرام!...

ثم فكّر لحظة، وهمس، بعد ذلك:

- ومع ذلك، فنحن كذابون، يا أخي العزيز، كذابون فظيعون! فنحن نناضل في سبيل الحرية، ولا نجرؤ على أن نقول ذلك للشعب. ونجعله يعتقد أنّ هدفنا هو العمل على أن يتبوّأ «كونستانتان» العرش. ولكن إذا نجح الانقلاب الذي سنقوم به، فسوف يلاحظ الجنود بسرعة أننا لا نريد «كونستانتان» بأكثر مما نريد «نيقولا» وأنّ الأول لم يكن بالنسبة لنا سوى ذريعة، وأننا قد استغلينا سمعته وشهرته، ليس لإحداث ثورة في القصر، بل لإحداث ثورة حقيقية! ألن يلومنا، عند ذلك، يا «كوستيا» أولئك الناس البسطاء، ويعتبرونا أننا قد خدعناهم؟ ألن ينقلبوا ضدنا لمعاقبتنا لأننا حققنا لهم الاستقلال؟ والجزء الثاني من مهمتنا يقضي، بدون شك، بإقناع الجماهير بأنّ السعادة بدون القيصر هي أفضل بكثير من البؤس مع وجود القيصر!

فقال «كوستيا» وقد انتابه الذعر فجأة:

- الحق معك!

فدفعه «نيقولا» لكي يتابع السير، واستأنف الكلام بمرح:

- تبدو متردداً! مع أنّ هذا هو بالضبط ما يلهب العواطف!

قيادة الرجال والهيمنة عليهم، التأثير الفعال على الزمن والعصر الذي نعيش فيه، توجيه مسيرة التاريخ والتحكم به!...

ولكي يستمد الشجاعة، كان يقول لنفسه إنّ زوجته تشجعه عن بعد، وتؤيد أفكاره التحررية. فهي التي كشفت له عن بؤس العالم وعن الطريقة لمعالجة هذا البؤس. وربما كان من الممكن أن يكون في الجانب الآخر من الحاجز، بين الخدم الأوفياء والموالين للعرش، لو لم يكن قد التقى بها، ذات يوم، من أيام صيف سنة ١٨١٤، في باريس. فعلى ماذا تتوقف المواهب السياسية الكبرى؟! ونسي «نيقولا» رفيقه المشغول البال، وقطع بقية الطريق، متخيلاً أنه يتأبط ذراع «صوفيا» ولم يتبدّد وهمه هذا، إلا عندما

وصل إلى أمام منزل «ريلييف» الكائن على ضفة «المويّكا»، بالقرب من الجسر الأزرق. وكان هنالك لوحة نحاسية، على يمين الباب، تشير إلى أنه مقر «الشركة الروسية- الأميركية». وكون زعيم المتآمرين، كان، في آن واحد مدير شركة تعمل في مجال استثمار بعض المشاريع التجارية في العالم الجديد، فقد بدا ذلك لـ «نيقولا» أمراً غير معقول وفي غاية الغرابة. وكان يضحك في سره، وهو يفكر أنّ من هذا المكان، كانت تصدر، في آن واحد، الأوامر الرسمية لبسط سلطة القيصر على أراضٍ بعيدة جداً، والأوامر السرية لإزاحة سلطته عن أراضيه الخاصة، والقريبة.

ونزع «فيلكا» خادم «ريلييف»، وهو «قوزاقي قصير»، عن الزائرين معطفيهما. وفي قاعة الطعام الخالية كانت لا تزال رائحة الخبز الطازج منتشرة في الجو، وبعض طيور «الكناري» تغرّد في قفص معلق هناك، وشعلة مصباح صغير تنير مجموعة من الأيقونات تمثّل وجوهاً بيزنطية سوداء. ومن هناك كان يُسمع صوت امرأة كانت توبخ أحد الخدم، وراء الباب المؤدي إلى غرف المنزل الأخرى. لم يكن «نيقولا» يعرف «ناتالي ميكايلوفنا ريلييف». فهي لم تكن تحضر أبداً اجتماعات «اتحاد الشمال». ولكنها، أكانت على الأقل تعرف الخطر الذي يتعرض له زوجها؟ كل شيء في ذلك المسكن كان هادئاً، مرتباً ونظيفاً جداً، لدرجة أنّ «نيقولا» وهو يدخل إليه، حاملاً معه وساوسه وهمومه الشخصية، كان يشعر بأنه يطأ بحذاء عليه كثير من الوحل على أرضية خشبية مصقولة ومطلية بدهان لمّاع.

وسأل الخادم «القوزاقي القصير»:

- هل سيدك هنا؟

فأجابه «فيلكا»:

- نعم، وعنده أيضاً بعض السادة في المكتب. فدخل «نيقولا» و «كوستيا» إلى غرفة بدت لهما الحرارة فيها شديدة، ونافذتها ذات

القضبان الحديدية تطل على الباحة، وهي ضيقة جداً، بحيث يصعب التحرك فيها بين الأريكة الطويلة المغطاة بالجلد الأسود والمنضدة المثقلة بكثير من الأوراق، والمكتبة ذات الواجهة الزجاجية وأعداد جريدة «نجمة القطب» المكدّسة بين قوائم الكراسي، وكان «ريلييف» جالساً بشكل منحرف على ساعد الأريكة، وعلى كتفيه رداء منزلي «روب دي شامبر» أصفر اللون، عتيق وعليه بعض بقع الحبر. وعنقه النحيل الشبيه بعنق الطفل يلتف حوله وشاح حريري أبيض اللون. وفي وجهه الأسمر البارز الوجنات، والرقيق الشفتين الأنثويتين، كانت عيناه الواسعتان والجميلتان اللتان تنمان عن العذوبة والكآبة، يشع منهما بريق جذّاب. ويحيط بجبينه شعر مجعّد أسود. ولم يكن قد شفي تماماً من ألم في بلعومه، أصيب به، وهو يتجول ليلاً ونهاراً في المدينة، لكي يستميل الجنود لتأييد مشروع التمرد. وكان يجلس بالقرب منه «يوري ألمازوف» القصير القامة، مرتدياً البزة الرسمية لملازم في الفوج الذي يقيم في موسكو، والنحيل الطويل القامة «كوهلبيكر» الذي كان يرتدي «الريدنفوت» وكان تأثير الظروف بادياً على ملامح الثلاثة.

وسألهم «نيقولا» وهو يشدّ على الأيدي التي امتدت نحوه:

- هل أتتكم أخبار جديدة؟

فأجابه «ريلييف»:

- ليس بعد، ولكني أعتقد أنّ الأحداث سوف تتسارع. إذ إنّ مستشاري «نيقولا بافلوفيتش» ليس لهم أي مصلحة بتأخير إعلان البيان ونشره.

- لماذا إذن، والظروف هي في هذا الوضع، لا نتحرك ونعمل منذ الآن؟

- لأنّ ذريعتنا الوحيدة، لإثارة المعسكر، ودعوة الجنود إلى التمرد والعصيان، هو الأمر الذي سيصدر ويدعوهم إلى أن يرتدّوا ويحنثوا بقسم الولاء الذي أدّوه لـ «كونستانتان بافلوفيتش» وأن يؤدوا من جديد يمين الولاء

لـ «نيقولا بافلوفيتش». وطالما لم يحدّد تاريخ وموعد تأدية هذا القسم الثاني، فإننا لا نستطيع القيام بأيّ عمل. وربما يكون المرسوم الإمبراطوري قد وضع، ونحن لا نعرف شيئاً عنه، والوضع هكذا، يبدو غير معقول!

فقال «كوستيا»:

- ينبغي، مع ذلك، أن يكون هنالك وسيلة، نستطيع أن نحصل بها على المعلومات الضرورية!

فقال «ريلييف»:

- لقد وعدني العديد من أصدقائنا الذين لهم علاقات مع رجال الحاشية في القصر، أنهم سيخبرونني حالما يقدم البيان للتوقيع عليه. ولكني أعتقد أنّ هذا الأمر سيحافظ على سريته حتى آخر لحظة، لأنّ «نيقولا بافلوفيتش» يريد أن يستغل عامل المفاجأة، لكي لا يترك للجنود وقتاً لكي يتساءلوا ماذا يجب عليهم أن يفعلوا...

وكان «نيقولا» أثناء هذا الحديث، مستغرقاً في تفكير عميق، كاد يسبب له صراعاً أليماً. وهو يشعر برغبة جنونية بتأدية أي خدمة لـ «ريلييف» الذي كان يعتبره رجلاً يتمتع باستقامة وذكاء نادرين. وفجأة، خطرت على باله فكرة، فقال بفرح شديد:

- إني أعرف شخصاً، من المؤكد أنه مطلع على تحضير ووضع البيان!

فسأله «ريلييف»:

- ومن هو هذا الشخص؟

فأجابه «نيقولا»:

- إنه «هيبوليت روزنيكوف».

فصاح «كوستيا»:

- هذا صحيح وأنا لم أكن قد فكرت به!

فقال «ريلييف»:

- انتظر إذن! «هيبوليت روزنيكوف!»...

«روزنيكوف»... هذا الاسم يذكرني بشيء مّا... ألم يكن يشغل مركزاً مهماً في دائرة حاكم «سان بطرسبورغ»؟

فقال له «نيقولا»:

- إنه مرافق الجنرال «ميلورا دوفيتش».

فبدت على شفتي «ريلييف» ابتسامة بريئة، كابتسامات الأطفال، وقال:

- سيكون هذا رائعاً! أصلتك به قوية؟

- لقد خدمنا سوية في «الحرس الليتواني»، سنة ١٨١٤، ثم في هيئة الأركان العامة، سنة ١٨١٥، في باريس. ولكن، بعد زواجي، افترقنا عن بعضنا، ولم ير أحدنا الآخر منذ ذلك الحين...

- وهذه مناسبة ممتازة لتجدّد علاقتك به! حاول أن تلتقي به، اليوم بالذات! واستدرجه ليتحدث إليك دون أن تثير شكوكه!

فلم يعد «نيقولا» يستطيع أن يتمالك نفسه من شدّة سعادته وفرحته عندما أخذ يفكّر بهذه المهمة الدقيقة والحساسة. وأشعل «يوري ألمازوف» سيجاراً صغيراً، وفكّ الأزرار العليا في بزته. وفي وسط وجهه النحيل والشاحب، كان حاجباه الكثيفان والأسودان يبدوان مستعارين. وقال مغمغماً:

- إذا كان «هيبوليت الجميل» علم بشيء فسيقوله لك، أولاً لأنه أشدّ بلاهة من جزمته، وثانياً، لأنه وإن كان لا يتفق معك في الرأي فهو يعتبرك صديقاً له. وإذا أردت أن تلتقي به، فأنا أعلمك بأنه يتناول قهوته كل يوم في كافتيريا «سشوارز»، الكائنة في شارع «مورسكايا».

فقال له «نيقولا»:

- أعرف ذلك، وأنا ذاهب، في الحال، إلى هناك، لاستنطاقه والحصول منه على المعلومات اللازمة.

وتناول «ريلييف» قارورة عن الأسكملة وسكب منها ملء ملعقة من الدواء وشربها بجرعة واحدة، وأبدى تكشيرة تنم عن الامتعاض:

- يا له من عقار سيئ الطعم! ولكن عليّ أن أتناوله، علّني أشفى لأكون مستعداً للعمل في اليوم العظيم!

وربّت بباطن يده على الأضابير المكدّسة على مكتبه، وأضاف قائلاً:

- عندما أفكر بكل هذا العمل الذي لديّ، وقد تأخرت بإنجازه!

فقال له «نيقولا» بحماسة واضحة:

- إذا نجحنا، فلن يكون عليك، بعد ذلك، أن تهتم بأعمال الشركة الروسية- الأميركية! وستكون... ستكون رئيساً للحكومة الجديدة!...

وستصبح ديكتاتورنا الليبرالي والتحرري!...

فقال له «ريلييف»:

- إني غير مهتم بذلك، ولا أتمسك به!

وأصابته نوبة سعال، جعلته يحني ظهره كثيراً.

أما «كوهلبيكر» الذي كان يتأمل خريطة سيبيريا، المعلقة على الجدار، فقد حملق بعينيه الكبيرتين اللتين تشبهان عيون السمك، أرخى شفته السفلى، وقال:

- وإذا فشلنا، فانظروا إلى أين سوف يرسلوننا!

قال ذلك، وأشار بإصبعه إلى خريطة سيبيريا.

فخيم على الجو، لبعض الوقت، صمت ثقيل.

ثم قال «ريلييف» وهو يغلق قارورة الدواء:

- إيه! إنّ ذلك لن يكون سيئاً أيضاً! فسيبيريا منطقة رائعة!...

فقال له «كوستيا»:

- إني أحملك مسؤولية هذا التصريح. وما هو هذا الخط المنقّط الذي يبدو على الخريطة من طرفها إلى الطرف الآخر؟

فقال «ريلييف»:

- إنه خط سير القوافل التي تنقل المواد التموينية العائدة للشركة «الروسية- الأميركية». وهذه القوافل تصل إلى «أوكهوتسوك» الواقعة على شاطئ المحيط الهادي ومن هناك تنطلق إلى ألاسكا بعض السفن التي نستأجرها نحن. وكثيراً ما حلمت بالقيام بهذه الرحلة الطويلة. وفي الفترة الأخيرة. كتب لي صديقي «مسلوبيدوف» الذي يتمتع بنفوذ كبير هناك، يدعوني لزيارته والقيام بهذه الرحلة الرائعة. ولكن، لقد فات الوقت على القيام بها! فهنالك أمور أخرى تشغل بالنا، أليس هذا صحيحاً؟ ومن المغامرة العظيمة التي حملت الروس على غزو العالم الجديد، لم أكن قد عرفت سوى ما كُتب على الكثير من الأوراق!

فقال له «نيقولا»:

- أنت تتكلم وكأنّ حياتك ستنتهي غداً!

فسلّم «ريلييف» بما قاله «نيقولا» وردّ عليه وهو يضحك ضحكة مغتصبة:

- أنت مصيب فيما قلت! فأنا متشائم، بشكل سخيف، يدعو إلى السخرية، والذنب في ذلك يعود على هذه الأدوية التي خربت معدتي.

ولكنّ المستغرب هو أنّ «غدليترين» و «أوبولنسكي» لم يحضرا حتى الآن! و «ستيبان بوكروفسكي»، ماذا يعمل؟

فقال «كوستيا»

- لقد أصيب بالتواء في العرقوب، قبل البارحة!

- ليشفه الله! وصديقك «فاسّيا فولكوفّ»؟

- أعتقد أنّ بعض الشؤون العائلية اضطرته إلى السفر صباح اليوم إلى «بيسكوف»

- إنه لن يكون معنا، إذن؟

- كلا.

- يا له من ظرف طارئ وعائق! والأمير «تروبيتزكويّ» ما شأنه؟

- لا بد أنه ذهب على القصر للحصول على الأخبار!

- بدون شك! بدون شك! يا إلهي! كم هو مزعج أن نعيش في جو من الشك والحيرة عشية اليوم الذي ينبغي أن نقوم به بعمل بالغ الأهمية!

ومن جديد انتابته نوبة شديدة من السعال مزّقت بلعومه، فمسح وجهه بمنديله، وألقى نظرة تنم عن القلق على «نيقولا» وقال له:

- أستطيع الاعتماد عليك، أليس كذلك؟ من أجل الاستفسار من «هيبوليت روزنيكوف»!

وأضاف دون أن ينتظر الجواب:

- أرجو أن تعذروني، أيها السادة، فعليّ أن أكتب رسالتين أو ثلاث رسائل، تحتاجها المصلحة. على ألا يمنعكم ذلك من متابعة الحديث فيما بينكم...

وبرى ريشة. ولاحظ «نيقولا» أن يده كانت ترتجف، فتبادر إلى ذهنه: «أن الزعيم الحقيقي لا يضطرب ولا تثور أعصابه هكذا.»

***

كان «هيبوليت روزنيكوف» قد تغير كثيراً، لدرجة أنّ «نيقولا» لم يعد يجد أثناء وجوده معه اللهجة التي كانت تتسم بها أحاديثهما فيما مضى. كان يتأمل هذا الضابط المرافق، الذي يتمتع بالحظوة، ذا الشارب الأسود المصقول بمثبت الشعر، والذقن البارزة والصدر العريض الذي تزينه الأوسمة وشرائط الزخرفة البراقة، ويبحث عبره عن ذكرى الضابط المتحمس والساخر والوصولي، الذي كان قبل ما يقرب من عشر سنوات أفضل رفيق له في باريس. وبينما كان يأسف في سرّه أن يكون صديقه قد أغراه

المنصب وأنساق في هذا الطريق، فقد كان يشعر أنّ صديقه، من جهته، يرثي له لأنه أفسد حياته، بزواجه بامرأة فرنسية وباستقالته من الجيش. وهكذا، فإن الكلام المألوف والمبتذل الذي تبادلاه فيما بينهما والذي رافقته الضحكات الكثيرة، لم يمنعهما من أن يشعر أحدهما حيال الآخر بالإحساس المضني والمكدر، بأنّ الزمن يمضي ويمر والطباع تتحرف وتتغيّر. وكان الضيق الذي يشعر به «نيقولا» شديداً ويضغط عليه بقوة، لدرجة أنه أخذ يتساءل فيما إذا كان يستطيع الاستفسار من «هيبوليت الجميل» دون أن يجعله يكتشف غايته ونواياه. كان البخار يتصاعد من فنجاني قهوة موجودين أمامهما. وكانت الكافتيريا شبه خالية. ومر بالقاعة خادم يحمل صينية عليها بعض الفطائر.

وقال «نيقولا»:

- آمل ألاّ أكون قد احتجزتك أكثر مما ينبغي، فلا بد أن يكون لديك كثير من العمل، في هذا الوقت!

- ولماذا يكون الأمر هكذا، في هذا الوقت؟

- بسبب البيان!

فقال «هيبوليت» ضاحكاً:

- لست أنا الذي أضعه.

- كلا، ولكن باعتبارك أحد مرافقي الجنرال «ميلورا دوفيتش» فإنك ستشارك، دون شك في تنظيم الاحتفال. وهل أصبح معروفاً الآن. متى سيؤدّى قسم الولاء؟

وألقى «نيقولا» هذا السؤال، بعدم اهتمام مصطنع، وهو يرفع فنجان القهوة إلى شفتيه. وكان يشعر بشدة أنه دبلوماسي محنك. واللعبة المثيرة جعلت قلبه يخفق بقوة، ولكنّ ذهنه ظل بارداً.

وردّ عليه «هيبوليت» بلهجة حاسمة:

- لا أستطيع أن أقول لك شيئاً!

- لماذا؟

- لأنه لم يعلن بصورة رسمية.

- ولكنه سيعلن قريباً؟

- وفي القريب العاجل.

- بعد بضعة أيام؟

فقال «هيبوليت» باهتمام:

- بل بعد بضع ساعات.

فتحمل «نيقولا» الصدمة دون أن يدع تأثيرها يظهر على ملامحه. وقال:

- بعد بضع ساعات؟ فالبيان إذن قد وقّع!

وبدا واضحاً أنّ «هيبوليت» كان موزّعاً بين رغبته بالمحافظة على السر، حسب الأوامر التي تلقاها، ورغبته بإثارة دهشة صديقه.

وقال، متأوهاً:

- على أي حال، إذا لم أقله لك أنا، فستعرفه من شخص آخر! ونصف سكان «سان بطرسبورغ» أصبحوا مطلعين على ذلك. نعم، لقد وقع «نيقولا بافلوفيتش» البيان، اليوم عند الفجر. وقد دُعي مجلس الدولة إلى الاجتماع مساء اليوم، في الساعة الثامنة. وغداً صباحاً الرابع عشر من كانون الأول «ديسمبر» سيؤدي جميع جنود المعسكر يمين الولاء للإمبراطور الجديد!

فتمتم «نيقولا»:

- هذا غير ممكن!

وغمرته سعادة جارفة: سيكون هو الأول الذي سيحمل الخبر إلى «ريلييف» الذي سيطلق شرارة الثورة! وربما سيكون المتآمرون مدينين بفوزهم لسرعة نقله لهذا الخبر! ولم يستطع أن يمنع ابتسامة من الظهور على شفتيه.

فسأله «هيبوليت»:

- أيسرّك هذا؟

فأجاب «نيقولا»:

- إني أعترف بأني لم أكن أتوقّع أن يتم ذلك بهذه السرعة!

- السرعة أصبحت ضرورية، لأنّ خلو العرش قد طال أمده

- نعم، نعم، دون شك..

فقطّب «هيبوليت» حاجبيه، وهمس:

- تقول «دون شك» وتدّعي أنك لا تعرف شيئاً عن الموضوع!

وهذا القدر الكبير من دقة الملاحظة وحدة الذهن، أدهش «نيقولا»: فهو كان يعتقد أنه يدفع مغفلاً إلى الاعتراف، ولكن تبين له، أنّ هذا الذي كان يظنه مغفلاً قد اكتشف حيلته، دون أن يكون قد ارتكب خطأ يمكنه أن يلوم نفسه عليه.

واستأنف «هيبوليت» الكلام:

- دعك من ذلك، وكفّ عن التحايل واللف والدوران معي!

أليس أصدقاؤك هم الذين أرسلوك؟

فقال «نيقولا» وقد بدا عليه الاضطراب:

- أي أصدقاء؟

- اطمئن، لن أطلب منك أسماءهم! وعلاوة على ذلك، فأنا أعرفهم كلهم، تقريباً... وكثيرون منهم يوحون لي بالمودة، وأعتبرهم ظرفاء وجذابين! ولكن دعني أسديك نصيحة قبل أن يكون قد فات الأوان على ذلك: «لا تبق معهم! إنهم يهمون بارتكاب عمل جنوني! وستضيع، ويُقضى عليك، سيقضى عليكم جميعاً دون جدوى إذا حاولتم منع الجيش من تأدية قسم الولاء! وليس حفنة من الضباط الليبراليين هي التي تستطيع إثارة الفوضى والتمرد في صفوف شعب بكامله، نشأ وتربى على احترام الدين والوطن، ونظام الحكم الملكي!

ولكم كان «نيقولا» يود أن يردّ بحماسة شديدة على هذا الكلام، ولكنّ الحكمة أملت عليه أن يكبت حماسته، وقال:

- عمّ تتحدث؟ إني غير مطلع على شيء من هذا!

وتظاهر بأنه مندهش جداً مما سمعه، لدرجة أنّ «هيبوليت»، في لحظة من اللحظات، بدا عليه وكأنه قد صدّقه. وقال:

- حقّاً. ومع ذلك، فإني رأيتك معهم...

- حصل هذا منذ زمن طويل، عندما كنت أقيم في «سان بطرسبورغ»! أما الآن، فقد أصبحت ريفياً، وأقيم في الريف، يا عزيزي!

- ولكنك، عندما تأتي إلى هنا، فإنك ترافقهم أيضاً!

- وأين السوء في ذلك؟

- وهل تجرؤ على الإدّعاء بأنكم لا تنتقدون الحكومة فيما بينكم وفي أحاديثكم؟

- ومن هو الذي لا ينتقدها، لقد قلت إنّ الحكومة، في بعض الأحيان، هي بالذات، تنتقد نفسها بنفسها. ومن المؤكد أنه يحصل معنا أن نتمنى تحقيق هذا الأمر أو ذاك، ولكن هنالك بعد شاسع بين تلك الأحاديث والثرثرة وبين التمرد الذي تتحدث عنه. وليحفظنا الله من كارثة كهذه!

وشعر بالخجل لأنه كان يكذب بكل هذه المهارة وهذه الفصاحة، ولكنّ هذا لم يكن السبب الوحيد لانزعاجه، فقد تبين له أنّ السلطات مطلعة على أنّ هنالك مؤامرة تهدد العرش والنظام الملكي. ولذلك، فإنّ «ريلييف» إذا كان يعتمد على عنصر المفاجأة، فإنه سيصاب بخيبة أمل شديدة، الا إذا كان أنصار الإمبراطور الجديد يتصفون بالسذاجة والاستخفاف بالأمور، كأعدائه. وكان ذهن «نيقولا» يعمل بسرعة مذهلة، فقد نفد صبره، وأخذ يتذمر، محاولاً الذهاب لكي يخبر رفاقه بالأحداث الخطيرة التي يجري التحضير لها. ولكنّ «هيبوليت» بعد أن أبدى الريبة

والحذر، عاودته سذاجته وطيبة قلبه. فقد حظي بنجاح باهر في مجال عمله، بحيث يصعب عليه أن يقتنع بأنّ هذا العالم سيئ. والمستاؤون ليسوا سوى بعض الحسّاد، في نظره، وحسب رأيه هو. والحالة هذه، فإنّ «نيقولا» الذي ينتمي لأسرة ميسورة، لا ينبغي له أن يحسد أحداً على أي شيء، ولذلك يمكن التصريح أمامه بكل شيء. وأخذ «هيبوليت» يحدثه بتلطف واضح عن عمله في مكتب الجنرال «ميلورا دوفيتش»، عن الخيل التي يقتنيها، عن خساراته في الميسر، وعن ثروته الضخمة. و «نيقولا» الذي كان يتحرق للانصراف، استغل حصول فترة من الصمت، ليقول:

- هنالك من ينتظرني، وعليّ أن اذهب!

فقال «هيبوليت» وهو يغمز ويرف بجفنيه الكثيفين والأسمرين:

- امرأة؟

- نعم.

- ستحدثني عنها! فأنا أحب كثيراً سماع قصص مغامرات الحب والغرام!

ولماذا لم نعد نرى بعضنا؟

- لا أدري.

- أتريد أن نلتقي هنا غداً، في الموعد نفسه؟

فغمغم «نيقولا»:

- غداً؟ ولكن غداً هو الرابع عشر من كانون الأول «ديسمبر»... يوم تأدية يمين الولاء للقيصر الجديد...

- وماذا في ذلك؟ هل أنت مرتبط بموعد مع أحد مّا؟

فقال له «نيقولا»:

- كلا، إلى اللقاء، غداً.

★★★

وألقى «نيقولا» الخبر وكأنه يقذف قنبلة، ولكنّ أحداً لم يندهش منه. واكتفى «ريلييف» الذي كان يجلس على مكتب المجلس، بالقول:

- نعرف ذلك! نعرفه! سيؤدي الجيش القسم، غداً!

ولا شك في أنّ «تروبيتزكويّ» هو الذي أعلن الخبر، عند عودته من القصر. فأسف «نيقولا» كثيراً، لأنه أصبح الثاني الذي ينقل الخبر. وكان كثير من المتآمرين قد تجمعوا في قاعة الطعام وفي مكتب «ريلييف». من بينهم الأخوة الثلاثة: «ميشيل» «نيقولا» و «أليكسندر» «بيستوجيف» و «أوبولنسكي»، «كخوفسكي»، «يوري ألمازوف»، «كوهيلبيكير»، الأمير: تروبيتزكويّ»، «كوستيا لادوميروف»، «سشيبين روستوفسكي»، «أودويفسكي» «باتينكوف»، «روزين»، «أربوزوف»، «بأنوف»، وكثيرون غيرهم. وفي كل لحظة كان بعض الضباط الشباب يدخلون، يخرجون، يعودون، يجلسون على أذرعة الأرائك، على حافة إحدى النوافذ، يشعل أحدهم غليوناً. كان بينهم بعض «الرماة»، والنقّابون الإطفائيون، والبحارة، أو القناصة». وقد بدا أنّ جميع أفواج وأسلحة المعسكر، قد أرسلت مندوبين عنها إلى المؤتمر. وكان المدنيون قلة بين الحاضرين، ولكنهم كانوا يتكلمون بأعلى صوتهم كالعسكريين. وكان تيار خفيف من الهواء، يمر عبر الكوّة ويحرك الدخان حول المصباح الزيتي الذي يتدلى من السقف.

وقال «نيقولا»:

- ولكن، ربما كان الأمر الذي لا تعرفونه، هو أنّ السلطات لديها بعض الشكوك!

فردّ عليه «ريلييف»، قائلاً:

- إنّ لديها ما هو أكثر من الشكوك، إنّ لديها حقائق ووقائع!

- ماذا. وما هي؟

- نعم، يا عزيزي، لقد حدثت أمور كثيرة أثناء غيابك. وقد أخبرت للتوّ، رفاقنا، بأن هنالك من وشى بنا: فالملازم «روستو فيتزيفّ» الذي لم يكن من جماعتنا، كان لسوء الحظ يتمتع بصداقة «أوبولنسكي» وقد سلم، البارحة، رسالة، إلى الدوق الأكبر «نيقولا بافلوفيتش» يخبره فيها عن مؤامرتنا، ويحذره منها.

فتمتم «نيقولا»:

- إنّ هذا عمل شائن ومعيب! وممن حصلت على هذه المعلومة؟

- من الملازم «روستو فيتزيف» نفسه، فقد أتى لمقابلتنان، أنا و «أوبولنسكي» بعد ظهر اليوم. وأدعى أنه أراد إنقاذنا رغماً عنا، وذلك بمنعنا من التحرك والعمل. ولكي يثبت حسن نيته، فقد سلمنا نسخة عن رسالته. وها هي...

وأشار «ريلييف» إلى ورقة على مكتبه. فتناول «نيقولا» الورقة، وأجال نظره فيها: «يجري التحضير لتمرد سيحصل عند تأدية القسم الجديد، ووميض الحريق الذي سيشب عندئذ، ربما شمل كل أرجاء البلاد، وأدّى إلى سقوط روسيا بشكل تام ونهائي...»

وسأل:

- هل ذكر له بعض الأسماء؟

فأجابه «أوبولنسكي»:

- لقد أقسم لي أنه لم يفعل ذلك.

- وهل يمكن تصديقه؟

- أفترض ذلك، فليس هنالك ما يرغمه على أن يدلي لنا بهذا الاعتراف.

فصاح «نيقولا»:

- وكيف استطعت الامتناع عن قتل هذا الخائن؟!

فردّ عليه «ريلييف»:

- كان من الممكن أن يخنقه «أوبولنسكي» بكل سرور، ولكني منعته أن يفعل ذلك، إذ إنّ لا فائدة ترجى من قتله، بل ربما نكون بتسرعنا بارتكاب هذه الجريمة قد قضينا على آخر فرصة لنا بالنجاح!

فسأله «نيقولا»:

- وهل تعتقد أنه لا يزال هنالك أمل بتحقيق النجاح؟

- نعم، لأنهم حتى الآن لم يلقوا علينا القبض!

فألقى «نيقولا» نظرة حوله: كان على الوجوه التي تحيط بالمنضدة جدّية صوفية. والذي كان يبدو أكثر ضيقاً وانزعاجاً هو الأمير «تروبيتزكويّ» الذي كان يعتبره كثير من الضباط الشباب، قائداً عسكرياً للتمرد. كان طويل القامة، نحيلاً، وقد أحنى على صدره الضعيف وجهاً متطاولاً، يكتنفه عارضان أصهبان، وقد تباعدت أذناه عن رأسه كمقبضي المزهرية، وزينت قماش بزته، الأخضر اللون، نصف دزينة من الأوسمة. وقال:

- خلافاً، لما قاله «ريلييف»، فأنا أعترف لكم بأنّ ما كشف عنه «روستو فتزيفّ» النقاب في وشايته يجعلني أفكر فيما إذا كان يوم غدٍ هو الفرصة المتاحة والوقت المناسب للقيام بالانتفاضة وإعلان التمرد!

فردّ عليه «ريلييف»، بحدّة:

- إني لا أفهم تردّدك، أيها الأمير! فالواقع هو أنّ التدخل الذي قام به «روستو فتزيفّ» بدلاً من أن يعيق تمردنا، ويمنعه، فقد جعله حتمياً لا يمكن تجنبه. وإذا لم يكن لدينا مبرر للتصرف والعمل بسرعة، فقد قدّم لنا هذا المبرر!

- وكيف ذلك؟

- بإحراجنا. فنحن نعلم الآن، أننا حتى لو لم نباشر العمل، فسوف يلقى القبض علينا! فهل نقف مكتوفي الأيدي، وننتظر أن يأتوا ليأخذونا من بيوتنا؟

فصاح «ميشيل بيستوجيف» الرائد في فرقة موسكو، بأعلى صوته:

- إنّ «ريلييف» على حق ومصيب فيما يقول: فمن الأفضل أن يلقى علينا القبض في ساحة مجلس الشيوخ، والسلاح في أيدينا، بدلاً من يأتوا لينتزعونا من أسرّتنا!

وهذا الكلام أثار حماسة «نيقولا» كما لو أنه هو نفسه الذي تفوّه به. وكان الجو قد أصبح حاراً جداً في الغرفة. ورائحة التبغ وجلد الأحذية، أضفت مزيداً من الجديّة على الاجتماع. وكانت الوجوه تلمع كأنها طليت بالزيت. ووقف «ريلييف» وقد أسند قبضتيه على حافة المنضدة، وقال بشيء من المغالاة التي تشوبها الكآبة:

- حتى وإن كانت مبادرتنا محكوم عليها بالفشل، فإنها ستوقظ روسيا التي تغفو في سبات عميق. وسنحدث الهزة الأولى. وفيما بعد، سيستأنف أبناؤنا، أو أحفادنا، عملنا وينجزونه.

وخطة الثورة، أي ثورة، وسر نجاحها تتضمنها كلمة واحدة: الجرأة ونحن سنجرؤ، وسنتحلى بالجرأة! أليس كذلك، يا أصدقائي؟

وردّت عليه أصوات قوية ومدوية:

- نعم! نعم! سنجرؤ، ونحن نتحلى بالجرأة!

وصاح «أليكسندر بيستوجيف» الرائد في سلاح الفرسان:

- على الأقل، سوف يتحدثون عنا في تاريخ بلادنا.

وكان هذا الرائد يتمتع بصوت جهوري وبنية بطولية.

وقال الأمير «تروبيتزكويّ»:

- أيها السادة... أيها السادة! أرجو أن نكون منطقيين!

فقاطعه «ريلييف»، قائلاً:

- قبل أن نتابع هذه المناقشة، أودّ أن أعرف، أيها الأمير، فيما إذا كنت ستكون معنا غداً، في ميدان مجلس الشيوخ؟!

- بالتأكيد، إذا كان حضوري يبدو لكم ضرورياً...

فمرّت شعلة من الغيظ في عيني «ريلييف»:

- ماذا تعني بما قلت؟ أنسيت أننا قد عينّاك ديكتاتوراً عسكرياً لذلك اليوم؟!...

فاستأنف الأمير «تروبيتزكويّ» الكلام، قائلاً:

- إني أشك في كون اختياركم موفّقاً: فقد مرّ زمن طويل على مغادرتي الخدمة في الصف. وقد نسيني رجال الحرس، وسيرفضون إطاعتي والانصياع لأوامري...

فقال «أليكسندر بيستوجيف»:

- دعك من ذلك! فذكرى أعمالك البطولية أثناء الحرب الوطنية، لا تزال باقية في ذاكرة جميع الجنود!

فتحركت أذنا الأمير «تروبيتزكويّ»، الكبيرتان، وبدا أنفه وقد تطاول نحو فمه، وقال:

- إنها بعض القصص القديمة، وعلاوة على ذلك، فإني إذا كنت قد استطعت إبداء بعض الشجاعة في أحد ميادين القتال، فأنا لا أشعر أبداً أني مؤهل لقيادة جنود متمردين، في شوارع «سان بطرسبورغ»!

فخيم صمت ثقيل على الحاضرين بعد سماعهم هذا الكلام. ولاحظ الأمير «تروبيتزكويّ» أنه محاط بجماعة من القضاة، جميعهم يدينونه. بل إنّ بعضهم، بين الأصغر سناً من الضباط، بدا عليهم أنهم يحتقرونه على الرغم من أوسمته العديدة التي يحملها. وعاودته نفحة من الكبرياء جعلته يرفع رأسه وسط العداء العام، ويقول:

- يا لكم من حمقى! بل يا لكم من مجانين! ليس لديكم حتى مجرد فكرة عن المصير الذي ينتظركم، فيما إذا سارت الأمور بشكل سيئ! فأنتم هنا الآن سعداء، تشعرون بالدفء لا ينقصكم شيء، مطمئنّون على

حقوقكم، تشعرون بالنشوة بسبب الحظ الذي واتاكم والفرص التي أتيحت لكم!... وغداً، ربما يُسلب منكم كل هذا! وتصبحون عبيداً أرقاء، بل أسوأ من العبيد، تصبحون حثالة الأمة الروسية، التي ينبذها الجميع!

فانفتحت هاوية عميقة أمام «نيقولا». فهذا الرجل مصيب فيما يقول. ولكن لا ينبغي الإصغاء إليه. وإذا كلّ منا أخذ يفكر، فلن يعود هنالك مجال لأي بطولة محتملة.

وقال «باتنكوف» بلهجة جافّة:

- يكفي هذا!

فقال الأمير «تروبيتزكويّ»:

- إني لا أنوي إضافة أي شيء على هذا التحذير، ولكن لماذا تريدون أن أكون أنا الذي أتولى قيادتكم؟

فأجابه «ريلييف»:

- لأننا ليس لدينا من يحلّ محلك.

- ومن سيكون مساعدي، الذي سيرافقني؟

- «أوبولنسكي».

فضمّ الأمير «تروبيتزكويّ» يديه الطويلتين النحيلتين، وأخذ يفرقع سلامياتهما. وكان «ريلييف» يحدّق به عن قرب، بعينيه الداكنتين، كأنه يريد أن يسحره.

وقال «تروبيتزكويّ»، أخيراً:

- هذا حسن، سأعمل كل ما بوسعي عمله، وبأفضل شكل ممكن.

كان يبدو مستاءً، ولكنه مصمم، وقد حزم أمره على العمل.

فاسترخت الوجوه وبدت عليها البهجة. وأخذ «أوبولنسكي» يسوي بصورة تلقائية شرائط وشارات الزينة التي تحملها بزته. وهو رجل ذو قامة

جميلة، تبدو على جبينه تجعيدتان مبكرتان، سيماؤه تنمّ عن الأناقة والتفكير والهدوء.

واستأنف الأمير «تروبيتزكويّ»، الكلام:

- المهم الآن معرفة قطعات الجيش التي يمكننا الاعتماد عليها بشكل موثوق ومؤكد!

فسأله «ريلييف»:

- ما هو عدد الرجال الذين ستحتاجهم؟

- ستة آلاف، على الأقل.

فصاح «كوهلبيكر» بلهجة حازمة:

- سيكونون تحت تصرفك!

وهذا بالتأكيد الذي صدر عن رجل مدني، أضحك العسكريين.

وقال الأمير:

- بالطبع، ينبغي أن تقوم بالتحرك الأول إحدى أقدم فرق الحرس، وإلا، فإنّ الفرق الأخرى ستمتنع عن التحرك وتستسلم...

فقال «ريلييف»:

- ستكون فرقة «اسماعيلوفسكي» بالتأكيد من الفرق التي تؤيدنا.

وأعلن «ميشيل بيستوجيفّ» قائلاً:

- أنا، من جهتي، أستطيع أن أضمن تأييد فرقة موسكو لنا.

وقال «البارون روزين»:

- وأنا أستطيع أن أضمن ولاء فرقة «فنلندة»

وصرح «نيقولا بيستوجيفّ»:

- رجال البحرية سيسيرون معي، والتفت نحو أخيه «اليكسندر» وسأله:

- وفرسانك سيتبعونك، على ما أعتقد؟!

فأجابه أخوه:

- نعم. سأتولى إقناعهم.

وهكذا كان كل منهم يلقي هديته في سلّة التمرد، وقطعة بعد قطعة، أصبح الجيش الروسي بكامله، في هذه السلّة.

وبصعوبة، استطاع «نيقولا» أن يمتنع عن التصفيق. وكم هو مؤسف أن يكون قد تخلى عن الخدمة في الجيش! لكم كان يودّ أن يقدم أكثر مما يمثله شخصه في سبيل قضية الحرية. ومع ذلك، فعندما أجريت الحسابات، تبين أنّ لا أحد من الضباط الحاضرين يستطيع أن يضمن مشاركة فرقة بكاملها بالتمرد. فكان هذا يتحدث عن فصيلته، وذاك عن سريته...

فلاحظ ذلك الأمير «تروبيتزكويّ» وقال:

- إنّ عدد قواتنا يتناقص بسرعة!

فردّ عليه «ريلييف»، قائلاً:

- سيتزايد عددها أثناء العلمية.

فرفع «تروبيتزكويّ» نظره نحو السماء، وقال:

- ليستجبْ لك الله! وكيفما كان الحال، فإليكم خطتي: الفرقة الأولى التي سترفض تأدية القسم، ينبغي أن تسير، بكل نظام، وفي مقدمتها الأعلام والموسيقا، نحو ثكنة الفرقة المجاورة لها لكي تقنعها بأن تسير بدورها. والفرق الأخرى ستتبعها، الواحدة بعد الأخرى. وبعد أن يصبح الجيش المتمرد ضخماً بتدفق هذه الفرق التي انضمت إليه، يجتمع أخيراً في ميدان مجلس الشيوخ بالقرب من القصر. وحيال هذا العرض للقوة، سيتخلّى الدوق الأكبر «نيقولا بافلوفيتش» عن طموحاته، وعند ذلك ينشر مجلس الشيوخ بياناً يعلن فيه تشكيل حكومة مؤقتة..

وفي هذا الخطاب، الذي ألقي بصوت هادئ، كانت الأحداث تتوالى من تلقاء نفسها، دون مصادمات، ودون إراقة دماء. والرجال الذين يتولون السلطة كانوا ينحنون بكل تهذيب أمام أولئك الذين يطلبون رحيلهم،

بمزيد من التهذيب أيضاً. وهكذا تستيقظ روسيا، ذات صباح جميل، وقد حصلت على دستور ملكي، ودّي ومحبوب.

فقال «ريلييف» وعلى شفتيه ابتسامة ساخرة:

- أنت تحدّثنا الآن عن ثورة تحدث بماء الورد والعطور!

فردّ «تروبيتزكويّ» بجفاء:

- أنا أحدثكم عن ثورة شرعية! وهي الثورة الوحيدة، التي يمكن أن تكون مقبولة، بالنسبة لي!

فقال «نيقولا» معلّقاً على ذلك:

- ثورة شرعية؟! هاتان الكلمتان لا تنسجمان مع بعضهما!

فحدجه «تروبيتزكويّ» بنظرة تنم عن الملل والتعب، وتمتم:

- ربما كان المجد الذي سنفخر به هو أننا استطعنا التوحيد بينهما بانسجام تام.

فقال «ريلييف»:

- على أي حال، فإني لا أحبذ فكرتك التي تقضي بانتقال قطعات الجيش من ثكنة إلى أخرى.

- لماذا؟

- لأنّ ذلك يسبب لنا إضاعة وقت ثمين. وأثناء مسيرة قطعاتنا بين مختلف الثكنات، سيعمد الدوق الأكبر «نيقولا بافلوفيتش» لتنظيم دفاعه، مستغلاً الفرصة، ونتعرض عند ذلك للهزيمة. ولذلك يجب توجيه الجنود بأسرع ما يمكن، إلى ميدان مجلس الشيوخ مباشرةً، أي الجنود الذين نستطيع أن نثق بهم، حتى وإن كانوا قليلي العدد: فسيكونون مثالاً وقدوة للآخرين!

فقال له «تروبيتزكويّ»:

- وإذا لم يأتِ منهم ما يشكل سوى فوج واحد؟

- فوج من الرجال المصممين على القتال أفضل بكثير من عدد كبير جداً من الرجال المتردّدين!

- وماذا ستعمل بواسطة هؤلاء الرجال المصممين؟

- سأزحف على القصر.

فانتفض الأمير «تروبيتزكويّ»:

- آه! كلا، أيها السادة! لا ينبغي القيام بذلك! يجب أن يظل القصر، بالنسبة لنا، ملجأ لا يمس!

- لماذا؟

- لأنّ «العسكر» إذا اجتاحته، فلن تستطيع بعد ذلك أن تسيطر عليهم!

- بلى! بلى! إنّ الجنود سيصغون لنا وينصاعون لما نصدر لهم من أوامر وتعليمات! وعلاوة على ذلك، فما زال الوقت مبكراً جداً بشأن التحدث عن الخطة. وعندما نصبح في أماكن العمل، عند ذلك، الظروف هي التي سترشدنا إلى الطريق الذي يجب علينا أن نسلكه.

- أنا لا أحب المعارك المرتجلة.

- على أي حال، فإننا لا نستطيع أن نجري «بروفات» وتدريبات!

- وماذا سنفعل في حالة الفشل؟

فدوّت هذه الكلمة كالشتيمة في أذني «نيقولا» وقال:

- لن يكون هنالك فشل!

فكرّر الأمير «تروبيتزكويّ» سؤاله، بعزم وتصميم:

- وماذا سنفعل في حالة الفشل؟

فأجابه «ريلييف»:

- في هذه الحالة، سوف ننسحب باتجاه «ستارايا- روسّا» وفي طريقنا نستنفر جميع المستعمرات العسكرية. وسيقوم متمردو الجنوب بالانضمام إلينا: و «بيستيل» سيكون جاهزاً في «تولتشين» وسيكون الآخرون على

أهبة الاستعداد: «فولكونسكي» في «أومان» و «سيرج مورافيف- أبوستول» في «كييف»...

وأثناء ذلك، كان الأمير «تروبيتزكوي» يؤيد ما يسمعه، بإيماءات برأسه. وأخيراً، فقد عرض عليه مشروع عمل متكامل. ولذلك، قال:

- إني أفضل خطتكم للانسحاب على خطتكم للهجوم!

فقال «نيقولا»:

- هذا القول، لا يدهشني أن يبدر منك!

كان يشعر بحاجة لمن يشجعه في اعتراضه على حديث الأمير، لأنه كره منه موقفه الذي ينم عن التشاؤم الشديد.

وقال «ريلييف»:

- أيها السادة، أيها السادة، بعض الهدوء! لا تنسوا أنّ الأمير «تروبيتزكويّ» هو «ديكتاتورنا المعين» من أجل نهار الغد.

و «نيقولا» الذي كان منفعلاً جداً، قال بصوت خافت وباللغة الفرنسية:

- إنه ليس «ديكتاتوراً معيّناً»، بل «ديكتاتور خاضع ومستسلم»!

فقهقه بعض الضباط، ضاحكين. وقطّب «ريلييف» حاجبيه، فهو وإن كان، دون شك ينتقد تهاون الأمير «تروبيتزكويّ» وتردّده، فهو مع ذلك شعر بالأسف لكون هذا القائد قد فقد تقدير المتآمرين، لأنه كان يعتقد أن وجود قائد وإن كان سيئاً، أفضل من عدم وجود أي قائد. ولكي يعيد وحدة الأذهان إن لم يكن حول رجل، فعلى الأقل حول فكرة معينة، طلب من البارون «ستينهيل» أن يقرأ البيان الذي سيُسلّم إلى مجلس الشيوخ. كان للبارون «ستينهيل» وجه كثير التجاعيد، ذقن لها شكل البيضة متوضعة فوق ربطة عنق بيضاء، وعلى عينيه نظارة ضخمة إطارها من الصدف ويرتدي ملابس خضراء اللون، وعتيقة. وأخرج من جيبه ورقة عليها كتابة تصعب قراءتها لكثرة ما اعتراها من تشطيب، وقال إنه سيعمد إلى كتابتها بشكل جيد على ورقة أخرى، وأخذ يقرأ، بصوت ضعيف:

- «سيعلن بيان مجلس الشيوخ إلغاء نظام الحكم السابق، وتشكيل حكومة مؤقتة. وهذه الحكومة ستكلف بالتحضير لانتخاب مجلس تشريعي، وبإلغاء العبودية والرق وكذلك جميع الامتيازات الطبقية، وبحلّ الجيش النظامي الدائم وإلغاء المستعمرات العسكرية وإعلان حرية المعتقدات والعبادات، وتأمين المساواة للجميع أمام القانون، واستقلالية القضاء والمحاكم، ونشر المناقشات والمداولات القضائية، وإلغاء الرقابة، وإصلاح الإدارة...

كان المتآمرون يحفظون غيباً هذه اللائحة الطويلة من المطالب السياسية ولكنهم كانوا يستمعون إليها، كل مرة، بالحماسة نفسها. وكان «نيقولا» وهو يفكر بأنّ كل هذه الأفكار الخيّرة صادرة من فرنسا، يشعر برغبة شديدة بأن يشكر زوجته. ومن حوله كانت العيون تبدو مغطاة بغشاوةٍ، شديدة في وجوه بدت قاسية ومشدودة بتأثير الرغبة بالفوز وتحقيق النصر.

وأخذ بعض الضباط يتعانقون، وكل منهم يربت على ظهر زميله. والأمير «تروبيتزكويّ» نفسه بدا عليه التأثر، وقال:

- إني آمل، يا أصدقائي، أن يكون العمل الذي سنقوم به لائقاً بالهدف الذي نسعى لتحقيقه!

فسأله «ريلييف»:

- أتذهب منذ الآن، أيها الأمير؟

- نعم. لا أريد أن آوي إلى فراشي في وقت متأخر من الليل.

- لكي تكون نشيطاً، ومستعداً للعمل، صباح الغد؟!

فقال الأمير «تروبيتزكويّ» بلهجة تنم عن الارتباك:

- هو ذلك، تماماً.

وأثناء هذا الوقت، كان «نيقولا» يتفرس في وجوه رفاقه، التي يكتنفها الدخان. وهو يفكّر في سرّه: «أمراء، نبلاء من مختلف الدرجات: «كونت»،

«بارون» ضباط في الحرس، وضباط قادة، شبان عاطلون عن العمل، بورجوازيون! أليست هذه أول مرة في تاريخ العالم، يفجر ثورةً جماعة لن يكون لديهم ما يربحونه إذا نجحت تلك الثورة؟ إذ إن العادة هي أنّ الشعب المضطهد هو الذي يثور على الامتيازات التي يتمتع بها البعض، عن طريق أصلهم ونسبهم أو بواسطة ثرواتهم. أما اليوم فإنّ هؤلاء الذين يتمتعون بالامتيازات عن طريق نسبهم وثرواتهم هم الذين يجازفون بحياتهم لتوفير الحرية للشعب. كلا، أبداً وعلى الإطلاق، لم يسبق أن أقيم مشروع أكثر نزاهة وخلواً من الغرض، وأكثر نبلاً وغرابة من مشروع هذه الثورة! ولم يسبق أبداً أن كان الرجال أكثر عظمةً واشدّ جنوناً من هؤلاء وكل هؤلاء الفتيان بوجوهم العادية هم أبطال يستحقون أن تخلّد أسماؤهم كأبطال العصور القديمة، وأنا، نفسي، بطل!»

كان يشعر بأنه خفيف الوزن، ورجلاه لم تعد تلامسان الأرض. وهواء الغرفة، على الرغم من رائحته التي تدل على أنه حبيس، كان فيه شيء مسكر، يبعث النشوة في النفس. ويكفي استنشاقه والتنفس هناك خلال عشر دقائق، لكي يشعر المرء بالسكر وبنشوة وعذوبة التضحية. والإرادة كانت تعني المقدرة، والتصميم يعني الفوز والنجاح. وبالتأكيد فإنّ الله كان يتدخل، بطريقة أو بأخرى، بهذه القضية.

والآن، وقد انصرف الأمير «تروبيتزكويّ»، فأحضر «فيلكا» بعض زجاجات الخمر، وصينية كبيرة عليها خبز، جبن وسجق «نقانق» وكان القريبون من المنضدة وحدهم يستطيعون أن يتناولوا بأنفسهم ما يريدون. بينما كان الآخرون يطالبون بنصيبهم. وكانت الكؤوس تتناقلها الأيدي، وتمر من يدٍ إلى أخرى. وتلقى «نيقولا» كأسه من فوق أربعة صفوف من الكتّافيات. وعندما تناول فطيرة انغرزت إصبعه في الزبدة. لم يكن أحد يشعر بالرغبة للعودة إلى منزله. ففي الخارج كان البرد، ظلام الليل،

العقل، والعائلة... على الخصوص. ينبغي عدم التفكير بها، لكي لا يضعف المرء!...

كان الجميع يتكلمون معاً، والضحكات تتعالى في كل مكان. وكانت أبسط الاقتراحات تنطلق وتنفجر كالمفرقعات والأسهم النارية المفرحة، عبر الهرج والمرج وضوضاء الأحاديث:

- العاصمة الجديدة يجب أن تكون «نيجني- نوفغورون»!

- أول عمل نقوم به يجب أن يكون الاستيلاء على «كرونستاد»!

- لماذا لا نحوّل جنود المستوطنات والمستعمرات العسكرية إلى حراس وطنيين، على الطريقة الفرنسية؟

- ليس لدينا ذخيرة! فمن الحكمة أن نبدأ باجتياح الترسانة ومستودع الأسلحة والذخائر!

وصاح الرائد «ياكوبوفيتش»:

- أنتم صبيان! لا تعرفون شيئاً عن الجندي الروسي! وسأعلمكّم. أنا، الطريقة الجيدة!

كان طويل القامة، نحيلاً، أصفر البشرة، شاربه منحدر على شكل ذنب السنونو، يحمل صليباً على صدره، وعصابة سوداء على إحدى عينيه، إنه غجري يرتدي بزة ضابط في سلاح الفرسان. واستأنف الكلام:

- افتحوا جميع الحانات والمواخير، واتركوا الرجال يثملون، ينزعون عن النساء ملابسهن، ينهبون المخازن، ويشعلون النار في بعض البيوت والمستودعات! يجب أن تحدث بعض الحرائق لإثارة الجماهير! فالحرائق جميلة، فهي تنير الجو وتدفئه! ثم أخرجوا لي من إحدى الكنائس بضع لافتات وأعلام، وهيا، إلى الأمام! حاملين الأيقونات والصور المقدسة، البنادق والبلطات، نحو القصر! وهناك تطبقون الأيدي على رقبة الدوق الأكبر «نيقولا بافلوفيتش» وتعلنون قيام الجمهورية!

فصاح به «ريلييف»:

- اسكت! فأكثر الناس كلاماً هم أقلّهم عملاً! أحضر سريتك غداً، إلى الساحة، وهذا هو كل ما نطلبه منك!

فقال «اياكوبوفيتش»:

- لا أريد الانتظار إلى الغد، أريد أن أعمل في هذه الليلة!

فلاح لـ «نيقولا» بريق بهر عينيه: نعم، لماذا لا نبدأ العمل منذ الليلة؟ ونظر الضباط إلى بعضهم، والفكرة نفسها تنتقل من أحدهم إلى الآخر.

فصرخ «ريلييف» وهو يدق بباطن يده على المنضدة:

- أنتم مجانين! ماذا يمكنكم أن تعملوا هذه الليلة؟ أنتم تعلمون أنّ الجنود لن يتحركوا قبل أن يتلقوا الأمر بتأدية يمين الولاء!

فصاح أحدهم من آخر القاعة:

- لسنا بحاجة إلى جنود!

كان الذي صاح هو الملازم المتقاعد «كاخوفسكي»، وهو نحيل الوجه، له شارب خفيف فوق فمه الكبير، حركاته متقطّعة وغير منتظمة، وفي عينيه السوداوين اللتين تشكوان من الحول وتلتمعان بتأثير الحمى، بريق ينم عن الجنون والحزن الدفين.

واستأنف الكلام:

- بل إني أكاد أقول إنّ الجنود يمكن أن يزعجونا ويعرقلون عملنا، فما ينبغي أن نعمله هو أن ندخل خلسة إلى القصر، نقتل الدوق الأكبر، ونشعل الثورة بعد ذلك!

فأصلح «اياكوبوفيتش» وضع العصابة السوداء التي انزلقت عن عينه، وقال بصوت أجش:

- لقتل الدوق الأكبر، يحتاج الأمر لرجل شجاع واحدّ

فسأله «ريلييف» بجفاء، وقد انزعج من تبّجحاته:

- أتريد أن تكون أنت هذا الرجل؟

فبدا الاضطراب على «اياكوبوفيتش»، وقال:

- لماذا أكون أنا؟ فليس لأني شعرت بالرغبة، فيما مضى، بقتل القيصر «اليكسندر» ينبغي أن أكلّف الآن بقتل أخيه. لقد أصبحت أنعم بمزاج هادئ، ولا يمكن أن أسبّب الأذى لذبابة، عن عمد. ولأننا بحاجة لمن ينفذ هذه العلمية، فما علينا ألا أن نجري القرعة. فكم هو عدد الموجودين هنا؟

وأجال نظره، بعينه الوحيدة، بين الحاضرين. كان الجميع قد لزموا الصمت.

وتبادر إلى ذهن «نيقولا» «وماذا لو عينتني القرعة لتنفيذ تلك العملية؟!» فشعر بوخزة في قلبه. فمهما كان عداؤه شديداً لنظام الحكم، فإنه لن يجرؤ أبداً على اغتيال الدوق الأكبر «نيقولا بافلوفيتش» فهذا الرجل على الرغم من عيوبه، لم يكن في جوهره، من طينة الآخرين، نفسها. فهو ينتمي إلى نسب وسلالة أولئك الذين بنوا، بالعقل والعنف والصبر والحيلة، روسيا، خلال عدة قرون. وحتى بالنسبة للمفكرين وأصحاب الأذهان المتوقّدة، كان من الصعب أن يتناسى أحد منهم أنّ الكنيسة تعتبر القيصر كممثل لله على الأرض.

وكانت طفولة «نيقولا» الأرثوذكسية تثور ضد العمل المحرّم، والرجس، الذي ربما كلفه رفاقه بأن يقوم به. وإذا تهرب من القيام به فسيفقد احترامهم له، وإذا قبل أن يفعل ذلك فسيفقد روحه.

واستأنف «اياكوبوفيتش» الكلام:

- إيه! هل أنتم موافقون؟ فلنكتب أسماءنا على قصاصات ورق صغيرة، ولنلقها في إحدى القبعات...

فسمع «نيقولا» صوته، هو، يقول:

- المعذرة أيها السادة، واسمحوا لي أن أقول إنّ هذه الفكرة، ينبغي مناقشتها بشكل جيد...

فقال «أليكسندر بيستوجيف»:

- إنها ليست جديدة بالنسبة لنا، فقد سبق أن طرحها «بيستيل» في هذا المكان بالذات، منذ بضع أشهر.

فقال «نيقولا»:

- مع هذا الفارق تقريباً، وهو أنّ «بيستيل» كان لديه أعوان وعملاء لتنفيذ أي عمل محرّم، يدنّس المقدسات!

فسأله «اياكوبوفيتش»، ضاحكاً:

- أتخشى من أن يكون أنت الذي ستختار؟

ولمعت أسنانه في وجهه الذي يكاد يكون أخضر اللون.

فأجابه «نيقولا» بكل بساطة:

- نعم.

وخلال الصمت الذي أعقب ذلك، أدرك أنّ كثيراً من رفاقه يؤيدونه، ولذلك أضاف:

- ينبغي ألا يكون المرء روسيّاً لكي يفكّر بطريقة أخرى مختلفة!

فصاح الأمير «غوليتزين»:

- أحسنت القول! فنحن مهما كنا ثوريين- وحتى ربما ملحدين-فقد عُمدّنا، وذهبنا إلى الكنيسة، وفي دمنا نكنُّ الاحترام للقيصر!

ونهض «باتنكوف» محني الظهر، نحيلاً، وكأنه يحاول التخلص من عبء ثقيل، وقال هو أيضاً، بصوت أجشّ:

- لست جباناً، رعديداً، وأصرح بأني على استعداد للموت في ساحة مجلس الشيوخ، تحت طلقات المدافع الرشاشة، ولكن أن أرفع يدي على القيصر، أبداً، هذا لن يكون، على الإطلاق!

وأكدت ذلك أصوات أخرى:

- أبداً! أبداً! وعلى الإطلاق!

عند ذلك، سأل «اياكوبوفيتش»:

- إذن، لن نجري القرعة؟

فأجابه «ريلييف»:

- كلا! ليس في الحالة الحاضرة...

وقطع عليه الكلام سقوط بعض الأواني عن المائدة: فقد دفع «كاخوفسكي» بحركة من ذراعه الصحون والأقداح وأوقعها على الأرض، وقفز على المنضدة، وعيناه تشعان في محجريهما الداكنين. ورأسه يكاد يلامس المصباح، وأخذ يلوّح بخنجر كان في يده وصاح: ولماذا تجرون القرعة، وما جدواها؟ لقد اختارني وعيّنني القدر منذ طفولتي! فأنا وحيد في هذا العالم! ولا أتوقع شيئاً من أحد! ولا أخاف، لا من الله ولا من الشيطان، ولا من القيصر! أتأنفون أنتم من توسيخ أيديكم وتدنيسها؟ فأنا أقدّم لكم يديّ!

فصاح به «ريلييف»:

- هلا انتهيت من التلفظ بالسخافات القذرة؟! هيّا، انزل بسرعة عن هذه المنضدة!

فتابع «كاخوفسكي» الكلام:

- سوف يسيل دم الطاغية! وعندما تتخلص البلاد منه ستتغنى بالمديح لكم! كل المجد سيكون لكم، وكل العار لي، أنا! وسأظل، طوال العصور القادمة، أعتبر السفاح الدموي، الذي يخيف مجرد ذكر اسمه، الأطفال الصغار، ويجعلهم يرتجفون رعباً! آه، يا وطن! تأمل ماذا أتقبل، بدافع من حبي الشديد لك!

فشدّه «أليكسندر بيستوجيف» من كمه، فقفز عن المنضدة.

وقال له «ريلييف»:

- أعطني، حالاً، هذا الخنجر!

فقذف «كاخوفسكي» الخنجر، نحو إحدى زوايا الغرفة، فأرسل صوتاً، وهو يصطدم بإحدى قطع الأثاث.

وأضاف، قائلاً:

- اعذرني واصفح عني واحتفظ بهذا الخنجر، كذكرى.

- كذكرى لأي شيء؟

- للاقتراح الذي قدمته لك. وأنا لن أكرّره. ولا أحد يستطيع أن يفهمني. فأنا وحيد، فريد في هذا العالم!...

كان اللهاث يباعد بين منخريه الأبيضين. وجوزة عنقه تصعد وتنزل فوق ياقته.

وغمغم «أليكسندر بيستوجيف»:

- يا لها من مهزلة! فنحن نتكلم منذ عدة ساعات، دون أن نتقدم عما كنا عليه عندما أتينا إلى هنا! وهنالك أمر واحد مؤكد: لم يعد هنالك مجال للتراجع! وعلينا أن نلتقي جميعنا، غداً، في ميدان مجلس الشيوخ!

ووضع «أودويفسكي»، وهو جندي يحمل العلم عادة، يده على قلبه، وهو أيضاً أصغر المتآمرين سناً، تغضّن وجهه النضر والمورّد، بحيث بدت عليه تعابير الحمية والورع الرومنسيّين، وصاح بأعلى صوته:

- الموت ينتظرنا! ولكن، يا له من موت مجيد!...

وقال «ريلييف»:

- أصدقائي، لقد تأخر الوقت!

ولا شك أنه كان يفكر بزوجته التي تركها وحيدة في غرفتها طوال مدة الاجتماع.

وقال له «نيقولا»:

- اعتذر عنّا من السيدة «ناتالي ميكايلوفنا»!

وتدفقت جموع المدعويين نحو الرواق حيث تكدست المعاطف والقبعات والسيوف. وكان «فيلكا» نائماً عرْضاً في الباب. فأيقظه «ريلييف» بصفعة خفيفة على خدّة. فانتصب الفتى واقفاً على ساقيه وهو يفرك عينيه. وكان المتآمرون يتمهلون بالخروج وكلّ منهم معطفه على كتفيه وقبعته في يده. كان هنالك شيء ما يمسك بهم ويستبقيهم هناك. ربما كان ذلك شعورهم بأنّ العالم الواقعي يبدأ بعد عتبة باب ذلك المنزل. و «نيقولا» نفسه كان يتردّد بالانصراف، كمن يتردّد من الخروج من حلم. وترك أغلبية رفاقه يمرّون وينصرفون قبله.

وقال «ريلييف»:

- إلى الغد! وليكن الله في عوننا! تشجعوا، أيها الرفاق!

وفي كل مرة، كان باب المدخل يغلق محدثاً صوتاً قوياً. وبعد قليل، لم يبق في غرفة الانتظار، سوى عشرة أشخاص، كان من بينهم بالطبع «ريلييف» وكذلك «نيقولا»، «كوستيا» و «كاخوفسكي» الذي كان يجلس على صندوق، تحت صف من المشاجب، وقد أحنى رأسه، وبدا وكأنه ينتظر عربة، وهو جالس بجانب الطريق.

وفجأة، سأل «ريلييف»، بعد أن نظر إليه بعينين اتّسعت حدقتاهما!

- أليس لديك ما تقوله لي؟

فأجابه «ريلييف» متمتماً:

- بلى، لقد أمعنت التفكير، فنحن سيّئو التنظيم بشأن العمل الجماهيري. وأنت وحدك تستطيع إنقاذنا. وأنا أقبل نصيحتك. وتوقف لحظة عن الكلام، ثم أضاف بصوت هادئ:

- اذهب واقتل الدوق الأكبر.

- وكيف يجب أن أفعل ذلك؟

- ألبس بزة ضابط وتسلّل إلى القصر... أو بدلاً من ذلك، انتظر حتى يخرج الدوق الأكبر إلى الساحة لكي يطلّ على الشعب...

فقال «كاخوفسكي»:

- سأقتله في ساحة مجلس الشيوخ.

وملامح وجهه التي كانت كثيرة الحركة عادة، هدأت على الفور كما لو أنّ هذا القرار قد حقق له هدوءاً وراحة في قرارة نفسه.

وهبطت ابتسامة طفولية من عينيه إلى شفتيه.

فتساءل «نيقولا» في سرّه: «أيمكن أن يحقق القتل السعادة؟» ولكن لا، إنه لا يشعر بالسعادة لأنه سيقتل، بل هو سعيد لمجازفته بحياته، سعيد بضياعه!...»

وصاح «اياكوبوفيتش» وهو يشدّ على يد «كاخوفسكي»

- آه يا عزيزي أنا معجب بك!

فقال «كاخوفسكي» وهو يضحك، ساخراً:

- يمكنك أن تهنئني فيما بعد، إذا نجوت، ولكن ربما كنت عند ذلك لا تريد أن تتعرّف عليّ؟ لا أنت ولا غيرك، وسأصبح رفيقاً سيئاً بالنسبة لكم!...

فقاطعه «ريلييف»، قائلاً:

- لا تتلفظ بالحماقات!

وعانقه. كان «نيقولا» منزعجاً، فاستأذن من صاحب المنزل هو و «كوستيا» وودّعاه.

فقال لهما «ريلييف»:

- إلى الغد! وليساعدنا الله!

وفي الشارع، سار «كوستيا» و «نيقولا» لبعض الوقت صامتين، يستنشقان ظلام الليل ويصغيان للمدينة النائمة.

وقال «كوستيا»:

- ليس لديّ انطباع حسن جداً، عما يحدث.

فقال له «نيقولا»:

- ولا أنا.

- إذن، برأيك، ماذا يجب أن نعمل؟

فسأله «نيقولا»، وصوته يرتعش:

- أتجرؤ على التردّد؟

فأجابه «كوستيا»:

- كلا! كلا! إذا ذهبت إلى هناك، فأنا سأذهب أيضاً! وتحولا في اتجاههما لكي يمرا أمام «قصر الشتاء» كان البناء الضخم يتمطى في ظلام الليل إلى جانب حقل من الثلج. وكان الخفراء يقفون وكأنهم قد تجمدوا في محارسهم المخططة بعدة ألوان. وحول منقل تشتعل فيه النار تجمع بعض الحوذيين، ذوي العيون العقيقية واللحى الطويلة. وكان هنالك بعض الخيول النائمة، وقد تدلت رؤوسها وأذنابها، وهي مربوطة إلى أعمدة موجودة هناك. والمصابيح التي تؤرجحها الرياح، كانت تلقي إلى اليمين وإلى اليسار هالة من الضوء الباهت يتخللها شكل الصليب. ورفع «نيقولا» نظره نحو صف من النوافذ في الطابق الثاني، يبدو منها الضوء: فربما كان الدوق الأكبر هناك، في مكتبه؟!

فقال «نيقولا»:

- هو أيضاً، لا يزال ساهراً، يستعدّ!

وظلّ الصديقان برهةً يتأملان تلك المستطيلات المضيئة، المرسومة على جدار مظلم تحيط به إطارات من الثلج. ثم، بعد أن شعرا بالتعب وبالبرد الشديد، وبصداع خفيف، تابعا طريقهما نحو البيت.

٢

ولكثرة ما أراد «نيقولا» أن ينام، فقد استيقظ تماماً. كان الظلام الدامس يحجب النافذة ذات الزجاج الذي يغطيه الثلج المتجمد. وأشعل شمعة، وألقى نظرة على ساعته فتبين له أنها تشير إلى الخامسة، وفي الحال عاوده قلقه وانفعاله اللذان انتاباه عشية ذلك اليوم. ولكن مع اقتراب الخطر، أخذت عواطفه تفقد طابعها السامي. وأخذ جسمه يشعر بالخوف، وكذلك نفسه وذهنه، في آن معاً. وهذه الظاهرة يعرفها جيداً، لأنه شعر بها، قبل كل معركة، أثناء الحملات والمعارك التي نشبت ضد نابليون، في سنتي ١٨١٤، و١٨١٥. ومع ذلك، فإنّ الشجاعة التي كان يطلبها منه رؤساؤه في تلك الفترة لم يكن لها أي علاقة مع الشجاعة التي هو بحاجة إليها الآن، فيما مضى، لم يكن يهتم إلا بترويض أعصابه والسيطرة عليها لكي ينصاع، ويطيع أوامر غير قابلة للمناقشة. أمّا اليوم، فإنّ عليه، علاوة على ذلك، أن يسأل ضميره لكي يحدّد أين تقع مصلحة الوطن. فهو الآن سياسي وجندي، في آن واحد. والضيق الذي ينتج بالنسبة له من هذه الوظيفة المزدوجة، كانت تعقد فكرته بأنه خاض الحرب كشاب عازب، وأنه سيخوض غمار الثورة كرجل متزوج. والحياة لا يؤبه بها ولا يحسب لها حساب عندما تكون ليس من يحسب له حساب في الحياة. وكان حبه لـ «صوفيا» أقوى من أن يكون حراً تماماً في تحركه وتصرفاته. حتى وإن كان يعلم أنها تؤيده، فهو يشعر أنه مذنب حيالها بسبب الخطر الذي سيعرض نفسه له. وكل ذكرى ترد إلى خاطره منها، تجعله يشعر

بالضعف، والحنين والشوق إليها. وكان، وحدقتاه تحملقان في الفراغ، يتصوّر وجه زوجته بدقة شديدة لدرجة أنه يشعر بانحباس تنفسه: تلك العينان الواسعتان السوداوان. تلك الشفة العليا القصيرة قليلاً، ذلك العنق الطويل، البدين عند قاعدته، وذلك الإشعاع اللؤلؤي لابتسامتها، وتلك اليد الظريفة وهي تردّ بها الوشاح على كتفها...

وقفز من السرير، تناول أدوات الكتابة، وأخذ يكتب لها رسالة:

«حبيبتي الغالية، إذا لم أرجع من النهار الخطير الذي يجري التحضير له، فاعلمي أنّ آخر من فكرت به هو أنت، اغفري لي كوني ضحيت في سبيل خير وخلاص بلادي، حياة، ربما كان يجب عليّ أن أكرّسها لك بكاملها. وعذري الذي يشفع لي، هو أني بإخلاصي لهذا العمل السياسي، كانت لدي القناعة التامة بأني أخدم قضية كانت عزيزة عليك، بقدر ما هي عزيزة علي...»

وكتب أربع صفحات، وضعها في مغلف وكتب عليه:

يُسلّم في حال وقوع المصيبة بوفاتي، إلى زوجتي، السيدة «أوزاريف».

وهذه الرسالة، وقد وضعها بين شمعدانين فضّيّين، لا يمكن إلا أن تلفت النظر. وسيتولى «بلاتون» العمل على إيصالها إلى صاحبتها.

وبعد أن أدّى «نيقولا» هكذا ما عليه تجاه نفسه، نهض، حلق ذقنه وارتدى أجمل قمصانه وأفضل ملابسه، وكأنه بذلك يكرّم الموت، بأناقة هندامه. وبعد أن أدار ظهره للمرآة، جثا أمام إحدى الأيقونات، وعبر سكون الليل، تسامت روحه وارتفعت دون أي جهد، وقال، وهو يضم يديه:

- إذا كان كفاحنا عادلاً، كن في طليعة جنودنا، يا إلهي، لكي تساعدنا على تحقيق النصر!

وقبل أن يرسم إشارة الصليب، أضاف، بمزيد من التواضع والخضوع:

- احمني يا إلهي.

ثم رفع الشمعة لكي ينير طريقه وذهب ليقرع باب غرفة «كوستيا».
ولأنه لم يتلق جواباً فقد دخل على الغرفة. فبرز له من بين الأغطية شبح رجل غاضب، استيقظ مذعوراً:

- إيه! ماذا؟ ماذا هنالك؟ كم الساعة الآن؟ وعندما علم «كوستيا» أنّ «نيقولا» لم يستطع النوم، ولذلك فهو يريد العودة إلى منزل «ريلييف»، استاء، وقال له:

- افعل ما تشاء! لن أذهب معك! ما زال الوقت مبكراً جداً!

- ولكن! الأفواج ستؤدي القسم، بعد بضع ساعات!

- قلت لك إنّ الوقت ما زال مبكراً جداً! وأنا أشعر بالنعاس، وأريد أن أظلّ نائماً!، هيا، انصرف!

- سأعود لأصطحبك إلى هناك!

- هو ذلك!

وشدّ «كوستيا» طاقية النوم على أذنيه، وعاد فاستلقى، ملصقاً أنفه بالجدار، وأرسل شخيراً قوياً، لدرجة أن «نيقولا» سارع بالانسحاب.
و «بلاتون» من جهته، كان قد استيقظ، وغادر سريره.

فقال له «نيقولا»:

- هنالك رسالة على منضدتي، إذا حدث لي شيء، عليك أن ترسلها إلى زوجتي.

فسأله «بلاتون» وقد بدا القلق على وجهه:

- ولكن، ماذا يمكن أن يحدث لك، يا صاحب السعادة؟

فلم يجبه «نيقولا»، ولكنه قبل أن يتناول كأساً من الشاي، ويأكل قطعة بسكويت، قبل أن يخرج.

كان لا يزال الظلام مخيماً، عندما توقّف أمام باب منزل «ريلييف» وفي نيته أن يعود إذا لم يلاحظ ضوءاً من خلال ستائر النوافذ. ولكن. لم تكن

عدة نوافذ يبدو منها الضوء وحسب بل لقد كانت ضجة الأصوات تصل إلى أرصفة الشارع.

وعندما استقبل «ريلييف» «نيقولا»، أخبره أنه لم تغمض له عين طوال الليل. كان شاحب الوجه، شعر لحيته طويل. وفي زاويتي فمه «حبتان» بسبب الحمى. وكان يحيط به بعض المتآمرين وقد بدا على وجوههم القلق والحيرة. وعندما استفسر «نيقولا» من العديد منهم، علم أنّ مخططات التمرد قد اختل نظامها. وبالفعل، فإنّ الجريء «اياكوبوفيتش» كان قد أخبر «ريلييف» للتوّ، بأنه عدل عن إثارة جنوده ودعوتهم للمشاركة بالتمرد، و «كاخوفسكي» الذي اختير لاغتيال الدوق الأكبر، قد تنصّل من وعده بحجة أنه لا يستطيع أن يتحمل وحده وزر ومسؤولية جريمة، لن يكون أحد، في نهاية الأمر، ممتناً منه بشأنها، أمّا «تروبيتزكويّ»، من جهته، فكان أيضاً، أقل تصميماً من الأمس، وفي بعض الثكنات، كانت تأدية القسم قد بدأت. وفي ذلك الوقت بالذات، كان مجلس الشيوخ يعقد اجتماعه. لذلك ينبغي التحرك والعمل، وقد انقطعت أخبار عدد كبير من الضباط. فهل استطاع البارون «روزين» تسيير فوج «فنلندة»؟ ألم يصطدم «سوتهوف» بمتاعب مع رماته؟ وفرقة «اسماعيلوفسكي» ماذا حدث لها؟ وكذلك فرقة «بريوابراجنسكي»؟ وأخذ «نيقولا بيستوجيف» يلحّ مصراً على الذهاب لكي يرى ماذا يحدث في فوج موسكو، الذي كان أخوه «ميشيل» مساعد قائده.

فقال له «ريلييف»:

- نعم، هيا إلى هناك، سيكون جنود موسكو هم الذين سيوجهون الضربة الأولى!

وكان قد انتهى من ارتداء ملابسه، عندما بدا البارون «ستينهيل» الذي يقيم في الطابق العلوي، مرتدياً رداءً منزلياً «روب دي شامبر» بني اللون، وخفّاً مبطناً بالفرو، وقال:

- لقد أنجزت البيان، هذه الليلة، أتريد أن أقرأه لك؟

فغمغم «ريلييف» متذمراً:

- ما زلنا بعيدين عن الحاجة للبيان!

- ومع ذلك، فهنالك أمور ينبغي تحديدها وإيضاحها....

- فيما بعد... فيما بعد!...

- إذن، سأسجل كل شيء حسب رأيي، أليس كذلك؟

- نعم!

ووقف «فيلكا» على أصابع رجليه ليساعد سيده على ارتداء معطفه وفكّر «ريلييف» قليلاً بعد أن أدخل ذراعه في كم المعطف، وهمس من فوق كتفه:

- عليك أن تقول لسيدتك إني سأعود بعد قليل.

ولم يكد يهمس بذلك، حتى صفق الباب بقوة على الجدار، واندفعت منه امرأة دامعة العينين. كان مئزرها الوردي اللون المزين بالزهور، أزراره مبكّله بشكل منحرف ومغلوط. وبرزت من تحت طاقيتها المصنوعة من الدنتيلا، خصلات من شعرها الأشقر. وفي اندفاعها العنيف فقدت إحدى فردتي حذائها، وخطت ثلاث خطوات، وهي تعرج، ثم ألقت بنفسها على صدر «ريلييف»، وهي تئنّ وتتأوّه:

- لا تذهب!

- نحن جنود الحرية، يا «ناتالي ميكايلوفنا»!

وقال «نيقولا بيستوجيف»، بشكل غير مناسب، لدرجة أنّ «ريلييف» وجّه له نظرة تنمّ عن اللوم:

- إنّ الواجب يدعونا!

فقالت «ناتالي»، وهي تنتحب:

- أيّ واجب؟ أنا لا أعرف أنّ لدى زوجي سوى واجب واحد: وهو أن يبقى على قيد الحياة، من أجل زوجته، ومن أجل طفلته!

فقال لها «ريلييف»:

- ولكن لا أحد منا ينوي أن يموت، يا «ناتالي»!

- بلى! بلى! أنت ذاهب لتموت! وأنا أعرف ذلك! أنتم، جميعكم ذاهبون لتموتوا! أنتم مجانين!

وتشبّثت بعنق «ريلييف» وضمّته إليها، وأخذت تربّت على ظهره وتغمر يديه بقبلاتها، وأخذ هو يحاول إقناعها بأن تهدأ وتحكّم عقلها، وينظر إلى أصدقائه وكأنه يطلب منهم الصفح عن هذا المشهد غير المشرّف. وخلال ذلك كان «نيقولا» يفكّر بـ «صوفيا»، وقد انقبض صدره من شدة تأثّره. وهي، بالتأكيد أكثر شجاعة من «ناتالي ميكايلوفنا»، وأكثر أهليّة لفهم ضرورات العمل السياسي، ولكن، في ظروف على هذه الدرجة من الخطورة، أليس من الممكن أن تحاول، هي أيضاً، أن تستبقيه وتمنعه من الذهاب للمشاركة في أيّ عمل ثوري؟ وقد حدا به الأمر، تقريباً، إلى أن يتمنى ذلك، لأنه في تلك اللحظة، كان يشعر بحاجة شديدة لأن يكون محبوباً. وكان جميع الرجال، وقد أحنوا رؤوسهم، يشعرون بالذنب، على درجات متفاوتة، حيال هذه المرأة الباكية، التي تنهمر الدموع من عينيها، وهي تدافع عن سعادتها، وفجأة، صرخت:

- «نستنكا! نستنكا!» تعالي توسّلي إلى أبيك واطلبي منه ألا يتخلّى عنا!...

فتسلّلت بين المتآمرين، فتاة بقميص النوم، وأمسكت بساق «ريلييف». كان النوم لا يزال يتراءى في عينيها الزرقاوين الطافحتين بالدموع اللتين وجهتهما نحو جميع أولئك الأشخاص المجهولين، وأخذت تتمتم بكلام، كأنه درس قد تعلمته:

- لا تذهب، يا أبي العزيز! ابق معنا لكي تحمينا! أنت ملاكنا الحارس! و «ناتالي ميكايلوفنا» وقد انهارت قواها، أغمي عليها بين ذراعي

زوجها، فنقلها إلى الغرفة المجاورة، نادى إحدى الخادمات، وعاد بعد قليل، وعلى شفتيه ابتسامة مغتصبة، وقال:

- إني أعتذر عن هذا الحادث، يا أصدقائي. هيا بنا، ولنذهب!

فتفرق المتآمرون. واستقلّ «ريلييف»، «بيستوجيف»، و «ايفان بوسشين» عربة، لأنهم كانوا يريدون القيام بزيارة الأمير «تروبيتزكويّ قبل أن يقوموا بجولة على الثكنات. و «نيقولا» الذي رأي، فجأة، أنّ ليس لديه أيّ عمل يقوم به، عاد إلى المنزل، لأنه كان يظنّ أنه سيجد «كوستيا» ينتظره، بعد أن ارتدى ملابسه واستعد للخروج. ولكنّ «كوستيا» لم يكن في المنزل. وكان «بلاتون» يبدو حائراً، شارد اللب.

وقال لـ «نيقولا»:

- لقد حزم أمتعته، طلب عربة، وسافر!

فردّد «نيقولا» مندهشاً:

- حزم أمتعته؟ هذا غير ممكن! أنت مخطئ!

- لقد قمت بنفسي بوضع الحقيبة في العربة! حقيبة صغيرة! فهو، على ما يبدو لن يذهب بعيداً! ربما ذهب إلى منزله الآخر، الكائن في «تسارسكا وّى سيلو»...

- ألم يترك لك عنوانه؟

- كلا.

- ولم يقل لك شيئاً من أجلي؟

- بلى. لقد قال لي: «عامل نيقولا ميكايلوفيتش كأنه أنا بالذات!»

- وهذا هو كل ما قاله؟

- نعم، يا صاحب السعادة!

ففكر «نيقولا» بحزن: «لقد خاف، وهرب» وكانت خيبة أمله شديدة لدرجة أنه لم يكن لديه القوة حتى على إبداء استيائه. وأخذ يحاول أن يفهم

كيف استطاع أن يمنح كلّ صداقته لنذل، وأن يمنحه كلّ ثقته. وماذا عن الآخر؟ «فاسيا فولكوف» الذي استدعته في هذا الوقت بالذات، شؤون عائلية، كي يبتعد عن العاصمة! ومع ذلك فهو شاب شجاع! وقد برهن على ذلك في مبارزته لـ «نيقولا». نعم، ولكنه، آنذاك، كان يتصرف مدفوعاً بالغيظ والغضب، وبالرغبة بالانتقام والثأر لشرفه. وهذا كان أسهل من أن يجازف بحياته عن عمد ودون غيظ أو كراهية من أجل قناعة سياسية. وهذا الهروب المزدوج، الذي حصل بعد تهرّب «كاخوفسكي» و «اياكوبوفيتش»، جعله ينظر بتشاؤم إلى فرص الثورة ومصيرها. ألن يعمد جميع المتآمرين، كلّ منهم *بدوره*، إلى خيانة القضية، التي كانوا، بالأمس فقط، يقولون إنهم على استعداد لأن يضحوا بدمائهم من أجلها؟ وهل سيأتي واحد منهم وحسب إلى ساحة مجلس الشيوخ الآن؟

و «نيقولا» وقد نفد *صبره*، أراد أن يطمئن، ويعرف ماذا كان يحدث آنذاك، فاندفع مسرعاً إلى الخارج. كان ضوء باهت يغمر المدينة من نهار أخذ يولد من جديد، وكان البرد قارساً، ولكن لم يكن يتساقط الثلج.

وسهم مقر قيادة البحرية، المذهب، يتوغل عالياً عبر طبقة كثيفة من الغيوم السوداء. وقد بدأ عامل مصلحة الإنارة ينزل الفوانيس عن أعمدتها، ليطفئها، ويملأها بالزيت، من جديد، ثم يعيدها إلى أماكنها.

ومرّ صبيّ يحمل رزمة من الصحف تحت إبطه، وهو يصيح: - البيان! البيان!

فاشترى «نيقولا» صحيفة: ولكنّ هذا لم يكن «البيان»، بل نص قسم الولاء للإمبراطور الجديد. وكانت الحانات مغلقة، والعربات قليلة في الشوارع. وبعض الأجراس يدوي رنينها بشكل متقطع وكئيب، عبر الضباب الذي كان يكتنف المدينة في ذلك الصباح الباكر.

وبالقرب من إحدى الكنائس، التقى «نيقولا» بموكب من النسوة المسنّات المتدثرات بملابسهن الكثيفة، والمتشابهات، كطالبات المدارس الداخلية، وكنّ يسرن كل اثنتين معاً، ويتحسّسن بعصيهنّ أمامهنّ، الوحل المتجمد على الرصيف.

وسأل «نيقولا» إحداهنّ:

- هل تستطيعين أن تقولي لي اسم من هو الذي ذكر في الصلاة، صباح اليوم؟

والعجوز المسكينة، وقد كلّمها وسألها رجل غريب، خافت كما تخاف الدجاجة، حملقت بعينيها، ضمت شالها على وجهها، وأرادت أن تهرب، ثم تمتمت:

- ماذا تعني بذلك: اسم من؟

- أعني لأيّ قيصر... صليتم ودعيتم، اليوم؟

فأجابته العجوز، وقد اطمأنت قليلاً:

- لـ «نيقولا بافلوفيتش»، فهو والدنا وسيدنا الجديد، فليمنحه الله السعادة والعمر المديد!

ولحقت، مسرعة برفيقاتها، وأخذت تهمس لهنّ، بعد أن التفتت عدة مرات نحو «نيقولا»، وكأنها قد نجت بصعوبة من خطر أحاق بها.

وتجاوز «نيقولا» الورشة التي تشيد بناء كاتدرائية «القديس اسحاق»: أكوام من الحجارة، وأكداس من الأخشاب والسلالم، ووصل إلى ساحة مجلس الشيوخ. وكان تمثال بطرس الأكبر، الذي يمثله على صهوة حصانه، يشرف من أعلى قاعدته الصخرية على ساحة فسيحة تشبه الصحراء. ونهر «النيفا»، بكل عرضه، كان متجمداً.

وكان هنالك بعض العبّارات «الجسور الضيقة» تصل الأرض الثابتة بالضباب الكثيف البني اللون، الذي يغطي الضفة الأخرى. وعلى سوية

رصيف مقر القيادة البحرية، كان بعض العمال يقطعون ويزيلون بعض كتل الجليد. وقد اهتم «نيقولا» خلال برهة بعملهم.

ثم عاد إلى ساحة مجلس الشيوخ، التي بدت له وقد أصبحت أكثر حركة من السابق، ولكنّ الوجوه التي رآها هناك ليس عليها شيء من الملامح الثورية: بعض الباعة المتجولين يعرضون حلوياتهم الشعبية على منصات خشبية، وأحد باعة المشروبات الساخنة يتجول، حاملاً على ظهره غلاية نحاسية يتصاعد الدخان من مدخنتها، وحول عنقه عقد كبير من الكعك. خادمان يرتديان كسوتهما الرسمية، يصطحبان إلى النزهة، والملل بادٍ على وجهيهما، ستة كلاب سلوقية، من ذوي القوائم الطويلة والنحيلة، والخواصر المرتعشة، والخادمان يرتديان أيضاً معطفين مزينين بالشرائط والشرابات. وأخذت بعض العربات الفخمة تمر وهي تهتز فوق نوابضها، وقد وقف الخدم المرافقون وراء صناديقها. وزجاج بواباتها، المزين بشعارات النبالة، يرسل انعكاسات قوية، عند مرورها. ولا بد أنها لبعض الوجهاء المرموقين، الذاهبين إلى القصر لتقديم التهاني للقيصر، بعد أن أدّى له الجيش يمين الطاعة والولاء. وكانت تنجم عن هذه الصور سكينة تبعث على الطمأنينة، بحيث أنّ «نيقولا» قال في سره: «لن يحدث شيء، ولا يمكن أن يحدث شيء! فالمدينة لا تريدنا! وحتى الحجارة، هنا، كلها من أنصار الحكم الملكي، نعم كلها ملكية!» وشعر بالبرد وبالجوع.

وكانت ساعته تشير إلى التاسعة وخمس وعشرين دقيقة، وأخذ بعض العمال يصعدون على اسقالات الكاتدرائية، وبدأ يتعالى صوت المناشير وضجيج المطارق والمعاول.

وسار «نيقولا» في جادّة «الآمرية»، واستدار متجهاً إلى شارع «جوروخوفايا»، ثم دخل إلى مقهى «سشوارز» الكائن عند زاوية شارع «مورسكايا». وهناك درج يؤدي إلى القاعة التي كانت منخفضة وكان

ضوء النهار يدخل إليها من منافذ نصف دائرية. وكان روادها يرون أرجل المارة بأحذيتهم المختلفة، تمرّ، ذهاباً وإياباً، فوق رؤوسهم. ومن غرفة مجاورة كانت تصدر أصوات كرات «البلياردو» وهي تتصادم ببعضها، وكذلك ضحكات اللاعبين. وغمرت «نيقولا» وخدّرته حرارة المدفأة، ورائحة الشوكولا والمعجنات الحلوة، وتمتمة الأحاديث، جعلته يسترخي. وطلب كاساً من شراب الليمون، وتذكّر أنه كان عليه أن يلتقي بـ «هيبوليت روزنيكوف» في هذا المقهى نفسه، الساعة الثالثة، مساء اليوم. وبالأمس عندما قبل تلك الدعوة، كان متأكداً بأنّ الأحداث ستمنعه من الحضور إلى هنا في هذا الموعد. وها هو اليوم يعطي الحق لرفيقه، ويرى أنه مصيب فيما قاله: «ليست حفنة من الضباط الليبراليين، هي التي تستطيع أن تدفع إلى الثورة، شعباً بأكمله، نشأ وتربى على احترام الدين...»

وما زالت الأجراس تقرع، تخفف من دويها سماكة الجدران، وإلى المائدة المجاورة جلس رجلان، يرتديان الملابس المدنية البرجوازية كانا يتحدثان بصوت خافت وهما يحتسيان الشاي، وقد أخذ أحدهما، وهو أحمر الوجه، وعليه آثار الجدري، ينظر خلسة، وباستمرار إلى «نيقولا» فقال في سره: «إنهما من رجال الشرطة السرّية!».

واستولى عليه الذعر. وكان عليه أن يتماسك ويضبط أعصابه لكي لا يذهب إلى «الشرطي السري، الجاسوس» ويسأله بأي حق ينظر إليه ويتفرس فيه هكذا. وهذه الثورة التي لم يكن رفاقه يجرؤون على محاولة إشعالها، لكم كان يودّ أن يستطيع إشعالها، هو بمفرده. وأخذ ينظر، وهو يمضغ غضبه، شارد الذهن، عبر النافذة النصف دائرية، إلى أقدام المارّة. وبعد برهة، بدا له أنّ هذه الأقدام أصبحت أكثر عدداً، وأخذت مجموعات متزاحمة من الأحذية العسكرية وطماقات السيقان تحل محل الأحذية المدنية. وكانت الأرض ترتعد على إيقاع الخطوات الموزونة والمتداخلة.

وتعالت بعض الأصوات القوية والحادة. ودوى قرع الطبول، حتى بلغ آخر القاعة. وكالمجنون، اندفع «نيقولا» بسرعة إلى الشارع. فدفعه بعض الرجال الذين يرتدون البزات العسكرية الرسمية، فعرفهم، وهو مزهو بذلك، من لون بزاتهم، إنه فوج موسكو يمر بخطى سريعة. وكان الرجال يسيرون وقد انحنوا قليلاً إلى الأمام، والحراب مشرّعة، وأصواتهم تدوّي بقوة:

- يحيا «كونستنتان»! مرحى له، مرحى!

ولكم كان «نيقولا» يودّ أن يستطيع تقبيلهم! وكان بعض الصبيان يتراكضون على جانبي الصف. وجميع كلاب الحي أخذت تنبح. ومن نوافذ البيوت كانت تبدو وجوه قلقة، أنوفها تبيض من شدة التصاقها بالزجاج. من كان يسير في طليعة الفوج؟

أسرع «نيقولا» ليلحق بالصفوف الأولى. وعندما وصل إلى هناك، أصمّ له أذنيه دوي الطبول. وعبر موجة من الفرح، رأى «ميشيل» و «أليكسندر بيستوجيف»، يرفعان على رأسي سيفيهما قبعتيهما المزدانتين بالريش الأبيض، ويلوحان بهما، ووراءهما كان يسير الملازم «يوري المازوف» النحيل الجسم، ذو الحاجبين الأسودين المقطبين، والابتسامة المتلألئة والناصعة كالثلج.

ثم مساعد قائد الفوج «سشيبين روستوفسكي»، المتوهج الوجه، المنفعل، والذي كان يحملق بعينيه في كل الاتجاهات، وأشار لسيفه الذي يقطر دماً إلى «نيقولا» وقال:

- لقد قطعت به ثلاثة إلى عدة قطع!

فسأله «نيقولا»:

- ومن هم هؤلاء الثلاثة؟

- لا أهمية لهذا الأمر!... إنهم أوغاد، بعض أعوان الحكم الاستبدادي!... وقد أرادوا أن يمنعوا الفوج من الخروج!... «هورا»! مرحى، مرحى!

فصاح «نيقولا» أيضاً، بأعلى صوته: «هورّا»! وهو يشعر بالأسف لأنه لم يكن باللباس العسكري. وكان جنود فوج موسكو، تتقدمهم أعلامهم. وعددهم لا يتجاوز السبعمئة، أو الثمانمئة- يتدفقون بقوة وعنف على ساحة مجلس الشيوخ. فأوقفهم «أليكسندر بيستوجيف» بالقرب من تمثال «بطرس الأكبر» وصفهم على شكل مربع، مقابل مقر قيادة القوى البحرية، وفرز من بينهم بعض العناصر، تقدمت؟ إلى الأمام مشكلة سلسلة من القناصة، وبعد ذلك يبدو أنه قد خطرت له فكرة مسرحية، فأخذ يشحذ سيفه على صخرة الغرانيت التي تشكل قاعدة التمثال. كان يرتدي سترة خضراء، سروالاً أبيض، حذاء عسكرياً طويلاً، ووشاح الاستعراضات والاحتفالات. وفي حماية الحراب، كان المتمردون يتجمعون ويتعانقون وهم يرسلون صيحات الفرح. حتى أولئك الذين اعتقد «نيقولا» أنه لن يراهم بعد ذلك أبداً، أخذوا يظهرون فجأة، وكأنهم هبطوا من السماء: «اياكوبوفيتش»، وعصابته السوداء على عينه، «كاخوفسكي» بلباسه البنفسجي، وقبعته العالية، ونطاقة العريض الأحمر الذي تبدو منه قبضة خنجر وعقب مسدس، وكذلك: «أوبولنسكي»، «غوليترين»، «كوهلبيكر» و «ايفان بوسشين». كان الجميع يتكلمون معاً وفي وقت واحد، بلهجة تنم عن الحماسة والانفعال:

وقال «نيقولا»:

- حسن جداً! ها هو إذن فوج موسكو الشهير!

مرحى للأخوة «بيستوجيف»! فقط، لو أنّ «اياكوبوفيتش» استطاع ان يجلب لنا بعض عناصر وقطع المدفعية!

فغمغم «اياكوبوفيتش»:

- لسنا بحاجة للمدفعية! وأضاف:

- أرجو أن تعذروني، يجب أن أذهب وأترككم!

- إلى أين تذهب؟

- للقيام بجولة، هناك...

- ولكنك ستعود؟!

- بالتأكيد!

وسأل «يوري ألمازوف»:

- وماذا يفعل «ريلييف»؟

فقال «أوبولنسكي»:

- إنه لن يتأخر، سيحضر بعد قليل.

- و «تروبيتزكوي»؟

فقال «غوليتزين» متأوهاً:

- من جهة هذا، فإني سأدهش كثيراً إذا رأيناه اليوم!

وصاح «كوهيلبيكر» وهو يهزّ مسدّسه:

- يمكننا أن نستغني عنه!

وقال له «نيقولا»:

- انتبه، وخذ حذرك! فأنت لا تجيد استخدام المسدس! كانت تلك هي المرة الأولى التي يخاطب فيها «كوهيلبيكر» بصيغة المفرد، أي بدون كلفة وبكل مودّة، ذلك لأنه في تلك اللحظة كان لديه انطباع بأنّ كل هؤلاء الذين يحيطون به هم من أصدقاء طفولته. كان منزل «ريلييف» قد أعيد بناؤه في تلك الساحة. وكان الجميع في الهواء الطلق، خلف سياج الحراب، كأنهم داخل المسكن الصغير، بأبوابه المغلقة، الكائن في شارع «مويّكا» أي في منزل «ريلييف».

وقد وصل «ريلييف» بعد قليل، حاملاً حقيبة جندي، تحجب وجهه الطفولي قبعة كبيرة عريضة الجوانب ومتدلية على وجهه. ورباطات أسفل كمي سرواله، كانت قد انقطعت وتجر على الأرض. فانحنى لكي

ينتزعها تماماً ويلقي بها بعيداً. وبدا متعباً، متوتر الأعصاب. فقد أمضى طوال صبيحة ذلك اليوم وهو يركض من ثكنة إلى أخرى، دون أي نتيجة أو جدوى. ولذلك، قال:

- إنّ عددنا قليل جداً!

- ولكننا، مع ذلك، نستطيع أن نزحف على القصر!

- ليس بعد.

- وماذا ننتظر؟

- النجدات... النجدات التي ستأتي!

- وإذا لم تأتنا أي نجدات؟

فصاح «ايفان بوسشين»:

- إذا لم تأتنا أي نجدات، فإننا نستطيع، عند ذلك أن نطلب المساعدة من هؤلاء!

وأشار بحركة كبيرة إلى الجمهور الذي تجمع حول تشكيلة الجنود المريعة. ولم يكن «نيقولا» قد أعار انتباهه بعد، إلى تدفق أولئك المدنيين على مكان ليس لهم فيه أيّ عمل. كان هؤلاء الفضوليون المتسكّعون، يقتربون من الجنود، ينظرون إليهم بازدراء، يتحدثون إليهم، يحاولون التسلل فيما بينهم. وعدة مرات، أصدر «أليكسندر بيستوجيف» الأمر بإبعادهم وتفريقهم. ولكنهم بعد أن يبتعدوا بضع خطوات كانوا يعودون بإصرار وبشكل هادئ ورتيب.

وتمتم «ريلييف»:

- إني أخشى الرعاع وأحذرهم، فإذا تركناهم يسيطرون علينا، فإننا سوف نضيع.

وأمن «كوهلبيكر» على كلامه، بلهجة الحكمة والوعظ:

- يجب إحلال النظام محل الفوضى!

وقال «ايفان بوسشين»:

- إنّ هذا يدعو إلى الأسف! فلا بد أنّ هنالك عملاً ما كان يمكن القيام به بواسطة هؤلاء الشجعان!

وأراد «نيقولا» أن يرى أي نوع من الناس جذبتهم هذه التحركات التي تنذر بحدوث هياج شعبي شديد، فاجتاز خط القناصة المتوزعة عناصره، ودخل بين تلك الجموع المتزاحمة: كان فيها من جميع الأنواع: فلاحون، عمال من الورشة المجاورة، موظفون صغار بملابس رثّة، باعة بأثواب طويلة وفضفاضة، وأشخاص يبدون وكأنهم لا ينتمون لأي طبقة اجتماعية، أجسامهم هزيلة وسخة، يرتدون أسمالاً بالية، ومسلحون بالدبابيس والهراوات. فأيّ نداء خفيّ انتزعهم من أحياء البؤساء ومن قاع العاصمة لكي يحشدهم على بعد خطوتين من قصر الشتاء؟ فهل يعرفون جيداً وتماماً ماذا يعني اختبار القوة الذي سيحصل هنا؟ وهل سمعوا ايّ حديث عن الحرية؟ عن المساواة؟ وعن الدستور؟ كانوا يحركون أرجلهم، وهم يراوحون في مكانهم، يدمدمون متذمرين ويتدافعون بالمناكب.

وأخذ عملاق ملتحٍ يزمجر، قائلاً:

- سترون أيها المسيحيون، اليوم سينقلب كل شيء، رأساً على عقب! ومن هم في الأسفل سيصبحون في الأعلى. والفلاح الرق لن يتصبّب عرقاً، بعد اليوم، ألا في سبيل منفعته ومتعته!

وغمغم عامل، ثوبه ممزق ورجلاه مغلّفتان بخرق بالية:

- ليس تصبّب عرقي هو الذي يزعجني، بل لأني لا أجد ما آكله!

- إيه! سوف تأكل إلى أن «ينفزر كرشك»! لأنّ السادة سيتركون لك حصتهم! ولن يكون هنالك سادة، بعد اليوم، وسوف نصبح نحن، بدورنا، سادة!

وصرّح سائق عربة، يضع على رأسه قبعة سوداء، جوانبها ملتفّة:

- أنا أكثر لطفاً في معاملتي لحصاني، مما هم عليه السادة النبلاء، في معاملتهم لي.

وعاد «نيقولا» نحو الجنود، حيث كانت الأحاديث محتدمة، أيضاً:

- يبدو أنّ الدوق الأكبر «كونستنتان بافلوفيتش» قد غادر فرسوفيا، وأنه يتجه إلى «سان بطرسبورغ» على رأس جيش بكامل معداته!

- وسوف يكشف عن مقدرته لأخيه الأصغر «نيقولا»!

- وكل أولئك الذين أدّوا القسم الثاني سيجلدون بالقضبان!

- لقد حدد الرقم، منذ الآن: ثمانمئة جلدة لكل جندي، ثم، إلى سيبيريا!...

- ولماذا لم يأت إلى هنا جنود فوج «اسماعيلوفسكي»؟

- لأنهم كسالى!

- هنالك ضباط سيّئون يمنعونهم من المجيء!

- كان يجب علينا أن نذهب لإنقاذهم!...

- لو أنّ القتال بدأ وحسب، لكان يدفع الدفء في أجسامنا!

كان الجنود قد غادروا ثكنتهم في بزات العرض والاحتفالات، دون أن يتاح لهم الوقت لارتداء معاطفهم. ولذلك كانوا يرتجفون من البرد، ينطنطون في أماكنهم، ويتبادلون اللكمات فيما بينهم. وفي هذه الملاكمة الأخوية كانت قبعاتهم بريشاتها الطويلة تحيّي بعضها كما تفعل الدمى المتحركة. ودقت الساعة في برج بناء قيادة القوى البحرية، معلنة منتصف النهار. دون أن يبدو حتى ذلك الحين، لا عدوّ ولا نجدات.

وقال «ريلييف»:

- و «تروبيتزكوي» الذي لم يأت حتى الآنّ إنّ هذا غير مقبول! وسأذهب لأبحث عنه!

وذهب، فاقترح «يوري المازوف» و «غوليتزين» على «نيقولا» الذهاب ليستدفئوا في أحد المقاهي.

فصاح بهم «كوهيلبيكر»:

- اشتروا لي ملبساً!

- أي نوع من الملبّس؟

- بالليمون، فأنا أحبه كثيراً!

وشقوا طريقهم بين الجماهير. ولم يكادوا يجلسون في المقهى حتى دخل صبي وهو يركض، أشقر كقش القمح، تبدو الدهشة في عينيه، وأخذ يصيح:

- السادة الضباط! السادة الضباط!

لم يكن أحد قد رآه، قبل ذلك.

فسأله «نيقولا»:

- ماذا؟

- فأجابه الصبي:

- لقد وصل جنود آخرون!

- معنا أم معهم؟

- لا أدري.

فاندفع الرجال الثلاثة بسرعة إلى الخارج. وفي الطريق، اشترى «يوري ألمازوف» مع ذلك ملبساً بالليمون لـ «كوهيلبيكر». وتسلق «نيقولا» حاجز تمثال «بطرس الأكبر». كانت هنالك شرارات فضّية تتراقص بعيداً، عند زاوية جادّة مقرّ «الأميرالية». وهذا فوج من فرقة «بريوبراجنسكي» يسير بخطوات مسيرة الاستعراض. وتوقف أمام ورشة مقر هيئة الأركان العامة، المحاطة بحاجز من الألواح الخشبية. وفي مقدمة الجنود بدا ضابط خيال، كان من المستحيل تبين ملامح وجهه. ولكن، هذه القامة المنحنية، هذه

القبعة المزدانة بالريش، وهذه البزة الرسمية بلونيها الأبيض والأخضر، وهذا الوشاح الأزرق...

فصاح «نيقولا»:

- إنه القيصر! أؤكّد لكم أنه القيصر!... ولاحظ أنه كرّسه، واعترف به إمبراطوراً، وهو الذي كان ينكر عليه شرعيته قبل فترة قصيرة من الوقت.

وقال «أليكسندر بيستوجيف» وهو يغمز بعينه:

- أعتقد تماماً أنك مصيب، أيها الأخ. وانظر من يقف بالقرب منه! إنه صديقنا: «اياكوبوفيتش»! أشجع الشجعان! فهذا قد خاننا نهائياً!

فردّ عليه صوت، قائلاً:

- لا تتسرع بالحكم عليه، يمكن أن يكون هناك أكثر فائدة لنا مما لو كان هنا!

والتفت «نيقولا»: كان «ريلييف» قد عاد إلى جانب المربع. كان يبدو، بقبعته ذات الجوانب العريضة المتدلية على وجهه، كشاعر شعبي يتضوّر جوعاً، مشغول الباب، تساوره الهموم، منطوياً على نفسه، شاحب الوجه، شارد النظرات...

وسأله «نيقولا»:

- وما هي أخبار الفرق الأخرى؟

وبدلاً من أن يجيبه «ريلييف» على سؤاله، قال له:

- انتبه! ها هو زائر رفيع الشأن، قد وصل!

فتحوّلت جميع الأنظار إلى الجهة التي أشار إليها، أي إلى جانب كاتدرائية «القديس اسحاق» التي كانت قيد الإنشاء، حيث وصلت إلى ساحة مجلس الشيوخ عربة يجرها حصانان مبرقعان، يسيران خبباً. وفي داخلها، كان يجلس الجنرال «ميلورا دوفيتش» حاكم العاصمة. كان وهو

يستند بيده اليسرى على كتف الحوذي، يمد ذراعه الأيمن مشيراً إلى العدوّ بحركة تنم عن التصميم الذي يتّسم بالمغالاة. وقد تلألأت على صدره دزّينتان من الأوسمة والنياشين. ووشاح «سان أندري» ينسدل متموجاً ويرسل بريقه اللازوردي على بزته البيضاء. وعندما اقترب، كال له الشتائم، بعض المتسكعين. وأصدر الجنرال أمره إلى الحوذي بأن يدور حول الكنيسة. وبعد عشر دقائق، عاد الجنرال ممتطياً حصاناً، رافعاً رأسه تحت قبعته المثلثة الزوايا، والمزدانة بالريش. وكانت تعابير الازدراء تقلّص وجهه الذابل، الذي عولج بالمراهم، وبدت عيناه زيتيّتين، وعارضاه مصبوغين. وعندما وصل إلى أمام المتمردين، توقف، وبدا وكأنه قد تطاول وكبرا.

وصرخ بصوت كقصف الرعد:

- أيها الجنود!

وعندما سمع الجنود هذا النداء الذي أطلقه قائد يتمتع بشهرة أسطورية، ارتعشوا وبصورة لا شعورية أصلحوا وضعهم، واعتدلوا في وقفتهم. والجنرال «ميلوراوفيتش» وقد سرّه التأثير الذي أحدثه على الجنود، تابع كلامه، وهو يضع قبضته على خصره:

- أيها الجنود، من منكم كان معي في «كولم»، في «ليوزين»، أو في «بوتزين»؟...

فكان الجواب صمتاً كصمت القبور.

فاستأنف «ميلوراوفيتش» الكلام، بغضب:

- إذن، فهذا يعني أنّ ليس بينكم أيّ جندي روسي! ولا أيّ ضابط روسي! فشكراً لك يا ربي!

وأخذ وهو يتكلم يمتشق سيفه من غمده. فهل سيضرب به أحداً؟ كان «نيقولا» يخشى تأثير ذلك على ما سيلي هذا، من أحداث. ولكنّ الجنرال اكتفى بقراءة العبارة المنقوشة على حد السيف:

- «إلى صديقي ميلورا دوفيتش»!

- أتسمعون أيها الجنود؟ هذا السيف أهداني إياه الدوق الأكبر «كونستنتان» أثناء حملة إيطاليا. كنا، نحن الاثنين آنذاك، تحت أمرة «سوفوروف» القائد المشهور. وطوال ربع قرن لم يفارقني هذا السلاح. كان معي في «بورودينو»، في «كولم» في «بريين»، وفي «فيرشمبونواز»...

فلاحظ «نيقولا» أنّ وجوه الجنود المتقدمين بالسنّ، كانت تبدو عليها البهجة عند تعداد هذه الأسماء المشهورة.

وتابع «ميلورادفيتش» الكلام:

- فهل تعتقدون أني بعد أن تلقيت هذا الدليل على التقدير من الدوق الأكبر «كونستنتان»، أستطيع اليوم التنكر له وخيانة قضيته؟ وهل تعتقدون أنّ بإمكاني أن أخونكم أنتم بالذات، بعد أن كنت رفيقكم في السلاح في روسيا، في ألمانيا وفي فرنسا؟ فالدوق الأكبر «كونستنتان» بالحقيقة، رفض التاج. وقد رأيت بأمّ عيني صك التنازل الذي وقعه بيده! لقد خدعوكم، يا أصدقائي! هيا، أطيعوني، كما كنتم تفعلون فيما مضى، في ميادين القتال.

إلى الأمام، سر! مباشرة إلى القصر! لتأدية القسم! فانصاع الصف الأول من المتمردين لهذا الأمر. وأخذت بعض الوجوه تلتفت نحو الضباط الشباب وكأنها تستشيرهم. عند ذلك تسلّل بين الجنود الأمير «أوبولنسكي» الذي كان رائعاً في بزته الرسمية كقائد لفرقة «فنلندة» وشرابته الحمراء، ونطاقه الفضي، وقبعته المزدانة بالريش، أمسك بلجام حصان الجنرال، وقال له:

- تفضل بالذهاب، يا صاحب السعادة، ودع هؤلاء الرجال وشأنهم، إنهم يؤدون واجبهم!

فصاح ميلورا دوفيتش» بحدّة:

- أي واجب؟ أيها الصبيان، أيها التافهون، لقد لطختم بالوحل شرف روسيا!...

فقال «أوبولنسكي» مرة أخرى:

- اذهب!

- لن أذهب، أبداً!

فتناول «أوبولنسكي» بندقية من يدي أحد الجنود، وأراد أن يدفع الحصان برأس الحربة، ولكنه وهو في غمرة اندفاعه، جرح ميلورا دوفيتش» في فخذه. فتقلّص جسم الجنرال فوق سرج حصانه، أطلق تجديفة وأغمض عينيه.

فألقى «اوبولنسكي» البندقية على الأرض وابتعد، وقد احنى راسه وكأنه شعر بالإحباط. وفي تلك اللحظة بالذات دوّى طلق ناريّ، كان قوياً، ومجهول المصدر. فلم يعره «نيقولا» ايّ انتباه، ومع ذلك، فإنه لاحظ، بعد برهة، أنّ ميلورا دوفيتش» أخذ يترنّح على سرج حصانه، وأخذت بقعة من الدم تتسع على حرير الوشاح الأكبر، الأزرق اللون. وارتخى جسم الجنرال، التوى وانهار، بينما جمح الحصان، وقد استبدّ به الذعر، واتجه نحو الجمهور. فركض أحد مرافقي الجنرال، بسرعة، واحتضن الجريح بين ذراعيه، ثم مدّده على الثلج. فتفرق المتسكعون وابتعدوا.

وصاح مرافق الجنرال:

- ساعدوني! يجب أن ننقله بسرعة!...

ولكن لم يتحرك أحد. كان الجميع، رجالاً ونساءً، صامتين متغافلين يتجاهلون أهمية الحادث، ويشاهدون النزع الأخير لهذا البطل الوطني بالفضول نفسه الذي يولونه لدجاجة مذبوحة وهي تنتفض الانتفاضة الأخيرة، وقد أثار ذلك الغثيان لدى «نيقولا». وأخذت أحلامه بالحرية بالأخوة والنبل تصطدم وتتعثر بالضحية الأولى للثورة. كان يأسف على الوقت الذي

أمضاه مع جميع الرفاق وهم يتحدثون بمودّة ومحبة، تحت مصباح «ريلييف»، عندما كان لا يزال كل شيء نظيفاً وجميلاً. ولكي يواسي نفسه ويتشجع، قال لنفسه إنّ الطابع القدسي لقضية من القضايا يتقبل المعذرة عن الأخطاء التي ترتكب باسمه. وكان المرافق جاثياً بالقرب من «ميلورا دوفيتش» وسانداً رأسه الجريح على ذراعه، وظل يردّد رجاءه وهو يرتعش وقد شحب وجهه!

- العون، المساعدة، أيها الأصدقاء! ساعدوني، أرجوكم، لا يمكن أن ترفضوا ذلك!

ثم، وبعد أن أدرك أنه يخاطب حجارةً، صاح بأعلى صوته:

- هيبوليت!... هيبوليت!... إلى هنا!...

ورأى «نيقولا» «هيبوليت» يبرز فجأة، ببزته الرسمية الخاصّة بالاحتفالات، وهو يدفع الناس بمرفقيه، يشتم، ويجدّف. وألتقت نظراتهما، فتمتم «هيبوليت» وهو يحدج «نيقولا» بنظرة فاحصة، وقاسية:

- أيها البائس! أترى؟!... لقد حذّرتك!... ماذا فعلتم؟.... رجل كهذا!... إنه أفضل الرجال!...

وانحنى، بدوره، على «ميلورا دوفيتش» فخطا «نيقولا» خطوة إلى الوراء. كان غاضباً من الخجل الذي شعر به في تلك الدقيقة، في حين أنه كان يودّ أن يكون في غاية الزهو والسعادة.

وأمسك المرافقان «ميلورا دوفيتش» من تحت إبطيه وسحباه باتجاه مضمار الحرس الخيالة. وكان حذاء القائد الذي أصبح كالدمية المتصدعة يكشط الأرض، ورأسه، بشعره المصبوغ والمجعد قليلاً، كان متدلياً على صدره. واختفى في زحمة الجماهير، مع كل أوسمته العديمة الفائدة. وفي الجانب الآخر من الساحة، كان الدوق الأكبر «نيقولا بافلوفيتش» يتحدث مع بعض الجنرالات.

وسأل «نيقولا» بعد أن عاد إلى بين المتمردين:

- من الذي أطلق النار؟

فأجابه «كاخوفسكي»:

- أنا!

كان مبتسماً، هادئ الوجه، تحت جانب قبعته الواسعة، السوداء. وأخذ ينظر على مسدّسه بمودّة.

وقال «نيقولا»:

- أحقاً، كان هذا لازماً؟

- بل كان ضرورياً، ولا بد منه، لأنّ «ميلوراوفيتش» كان شعبياً أكثر مما ينبغي، ولأنه يتمتع بشعبية قوية، فكان يخشى منه أن يفسد لنا كل شيء..

وبعد أن تمالك «نيقولا» نفسه، وسيطر على غضبه، شعر أنّ «كاخوفسكي» على صواب. وهذه البادرة حدّدت بالحقيقة بداية الثورة.

وآنذاك كان قد تم اجتياز حاجز الدم. والمتآمرون وقد ربطت بينهم جريمة القتل، لا يمكنهم بعد ذلك ألا متابعة الكفاح والقتال بقسوة وبصورة مستمرة حتى النصر أو الموت. ومع ذلك فقد كان يكمن في مفهوم تلك الحتمية عنصر مخفف ومهدئ. وكأنّ الخوف الذي جعل الجنود يلزمون الصمت فترة طويلة، قد زال عنهم، فاستأنفوا أحاديثهم، وهتافاتهم الرتيبة:

- عاش «كونستنتان»! عاش «كونستنتان»!

أما الضباط، من جهتهم، فكانوا يهتفون:

- عاش الدستور!

وسأل رقيب، نضر الوجه، «نيقولا»:

- ما هو الدستور، يا صاحب السعادة؟

- إنّ هذا يصعب شرحه لك الآن، لأنه يتطلب وقتاً طويلاً!

- الرفاق يقولون إنها زوجة «كونستنتان»

فضحك «نيقولا» وبعد فترة قصيرة من التردّد، تمتم:

- نعم... نعم... بشكل من الأشكال...

فصاح الرقيب:

- عاش الدستور!

وأخذ «نيقولا» يفكّر: «المهم هو أن نفوز، بأي وسيلة كانت وبعد ذلك سوف نبرّر ما قمنا به، سنفصل بين الكذب والحقيقة ونضع كلا منهما في جانب...» كان يرتعش من البرد والتعب. وقد اختفى «ريلييف» من جديد. فعمّا يبحث؟ وماذا سيجلب؟ نجدات؟ دعماً معنوياً؟

كانت أشعة الشمس الشاحبة قد بدّدت الضباب. واخذ الثلج يتلألأ، وكذلك كانت تتلألأ الحراب وألواح الزجاج في نوافذ المنازل.

***

وفي حوالي الساعة الثانية بعد الظهر، وصل إلى الساحة فوج الحرس الخيالة، الموالي بمجموعة للدوق الأكبر «نيقولا بافلوفيتش»، وانتظم في صفوف، كل كوكبة في صف. وكان الخيالة الذين يرتدون سترات بيضاء، يحملون الدروع، وعلى رؤوسهم الخوذات، منتصبين على صهوات خيولهم السوداء، شاهرين سيوفهم.

فانطلقت، عند ذلك، من الجمهور، صيحات معادية:

- انصرفوا من هنا، أيتها الرؤوس النحاسية!

وبعد ذلك بقليل، احتشد الستمئة جندي، الذين لم يكونوا قد تمردوا، من فرقة موسكو، يقودهم الدوق الأكبر «ميشيل»، عند زاوية ورشة كارتدائية «القديس- اسحاق. وتبعهم فوج «سيميونوفيستي» ثم أتى دور «فرسان الحرس» الذين وصلوا على صهوات خيولهم الحمراء التي كانت

تعدو بهم خبباً ، وتمركزوا إلى يسار جنود فوج «بريوابراجنسكي». و «الفنلنديون» احتلوا ضفة نهر «النيفا» وجنود فوج «بافلوفستي» اصطفّوا في شارع «لي جالير» وعناصر فوج «اسماعيلوفيستي» دعّمت القوات الحكومية في جادة «الأميرالية». وأثناء ذلك، انضمت إلى المتآمرين مفرزة من الرماة قوامها ألف ومئتا مسلح بالبنادق، وكذلك نحو ألف من بحارة الحرس.

وصعد «نيقولا» على مجموعة من الحجارة مهيأة لأعمال البناء، وأجال نظره في المساحة الواسعة والمستطوال الشكل، الممتدة بين مجلس الشيوخ، ونهر «النيفا». ومقر قيادة القوى البحرية وحاجز الكارتدائية. كان واضحاً أنّ الدوق الأكبر قد وزّع جنوده- وهم متفوقون جداً بعددهم- بطريقة يطوّق بها تشكيلة المتمردين، المربعة. وكانت قد أصبحت جميع مداخل ومخارج الساحة مغلقة، ويحرسها جنوده. وهذه القطعات العسكرية، تشبه رسوم الأطفال، لمن يراها من بعيد: السياج الهادئ المكوّن من الحراب والريش، وخطوط الوجوه الوردية، المرسومة بالنقاط، وإلى الأسفل، صف من الصلبان الصغيرة البيضاء- حمالات السيوف المتصالبة على الصدور. وبين قوات النظام، وقوات المتمردين، كانت تتجمع جماهير غفيرة، تبدو حالكة السواد وهي تهمس وتتمتم. وكان بعض الفضوليين المتسكعين قد صعدوا على أشجار الشارع، على المناصب والاسقالات، وعلى أسطحة المنازل. ومن وقت لآخر كان يدوّي عيار ناري، دون أن يعرف احد من أين انطلق، وعند ذلك يحدث هرج ومرج بين الجموع المحتشدة في الساحة. وفكّر «نيقولا» بفيضان النهر، الذي اجتاح الساحة وغمرها في السنة السابقة، وساوره القلق نفسه الذي ساوره أثناء الفيضان، حيال هذه الموجات البشرية التي تتدفق على الساحة. فماذا سينتج عن هذا الخض الذي لا يمكن السيطرة عليه بين النفوس والأجسام؟

فلا من جانب قطعات الجيش الموالية لنظام الحكم، ولا من جانب المتمردين ومؤيديهم، يبدو أنّ أحداً على عجلة من أمره للتحرك والتصرف. وفي التشكيلة المربعة، أخذ الجنود يشعلون النار بواسطة بعض قطع الخشب، وبدؤوا يتراقصون حولها. كما أخذ بعض المدنيين الذين بدت عليهم البهجة، يجتازون خط القناصة، حاملين «الفودكا» في أوانٍ فخارية. وكان الجنود ينقضون عليها ويتخاطفونها. واختلط «نيقولا» بالجنود، وشم رائحتهم ذات الخاصية، التي تذكر برائحة المشروبات الكحولية والملفوف الحامض، والجوخ العسكري والجلد، والتعرق، وتذكّر بحنين شديد الزمن الذي كان فيه يعتبر واحداً منهم. وقال لنفسه، إذا حققت الثورة النصر، فإنه سيعود إلى الخدمة في الجيش. وربما استاءت «صوفيا» من ذلك في بداية الأمر. ولكنه سيشرح لها كل شيء، وسيقنعها ويطمئنها. والحكومة الجديدة، ستكون، بالتأكيد، بحاجة لضباط مخلصين، لكي يحلوا محل ضباط نظام الحكم القديم.

كان قد بلغ هذا الحدّ في استعراض أفكاره، عندما جذب انتباهه وجه مألوف. في وسط الجمهور، كان هنالك فتى طويل أشقر، لوّحت الشمس وجهه، يرتدي قميصاً أحمر وسترة من جلد الخروف، يشق طريقه، متجهاً نحو المتمردين: إنه «نيكيتا» العبد الرق، الشاب، الذي أوفدته «صوفيا» لكي يتعلم في «سان بطرسبورغ»! وعلى الرغم من أنه يرتدي ملابس الفلاحين، كانت تبدو عليه سيماء البحبوحة والراحة، وحتى النبالة، في شكل ووضعية عنقه، وحركة منكبية التي تنم عن القوة والعذوبة في آن واحد، وفي نظرته التي تعبر عن السكينة والاطمئنان. ووراءه، كان يمشي العجوز «بلاتون» حاملاً سلة معلقة في ذراعه. وكثيراً ما كانا يخرجان سوية. وكانت نظراتهما تجول في كلّ الاتجاهات، كأنهما يبحثان عن شخص مّا، وأخيراً لمحا «نيقولا» فبدت البهجة على وجهيهما.

فقال «نيكيتا»، وهو يقترب منه:

- آه! يا صاحب السعادة، عندما علمت أنه سيحدث تمرد، وأنه يجري التحضير له، اعتقدت في الحال، أنك ستشارك فيه، وأنك ستكون هنا في هذه الساحة! فبحثت عن «بلاتون»، واصطحبته معي، وها نحن الاثنين، معاً!

وقال «بلاتون» وهو يربّت على غطاء سلّته:

- لقد جلبت لك بعض المؤن: سجق، جبن، خمر، وخيار مملّح «مخلل»!

فقال له «نيقولا»:

- هذا لطف منك، ولكني لست بحاجة لشيء.

فصاح «بلاتون»:

- وكيف، يجب أن تأكل لتحصل على القوة! وبهذا المعطف الرقيق كالقشرة، ستصاب بالبرد! وقد أحضرنا لك فروية جيدة تناسبك! وهي قديمة بعض الشيء، ولكنها ستدفئك!

وألقى «نيكيتا» على كتفي «نيقولا» «فروية»: معطفاً مبطناً بالفرو، رخواً وثقيلاً، و قد قرض العث بعض جوانب فروه.

وأضاف «بلاتون» بحماسة:

- وبهذه تستطيع أن تنام ليلة بكاملها إذا شئت، دون أن تشعر بالبرد!

كان «نيقولا» متأثراً ومنزعجاً في آن واحد، من هذه المبادرة لخدمته، فقد بدا له أنّ رفاقه يراقبونه بشيء من السخرية: ثوري يخدمه خدمه حتى في ميادين القتال، ويريد كل وسائل الراحة والرفاهية، أثناء النضال في سبيل الحرية!

وقال:

- أشكركما، يا صديقيّ، والآن، هيا، اذهبا!

فسأله «نيكيتا» وقد شعر بخيبة الأمل:

- ألا تريد أن نبقى معك؟

- كلا، كلا! مكانكما ليس هنا!

- لن نبقى أكثر من ساعة، يا سيدي، لكي نرى كيف ستربحون المعركة!

- لا جدوى من الإلحاح، يا «نيكيتا»! فهذه قضية عسكرية! وعسكرية، تماماً، بكل معنى الكلمة!

و «بلاتون» الذي بدا حائراً، منذهلاً، أخذ يكثر من التحيات والانحناءات، وقال:

- هذا مفهوم، يا سيدي، يا سبب فرحتنا وسعادتنا! مفهوم تماماً، ولكن، يجب أن تقول لنا ماذا ينقصك أيضاً...

- لا شيء.

- أتريد قليلاً من مشروب «الروم»؟

- كلا.

- أتريد تبغاً؟

- كلا، ولا أريد تبغاً.

وأخيراً، انصرف «نيكيتا» و «بلاتون»، فنادى «نيقولا» رفاقه وفتح السلّة. فتوزعت المؤن في لمح البصر.

وقال «يوري ألمازوف»:

- كان عليك أن تطلب منهما إحضار المزيد من هذه «السجقات» فهي شهية، إنها تحفة رائعة!

وبينما كانوا يأكلون، اصطفت فصيلتان من الحرس الخيالة أمام مربع المتمردين، وكأنهما تستعدان للقيام بمهاجمتهم.

فقال «أودويفسكي»:

- أيها السادة، يبدو لي أننا بدأنا ندخل في المرحلة الحاسمة. فماذا نعمل؟

فقال «غوليتزين»:

- لا يمكننا أن نظل بدون قائد! وبما أنّ «تروبيتزكوي» لم يحضر، فعلينا أن ننتخب ديكتاتوراً آخر، لهذا اليوم.

فهمهم «كوهيلبيكر»:

- من السهل قول هذا، ولكن ليس بيننا من يحمل لقباً، أو رتبة تؤهله لتقلد هذا المنصب!

وقال «أودويفسكي»:

- «أوبولنسكي»، أنت الأرفع رتبةً، وعليك أن تتولى القيادة!

فقال «أوبولنسكي» معترضاً:

- أبداً، وعلى الإطلاق!

فعلّق «نيقولا» فرويته على حاجز التمثال، وتقدّم إلى أمام الجنود الذين كانوا عاجزين، خدودهم زرقاء، أنوفهم تسيل، نظراتهم ساهمة وشاردة في الفراغ، بكل حيرة وغباء.

فصاح بهم «نيقولا»:

- إيه! أيها الشجعان، أنا أرتدي الملابس المدنية، ولكني خدمت كملازم في الحرس «الليتواني» أثناء الحرب الوطنية، فهل أنتم مستعدون لإطاعتي؟

فأجابته بعض الأصوات المبحوحة:

- سعداء بأن نخدمك، يا صاحب السعادة!

عند ذلك، وبسعادةٍ، دهش منها هو نفسه، أصدر أمره:

- استعد!... تنكّب سلاحك! بالصف ضد الخيالة! في المرة الأولى، تطلقون النار في الهواء! وفي المرة الثانية، على قوائم الخيل!...

وكان الحراس الخيالة قد بدؤوا يتحركون للقيام بهجوم من مسافة قصيرة. ولكنّ ضيق الممر وكون الأرض مغطاة بطبقة رقيقة من الجليد،

كل هذا كان يعيق الخيل ويمنعها من أن تسرع في سيرها: كانت تتردّد، تجمح وتنزلق، بينما كان المتسكعون والفضوليون، الذين تجمعوا حول الحواجز، يقهقهون ضاحكين.

واخترقت الجو إحدى القذائف، دون أن يصاب أحد بأذى. ومع ذلك، فإنّ بعض الخيول التي أجفلت وذعرت أخذت تجمح بعنف شديد. فسقط من جراء ذلك ثلاثة فرسان وأحدث ذلك ضجة كبيرة، وكان أحد هؤلاء، وهو ضابط صف، ضخم الجثة، أحمر الوجه، نهض وهو يشتم، مزمجراً:

- أبناء الكلاب! لتكن أمهاتكم...

وعرفه بعض الجنود الذين يقفون في مربع المتمردين:

- مما تشكو يا «ليسّنكو»؟ لقد أطلقت النار في الهواء، وفوق رؤوسكم! تعال وانضمّ إلينا!...

فغمغم «لسّنكو»، وهو يضع رجله ثانية في الركاب:

- لا أستطيع!

- لماذا؟

- إنهم يراقبوننا، انتظروا حتى يخيم الظلام، وعند ذلك ننضم إليكم!

- وهل هذا مؤكد؟

- إني أقسم على ذلك!.. إلى اللقاء قريباً، أيها الشباب!...

وبناءً على أوامر ضباطهم، المشددة، عاد الحراس الخيالة، متراجعين على الوراء، أعادوا تنظيم صفوفهم، واستأنفوا الهجوم وهم يصيحون: «عاش نيقولا!»، «يحيا نيقولا!»

وفي هذه المرة، أخذ الفضوليون والمتفرجون، يلقون عليهم من أعلى الأسطحة ويقذفونهم بالحجارة، بقطع الخشب والحطب، بكتل الثلج. وحدث إطلاق نار أكثر دقة، من المربع، فسقط، بثقل، بعض الخيالة، ومنهم من لم يستطع النهوض، فحملهم رفاقهم، وابتعدوا بهم. فأخذ

الجمهور يصفق، كما يفعل لمشهد يراه على المسرح. وكان «نيقولا» راضياً، ومسروراً من نفسه، وهنأ جنوده بلهجة القائد المنتصر وعلى طريقته:

- شكراً، أيها الشباب! لقد قمتم بعمل رائع!

وحدثت بعد ذلك ثلاث هجمات فاشلة، ثم غيّر الخصم خطته. والعميد «ستورلير» الذي انضم «رماته» إلى المتمردين، أسرع لكي يصدر لهم الأمر بالعودة إلى الثكنة.

فقال له «أودويفسكي»:

- انصرف من هنا! أنت تجازف بحياتك وتعرض نفسك للموت!

وأمسك جنديان بذراعي العميد، واقتاداه بالقوة، كما لو أنهما كانا يخرجان سكيراً ثملاً جداً، من إحدى الحانات. ولكنه تخلّص منهما، وعاد وهو يتميز غيظاً، فوقف أمام المتمردين وهو يخبط الأرض بقدميه، ويصيح مردّداً، بنبرة ألمانية:

- خونة! خونة!

فصاح به «كاخوفسكي»:

- اسكت!

وأفرغ، عن قرب، مسدّسه على العميد، فرفع هذا يديه نحو السماء، استدار ببطء حول نفسه، كمن يقوم بحركة من حركات الرقص، وصاح: «أش! أخ! غوتّ!» وانهار على الأرض. فرفعه بعض «الرماة» ونقلوه وهو يعرج، نحو مركز هيئة الأركان، ولكنهم تركوه في منتصف الطريق الموصل إلى هناك. وأعاد «كاخوفسكي» مسدسه إلى مكانه في نطاقه. وكانت ملابسه البنفسجية اللون، البالية عند المرفقين، والحائل لونها حول الإبطين، تُبرز كثيراً نحول وشحوب وجهه، الناجمين عن المرض.

وقال له «نيقولا» وفكّه يرتجف:

- ألم يكفك أنك قتلت ميلورا دوفيتش»؟!

فردّ عليه «كاخوفسكي» قائلاً:

- يجب أن يعرف المرء ماذا يريد في الحياة: القيام بالثورة أم تقديم المجاملات؟!

والجنود الذين أثارتهم الفودكا ورؤية الدم، أخذوا يسألون والآن، لماذا لا يطلبون منّا أن نقوم بالهجوم؟

فقال لهم «نيقولا»:

- أما سمعتم ما قال «ليسّنكو»؟ انتظروا حتى يخيم الظلام، عند ذلك سيأتي الذين لا يجرؤون على الظهور في وضح النهار لينضموا إلينا ويضاعفوا عددنا. وجميع فرق المدينة سوف تصبح، في نهاية الأمر، معنا!

ولم يكن بعيداً عن أن يصدق ذلك، هو نفسه.

وقال الجنود، متذمرين:

- لقد طال الانتظار! ونكاد نتجمد!

وفجأة، أخذ الأكثر تذمراً يبدو عليهم الهدوء، وبدؤوا، الواحد بعد الآخر، ينزعون قبعاتهم، يحنون رؤوسهم، ويرسمون إشارة الصليب على صدورهم بالتمهل الذي تتسم به حركات القرويين. و «نيقولا» الذي أدهشته موجة التقوى هذه، التي غمرتهم، وقف على رؤوس أصابع قدميه، وأخذ ينظر بعيداً، فرأى عربة فخمة تقف في وسط الساحة، وينزل منها كاهنان:

رئيس الأساقفة «سيرافان» بملابسه الكهنوتية المصنوعة من المخمل الأخضر، وكاهن آخر، ثوبه الكهنوتي من المخمل الأحمر الورديّ.

وعلى الفور فهم «نيقولا» الحيلة: فلأن القوة لم تجد نفعاً، فقد لجأ الدوق الأكبر إلى استخدام الدين. وأخذ الكاهنان يتشاوران بصوت خافت، في وسط جمهور بدا وكأنه يحترمهما، ولكنه كان يتدافع بإلحاح وقد نفد صبره. وبدا واضحاً أنهما لم يحضرا بملء رضاهما، فقد كانا

عجوزين، تقدمت بهما السنّ كثيراً، وكانا يقفان، على ما يبدو بفضل ملابسهما الكهنوتية القاسية التي تسندهما من جميع الجهات. وكان الخوف بادياً على وجهيهما المتطاولين تحت قلنسويتيهما المرصعتين بالأحجار الكريمة المتلألئة. وتقدّم رئيس الأساقفة «سيرافان» بمفرده نحو المتمردين. ومع كل خطوة، كانت عظام جسمه توشك على الانهيار. وعثنونه الأبيض يهتز عند كل خطوة، وبدت عيناه طافحتين بدموع الشيخوخة. ورفع الصليب بيده التي بدت مجدولة بالأوردة الزرقاء، وقال بصوت ينبض بالانفعال والتأثر:

- أيها المحاربون الأورثوذكس، الزموا الهدوء! الآن، أنتم تتمردون على الله، على الكنيسة وعلى الوطن!

فصاح «أودويفسكي»:

- وأنت، يا صاحب الغبطة، لقد أدّيت القسم في فترة اسبوعين لإمبراطورين مختلفين! ولا ينبغي لرجل الكنيسة أن يتصرف هكذا!!

فردّ رئيس الأساقفة، قائلاً:

- لقد تخلى الدوق الأكبر «كونستنتان» عن التاج! والله شاهد عليّ، بأني أقول الحقيقة!

فقال «كاخوفسكي»:

- ليس لله أي علاقة في ذلك! فهذه قضية سياسية! هيا، انصرف من هنا!

فانتفخت وجنتا رئيس الأساقفة الصغيرتان والمجعدتان، والغيظ حررّ ذهنه من الخوف. وازداد طولاً بما يقرب من ثلاث بوصات، وزمجر، قائلاً:

- من أنت حتى تتكلم هكذا، وبهذه اللهجة؟ يا لك من كافر، ملحد! تتجاسر على القول أنك تؤمن بربنا ومولانا، القادر على كل شيء!

فقال «كاخوفسكي»:

- أنا أؤمن بربنا ومولانا القادر على كل شيء. وأضاف، وهو يضع يده على قبضة مسدسه:

- وهل تريد الدليل على ذلك؟ أعطني الصليب لأقبّله!

فهمس الكاهن العجوز:

- كلا!

- أرجوك، أنا بحاجة لذلك...

ونظرة من «نيقولا» كانت كافية لكي يتبين له أنّ «كاخوفسكي» لم يكن يمزح. فبعد أن قتل ميلورا دوفيتش» و «ستورلير»، أحدهما بعد الآخر، فهو يطلب عون الدين من كاهن، هو لا يكنّ له، مع ذلك، أقل قدر من الاحترام.

وفكّر رئيس الأساقفة، ثم مدّ الصليب بحركة متردّدة، وغير مطمئنة، كما لو أنه كان خائفاً من أن تعضّ يده. ولا مست شفتا «كاخوفسكي» الصورة المقدّسة.

فقال «غوليتزين»:

- وأنا!

وقال «أودويوفسكي»:

- وأناّ

وقال «نيقولا»:

- وأنا!

وأخذ المتمردون يقتربون، الواحد بعد الآخر، من الكاهن ويرسمون إشارة الصليب. وعندما أتى دور «نيقولا» تجمدت جميع أفكاره. ولم يعد ينتبه إلا على لمسة المعدن، وأثرها البارد على فمه.

وصاح «يوري ألمازوف»:

- الآن، أصبح المسيح معنا!

فردّد بعض الجنود:

- المسيح معنا! «هورّا!» مرحى! عاش كونستنتان! ورئيس الأساقفة، وقد استشاط غضباً من الدعم المعنوي، الذي قدمه، دون أن يريد ذلك، إلى حركة التمرد، ضمّ الصليب إلى صدره، وقال:

- أفواه الملحدين تتحول إلى عفن ونتن وتسقط! والمسيح لا يُسرق كما تُسرق تفاحة عن «بسطة» بائع الفاكهة! أيها المحاربون الأرثوزكس، إني أناشدكم للمرة الأخيرة...

وأولئك الذين قبلوا الصليب للتوّ، قاطعوا الكاهن، وهو يتكلم. وصاح «غوليتزين»:

- يكفي! عد إلى الكنيسة، إذا كنت لا تريد أن يحدث لك مكروه! وبسرعة! وبسرعة! فقد رأيناك بما فيه الكفاية!...

وامتشق حسامه، فاقتدى بع بعض الضباط، وتلاقت السيوف واحتكت ببعضها فوق رأس الكاهن. فانكمش في ثوبه الكهنوتي، كالسلحفاة عندما تدخل رأسها في قوقعتها. فأسرع شماسان لنجدته واقتاداه بصورة احتفالية.

ولم يكد رئيس الأساقفة يغادر الساحة، حتى وصل موفد آخر: إنه الدوق الأكبر «ميشيل بافلوفيتش»، بالذات، الأخ الأصغر للدوق الأكبر «نيقولا بافلوفيتش». كان له أنف طويل ضخم وشفتان صغيرتان رقيقتان ومضمومتان، ونظرة تنمّ عن الغطرسة والكبرياء. ومن على صهوة جواده، صاح بصوت مرح، وكأنه في احتفال أو في استعراض عسكري»:

- سلاماً، أيها الفتيان!

فردّ عليه الجنود، بحكم العادة:

- أوفر الصحة لسموّك الإمبراطوري!

فتابع الدوق الأكبر «ميشيل بافلوفيتش» كلامه:

- إني قادم من فرسوفيا، وقد قابلت أخي «كونستنتان»...

فصاح «أودويفسكي»:

- ولكننا نحن لم نقابله، ولم نره!

وهذا ما كان ينبغي قوله لإلهاب حماسة الجنود، فانطلقت ردودهم كالنار في الهشيم:

- نعم، لماذا لم يجعلونا نراه؟

- ربما أبقوه سجيناً في فرسوفيا؟!

- فليأت وليقل لنا هو بنفسه: «لا أريد أن أصبح قيصراً!» عند ذلك، نصدقه!...

وأراد جنرال، كان يرافق الدوق الأكبر «ميشيل بافلوفيتش» التدخل في النقاش، فقال:

- كيف يمكنكم أن ترفضوا تأدية القسم في حين أنّ قادتكم ضربوا لكم المثال وسبقوكم إلى ذلك؟

وصاح أحد الرماة، وقد اختبأ وراء أحد رفاقه، كمن يختبئ خلف شجرة:

- بالنسبة للسادة القادة، ربما كان لا يعني شيئاً أن يؤدوا يمين الولاء كل يوم لقيصر آخر! ولكن، بالنسبة لنا، فالأمر في غاية الجدّ!، ولا نستطيع أن نفعل ذلك!...

فصرخ الجنرال:

- من الذي تكلم؟ من الذي تجرّأ على الكلام؟!

وبإيعاز من «أليكسندر بيستوجيف»، قرعت الطبول بقوة، فغطى دويها صوت الجنرال. وعند ذلك لوى الدوق الأكبر «ميشيل بافلوفينش» عنان حصانه، وانطلق يعدو به خبباً، تتبعه حاشيته الصغيرة، المزركشة.

وفي حوالي الساعة الرابعة، اكفهرت وأظلمت السماء، وهبت رياح جليدية قادمة من خليج فنلندة، عصفت بالساحة، وخيّم الظلام بسرعة، مكثفاً الغيوم، وماحياً خطوط المنازل. فأخذ رجال الشرطة يحاولون عبثاً دفع الجمهور نحو الشوارع الجانبية. وكان «نيقولا» يقول في سره إنه كان على فرقة موسكو أن تحرّض على التمرد والعصيان فرقاً أخرى، قبل أن تتجمع هنا في هذا المربع، وإنّ بحارة الحرس قد ارتكبوا خطأ فادحاً بعدم إحضارهم بعض المدافع معهم. وإنّ الرماة، بقليل من الجرأة، كان بإمكانهم أن يحتلوا القصر، ويعتقلوا أعضاء مجلس الشيوخ. وإنّ شيئاً من كل ذلك لم يحصل لعدم وجود قيادة تتولى التنظيم. وقد نتج عن ذلك وضع غريب يتضمن مفارقة كبيرة، لم يكن أحد فكّر به أو توقعه بالأمس: كان الجميع يتصورون الفوز أو الانسحاب.

والحال هي أنّ الذي كان يحصل هنا لا يشبه الانسحاب ولا الفوز. فقد كان الخصوم يراقبون بعضهم عن بعد، وقد أصيبوا بنوع من الجمود أو الشلل، فعجزوا عن التفكير وعن التحرك والتصرف، وأخذوا يشكون بكل شيء، وبأنفسهم قبل أي شيء، يرتجفون من البرد، وربما كان أولئك وهؤلاء نادمين على مجيئهم. ومع ذلك فإنّ مشروع المتمردين على الرغم من عوامل ضعفه وعدم تناسقه وتنظيمه، يظل في نظر «نيقولا» وبالنسبة له حدثاً رائعاً، يدعو إلى الإعجاب. فحتى ذلك التاريخ، أي يوم الرابع عشر من كانون الأول «ديسمبر» سنة ١٨٢٥، حدث في روسيا عدة انقلابات، نفذت بوحشية، في السر وفي الظلام من قبل جماعات تتطلع لتسلم زمام السلطة والحكم، وتعمل لحساب هذا أو ذاك من الطامحين لتسلم العرش. أما اليوم، فللمرة الأولى، في تاريخ روسيا، يسوى الخلاف في الساحة العامة، وفي وضح النهار وعلى مرأى من كل الناس. وقد أخذ الشارع والثكنة يشاركان في العمل السياسي. والشعب الذي كان لا يزال

حتى الأمس لا مبالياً، متبلداً وخائفاً، بدأ ينتفض، يتمرد ويثور باسم القانون والحرية. ولم يكن قد ضاع شيء بعد. وكثير من الجنود في القطعات الموالية لنظام الحكم القائم، لم يكونوا ينتظرون سوى أن تسنح لهم الفرصة، لكي ينتقلوا إلى صفوف المتمردين! ولا شك بأنهم سينضمون إلى رفاقهم تحت ستار الليل!

وكان هذا هو رأي «أوبولنسكي» الذي قبل، في النهاية، القيام بدور القائد العسكري المطلق الصلاحية.

وكان يقول لأصدقائه المجتمعين حوله على شكل مجلس حربي:

- الثبات والاستمرار: ليس هنالك بالنسبة لنا خطة أخرى في الوقت الحاضر.

وفي غضون ذلك كان بعض وصفاء الضباط، من الجنود، قد أحضروا منضدة ووضعوها في وسط المربع. وكذلك، محبرة، ريش، ورق، شمع أحمر، شموع. أي أنّ كل شيء كان جاهزاً لعمل هيئة الأركان. ولكن لم يكن هنالك ما ينبغي أن يكتب.

وغمغم «كاخوفسكي»:

- ثورة جامدة، لا تتحرك!

فقال «ميشيل بيستوجيف»:

- لن تظل هكذا زمناً طويلاً! انظروا! انظروا!

كان تحرك يشبه تحرك الديدان قد بدأ في صفوف قطعات الجيش، الحكومية، وأخذت مجموعات من الرجال تتماوج، وتدور حول نفسها، تتجمع وتتفرّق، عبر الظلام. وفجأة أخذ جنود المشاة الذين كانوا يغلقون مدخل جادة «قيادة البحرية، يفسحون الطريق، لكي تمر أربعة مدافع، صُفّت على شكل مجموعة، على مسافة لا تزيد عن مئة خطوة عن مقدمة المربع. فقفز «نيقولا» فوق المنضدة، لكي يرى بشكل أفضل، وقال:

- والآن، ماذا نعمل؟

فقال «أوبولنسكي»:

- لا شيء.

- وماذا لو أطلقوا النار؟

- لن يجرؤوا على ذلك!

فقال «غوليتزين» مؤكّداً:

- وأنا أقول لك إنهم سيجرؤون. وعلينا أن نهاجمهم قبل فوات الأوان!

فأمّن «نيقولا» على قوله:

- نعم، فعندما يروننا رجال المدفعية، قادمين، فسوف يمدّون لنا سواعدهم ويعانقوننا!

فقال «أبولنسكي» بعصبية:

- لماذا اخترتموني ديكتاتوراً، إذا كنتم منذ الآن، ونحن في بداية المعركة، أخذتم تنتقدون أوامري؟ حمّلوا مسؤولية التحرك الأول للخصم. وجميع الأخطاء تكون من جانبه ويتحمل تبعاتها.

فصاح «غوليتزين»:

- أي أخطاء؟ أمجنون أنت؟ هل نحن نقدّم دعوى أم نقوم بثورة؟

فقال «أوبولنسكي» بلهجة حماسية:

- كل ثورة هي عبارة عن دعوى، والله هو القاضي الذي يصدر حكمة فيها!

وبينما كان النقاش محتدماً، تقدّم الجنرال «سوخوزانيت»، قائد مدفعية الحرس مسرعاً على صهوة جواده، نحو مربّع المتمردين، واخترق صفوف القناصة، وصاح بأعلى صوته:

- انتم ترون هذه المدافع! لقد أراد القيصر أن يمنحكم فرصة أخيرة..

فردّ «ايفان بوسشين»:

- فرصتنا الأخيرة هي الدستور، فهل أحضرت لنا الدستور، يا صاحب السعادة؟

- أنا لم أحضر للتفاوض معكم، بل لأقدّم صفح القيصر وعفوه لرجال مخطئين وضالّين!

فصاح أحد الجنود:

- إذن، اذهب إلى الجحيم!

وقال جندي آخر:

- وأرسل لنا من هو أنظف منك!

كان «نيقولا» يعرف أنّ رجال الحرس يكرهون «سوخوزانيت» ولكنه ما كان ليصدق أبداً أنّ جنوداً روسيين، حتى وإن كانوا قد تمردوا على نظام الحكم، يجرؤون على توجيه الشتائم والإهانة لأحد الجنرالات. ومع تأييده التام لغيظهم ولنقمتهم، فقد انزعج من خشونة وقسوة شتائمهم. لأنه لم يستطع أن ينسى، أنه كان، هو نفسه، ضابطاً. وتنكّب بعض الرماة بنادقهم.

وصاح ضابط صف، شاربه كبير كشارب الفقمة:

- أطلق النار!

فأزّت الرصاصات فوق رأس «سوخوزانيت»، واقتلعت إحداها عدة ريشات بيضاء من قبعته. فنكز حصانه بمهمازه، وأسرع مخترقاً زحمة الجمهور، تلاحقه العيارات النارية، وصيحات السخرية والضحكات.

وقال «ايفان بوسشين»:

- لا تستهلكوا ذخيرتكم على وغد كهذا!

فتوقّف إطلاق النار. واستقبل الدوق الأكبر «نيقولا بافلوفيتش» «سوخوزانيت» أمام مجموعة المدافع. ولا شك أنّ الجنرال كان يقدم له تقريره. فخيّم الصمت على الجموع المحتشدة هناك، وكأن كل فرد

موجود في تلك الساحة أراد أن يسمع حديثهما. وفجأة دوّى أمر، سمعه الجميع على الرغم من بعد المسافة:

- أيها المدفعيون، إلى مدافعكم!

فأشعلت المشاعل وبدت كالنجوم الحمراء، قرب المدافع. وبعد لحظة من الذهول، صاح المتمردون:

- أيها المسيح الدجال! إنك لن تطلق النار على أخوتك!

وبسرعة كبيرة، خطرت «صوفيا» على بال «نيقولا» وأخذ يفكر بها: «أحبك! أحبك! اصفحي عني! فهذا شيء سخيف!» ثم فتح عينيه بكل اتساعهما على الموت، فمن المستحيل الهرب. والأمل الوحيد كان معقوداً على الله. ولا بدّ أنّ المسيحيين الأوائل قد شعروا بالجزع نفسه، وهم متجمعون في الحلبة، بانتظار أن تهاجمهم الوحوش. وهذه الفكرة شجعت «نيقولا» وقوت من عزيمته: «لكي يسلم شرفنا، جميعنا، ولا يمس بأذى أو بسوء، لا بد أن تحدث المذبحة. فهي ستنقذنا من سخرية واحتقار الأجيال المقبلة. وإذا بقينا على قيد الحياة، فسوف نعتبر من أصحاب الأوهام والأحلام، أما إذا متنا فإنّ التاريخ سيصفح عنا ويعظمنا ويخلد ذكرنا!»

ومن حوله، كانت تلوح على الوجوه تعابير التصميم الحزين والمأتمي. وصاح بأعلى صوته:

- «هورّاه»! مرحى! عاش «كونستنتان»!

وفي اللحظة نفسها، انطلقت قذيفة جعلت الأرض ترتج تحت الأقدام. وأصابت طلقات المدافع الرشاشة واجهة بناء مجلس الشيوخ، فتطاير زجاج النوافذ كالمطر، محدثاً جلبة قوية. وبعض الفضوليين الذين كانوا يجلسون على إفريز هناك سقطوا في الفراغ ببطء كأنهم يغوصون في الماء.

فصاح «أوبولنسكي»، وهو يمتشق حسامه:

- اتبعوني، أيها الشباب!

وأخيراً، فقد قرّر القيام بالهجوم. ولكنّ بريقاً انبثق متوهجاً عند زاوية الجادّة. والقذيفة الثانية وقد سُدّدت بشكل أفضل، فتحت حفرة كبيرة أمام مربع المتمردين. وكانت فاعلية المدافع الرشاشة عن مسافة لا تزيد عن مئة خطوة، شديدة جداً، وقاتلة بقوة، لدرجة أنّ الجنود الذين يصابون كانوا يتساقطون دون أن يرسلوا أي صوت أو شكوى، وينهارون الواحد بعد الآخر، مثقلين ببنادقهم، بجعبهم وبخوذاتهم. وهذه الانهيارات الصامتة ذكرت «نيقولا» ببعض صور الكوابيس التي كان يراها في طفولته، عندما تحدث أسوأ الكوارث عبر الصمت، ولا يجد النائم نفسه أنّ له صوتاً لكي يصرخ. وكانت قد أصابته على وجهه بعض شظايا الحجارة والجليد. ومع ذلك فهو لم يصب بجروح خطيرة ولم يسيل منه الدم. وكان يلهث من شدة الخوف والغيظ. وإذا كانت الثورة بحاجة لما يبررها، فقد بررتها الآن قسوة ووحشية القمع. والجمهور الذي استبدّ به الذعر، أخذ يهرب من الساحة تاركاً الجثث السوداء، متكوّرة وهي ملقاة على الثلج، ولكنّ المنافذ كانت مغلقة، وقد أغلقت بإحكام لمنع الهروب. وكان المدنيون يلوّحون بقبعاتهم وبمناديلهم، رافعين أيديهم، طلباً للعفو وللسلامة والنجاة. وغطّت طلقة مدفع، ثالثة، كل شيء بدخانها. وبالقرب من «نيقولا» انتفض عازف مزمار من فوج الرماة، فتح فماً كفم السمكة، وانهار وهو يشدّ على بطنه بكلتا يديه. ومن بين أصابعه انبثق الدم كما ينبثق النبيذ من قربة عندما يضغط عليها بقوة. والجنود الذين ظلوا واقفين، تابعوا إطلاق النار على الجنود الموالين للحكومة. ولكنّ ردّهم كانت تنقصه الشدة والحماسة، وكان البعض منهم قد أخذوا يلتفتون يميناً ويساراً، وقد تراخت حركاتهم، ولم يعودوا يفكرون ألا بالنجاة بأرواحهم. ووضع «أوبولنسكي» يده على كتف «نيقولا» وهمس في أذنه:

- إنها النهاية!.. لقد خسرنا المعركة، وضاع كل شيء!...

فقال «كوهيلبيكر»:

- لقد ضاع كل شيء، ولكننا نكون بما فعلنا قد أعطينا درساً لأبناء وطننا!

فقال «نيقولا» بقوة:

- نعم، كان علينا أن نقوم بذلك، ولا بد منه! وأنا لست آسفاً، ولا نادماً على شيء!...

كان المتآمرون يتصافحون، يشدّون على أيدي بعضهم ويتعانقون، وقد بدت على وجوههم آمارات البطولة والحنان. وكان هذا المشهد خيالياً، وهمياً، لدرجة أنّ «نيقولا» كان لديه انطباع، بأنه سبق له أن مات، وأنه يلتقي الآن، مع أصدقائه في العالم الآخر. وأحدثت طلقة مدفع رابعة، الفوضى في صفوف المتمردين.

- فلينجُ بروحه، من يستطيع!

فتشتّت المربع، وتراكضت شراذم الهاربين في كل الاتجاهات. وأخذ «نيقولا» يركض مع الآخرين، وهم يتعثرون به تحت وابل من رشقات المدافع الرشاشة، ورأى «أوبولنسكي» وهو يحاول أن يمسك أحد الرماة من كمه، وهذا يحاول الإفلات وهو يصرخ بأعلى صوته. وأخذ جنود فوج موسكو يدفعون المدنيين ويوقعونهم أرضاً، وهم يندفعون بسرعة باتجاه شارع «لي جالير»، وتبعهم «نيقولا». وفي الحال أدارت المدافع فوهاتها، وسدّدت رماياتها نحو هذا الممر الضيق. وكانت الشظايا تصطدم بالواجهات وتتناثر فتجرح المارة الذين احتموا في الزوايا. وكانت النسوة، اللواتي أصبن بالجنون من شدة خوفهن، يقرعهن بقبضاتهن أبواب المنازل طلباً للملجأ، ولكنّ الأبواب كانت تظل مغلقة. والسكان الذين قبعوا في منازلهم خائفين، كانوا يرفضون أن يفتحوا أبواب بيوتهم للموت، وكان هنالك خادم يعمل في أحد محال بيع الحلوى، سقط على الثلج، وقد تناثرت حوله

الفطائر والحلويات. وموظف أصلع، في عنقه صليب «القديسة- آنّ» رافع ذراعيه نحو الساحة وهو يصيح: «أيها القتلة!» وبجواره، سيدة بدينة، جالسة وقد أسندت ظهرها على الجدار، وعلى رأسها قبعة مزدانة بالريش، بدت وكأنها مستغرقة في النوم، ومن أنفها كان يسيل على فمها سائل أحمر.

وأحد الجنود الذي كان هارباً، دون بندقية ودون قبعة، تدحرج قرب قدمي «نيقولا»، وظل يحرك ساقيه بهدوء كأنه يدفع بهما غطاء فراشه.

وكان دمه الحار يذيب الثلج ثم يتجمد مشكلاً قشرة رقيقة حمراء ذات بريق فضي.

واغتنم «نيقولا» فترة ساد فيها الهدوء، فسار مسرعاً في شارع جانبي، ووصل إلى رصيف مقر «قيادة القوى البحرية»، حيث كانت الأجساد ملقاة بأعداد كبيرة ومكدسة كالملابس عند باب المكان الذي ستغسل فيه. وفي تلك اللحظة، تبادر إلى ذهنه أنه الوحيد بين المتآمرين، الذي بقي على قيد الحياة. وعندما انحنى على الحاجز، لمح في الأسفل، جنوداً يتزاحمون مسرعين على جليد النهر. وكان «ميشيل بيستوجيف»، يحاول أن ينظمهم في فصائل من أجل عبور «النيفا»، فكانوا كقطيع رمادي انتشر في صحراء بيضاء.

فصاح «نيقولا» وهو يتخطى الحاجز: انتظروني!

وفجأة، التهب الأفق وتبدّد الظلام. فقد كان هنالك بطارية مدفعية، متمركزة في وسط الجسر، تطلق حممها على الهاربين الذين يبدون للرجال المشرفين عليها، ولم يتح لـ «نيقولا» سوى الوقت الكافي لكي يرتد إلى الوراء، كانت القنابل ورصاص الرشاشات تنهمر على الجموع بغزارة. وعبر سحابة كثيفة من الدخان ومن الثلج المتطاير، كانت تتخبّط أشباح ترتدي البزات العسكرية الرسمية. وبين رشقتين من رمي المدفعية، صاح «ميشيل بيستوجيف»:

- إلى الأمام، أيها الشباب!... إلى القلعة!... وبشكل فوضوي، ودون أي تنظيم، انطلقوا كلهم خلفه. ولكنّ القصف استؤنف. و «نيقولا» الذي ظلّ على الضفة، أعتقد أنه ضحية خداع بصري: كانت بعض الخطوط الأفقية تنحني بشكل سريع لا يكاد يلحظ. وهنالك شيء يتأرجح وينقلب ببطء في منظر الموقع الذي كان يراه. فأدرك برعب أنّ الجليد، وقد حطمته القنابل، أخذ ينهار تحت ثقل الجمهور. وكانت بعض الجزر الصغيرة البيضاء، تدور حول نفسها، تتأرجح، وتنتصب مقدمتها نحو السماء، وكأنها مقدمة إحدى السفن، وتلقي في الماء حملها من الأشخاص الذين يشبهون النمل الملتصق بها. وفي الصدوع والثغرات كان الجنود يتخبطون، يصرخون، يتشبث بعضهم بالبعض الآخر، ويغوصون في أعماق المياه. والذين تابعوا طريقهم على الجليد الثابت، كانت تحصدهم طلقات المدافع الرشاشة. ومع ذلك، فقد استطاع بعضهم الوصول إلى ضفة النهر الأخرى، واختفوا، وقد ابتلعهم الضباب الكثيف. وعندما لم يعد «نيقولا» يراهم، شعر بتعب شديد، كان منهكاً، مهموماً، يشعر بأنّ رأسه ثقيل، وأنّ القذارة والأوساخ تغطي كل جسمه.

كانت لا تزال العيارات النارية تدوّي، من جهة الجسر، ومن جهة مقر مجلس الشيوخ. ووقع حوافر الخيل يدوّي في الشوارع المقفرة. وحاول «نيقولا» الابتعاد عن هذه الأماكن التي لا يزال يدور فيها القتال، دون أن يعرف إلى أين يجب عليه أن يذهب. فمن المحتمل تماماً أن يكون منزل «كوستيا» الكائن في حي «القديس اسحاق» قد وضع تحت المراقبة.

كما أنّ منزل «ريلييف» أيضاً لا يمكن أن يكون ملجأ آمناً. والشرطة سوف تعثر، إن عاجلاً أم آجلاً على جميع أعضاء الرابطة. وعندما تذكر «نيقولا» رفاقه وأخذ يفكّر بهم، وهو يعرف أنّ عدداً كبيراً منهم قد قتل أو جرح، شعر بالخجل الشديد لكونه لا يزال مهتماً بأمنه، وبسلامته

الشخصية. كان إخفاق الثورة قد بدّد كل أحلامه، وتركه دون أيّ أمل، وكأن أنبل مبرر للعيش والحياة، بالنسبة له، قد اختفى وزال من الوجود. وخطرت له فكرة المرور إلى منزل «ستيبان بوكروفسكي»، الذي أعاقه التواء كاحله عن الذهاب إلى ميدان مجلس الشيوخ. وهو يسكن إلى جانب قناة «كريوكوفّ»، في غرفة أجرتها له أرملة أحد الموظفين.

وعندما وصل «نيقولا» إلى غرفة رفيقه، كان هذا على علم بكل ما حدث. وادّعى أنه يعرف بصورة مؤكدة أنّ «ريلييف» وبقية المتآمرين الرئيسيين قد عادوا إلى منازلهم، سالمين، دون أن يصابوا بأذى. وهو نفسه كان يتميز غيظاً لأنه اضطر أن يبقى في البيت وفي رجليه خف ناعم وظريف، بينما كان أصدقاؤه يجابهون المدافع الرشاشة. وكان عزاؤه الوحيد هو أن يقول لنفسه إنّ الحكومة إذا أمرت بالقيام بالبحث، وبالتحريات اللازمة، فسيلقى عليه القبض، هو أيضاً، لأنه اشترك بالمؤامرة.

وقال بحماسة واندفاع:

- أنت تعلم، يا «نيقولا» أنه في قضية كقضيتنا، ليس هنالك إخفاق! وإلا فينبغي أن نتحدث عن إخفاق حصل مع السيد المسيح، عندما أمسكوا به، ضربوه، شتموه وصلبوه! وربما نكون قدّمنا لروسيا من الخير في استشهادنا في سبيل الحرية أكثر من أن نكون خرجنا منتصرين من هذه التجربة!...

كان يجلس مسترخياً على أريكة، وقد مدّ ساقه اليمنى على اسكملة، وكان يتحدث وكأنه يهذي، وهو يبدو ظريفاً كأحد الفلاسفة. وكانت نظراته العذبة تتلألأ خلف نظارته ذات الإطار الذهبي. ويداه الناصحتان تتحركان كالعصافير عبر ضوء المصباح. وعلى الجدران كانت معلقة بعض الصور التي رسمت بقلم «بيستيل» لسيدات في منتصف العمر. وهزّ «ستيبان بوكروفسكي» جرساً صغيراً، فأحضرت خادمة بعض المأكولات الجاهزة على صينية وكان «نيقولا» أكثر انزعاجاً من أن يهتم

بالطعام. ولكنه، عند رؤية الفروج البارد والنبيذ، تحرك لديه جوع مخجل وأخذ «يقرصه» ويعذبه. وهكذا فالجسم يأخذ بالثأر وينتقم لنفسه، فأكل وشرب بشراهة. وبعد ذلك أخذا يناقشان أسباب الفشل والهزيمة. أحقاً، كان ينبغي التخلي عن أي أمل؟ و «اتحاد الجنوب» ألم يبادر بالتحرك والعمل، بقيادة «بيستيل» في المقاطعات الجنوبية؟ ألم يكن هنالك فرصة صغيرة للفوز في تلك الجهة؟

وانقطع الحديث بسبب وصول «كوهيلبيوكر» الذي كان قادماً من منزل «ريلييف» وقد رأى هناك، بالإضافة إلى صاحب المنزل، الذي كان يحرق بعض الأوراق، ويرتب أضابير الشركة «الروسية- الأميركية»، «ايفان بوسشين»، «يوري ألمازوف»، «ستينهيل» «أوبولنسكي»، «باتنكوف»، «كاخوفسكي»، وأيضاً غيرهم.... وجميعهم، حسب ما قال «كوهيلبيكر» كانوا محبطين حزينين، لا يتكلمون إلا نادراً، يشربون الشاي، يدخنون «السيجار» منتظرين اللحظة التي يلقى فيها عليهم القبض.

وقال «كوهيلبيكر»:

- ويمكن لمن يراهم أن يقسم أنّ أعصابهم قد قطّعت أو تحطّمت وأنّ أرادتهم قد سُلبت منهم!

فسأله «نيقولا»:

- وأنت، ماذا تنوي أن تفعل؟

- أنوي الهرب!

- سيلحقونك بسرعة ويلقون عليك القبض!

- لديّ خطتي! أولاً، سأحاول الوصول إلى مزرعة أختي، الكائنة بالقرب من «سمولنسك»، وهناك، لا بدّ من أن أجد خادماً مخلصاً، يعيرني ملابسه وجواز سفره. وبعد أن أرتدي تلك الملابس، وأتنكّر بها، أجتاز الحدود، واذهب إلى ألمانيا!

فصاح «نيقولا»:

- إلى ألمانيا؟ ولكن... هذا مستحيل!... أتغادر روسيا؟...

وتتخلى عن كل شيء؟

- وعن أيّ شيء سأتخلّى؟ عن رجال الشرطة؟ الحراس القساة؟ أم عن الطاغية الدموي؟!...

- ستتخلى عن وطنك، عن سمائك، عن أفقك ومستقبلك، وعن ذكرياتك...

فقال «كوهيلبيكر»:

- هذا ليس سوى كلام! وعليك، أنت أن تقتدي بي، وتحذو حذوي: فزوجتك فرنسية، أليس كذلك؟ إذن، هيا! اذهب واجتمع بها، واهربا معاً إلى فرنسا، بأوراق وجوازات سفر مزورة.

- وكيف أبدو عند ذلك أمام الرفاق، وفي نظرهم؟

- تبدو كرجل لديه حسّ الواقع. وإذا بقينا لكي يلقوا علينا القبض جميعنا، فإننا نخسر قضيتنا نهائياً، وتضيع إلى الأبد. وأنت إذا كنت حراً طليقاً في فرنسا، تكون أكثر نفعاً وفائدة لنا من أن تكون سجيناً في روسيا!...

فأثّرت هذه الملاحظة في «نيقولا». وتصوّر نفسه وقد وصل ليلاً وتحت جنح الظلام إلى «كشتنوفكا»، وأخذ يشرح كل شيء لـ «صوفيا»، ويستعد وإياها للقيام بهروب رومانتيكي... وبعد ذلك، أدرك فجأة، أنه لن يفعل شيئاً من ذلك. فهو لم يكن يتصوّر أنّ رجلاً شجاعاً يقبل أن يغادر وطنه لكي ينجو من العقوبة. ولأنه وضع أفضل ما لديه في هذا المشروع وقد انتهى هذا المشروع بكارثة، فلم يبق عليه ألا أن يدفع الثمن، ويسدّد الدين بكامله، وحتى النهاية. وكانت هذه، بالنسبة له، مسألة استقامة وشرف.

ولذلك قال:

- كلا، إني لن أتحرك، وعلاوة على ذلك، فليس من المؤكد تماماً أنهم سيقبضون علينا.

فقال «ستيبان بوكروفسكي»:

- إنّ «نيقولا» على صواب فيما قال، وأنا لن يدهشني أن يعمد القيصر إلى إصدار قانون بالعفو العام، احتفالاً باعتلائه العرش.

فصاح «كوهيلبيكر»:

- أنتم تعتقدون أنكم في جنة الفردوس! فتعساً لكم! أما أنا، فأقول لكم: وداعاً!

وبسط ذراعيه، فبدا ظلّه على الجدار كظلّ «دون كيشوت». وبعد ذهابه، قال «ستيبان بوكروفسكي»:

- واضح تماماً أنه من أصل ألماني: ولذلك فالهجرة ليست شيئاً يذكر، بالنسبة له!

وبقي «نيقولا» فترة طويلة يتحدث مع صديقه، كان يشعر بأنه نظيف، جاهز وفي أحسن حال، بعد أن اتخذ قراره، وكأنه قد استحم في أحد الأنهار. وأخيراً، عند الساعة الثانية صباحاً، قرّر أن يعود إلى البيت. فودّعه «ستيبان بوكروفسكي» من على أريكته.

كان الليل حالك الظلام والجليد يلف المدينة، والأماكن المجاورة لقناة «كريوكوف» مقفرة وهادئة، ولكنّ «نيقولا» لم يكن يثق بهذا الهدوء. وقام بدورة كبيرة، دون أن يسلك الطريق المباشر للوصول إلى منزل «كوستيا لادوميروف». وبقدر ما كان يقترب من مركز «سان بطرسبورغ» كانت المدينة يبدو منظرها أكثر شبهاً بمدينة احتلها العدو، ولم تستسلم تماماً ولم يستقر فيها الأمن، بعد. وفي مفارق الطرق تشتعل نيران في مخيمات للجنود أقيمت هناك للحراسة. والحطب والأخشاب الرطبة تشتعل

بصعوبة وتصفر وتدخن على الجنود المتجمعين حول النار. وكانت مجموعات البنادق المتشابكة تتجاور وتتناوب مع كدسات علف أحصنة الجنود الخيالة.

وكان الخفراء المتجمدون من شدة البرد يتنادون ويتبادلون النداءات بين مركز وآخر. وكانت إحدى الدوريات بقيادة ضابط تسير بخطى متثاقلة، وكان الضابط ينظر إلى البيوت الكائنة إلى يمينه وإلى يساره بحذر شديد. ومرّ ساعي بريد الديوان الإمبراطوري، على صهوة حصانه الذي كان يعدو به خبباً، بينما كانت الحقيبة التي يحملها مدلاة على كتفه، تتأرجح في الهواء.

ووصل «نيقولا» إلى «رصيف الإنكليز»، حيث كان، على الرغم من تلك الساعة المتأخرة من الليل، بعض الفضوليين يتدافعون تحت أقواس مداخل البيوت. وكانت الزحافات المغطّاة بالمشمعات، تنزلق على ضفة النهر، وعند اقتراب الناس منها، كانوا يرسمون على صدروهم إشارة الصليب: فقد كانت محملة بجثث القتلى.

وسأل «نيقولا»:

- إلى أين يأخذونها؟

فأجابه بواب كان يقف هناك:

- لقد أحدث رجال الشرطة ثقوباً وفتحات في الجليد، وهم يلقون فيها كل الجثث التي يجمعونها. وليس جثث الأموات وحسب- وليغفر لهم الله!- بل وجثث الجرحى أيضاً!...

- إنّ هذا عمل فظيع!

وقال رجل آخر:

- إيه، هكذا، نعم، يا صاحب السعادة! ماذا تريد؟!

فليس لديهم الوقت لكي يتفقدوهم ويتبينوا من منهم ما زال يتنفس ومن لم يعد يتنفس. فيجب أن تكون المدينة نظيفة تماماً صباح الغد. فوالدنا العزيز القيصر هو الذي أمر بذلك!

وكـان المشمع الـذي يغطـي العربـات تبـدو عليـه نتوءات تـشكلها بعض أعضاء الأجساد المتقلصة. وكانت يد صفراء كالشمع تتدلى في الفراغ، وتتـأرجح كلمـا اهتـزت العربـة، فمـسكها شـرطي كـان يـسير بجانـب القافلة، ودفعها بعنف إلى تحت الغطاء، وكأنه يفرض النظام على مسافر قليل الأدب.

وقالت إحدى العجائز، كانت تضع وشاحاً على منكبيها، وهي تتأوّه:

- ولا يوجد حتى كاهن معهم!

فأحنى «نيقولا» رأسه، وهو يتألم نفسياً. فكم من الأبرياء دفعوا حياتهم ثمن فشل هذا الانقلاب الذي لم يحضر بشكل كافٍ؟ جنود حشدوا، وتجمعوا هنا كالخراف لينصاعوا لأوامر ضباطهم، مارّة مسالمون، عمال الورشات المجاورة، نساء، وأطفال... وبالتأكيد، لقد كان هنالك ضحايا بين ممن لا علاقة لهم بالتمرد أكثر من الضحايا في صفوف الذين أثاروه. وكـان شـعور بالـذنب يأخـذ بخنـاق «نيقـولا». كانـت مـسؤولية إهـراق دم الآخرين تقع عليه. إنه لم يرد ذلك، ولم يرده أحد! وتابع طريقه نحو الساحة.

وهناك كانت نيران مراكز الحراسة أكثر قوة وضخامة. والجنود أوفر عـدداً مـن أيّ مكـان آخـر. المـدافع تـصوّب فوهاتهـا اللامعـة نحـو مـداخل الشوارع. وكانت مجموعات من العمال المزودين بالمعاول والرفوش، يـراقبهم بعض الجنود، يزيلون الثلج الذي يحمل بقعاً كبيرة من الدم، ويعيدون تغطية الأرض التي تعرت من الثلج، بثلج نظيف. وعمال آخرون، يضعون للنوافذ ألواحاً زجاجية بدلاً من تلك التي تحطمت، في واجهة المبنى، ويطلون بالدهان الأبيض الأعمدة التي أزالت عنها الطلاء، طلقات الرصاص. وغداً، سيكون قد اختفى كل أثر من آثار العنف. وسيستطيع رعايا القيصر أن يقدموا له طقوس الولاء والعبادة دون قصد خفي وبكل سلامة نية.

- قف، في مكانك!

فانتفض «نيقولا» الذي كان مستغرقاً في التفكير ولم يلاحظ أنّ هنالك دورية تعترض طريقه.

وسأله ضابط الصف، رئيس الدورية، وهو يرفع فانوسه إلى مستوى وجهه:

- إلى أين أنت ذاهب؟

فأجابه «نيقولا»:

- إني عائد على منزلي.

- اسمك؟ وعنوانك؟

- وماذا يفيدك ذلك؟

- لدّي أمر باستجواب أي شخص يريد أن يعبر الساحة.

فتمتم «نيقولا»:

- آه! إذن هكذا؟!

وتبادر إلى ذهنه: «هذا الرقيب، لقد سبق لي أن رايته في مكانٍ مّا!» وتذكّر فجأة الهجوم الفاشل الذي قام به الحرس الخيالة، والرقيب الذي سقط عن حصانه، وأخذ يشتم جنود فوج موسكو، ثم وعدهم بأن ينضمّ إليهم، بعد أن يخيم الظلام.

وعند ذلك، قال له:

- ربما كنت أنت لا تعرف اسمي، أما أنا فأعرف اسمك. كيف حالك، يا «ليسّكنو»؟

فاعتدل ضابط الصف في وقفته. وتأرجح فانوسه في يده، واتسعت حدقتا عينيه، من شدة دهشته.

فتابع «نيقولا» الكلام:

- ألا تتذكر؟...

وكان يحدّق في عيني «ليسّكنو»، بقوة نفّاذة:

فغمغم «ليسّكنو»:

- تابع طريقك!

فهل عرف «نيقولا»؟ أم أنه خشي أن يكون قد اصطدم بشخصية عالية المقام؟ أم أنه كان لديه ما يلوم نفسه عليه؟ وابتعد الجنود من طريق «نيقولا» الذي كان عليه أن يتمالك نفسه لكي لا يشكرهم. وبعد ذلك وصل إلى البيت دون أن يوقفه أحد.

كان يظن أنه سيجد خدم المنزل نائمين. ولكنّ «بلاتون» و «نيكيتا» كانا ينتظرانه في الرواق.؟ وقبل أن يلفظ كلمة واحدة، اندفعا نحوه وأخذا يقبلان يديه. وقال «نيكيتا»:

- أخيراً، ها أنت قد أتيت، يا سيدي، ألست مجروحاً؟

- كلا.

- لقد خفنا كثيراً عليك!... وبقينا بين جموع الجماهير، بالقرب من شارع «لي جالير»!... وشاهدنا كل شيء!... وذلك أمر فظيع!... تلك العيارات النارية!... وتلك الدماء!... لن أنسى هذا ما حييت!... شكراً لك، يا سيدي!..

كانت تعابير وجهه تنم عن الامتنان الشديد.

فسأله «نيقولا»:

- ولماذا تشكرني وعن أي شيء؟

فأجابه «نيكيتا»:

- لقد أردت، أنت ورفاقك، إتاحة السعادة للشعب، وأنتم ستدفعون من سعادتكم الشخصية ثمن جرأتكم.

وتمتم «نيقولا»، وقد شعر بغصّة في حلقه، من شدة تأثره:

- هكذا إذن، لقد فهمت...

- كل الناس الفقراء والمساكين فهموا!

وتأمل «نيقولا» نفسه في المرآة القريبة من المدخل، وبالكاد عرف نفسه في هذا الشخص الذي لم يحلق ذقنه، والذي بدت جفونه مقرّحة حمراء.

وسأله «بلاتون»:

- ألست جائعاً، يا سيدي؟

- كلا، اذهبا وناما، أنتما الاثنين.

- وأنت، ماذا ستعمل؟

- سأرتب أوراقي، وأحرق بعض الرسائل...

فضرب «بلاتون» جبينيه براحة يده:

- على ذكر الرسائل، لقد وصلتك إحداها، صباح اليوم، فوضعتها على المنضدة، في غرفتك...

وفرحة «نيقولا» بهذه البشارة، جعلته ينهض خفيفاً كالريشة: لقد كتبت له، أخيراً «صوفيا»! فأسرع إلى غرفته، أشعل شمعة، وجد الرسالة، وفي الحال تبدّدت أحلامه، وشعر كأنه سقط من مكان مرتفع: فهذا خط والده. وبحركة من ظفره نزع الختم عن المغلف:

ولدي:

أنا متأكد أنّ زوجتك لم تجرؤ حتى الآن على أن توجّه لك الرسالة التي تستحقها. وهكذا، فإني لا أنصاع إلا لواجبي كأب، عندما أبلغك بعض الأخبار التي لها أهمية كبيرة! أولاً: أختك، التي بعد أن لطختنا بالعار، بسبب زواجها الذي اتّسم بالحمق، بلغت غاية جنونها وخطئها، بقيامها بالانتحار. فليغفر لها الله وليسامحها، كما سامحتها أنا. ثانياً: وزوجتك، بكل أريحية ومروءة، أقدرهما لها، قد آوت في بيتنا اليتيم الصغير. وإني لآمل أنّ هذا الطفل الذي يبدو حسن الهيئة، لن ينشأ شبيهاً لا لأمه ولا لأبيه. ثالثاً: لقد علمت «صوفيا» بأنك خنتها مع «داريا فيليبوفنا»...

فشعر «نيقولا» بأن ساقيه قد ضعفتا ولم تعودا تقويان على حمله، فجلس على أريكة قريبة منه:

«وبالطبع، هي لا تريد أن تراك بعد الآن، وأنا أؤيدها في قرارها هذا. فلا تفكر إذن بأن تضع رجلك، ثانية، في «كشتنوفكا». فزوجتك لن تخرج من غرفتها. وأنا، سأجعل خدمي يلقون بك خارج المنزل. والطريقة الوحيدة المتاحة لك للتكفير قليلاً عن خطيئتك، هي ألا تبدر منك نحونا أي إشارة تدل على أنك مازلت على قيد الحياة.

وأنا أقول لك هذا، بالاتفاق مع «صوفيا» التي ستعود، بالتأكيد، إلى فرنسا، بعد أن تتغلب على الحزن والغيظ اللذين سببتهما لها. وكان ينبغي عليّ أن ألعنك، ولكنك لا تستطيع أن تفهم ماذا يعني غضب الأب، ولذلك فإني أكتفي بأن أقول لك: وداعاً!»

وبتأثير عنف الصدمة، فقد «نيقولا» مفهوم شخصيته وشعوره بها. وكان شخص آخر غيره هو الذي طوى الورقة، أحنى رأسه، وأخذ يفكر. فبعد توالي الأحداث المخيفة والمفاجئة في ذلك النهار، بدت له حياته، بل كيانه الصغير كنسيج من النذالات والأكاذيب، والتفاهات. ولماذا لم يقتل في ساحة مجلس الشيوخ بدلاً من أن يتلقى هذه الرسالة! كان الحزن والقرف يحطمانه ويذلانه.

فأخته ماتت، وزوجته التي علمت بأنه خانها ترفض أن تراه! أفلا يوجد علاقة مأساوية بين هذين الحدثين؟ وكيف حصل؟ ذلك؟ وعلى من تقع مسؤوليه حدوثه؟ وفي أي ظروف حصل؟ فهو يعرف أنّ «ماري» تعاني من الحيرة والاضطراب، وأنها كانت محبطة، وتشعر بالمذلة، ولكن ليس إلى الدرجة التي تدفعها إلى الانتحار! ألم يكن هنالك أحد لمواساتها، لنصحها، عندما زلت بها قدمها، وطلبت العون والمساعدة؟ فلو أنه كان آنذاك في «كشتنوفكا»، ربما استطاع إنقاذها؟! وكان يشعر كما لو أنه

قد بتر، دفعة واحدة، وجرّد من جميع ذكريات طفولته. كان يتألم، وكم كان يودّ إلا يفكر ألا بتلك النهاية الفظيعة. ولكن الحزن الذي أتاه من ناحية «صوفيا» كان أيضاً أكثر قوة وأقلّ توقعاً. وهل من الممكن أن تفكر بالقطيعة بينهما، وأن تتصور إمكان تصدّع زواجهما، بسبب علاقة كان قد تجاوزها وأهملها منذ زمن طويل، والتي لم يكن قد أولاها، في أي وقت من الأوقات، أي أهمية!؟ عشر سنوات أمضياها سعيدين، تلقى بعيداً، تهمل وتنسى بسبب بضع دقائق من الطيش والجنون؟!

كان التفاهم بينهما أكثر حقيقة ونبلاً مما ينبغي، وأكثر حيوية من أن تكفي لإفساده والقضاء عليه حماقة من هذا النوع! ولا شك أنّ «صوفيا»، وهي ذات طبيعة تتسم بالكبرياء، قد اتخذت قرارها تحت تأثير الغيظ والغضب. وبدلاً من أن يحاول «ميشيل بوريسوفيتش» تهدئتها وإقناعها بوجوب التأني والتعقل، عمل جاهداً على إذكاء غضبها ونقمتها على زوجها. فهو يكره كثيراً ابنه، ولديه رغبة شديدة بالانفراد بكنته والبقاء وحده معها، لدرجة أنّ جميع الحيل تبدو له مناسبة وصالحة، من أجل تحقيق غايته!

وتصور «نيقولا» والده وزوجته وهما يلعبان الشطرنج في صالون المنزل في «كشتنوفكا»، بينما هو يتعذب ويشعر باليأس الشديد، فاشتدّ غضبه. وأخذ يلقي نظرات عنيفة وهو يمشي في كل الاتجاهات كالسجين في غرفته. فهل سينطلق للعمل؟ إنّ حب «صوفيا» عنصر ضروري لحياته، فإذا حرم منه، لم يعد هو نفسه، ولم يعد شيئاً، على الإطلاق. أبعد أن امتلك ذلك الوجه الساحر، وذلك الجسم ذا الأشكال والأوضاع الزاهية، وتلك الروح الحارة والملتهبة، وذلك الجمال الطاغي، يستيقظ فجأة ولا يرى أمامه سوى الفراغ. إنّ هذا أمر يذهب بصواب أي إنسان ويسبب له الجنون! ولذلك فإنّ هنالك حلاً يفرض نفسه: سيذهب إلى «كشتنوفكا»، مهما كان

الثمن. وسيقابل «صوفيا» وسيرغمها على أن تستمع له، حتى ولو استقبلته كغريب، بل وحتى كعدوّ، فسيجد الكلمات التي تجعلها تقتنع وتشفق عليه. فهو أكثر بؤساً من أن تستطيع مقاومه توبته، ندمه وحبه، وأن ترفض كل ذلك بصورة نهائية. كان يتفجر صدقاً وإخلاصاً.

وعادت على ذاكرته نصيحة «كوهيلبيكر»، ففتح الباب، وصاح:

- «بلاتون»! «نيكيتا»، تعالا إلى هنا!

فركض الرجلان.

وقال لهما «نيقولا»:

- أنا بحاجة لبعض الملابس القروية.

فتدلى فك «بلاتون» من شدّة دهشته:

- ولمن، يا سيدي؟

- لي، أنا!

فأدرك «نيكيتا» في الحال، ماذا يقصد بذلك، وهمس، وقد بدا فرحاً وسعيداً:

- أتريد أن تهرب؟

- نعم.

- لكي تذهب على «كشتنوفكا»؟

- نعم.

- دعني أرافقك!

- أمجنون أنت؟

- إذا ذهبت بمفردك، يا سيدي، فسيلقى عليك القبض. ولن تستطيع أن تتكلم كالفلاح! أما إذا كنت معك، فيكون الحال أفضل!

وسنذهب، كالحجاج، سيراً على الأقدام، متحاشين السير على الطرق الرئيسية..

وفي اللحظة التي كاد «نيقولا» أن يوافق فيها على اقتراح «نيكيتا» تذكّر أنّ هذا، موظف في أحد المخازن، ولذلك قال له:

- ومعلمك؟

- عندما يتفقدني، ويلاحظ تغيبي، يكون قد فات الأوان على ذلك.

- ولكنّ جواز سفرك، في حوزته..

و «بلاتون» الذي كان يصغي، منذ بعض الوقت، لهذا الحوار، ابتسم ابتسامة عريضة، وقال:

- بشأن جوازات السفر، لا تقلقا أبداً؟ فأنا أعرف أين يحتفظ سيدي بجوازات سفر الخدم. وسأجد بسهولة واحداً لك، وواحداً لنيكيتا، تكون الصور والأوصاف والمعلومات فيهما تناسبكما على وجه التقريب.

وهذا القدر من الإخلاص جعل عيني «نيقولا» تغرورقان بالدموع. وأخذ يتمتم:

- آه! يا أصدقائي، أيها الأصدقاء الحقيقيون!

٣

بعد مسيرة استمرت نهارين وليلتين على طرقات تغطيها الثلوج الكثيفة، وصل «نيقولا» و «نيكيتا» إلى «غاتشينا» التي تبعد تقريباً خمسة وأربعين كيلومتراً عن «سان بطرسبورغ». كانت الشمس المشرقة تضيء مدينة النزهة والترفية، وقلعتها ذات الأعمدة، حديقتها البيضاء، بحيراتها المتجمدة، وفيلاتها ذات الجدران المطلية بألوان زاهية. وفي مركز المدينة، كانت الحانات والفنادق تفتح أبوابها. واختار «نيقولا» المطعم الذي كان يبدو الأكثر تواضعاً، ودخل إليه هو ورفيقه. ورسما إشارة الصليب على صدريهما أمام الأيقونة، ثم جلسا في آخر القاعة. ودون أن يسألهما صاحب المطعم، ماذا يريدان أن يأكلا، جلب لهما نقانق ساخنة، خبزاً أسود، وزجاجة من مشروب «الكناس». ويبدو أنه لا يقدم شيئاً آخر في مطعمه. فانحنى «نيقولا» على الطعام. لم يكن قد ارتاح في النوم الليلة السابقة التي أمضاها في مستودع للحبوب وللعلف. وكانت أعضاؤه محطمة، والجوع جعله يشعر بالدوار. ونظر إليه «نيكيتا» بحزن يتسم بالرعاية والاحترام، وقال له:

- ربما كان علينا أن نرتاح اليوم..

فقال «نيقولا»:

- كلا، ليس هنالك وقت للراحة، وبعد ساعة سنستأنف السير.

كانت عجلته للاجتماع بـ «صوفيا» شديدة جداً لدرجة أنه لم يكن يملّ من تصور لقائهما المقبل. وفي كل مرة، كان يحلم بأنها منعته من الدخول

إلى غرفتها، ولكنها، عند منتصف الليل، قبلت أن تفتح له الباب لكي تسمع ما سيقوله. وكانت فكرة هذا اللقاء واستعادة العلاقات بينهما تلهب مشاعره، وتجعل قلبه يخفق كما يخفق قلب المراهق. وبدت ابتسامة على شفتيه، وفكّ أزرار ثوبه المصنوع من جلد الخروف فوق قميص من القماش السميك. وبجزمته المبطنة باللباد، وقبعته المصنوعة من الفرو، وخرجه وعصاه، كان له، حقاً، مظهر الفلاح المسافر. وفجأة، بدا له أنّ صاحب المطعم يراقبه من طرف خفيّ، فشعر بالخوف. ولاحظ أنه، بحكم العادة، يأكل وقد ألصق مرفقيه بجسمه، وأحنى رأسه قليلاً، وهذه ليست طريقة الفلاحين أبداً. وبسرعة استدرك وأصلح خطأه، فبسط ساعديه على المائدة، اصطنع تكشيرة، وتلمظّ، مع كل لقمة تناولها.

فهمس له «نيكيتا»، ضاحكاً:

- أنت تبالغ، وتكثر من ذلك، يا سيدي!

- وأنت، كفّ عن مناداتي: «يا سيدي» وعن مخاطبتي بصيغة الجمع! وذات يوم ستفعل ذلك، على مسمع من أحد الجواسيس، وعند ذلك سنعتقل. ألا تعتقد أننا يمكننا الاتفاق مع أحد الحوذيين لكي يوصلنا بعربته إلى «لوغا»؟

- وهذا ما كنت أفكر به، بالضبط!

- هيّا بنا، ولنذهب لنبحث عن أحدهم في السوق.

- إذا سمحتم لي، يا سيدي... عفواً... إذا سمحت لي سأذهب وحدي، فأنا لن يرتاب بي أحد. سأتدبر الأمر، وأعود لكي أصطحبك.

في وجهه، الأسمر البشرة، كان لعينيه الزرقاوين بريق الميناء المتلألئة. وحتى عندما لا يبتسم، كانت سيماء الشباب والبساطة، والرفق الشامل، تشعّ منه كالنور. وأنهى قطعة النقانق وكأس المشروب، ونهض. فنظر «نيقولا» إليه بقلق، وهو يذهب. لأنه، عندما يكون وحده، يشعر أنه أقل

راحة وأمناً، وهو متنكر في زي فلاح. ولكي يبدو مظهره طبيعياً، أخرج من جيبه حفنة من بذور عباد الشمس، وأخذ يقرطها. ومن آخر القاعة، أتى نحوه شبح يترنّح:

- أعطني قليلاً من هذه البذور أيها الأخ!

وأمام «نيقولا» كان يقف رجل لحيته شقراء، ونظرته تنمّ عن السكر الشديد، وكانت سترته الطويلة، والحزام الذي يحيط بجبينه، يدلان على أنه نجار. ووضع «نيقولا» بعض البذور في اليد المبقعة بالوسخ، التي امتدت نحوه.

فقال النجار:

- شكراً جزيلاً، ولتعوضك عنها، السماء!

وسار، وهو يتمايل، نحو الباب، ولكنّ صاحب المطعم وقف في طريقه:

- إيه! إنك لن تذهب قبل أن تدفع!

- ماذا أدفع؟ إني لم اشرب شيئاً!

وهذه الكذبة أثارت غضب صاحب المطعم، فتجهّم وجهه وصاح:

- آه! لم تشرب شيئاً؟ بل لقد أفرطت بالشراب، أيها السطل المثقوب والبالوعة النتنة!

ومع كل شتيمة، كان يضرب صدر السكير بقبضته، فأخذ هذا يتراجع خطوة بعد خطوة، وانتهى به الأمر إلى فقدان التوازن، وسقط جالساً على أحد المقاعد، وقال متلعثماً:

- ليس معي نقود، أيها الأخ!

- في هذه الحالة، سأرسل في طلب رجال الشرطة!

- ليس رجال الشرطة هم الذين سيعطونك نقوداً!

- إنهم، على الأقل سيتيحون لي متعة رؤيتك، وهم ينهالون عليك بالضرب! هيا! فتش جيوبك جيداً، واقلبها!

- كلا، إني، بدلاً من ذلك، سأغني لك أغنية!... وبإشارة من صاحب المطعم، كان قد اتجه نحو الباب صبي يعمل في المطعم، وهو ذاهب، دون شك، لإحضار رجال الشرطة. فأخذ السكير يغني وهو يعيّن النغم براحة يده على المنضدة. وكان «نيقولا» يتابع المشهد، وقد ساوره القلق: فإذا تدخلت الشرطة، فمن المحتمل أن يقتادوه إلى المخفر كشاهد، وهناك الاستجواب والتحقيق وتدقيق الأوراق والوثائق... لذلك يجب تجنب ذلك، بأي ثمن.

ففتش جيوبه ولما لم يجد قطع نقدية صغيرة، ناول صاحب المطعم حوالة حكومية ذات العشرة روبلات، قائلاً:

- أنا أدفع عنه!

فدهش صاحب المطعم، وفرح، ثم انحنى كثيراً، تحيةً لـ «نيقولا»، كأنه يشكر سيداً له. وهذه الحركة المعبرة عن التقدير زادت من خشية واضطراب «نيقولا».؟ فتظاهر بأنه يعدّ قطع النقود الصغيرة التي أرجعت له بتمهل ينمّ عن الحذر والشك، كما يفعل القرويون عادةً.

وسأله صاحب المطعم:

- يبدو إنك قد وفّقت بصفقة جيدة، دون شك؟

فأجابه «نيقولا»:

- نعم.

- والآن تنوي العودة إلى قريتك؟

- نعم.

- من أين أنت؟

- من «لوغا».

- إنها بعيدة!

- بعض الشيء!

- وماذا تبيع؟

- قشر القنّب.

- هذه بضاعة ليست رائجة ولا مربحة في منطقتنا!...

وقطع السكير عليهما حديثهما، عندما اقترب من «نيقولا» ضمّه بين ذراعيه وشدّه إليه بقوة، وقبّل وجنتيه، وملأ أنفه برائحة الكحول الذي احتساه قبل قليل ولم يهضمه جيداً:

- أنت فرحتي وسعادتي! أنت أبي الذي يعيلني! اطلب مني أن أقطع أحد أصابعي، إحدى أذني، وسأفعل ذلك بكل سرور!

فدفعه «نيقولا» بذراعه، وأبعده عنه، واتجه مسرعاً نحو الباب. فرافقه صاحب المطعم وأحد خدمه، وهما ينحنيان له مودعين. كان يخشى وقوع حدث آخر ولذلك قرّر أن ينتظر «نيكيتا»، متمشياً على الرصيف. ولكنه عندما وصل إلى آخر الشارع، سمع صوتاً يناديه من وراء ظهره:

- قف! أنت هناك، إلى أين تذهب؟!

فالتفت، كان هنالك شرطيان مسلّحان، يشيران له بأن يتقدم نحوهما. وخلفهما كان يقف صاحب المطعم، وقد ضمّ رأسه بين كتفيه، وبدت على ملامحه تعابير الفوز وارتكاب الخطيئة.

* * *

كان زجاج نوافذ العربة، مكسواً برذاذ الثلج المتجمد. فحكّ «نيقولا» بظفره الطبقة الرقيقة التي تغطي الزجاج من الداخل، وانحنى محاولاً أن يرى الشارع. فنهره الشرطي الذي يرافقه، طالباً منه أن يلتزم بالنظام:

- أرجوك عدم الظهور من بوابة العربة.

كان فخذه الدافئ يستند على فخذ «نيقولا»، وقد التصق أحدهما بالآخر بسبب ضيق صندوق العربة.

فسأله «نيقولا»:

- ماذا تخشى؟ أن أرى المدينة؟ أم أن تراني المدينة؟

فتجهم وجه الشرطي استياءً من هذه المزحة وضم يديه على مقبض سيفه. كان قد تولى حراسة «نيقولا» في «غاتشينا» مباشرة بعد توقيفه. وأعاده إلى محل سكنه في منزل «كوستيا لادوميروف» لكي يغير ملابسه، وهو يقتاده الآن إلى مكان مجهول. وملابس الفلاح حزمت في رزنه، وهي ملقاة تحت المقعد. ولحسن الحظ، فقد ظل «نيكيتا» طليقاً، ولم يستطيعوا العثور عليه. وأمام المفتش الذي استجوب «نيقولا» أقسم له هذا، بأنه مسافر بمفرده. وصدقه المفتش الذي حقق معه، على الرغم من اعتراض صاحب المطعم واحتجاجاته على ذلك، لأنه ذكر له منبت أسرته العريق والخدمات التي أداها أثناء الحرب الوطنية. أمّا أولئك الذين سيحققون معه اليوم. فمن المؤكد أنّ إقناعهم سيكون أصعب من إقناع المحقق السابق. آه! لو أنه فقط استطاع أن يرى «صوفيا» من جديد، قبل أن يلقى عليه القبض! ولو أنها غفرت له وسامحته لكان تقبل خوض أي تجربة، وهو يبتسم. ولكنه، في الوقت الحاضر، فإنّ كل ما كان يريد أن يقوله لها ظلّ عبئاً يثقل ضميره.

وتوقفت العربة الزحافة. وأخذت بعض الظلال تتحرك كالأشباح خلف زجاج بوابة العربة. وكان الشرطي هو أول من نزل، وأمام عيني «نيقولا» بدت ممتدة واجهة «قصر الشتاء» الواسعة الاتساع. فياله من تكريم عظيم! ولماذا أحضروه إلى هنا وليس إلى مخفر للشرطة؟ ولم يبحث عن جواب لهذا السؤال. فكل شيء كان لديه سيان. وكان الخفراء الموزعون على مسافات متساوية، يحرسون جوانب المبنى، وفي الساحة وقفت مجموعات مسلّحة، وأقيمت مواقد ومناقل تشتعل فيها النار، وربطت بعض الخيول، ونصبت عدة مدافع، كما يحصل في معسكر محصن ومحاصر.

وأدّى الشرطي التحية لأحد الضباط. ورُفع إصبعان إلى مستوى القبعة. تمّ تبادل الأوامر والمسؤوليات... وقبل أن يستطيع «نيقولا» فهم ما يحصل معه، وجد نفسه محاطاً ببعض الجنود، شاهري السيوف، وقال له أحد الضباط:

- هيا، لنمشِ!

من الجو الذي يسوده الغبش والضباب، انتقلوا إلى مكان تتلألأ فيه الثريات والمرايا، ويغطيه الرخام. وعلى الدرج الفخم، كان الضباط الذين تزين صدورهم الأوسمة الكثيرة، يتزاحمون مسرعين، نازلين وصاعدين وقد بدا عليهم الانشغال والاهتمام. وجمهور من رجال الحاشية والمؤيدين الموالين للحكومة، يغصّ بهم صالون مطلي باللونين الأبيض والذهبي، كانوا يتحدثون باللغة الفرنسية وبصوت خافت. وفوق رؤوسهم التي سرّح شعرها بشكل جيد، كانت تنتشر رائحة مختلف أنواع العطور. ووقع نظرهم على «نيقولا» فأبدوا الامتعاض عند رؤيته، وسمع أحدهم يقول:

- ها هو خائن آخر، ألقوا عليه القبض واقتادوه إلى هنا!

- لقد أبدى الإمبراطور مزيداً من طيبة القلب، عندما قرر أن يستجوبهم، هو بنفسه!

- عندما أفكّر أنّ الأمير «تروبيتزكوي»!...

فسأل «نيقولا» الضابط المرافق:

- هل ألقي القبض على الأمير «تروبيتزكوي»؟

- نعم.

- وعلى من ألقي القبض أيضاً؟

- ليس لي الحق أن أقول لك شيئاً عنهم. أبق هنا، وانتظر.

وذهب الضابط المرافق، تاركاً «نيقولا» بين أولئك الناس الذين كان يشعر بكراهيتهم له، كأنها نقص في الهواء الذي يحتاجه للتنفس.

ومع ذلك فهو الذي لم يكن يتحمل فيما مضى أن يكون محطّ أنظار الحضور. كان يستمد اليوم مزيداً من القوة من الاحتقار الذي يوحي له به كل هؤلاء الدساسين.

وبعد فترة طويلة من الوقت، أتى ضابط آخر، فاقتاده وأدخله إلى ردهة أخرى أقل سعة من الصالون الأول وأقل إنارة، جدرانها مغطّاة باللوحات. وتحت لوحة تمثّل «العائلة المقدسة»، يبدو عليها الطابع الإيطالي، جلس رجل لا يزال شاباً، يرتدي البزة العسكرية الحمراء والمذهبة، الخاصة بفرسان الحرس.

فعرف «نيقولا» أنه الجنرال «ليفاشوفّ». وأمامه منضدة صفت عليها بعض الأوراق، والريش ومحبرة معدنية، وكأس مليء بحبوب وردية اللون.

وبعد استجواب موجز عن الهوية، سأله بلهجة ودّية:

- منذ متى أنت عضو في الجمعية السرية؟

فأجابه «نيقولا»:

- منذ سنتين أو ثلاث سنوات.

- من الذي أدخلك إليها؟

- لا أحد.

- أتريد أن تجعلني أصدّق، أنك ذهبت ذات يوم، من تلقاء نفسك، وقرعت باب منزل «ريلييف»؟

فلاحظ «نيقولا» وهو يشعر بغصة في قلبه: «إنه يعرف أنّ «ريلييف» كان رئيسنا»، وقال:

- إني لم أعد أتذكر كيف حصل ذلك.

فوجّه إليه «ليفاشوفّ» نظرة حادّة، كأنه ينظر إلى خصم أمامه: وفي وجهه الذي بدا عادياً، كانت السمة الوحيدة التي تلفت النظر، هي الشارب الرفيع، المبروم جيداً، الذي كان يفتل طرفه، من وقت لآخر، على إصبعه الصغير، فتبادر إلى ذهن «نيقولا»: «أنه أحد ضباط الصالونات»

وقال «ليفاشوف»:

- ومع ذلك، فأنت تذكر أنّ صديقك «لادوميروف» قد أسكنك في منزله؟

فهو إذن لا يمكن أن يجهل علاقتك بالمتآمرين.

فردّ «نيقولا» بقوله:

- بلى، إنه كان يجهل كل شيء.

وقال في سرّه إنّ «كوستيا» الذي تخلى عن رفاقه في آخر لحظة لا يستأهل هذا الدفاع الذي يبرئ ساحته. ومرة أخرى، يدفع الشجعان الثمن عن الجبناء.

وقال «ليفاشوف»:

- و «ستيبان بوكروفسكي»؟ و «يوري ألمازوف»؟ و «هيلبيكر»؟

وكانت الأسماء تنهال على «نيقولا» دون أن تتغير ملامح وجهه.

فسأله «ليفاشوف»:

- ألا تريد أن تقول لي شيئاً عنهم؟

- كلا.

- لماذا؟

- إنها مسألة مبدأ.

- كيف يمكنك أن تتكلم عن المبدأ، في حين أنك خنت قيصرك؟

- أنا لم أخنه، لأني لم أقسم له على الولاء!

- ما زال هنالك مجال للتوبة، وتأدية قسم الولاء للقيصر.

فأحنى «نيقولا» رأسه، وصرف بأسنانه. فلم يكن ليصدق أبداً إنه كان من السهل إلى هذه الدرجة أن يبدو المرء نبيلاً، في وضع صعب جداً وميؤوس منه. وانحنى «ليفاشوف» على أوراقه وسجل أجوبة «نيقولا» بريشة مرتعشة، ثم بعد أن أعاد قراءة ما كتبه، ووضع في نصّه بعض النقاط والفواصل، استأنف الكلام:

- لا شك في أنك ستتذكر أنك كنت موجوداً في ساحة مجلس الشيوخ، بين المتمردين، يوم الرابع عشر من كانون الأول؟!

- لن أنكر ذلك، لقد كنت هناك.

- لقد رأيت إذن كيف قتلوا الجنرال «ميلورا دوفيتش» والعميد «ستورلير»؟

- نعم.

- من الذي أطلق النار عليهما؟

- لا أدري.

- أنت تدافع عن زمرة من القتلة؟!

- إنهم ليسوا قتلة، لأنهم تصرفوا بقناعة سياسية. فتدفق الدم إلى خدّي «ليفاشوف»:

- أيمكن أن تكنّ من الاحترام لنظريات الفلاسفة الفرنسيين، الجنونية أكثر مما تكن للقوانين المقدسة التي، تحكم بلاد أجدادك، وتدير شؤونها منذ عدة قرون؟ أو يمكن أن تضع شخصاً مثل «ريلييف» أو «تروبيتزكوي» أو «بيستيل» في مقام أعلى من مقام الإمبراطور الذي يستمد سلطته من الله؟

فقال «نيقولا»:

- الإمبراطور لا يستمد سلطته من الله.

وصمت، وكتم أنفاسه عندما فتح باب في داخل القاعة، على مصراعيه، وبدا منه رجل قوي البنية، طويل القامة، يرتدي البزة العسكرية الرسمية الخاصة بفرقة «اسماعيلوفيتش»: إنه القيصر! بوجهه الشاحب، أنفه الأقنى، جبينه الأجرد الذي لا ينسدل عليه الشعر، وعينيه الواسعتين والشاحبتين، كان يبدو بثقل الرخام وثباته وصلابته.

وقال القيصر:

- إنـي أعرفـك. ألم تكـن في بـاريس، منـذ عـشر سـنوات مـع جيـشنا المنتصر؟

فأجابه «نيقولا» وقد تأثر، رغماً عنه، عند رؤيته قامة القيصر وهيئته التي تتسم بالسكينة المتعالية:

- بلى، يا صاحب الجلالة!

- كان أمامك مستقبل باهر، في الجيش، أضعته وأضعت نفسك بكل حماقة!

وتناول القيصر، وهو يتكلم، المحضر الذي نظمه «ليفاشوف» وأجال فيه نظره بسرعة، وغمغم وهو يبدي حركة تنم عن السخرية:

- هذا استجواب رجل أخرس، قام به رجل أطرش. سأفاجئك بأمر: لن أستاء منك إذا حاولت إنقاذ رفاقك...

فتمتم «نيقولا»:

- إنك لم تفاجئني بهذا، يا صاحب الجلالة.

- ولكنك، لي أنا، تستطيع الاعتراف بكل شيء، فأنا فوق الحقد والضغينة. هيا، حدثني كما يتحدث الابن مع أبيه.

فتظاهر «نيقولا» أنه لم يسمع، وأخذ يتساءل أي شيطان كان يدفع القيصر لأن يستجوب هو بنفسه المتمردين عند توالي وصولهم إلى «قصر الشتاء»؟. فالعاهل لا يمكن إلا أن تنحط قيمته عندما يصبح هو القاضي الذي يتولى النظر في قضيته الخاصة، لاسيما وأنّ هذا، يبدل تعابير وجهه بالسهولة التي يبدلها المشعوذ. وكانت قد تبعت، في الحال القسوة الملكية الصارمة التي بدت على وجهه، تعابير تنم عن منتهى الأريحية والتسامح، وتابع كلامه، قائلاً:

- أحبّ الشهامة، حتى عندما تستخدم في سبيل قضية سيئة. وأيّ كان من الناس يمكن أن يخطئ. وحسب معلوماتي لم تكن مشاركتك في

المؤامرة كبيرة الأهمية، ولذلك يمكنني أن أتناسى خطأك فيما إذا قبلت العودة على الجيش...

عندما سمع الجنرال «ليفاشوف» هذه الكلمات، توقف عن الكتابة، ورفع نحو القيصر نظرة تنم عن التساؤل والريبة.

وتابع القيصر كلامه:

- نعم، يمكنك أن تصعد عالياً وإلى أرفع المناصب إذا كنت طموحاً ومطيعاً. وعلاوة على ذلك، فإني على استعداد لتقديم العفو نفسه لأعضاء المؤامرة، الذين ستذكر لي أسماءهم.

فشعر «نيقولا» بأنّ هنالك فخاً يطبق في الفراغ:

- لقد سبق لي أن قلت للجنرال «ليفاشوف» إني لا أستطيع أن أذكر اسم أحد.

- والآن، ليس أي جنرال هو الذي يطلب منك ذكر أي أسماء، إنه مليكك، هو الذي يطلب منك ذلك!

وخيم صمت دام فترة طويلة. فقطّب القيصر حاجبيه وقد اغتاظ من صمت المتهم، وقال:

- زوجتك فرنسية، أليس كذلك؟

- نعم، يا صاحب الجلالة.

- ومنها تلقيت الأفكار الليبرالية التي دفعتك إلى الاشتراك بالمؤامرة؟!

- كلا، يا صاحب الجلالة.

- لماذا تكذب علي!؟

فأخذ «نيقولا» يتألم لرؤيته «صوفيا» تتهم بمشاركته في خطئه، ألن تتهم هي أيضاً، بأنها شاركت في المؤامرة؟ والآن، وقد تحطمت حياتهما الزوجية، فقد أحدثت له هذه الفكرة ألماً مضاعفاً.

فقال الإمبراطور، متأوّهاً:

- من هو الذي يستطيع أن يتبين أهمية دور النساء في النزاعات السياسية؟! لكم أودّ معرفة زوجتك.

فتمتم «نيقولا»:

- إنها ليست مطلعة على شيء، يا صاحب الجلالة، وأقسم لك على ذلك!

- وهذا أفضل! لحسن الحظ! وأفترض أنك ترغب كثيراً بأن تراها من جديد!

فقال «نيقولا»، متلفظاً بصعوبة:

- هذا أمر مؤكد...

- سيكون هذا سهلاً، إذا اثبتّ أنك أقل تشبثاً برأيك وأقلّ عناداً معي، فسأقدم لك دليلاً على رفقي بك وعطفي عليك، وبصورة استثنائية سأسمح لك بأن تكتب لزوجتك. وفي الحال، أمامي، خمسة عشر سطراً، دون أن تزيد عليها سطراً واحداً! أعطه، يا «ليفاشوف» ورقة وريشة.

و «نيقولا»، وقد عقدت الدهشة لسانه، لم تبدر منه أي حركة، فقد ظلّ ساكناً، وللمرة الأولى، منذ وصوله إلى قصر الشتاء، شعر بالألم وبالخجل. وهل بإمكانه أن يعترف للقيصر بأنّ كل شيء قد انتهى بين زوجته وبينه؟ وقدم له «ليفاشوف» ريشة.

فقال «نيقولا»:

- كلا.

فقال «ليفاشوف»: وهو يثب منتفضاً:

- أترفض؟ هل تدرك مدى وقاحتك؟ من أنت حتى تجرؤ على الازدراء بحظوة منحك إياها الإمبراطور؟!

فردّ عليه «نيقولا» قائلاً:

- أنا لست شيئاً، ولا أطلب أي شيء، افعلوا بي ما تشاؤون فلن أكتب شيئاً.

فقال القيصر، بحدّة وجفاء:

- شخص سيئ، كمواطن وفرد من أفراد الرعية، وسيئ كزوج. وعدم التمتع بالمبادئ في الحياة العامة، يتفق مع عدم التمتع بالمبادئ في الحياة الخاصة والزوجية.

وقال «ليفاشوف»:

- لقد نسيت، يا صاحب الجلالة، أن أذكر لك أنه كان متنكراً في زي فلاح، لكي يفلت من ملاحقتنا له، وبحثنا عنه.

فانبعث من عيني القيصر بصيص سريع، وانتفخت بعض الأوردة في جبينه، وصاح:

- كان عليكم أن تتركوا عليه ملابس الفلاح الرثة! اقتادوه جانباً! سأراه ثانيةً، بعد قليل!

فاقتاد «نيقولا» جنديان، إلى غرفة مجاورة، وقالا له بأن يجلس على مقعد، كان موضوعاً بالقرب من النافذة. وكان برد قارس وجليدي يهبط من السقف المطلي على الطراز الإيطالي، على أرضية الغرفة، الخشبية المصقولة والمدهونة بالشمع اللماع. وقدّم أحد الجنديين تبغاً لرفيقه. وأخذا يستنشقانه، ثم تجهم وجهاهما وعطسا سوية:

- تبغك هذا، ليس تبغاً، إنه بارود مدافع!

- نعم، إنه قوي وعنيف! فأنا أمزجه بقليل من الزجاج المسحوق والناعم جداً. وهذا يطرد كل شيء ويخرجه من العينين. أتريد قليلاً منه، أيضاً؟

- انتظر حتى أصحو واسترد روعي!

وحاول «نيقولا» أن يتجاذب معهما أطراف الحديث. فلم يستجيبا له. وبالأمس، كان من الممكن أن ينضمّا عن طيب خاطر إلى صف المتمردين. أما اليوم فإنهما ينظران إلى سجينهما بخوف وهمي ينم عن التطيّر، وكأنه عدو لله. فعاد إلى التفكير بقتلى الرابع عشر من كانون الأول: عازف

المزمار الذي أنبقر بطنه. العامل في محل بيع الحلوى الذي سقط وتناثرت الفطائر حوله. السيدة التي كان الدم يسيل من أنفها، وعلى رأسها قبعة مزدانة بالريش. كتل الجليد التي كانت تهوي إلى أعماق النهر لتغرق مع من تحمل من الجنود والمدنيين الذين كانوا يصيحون ويولولون من الذعر... كانت هذه الصور تلاحقه وتلازمه على الدوام. وربما كانت عقوبته هي أن يحتفظ بها في ذاكرته طوال حياته. وبذل جهداً لكي يعود للحظة الراهنة.

كان الصوت الناجم عن مناقشة حادّة يخترق خشب الباب. ولا بدّ أنّ الإمبراطور قد استأنف تحقيقاته، واستجوابه لبعض المعتقلين.

ودون أن يهتم بالجنود الذين يتولون حراسته، نهض «نيقولا» واستند إلى إطار الباب لكي يسمع بشكل أفضل.؟ فتنامت إلى سمعه بعض الجمل المتقطعة، وغير المترابطة. وتوالى إحضار المتمردين، وعلى بعد خطوات منه، دون أن يستطيع معرفتهم من أصواتهم. ولكل منهم، كان القيصر يستخدم طريقة مختلفة. كالممثل الذي يحاول أن يتدرب على جميع الأدوار والأنواع، لكي يثبت مقدرته واتساع موهبته.

وكان يقول بحزن، لأحدهم:

- كيف استطعت، وأنت تحمل هذا الاسم العظيم، أن تتورّط وتنضمّ إلى هؤلاء الأوباش؟

وقال لآخر:

- اركع، على ركبتيك! ألا تخجل؟ اكتب لي كل ما تعرفه! ربما سمحت لك بعد ذلك أن ترى من جديد زوجتك وأولادك الذين تحبهم كثيراً!...

وسمعه يقول لآخر:

- إني آسف، وأتألم لأنّ عليّ أن أعاقبك، ولكن يجب أن أفعل ذلك، ولا بد منه! فأنا أجسّد القانون، وقدري ليس أفضل من قدرك! وليصلّ كل منا للآخر، أنت في السجن، وأنا على العرش!

وإذا كان كلام القيصر، في معظمه، مسموعاً وواضحاً، فإنّ أجوبة المتمردين كانت أضعف وأقل وضوحاً. لأنّ جميعهم كانوا يتكلمون همساً، كأنهم يعترفون للكاهن بخطاياهم. وبدا لـ «نيقولا» أن بعضهم كانوا يوشون برفاقهم. ومرّتين سمع اسمه يذكر أثناء الحديث.

وبعد ساعة أتى ضابط لكي يقتاده، وعاد تحت حراسة الجنديين إلى الصالون، حيث كان الإمبراطور يمشي في كل الاتجاهات، أمام «ليفاشوف»، الذي كان يكتب على طاولته الصغيرة.

وقال الإمبراطور، وهو يحدج «نيقولا» بنظراته:

- إيه! هل فكرت؟

- بماذا، يا صاحب الجلالة؟

- بالخطر الذي تعرّض نفسك له بإصرارك على التزام الصمت. فأكثرية رفاقك حاولوا أن يكفّروا عن معصيتهم وخيانتهم، بإدلائهم باعترافات عفوية وصريحة، فإذا لم تحذُ حذوهم فسوف يكون مصيرك رهيباً!

فقال «نيقولا»:

- أنا لا أخشى الموت، يا صاحب الجلالة!

فصاح الإمبراطور:

- ومن حدثك عن الموت؟ سأجعلك تتعفّن وتتلف في إحدى القلاع!

فلم يتذمّر «نيقولا» ولم يرفّ له جفن. فقد كان لتهديدات القيصر كما كان لوعوده، وقع مزيفّ، بالنسبة لـ «نيقولا». وقد أسف أكثر من أي وقت مضى، لكون الثورة قد فشلت.

وقال له «ليفاشوفّ» وهو يناوله ورقة:

- تفضل، وقع على إفادتك.

فألقى «نيقولا» نظرة سريعة على الوثيقة، ولم يكن لديه صبر لقراءتها، حتى أخرها ووقعها.

☆☆☆

وعند مدخل «قصر الشتاء» وجد العربة الزحافة نفسها، والشرطي نفسه، وبعد أن حُشر في الصندوق الضيق، المزوّد بزجاج أكمد غير شفاف، لم يطل به الوقت ليعرف الطريق الذي سارت به العربة.

كان وقع حوافر الأحصنة ينم عن فراغ تحتها، وهي تعبر جسراً خشبياً على النهر. ثم اندفعت العربة تحت قنطرة حجرية، كان الصدى فيها يبعث على الكآبة. فليس هنالك أي شك محتمل: إنها قلعة القدّيس «بطرس وبولس». وعندما نزل «نيقولا» من العربة، رأى منزلاً منخفضاً، في باحة فسيحة مغطاة بالثلج تحيط بها أسوار عالية. وأدخله الشرطي إلى رواق عاري الجدران.

ومن الباب المقابل دخل جنرال، يمشي وهو يعرج على ساق خشبية. وشعره الأشيب كان قصيراً وواقفاً. وبطنه الممتلئ يدفع قماش بزّته العسكرية، المذهبة اللون. وفي حاشية كتّافيته تنقص بعض الخيوط، والخيوط المذهبية المتبقية فيها، قد اسودّت مع مرور الزمن. وبدت نظرته كئيبة، وهو يقدم نفسه:

- الجنرال «سوكين» من فرقة المشاة، حاكم القلعة، وها هو ساعدي الأيمن، المقدم «بودوشكين».

ومن وراء ظهره، برز شخص أفطس الأنف، بوجه مستدير وأجرد كوجه امرأة عجوز. وذقنه البدينة تشكل ثلاث طيات فوق ياقة بزّته، البرتقالية اللون.

وهمس «بودوشكين»:

- عليك أن تتبعني إلى زنزانتك..

وكان وهو يهمس بذلك، يرفع بيديه كيساً من قماش خشن.

فسأله «نيقولا»:

- ما هذا؟

- مجرد إجراء شكلي بسيط.

وسقط الكيس على رأس «نيقولا»، فلم يعد يرى شيئاً.

فأمسك «بودوشكين» بيده، وقال له باللهجة الودية التي يتحدث بها صاحب فندق وهو يصطحب نزيلاً لكي يدله على غرفته:

- من هنا.... يوجد درجة... نستدير إلى اليمين... انتبه هنا منحدر، شديد الانزلاق...

وخرجا إلى الهواء الطلق، عبرا فوق جسر صغير مغطى بطبقة رقيقة من الجليد، وشمّ «نيقولا» الرائحة التي تنتشر عادة في الأقبية وفي السراديب الكائنة في باطن الأرض.

وكان رجلان، وهما من الحراس، دون شك، يسيران خلفهما، خطوةً خطوة. وتعثر «نيقولا» ببلاطة انتزعت من مكانها، فأمسك به «بودشكين» من جذعه، وقال بمرح:

الجميع يتعثرون هنا!... بعض الصبر، أيضاً!... آه! لقد وصلنا!...

ونزع الكيس، فرفت جفون «نيقولا» عبر ضوء المشعل، الذي يكتنفه الدخان. ممرّ طويل يمتد أمامه، تتخلّله أبواب تحمل مزاليج ضخمة. كان هكذا تماماً، يتصور السجن أثناء طفولته. وكان في زنّار السجان، كما كانت تصوره الحكايات التي تروى في الأمسيات، مجموعة كبيرة من المفاتيح. فاختار منها واحداً وأدخله في القفل، أداره، ودفع الباب السميك المزوّد بالمسامير، فانفتح وقد تعالى صرير مفصلاته.

الزنزانة التي دخل إليها «نيقولا» كان سقفها منخفضاً ومقوساً. ولا تزيد أبعادها عن خمس خطوات طولاً وثلاث، عرضاً، يدخل إليها بصيص باهت ومغبش من نافذة تتخللها قضبان حديدية ضخمة وطلي زجاجها بالكلس الأبيض. وعلى سرير من الألواح الخشبية مطلي باللون الأخضر، وضع فراش وسخ مصنوع من القش. ومن سطل حديدي، وضع في إحدى الزوايا كانت

تفوح رائحة كريهة من بول قديم، وأسكملة عرجاء كانت مربوطة بسلسلة إلى منضدة، هي نفسها مثبتة في الجدار. وأشعل السجان سراجاً. أخذت شعلته الصغيرة التي تعوم فوق إناء زيته، تلقي على السقف ضوءاً شبيهاً بالضوء الذي ينير المزارات والأماكن المقدّسة. وكان برد رطب يلفّ منكبي «نيقولا»، فأراد أن يرفع ياقة معطفه، ولكنّ «بودوشكين» منعه من أن يفعل ذلك، قائلاً:

- هذا، لا جدوى منه! نحن ملزمون بأن نأخذ ملابسك. وسنعطيك ملابس أخرى، تناسب بشكل أفضل وضعك الراهن...

وكان وهو يتكلم، قد اقترب من «نيقولا»، والتصق به، وأخذ يفتش جيوبه بيدين سريعتي الحركة كيدي النشال. وخلال لحظة قصيرة، كانت أشياء السجين الخاصة: ساعة، سكين صغيرة، قطع نقود، دفتر صغير، قد سجلت ووضعت في منديل ربط عليها.

وطمأنه «بودوشكين»، قائلاً:

- سوف تُردّ لك كلها، في الوقت المناسب.

وعندما خلع «نيقولا» ملابسه، جلب له أحد الحراس رداءً طويلاً، رمادي اللون، تغطيه بقع الوسخ، ارتداه باشمئزاز فوق ملابسه الداخلية، وشحاطة بالية بدلاً من حذائه. وأخيراً، تأمّل «بودشكين» سجينه، بعطف، وقال:

- أنت بحالة حسنة جداً في هذه الملابس! فهي تناسب جسمك تماماً!

فتساءل «نيقولا»: هل هو بليد مغفّل، أم فظّ غليظ؟»

كان يتعجل ذهابهم كلهم. ولكن عندما ذهب المقدم والحرّاس، ودار المفتاح مرتين في القفل، ودفعت المزاليج لتستقر في أماكنها، شعر بوحدته بطريقة تنم عن فقدان التوازن. كان الصمت يتصاعد في رأسه، وأخذ يتفحص، عن قرب، زنزانته. فرأى على الجدار خطاً أفقياً، لونه أسود مائل إلى الأخضر، كان يشير دون شك إلى مستوى الفيضان الأخير. وكل زاوية

كان فيها كفايتها من نسيج العنكبوت. والشقوق الكائنة بين بلاطات أرضية الزنزانة، تعجّ بالصراصير، التي أختفت بعد أن أشعل السراج. وبصعوبة قرأ «نيقولا» أسماءً مجهولة، وتواريخ، منقوشة بمسمار على الجدار، كان هذا كل ما تبقى من أشخاص ذوي مصير سيئ! ومع ذلك، فلا بدّ من أنّ كل شخص من هؤلاء قد شعر، مثلما شعر هو «نيقولا» بأنه ضروري لمسيرة العالم.

وتمتم:

- إيه، وماذا بعد؟! لقد قُضي الأمر، وانتهى كل شيء!

وانتابته صدمة هزّت كيانه من بطنه حتى فكّيه: وقبل أن يستطيع إدراك ما حدث له، اجتاحته نوبة من النحيب. فألصق وجهه بالفراش، وأخذ يبكي ويستنشق رائحة العفن والبراز، اللاذعة. وكانت قطع القش، التي تنفذ عبر القماش توخز خدّيه. والأمر الذي كان يؤلمه فوق كل هذا، وأكثر منه، هو كونه محبوساً هنا، في حين أنه كان يودّ أن يكون في «كشتنوفكا»، لكي يُفحم والده ويخزيه ويستعيد مودّة «صوفيا» وثقتها. ولأنه عاجز عن إسماع صوته، فقد كان عليه أن يعاني من العذاب الذي سببته له الإساءة إلى سمعته، ومذلته حيال زوجته، في وقت هو في أمس الحاجة لها لكي تساعده وتكون حليفته في نضاله الذي يخوضه. وإذا كانت الحكومة لم تبلّغ أسماء المتهمين إلى ذويهم، فيمكن أن تكون لا تعرف حتى الآن، أنه قد ألقي القبض عليه. ولأنها لم تتلقّ أيّ خبر منه، فمن الممكن أنها ستتصوّر أنه قبل، بلا اكتراث، بانفصام عرى الزوجية بينهما. وربّما سافرت إلى فرنسا، ولديها هذه القناعة المخيفة. وأخذ «نيقولا» يستذكر رسالة «ميشيل بوريسّوفيتش» التي كان قد حفظها غيباً، قبل أن يحرقها. كانت كلّ كلمة فيها مدروسة جيداً ومحسوبة لكي ترغمه على أن يتألم ويتعذب: «لكم يكرهني! ماذا عملت له؟ أليس لي عدو ألدّ،

واشد سوءاً من الرجل الذي أحمل اسمه؟» وكان خبث والده وسوء نيته، وموت شقيقته، وفقدانه لمحبّة «صوفيا» ولعطفها، والخاتمة الدامية التي انتهت بها الثورة، ثم التوقيف، والسجن، كل شيء كان يختلط مشوشاً، وكله يسقط معاً، ودفعة واحدة، على رأسه. ولم يكن لديه حتى القدرة على أن يعيش هذه الأحداث، تبعاً لأهميتها، وكلاً منها حسب أهميته. كانت تحمله وتدفعه كالسيل المتدفق، بحيث إن لم يكن يشعر إلا بأنه يتدحرج دائماً إلى الأسفل، وبأنه يتألم، ويدخل في ليل مظلم، وأن قواه تتناقص وتضمحلّ، مع تسارع ذلك الانزلاق الرهيب الذي يحدث في الأرض، تحت قدميه. وتلت أزمة البكاء، فترة من الخبل والشرود. فأخذ يمشي ويدور حول نفسه كالسكران. وكان منظر الجدران العارية يحدث لديه نوعاً من السّكر. ولم يكد يستلقي على فراشه القشّي، حتى استغرق في النوم.

☆☆☆

وعند الفجر، أيقظه عجوز معاق، نحيل جداً، وعلى صدره عدة أوسمة، حاملاً بإحدى يديه إبريقاً كبيراً، وبالأخرى قطعة من الخبز الأسود، عليها قليل من السكّر. كان الرجل يسعل، فصدره أجوف. وتنقصه عدة أسنان في الجهة اليسرى من فكه الأعلى، وشفته المريضة تتدلى تحت شاربه كالدنتيلا، وسأله «نيقولا» بينما كان يسكب الشاي الباهت اللون، في فنجان حديدي:

- كم الساعة الآن؟

فبدا الانزعاج على العجوز، من هذا السؤال الذي ينم عن فضول غير مناسب، وغمغم:

- ليس لي شرف معرفة ذلك. انتظر حتى تدق ساعة الكاتدرائية.

- ما اسمك؟

- ممنوع عليّ أن أبوح باسمي.

- يمكنك مع ذلك أن تقول لي أين أُصبت بجرحك!

فقال العجوز المعاق، وهو يحاول أن ينتصب في وقفته:

- عند أبواب باريس!

فقال له «نيقولا»:

- لقد كنت هناك: الملازم «أوزاريف» من الحرس الليتواني.

- أنا كنت من رماة الحرس.

- وتدعى: «بوبوفّ»:

فقال العجوز مصحّحاً:

- كلا، إني أدعى: «ستريبوكوفّ»!

فشعر بأنه خدع، وهزّ رأسه، وقال بأسى:

- هذا ليس حسناً، يا صاحب السعادة.

فطمأنه «نيقولا»، قائلاً:

- لن يعرف أحد شيئاً عن هذا، ألديّ جيران هنا؟

فنظر إليه «ستريبوكوفّ» بحذر، وخطا خطوة نحو الباب

فسأله «نيقولا»:

- أين تذهب؟

فأجابه «ستريبوكوفّ» متلعثماً:

- إنك ستجعلني أرتكب بعض الحماقات!

كانت عيناه طافحتين بلطف بسيط ومتعاطف، وفجأة، لم يعد يستطيع أن يتمالك نفسه، وتمتم، قائلاً:

- نعم لديك عدّة جيران! وفي قطاعي، جميع الزنزانات مشغولة! وكلهم، مثلك، شباب، وبصحة جيدة! ورؤيتهم وهم في السجن تزهق الروح! وليغفر الله لمن يخطئون، ولمن يدينونهم!

وعندما ذهب، ظلّ «نيقولا» مأخوذاً بما أبداه من عطف نحوه، فقد حصل لديه انطباع بأنّ كلباً شجاعاً، ناعم الشعر، نظرته تنم عن الوفاء، قد دخل في حياته. ثم بدأ عذاب الملل بسبب العطالة والفراغ. كان الوقت يمضي برتابة مضنية. وعندما أشعلوا المدفأة في الممر، احمرّ «البوري» الذي يمر عبر الزنزانة، في بعض الأماكن، وأخذ يفرقع.

فشعر «نيقولا بالحرارة في رأسه، وظل يشعر بالبرد في ساقيه. ودون هدف معين، وبمحض المصادفة، أخذ يدق على الجدار بقبضته. فلم يجبه أحد. حتى كاد يخيل له أنه وحده في القلعة. ومع ذلك، فإنّ «ستريبوكوف» قال له بأنّ هنالك كثيرين مثله: «كلهم شباب، بصحة جيدة، مثلك.» وتصور مئات «نيقولا» نسختهم عنه مجموعة من المرايا، جالسين، كل منهم في زنزانته، وقد أحنى رأسه. فلماذا لم يكن عاملاً أو فلاحاً؟ لو كان واحداً من هؤلاء لكان تلاءم بشكل أفضل مع قدره، ورضي به. فهو الذي اعتاد أن يرتدي الملابس الناعمة والنظيفة، والنوم على سرير مريح؟ وأكل الطعام الجيد، وإقامة علاقات ودّية مع الناس الذين يحيطون به، أصبح ضائعاً في هذا المكان حيث كل شيء لم يكن سوى القسوة والبشاعة والحرمان. فليس هنالك شيء يمكن أن ينظر إليه إلا بقرف واشمئزاز!

فلو لمس خشب سريره أو عروة إبريقه، فإنه يشعر أنّ القذارة قد تخلّلته ونفذت إلى عظامه. والسطل الحديدي الذي ليس له غطاء تفوح منه رائحة وبائية نتنة. ولم يكن الحارس قد أفرغه بعد. وهذه القذارة جعلت «نيقولا» يتأكد من فكرة سقوطه وانحطاطه. وهل يمكنه أن يرتفع بروحه وبذهنه نحو مسائل وقضايا نبيلة، عندما يكون كافياً أن يفتح منخريه لكي يتذكر تعفّنه ونتنه؟ وأخذ يمشي بسرعة، كما لو كان لديه هدف عليه أن يصل إليه قبل المساء. خمس خطوات من النافذة إلى الباب، ربع دورة إلى اليسار. ثلاث خطوات من السرير إلى السطل الحديدي، أيضاً، ربع دورة إلى

اليسار، خمس خطوات بمحاذاة الجدار الآخر. وهذه المرة، نصف دورة إلى اليمين لكي يستأنف المسيرة في الاتجاه المعاكس.

وفجأة توقف. كان عند قدميه في أحد الفراغات، بين بلاطتين، شيء يلمع، فالتقطه: زرّ فضّي، انفصل عن صدريته وسقط هناك بالأمس بينما كان «نيقولا» يغيّر ملابسه. وقد أثّر به هذا الاكتشاف، وأدهشه. ففيما مضى ربما كان لا يستطيع أن يقول ماذا كان منقوشاً على الزر المعدني الصغير.

وقد أخذ الآن يتأمل نقوشة بإعجاب وبانتباه ينم عن المودة والحب. فكل ما بقي له من العالم الحر موجود في باطن يده. واغرورقت عيناه بالدموع. فحساسيته حساسية رجل مريض. وخبّأ الزرّ في جيبه وأراد أن ينساه. ولم تمر عشر دقائق حتى أخذ ينظر إليه من جديد.

وعند الظهر، تسرّبت رائحة الطبخ من تحت باب زنزانة «نيقولا». وجلب له «ستريبيوكوفّ» صحنا مملوءاً بالبرغل والملفوف، فرفض أن يمسّه، وقال وهو يدير وجهه نحو الحائط:

- أرجع هذا!

وبعد ذلك بأربع ساعات، انتابه جوع شديد، لدرجة أنه شعر أنّ رأسه يؤلمه. فنهض وأخذ يدق الباب بقبضته، لكي يجذب انتباه الحارس. فوافق «ستريبوكوف» وهو يتذمّر على أن يجلب له بقية من حساء الحنطة السوداء. ولكنه بارد، ولا مجال لتسخينه في المطبخ.

فقال «نيقولا»:

- لا بأس بذلك!

وكانت الملعقة تنغرز في الحساء، كما في الصمغ الذي يستعمل للصق الورق. وأخذ «نيقولا» يلتهم من هذا الحساء إلى أن شعر أنّ في داخل معدته كرة ثقيلة، عسيرة الهضم. عند ذلك، أخذ يمشي من جديد. خمس خطوات إلى أحد الجوانب وثلاث إلى الجانب الآخر...

وغداً سيفعل مثلما فعل اليوم، وكذلك بعد غدٍ، وكل يوم...

وهل هذا يمكن أن يكفي لملء حياة إنسان؟ وانتابه ذعر شديد، أخذ يتنامى مع هدير البحر الذي يصم الآذان. وبسرعة، أخرج الزر الفضي من جيبه، وأخذ يقذفه من يدٍ إلى الأخرى، كأنه مشعوذ، يقوم بألعاب الشعوذة بإحدى النجوم. كان خياط «كوستيا لادوميروف» هو الذي خاط له صدريته الخمرية اللون. وتذكر كيف كان قد جرّبها أمام المرآة، وهو شديد الانتباه لأقل ثنية في غير محلها. ولأنها أعجبته، فقد أوصى على صدرية أخرى على أن يكون لونها أزرق غامقاً، ولها سبعة أزرار. وكان على الخياط أن يسلمها له في نهاية الأسبوع...

وفي المساء، عند حلول الظلام، خرجت الصراصير من أوكارها بأعداد كبيرة، لدرجة أنّ الزاوية التي وضع فيها السطل الحديدي قد امتلأت بتلك الحشرات ذات القواقع السوداء. وعن تحركها كان يصدر صوت كصوت الورق الذي يدعك. فسحق «نيقولا» بعض هذه الحشرات، بقدميه وهو يسير فوقها، وكانت تحدث وهي تنسحق تحت نعليه، صوتاً مزدوجاً، جافاً ولزجاً في آن واحد. وهذه المجزرة عبر الظلام، كانت تثير الاشمئزاز، لدرجة أنّ «نيقولا» توقف بعد قليل عن متابعتها وقد شعر بالقرف. وعندما عاد «ستريبوكوف» ومعه السراج. هربت الصراصير التي بقيت على قيد الحياة، إلى أوكارها، وقد طردها ضوء السراج. فنظف الحارس الزنزانة، وألقى الصراصير الميتة في الممر، وقال:

- إنها ليست شريرة، وقتلها يثير القرف والاشمئزاز أكثر من تركها حية، تعمل وتتحرك كما تريد.

٤

وذات صباح، بينما كان «نيقولا» يتمشى في زنزانته لكي يحرك عضلات ساقيه، حصل لديه انطباع أنه بدلاً من أن يعود أدراجه دائماً، كان يتقدم على طريق طويل فيه منعطفات مفاجئة، لا يمكن توقعها. والواقع أنّ الذي كان يتغير، ليس المشهد، بل هو نفسه. إذ إن الرجل السعيد الحر، والخفيف، الذي كانه، أخذ يختفي غائصاً في ماضٍ غريب وغير معقول، يكاد لا يصدق. ولكي يبقى على قيد الحياة، كان عليه أن يقاوم الانجذاب اليائس نحو الذكريات. وأن يتقبّل أن يكون شخصاً آخر.

أن يكون مولوداً جديداً، ولد في السجن وهو في الحادية والثلاثين من عمره. عند ذلك، كل شيء يبدو أكثر سهولة، ويستطيع أن يكيّف رغباته ومخاوفه ومشتهياته مع أنظمة السجن، ويكف عن أن يحلم بإغراءات العالم الخارجي، لكي يتدارك من داخل ذاته ونفسه جميع التسليات التي يستطيع الذهن البشري أن يتيحها. ويتدبّر أموره بما لديه من احتياطي، كما تفعل المدينة المحاصرة. ويصبح هو صديق نفسه، عدو نفسه، وقاضياً يحاكم نفسه، وجمهوره الخاص به. بل ربما انتهى به الأمر حتى لأن يكون سعيداً، بطريقة مّا؟

ولكنّ هذا، كان «نيقولا» يشك به، على الرغم من رغبته الشديدة بأن يسترد شجاعته. وأخرج الزرّ الفضّي من جيبه، وأخذ يتأمله بلوم عطوف. كان هذا الزر الصغير يرمز إلى جميع عوامل ومظاهر ضعفه. كان يلمع، غريباً، في عالم لا عمل له فيه. كان هو العائق، وهو النفي والرفض وهو

وحده يمنع مالكه من أن يعيش كسجين حقيقي. وفجأة، قرّر «نيقولا» التخلص من زرّ الصدرية. فحاول أن يدفعه إلى الخارج من تحت الباب، ولكن الزرّ كان محدّباً قليلاً فلم يمرّ تحت الباب، ولكي يرقّقه أخذ «نيقولا» يدعسه برجله، ومع كل دعسةٍ كان يشعر بألم في كعبه، عبر نعل الخف الرقيق. وبالطبع، كان من السهل التخلّص من الزرّ بطريقة أكثر بساطة، وهي أن ينادي الحارس وأن يعطيه الزر. ولكنّ «نيقولا» كان يأنف من هذا الحلّ الذي ينمّ عن الكسل فهنالك فورة كانت تدفعه للتحرك والعمل.

وكان وهو يخطو مراوحاً مكانه، وسط الزنزانة، يتوهم أنه يقوم بعمل مهم. وبعد ساعة من العمل، تغيّر شكل الزر، وأمكنه أن يمرره تحت درفة الباب. عند ذلك انتصب «نيقولا» واقفاً وقد أنهكه التعب، والعرق يتصبب على جبينه، وهو يردّد:

- حسن جداً! حسن جداً!

ثم ذهب ليقضي حاجته في السطل ويرتاح. وكان قيامه بذلك يعتبر حدثاً مهماً، في يومه. كان يفكر به مسبقاً، ويؤجل لحظة تنفيذه. ومن جديد داهمته الرائحة الكريهة، فأثارت لديه الغثيان. فهذا السطل الحديدي كان عبارة عن نصب أقيم للعار الذي يحيق ببني البشر.

واستلقى «نيقولا» على سريره، واضعاً يديه تحت رأسه. واستبدت به رغبة جنونية بقراءة كتاب مّا، أيّ كتاب! وأن يقلّب صفحاته، ويستنشق رائحة الورق المطبوع، الزكية، وأن يغوص في قصة مّا، إن كانت حقيقة أو كاذبة ومن نسج الخيال، وأن ينتقل من بلد إلى بلد آخر، وأن يتابع التطور المتعرج لإحدى الفلسفات... وحاول أن يتذكر الروايات التي أغرته وأعجبته في فترة فتوّته. وأخذ يردّد بعض أبيات الشعر التي يحفظها، يضيف عليها، من ذهنه، بعض العبارات.... ومن وقت لآخر، كان الحارس يراقبه، من

خلال الفتحة الخاصة بذلك والموجودة في الباب. وكانت الصراصير تتجمع حول إناء الماء. وأخذ «نيقولا» يفكّر: «لقد قضي الأمر، وانتهى كل شيء! وعقدت اتفاقاً مع نفسي، وقد نبذت أفكاري الرقيقة والحساسة، وعاداتي التي تنم عن الترف والأناقة، وقررت التحول، والتأقلم مع حياة السجن...» وبعد ذلك بخمس دقائق، عاد إلى التفكير بـ «صوفيا»، فتخلّت عنه شجاعته وارتخت أعصابه، وكان عليه أن يعود ويستأنف كل شيء من جديد!

☆☆☆

وانقضى أسبوعان أيضاً، دون أن يحدث أقل تغيير في حياة «نيقولا». والصراصير لم تعد تقلقه. ولكم كان يود أن يحلق ذقنه، ولكنّ ذلك كان ممنوعاً بموجب النظام. وبما أنه لم يكن لديه مرآة، فقد كان يحاول أن يتصور وجهه، بتحسّسه بيده. كان جلده يزداد التصاقاً بعظامه. وأخذ الشعر يصبح قاسياً على ذقنه وعلى خدّيه. وعندما يحني رأسه، كان يشعر كأنّ فرشاة تحك له عنقه. والماء القليل الذي كان يعطى له لكي يغسل به يديه ووجهه، كانت رائحته كريهة. ومع ذلك، فقد أخذ يألف، دون صعوبة كبيرة، وسخه، الحكة الشديدة التي تعتريه، وجوعه. وفي بعض جوانبه، كان هذا البؤس مواسياً ومشجعاً له. وفي الشقاء والمصيبة كان يسترد اعتباره لنفسه. فهل كان من تلك المخلوقات التي تبدو بحاجة لمعاناة الألم لكي تعيش وتثبت وجودها؟ كان التوقيت الرسمي تحدّده له ساعة كاتدرائية القديسين «بطرس وبولس» التي كانت تدق كل ساعة، معلنة الوقت بصوت النحاس المصدوع. وبعد ذلك تطلق بعض الأجراس رنينها المتناغم. ولكي يستطيع «نيقولا» إحصاء الأيام التي يقضيها في السجن، كان يلصق كل مساء، قطعة صغيرة من الخبز الأسود على الجدار فوق رأس سريره. أمّا الجرذان، ولم يكن يعمل شيئاً سوى سماع أصواتها

وتنكيشها، في بداية إقامته في الزنزانة، فقد أخذت تتجاسر على القيام بزيارته. وهي من جرذان الماء، غزيرة الشعر، لونها رمادي مائل إلى الأحمر.

وقد أخافته في بداية الأمر بضخامتها ووفرة عددها. وبعد ذلك لأنه لم يستطع أن يقضي عليها، فقد تبنى معها موقف المصالحة: وأخذ يتركها تأكل الفتات الذي يتبقى من وجبته، وبعد عدم وجود أي شيء لتأكله كان يطردها، ضرباً بالخف. ولم يطل بها الوقت حتى أدركت مزايا هذه التسوية: فحالما كان ينزع خفه من رجله، كانت كل المجموعة تسرع لتأوي إلى أوكارها. وكان بينها مسنّون وصغار السن، بعض الذكور وبعض الإناث... وكان «نيقولا» يلهو ويتسلى بالتعرف عليها وإعطائها أسماءً. وفي الليل، يحصل معه أن يستيقظ ويرى عينين صغيرتين براقتين، تراقبانه عبر الظلام. وكانت هذه المراقبة أقل إزعاجاً له من مراقبة الحراس له عبر فتحة الباب. كان هؤلاء ثلاثة مع «ستريبوكوف» الذين يراقبونه بالتناوب. ولم يكن يستطيع أن يتحرك ولا أن يسعل دون أن يسترعي انتباههم. وفي كل لحظة كانت تمتد يد وتزيح الخرقة الخضراء التي تغطي الفتحة، وتتفحص الزنزانة عين العملاق الوحيدة. وكان الناس يتهامسون في عالم البشر الأحرار. وذات صباح أعتقد «نيقولا» أنه سمع صوت القيصر بالذات. وفي الحال، قال لنفسه إنه مخطئ، وإنّ إمبراطور البلاد الروسية كلها، لديه كثير من الأعمال الأخرى التي عليه أن يقوم بها، بدلاً من مراقبة المساجين. ومع ذلك فقد سأل «ستريبوكوف». فاضطرب هذا، وتذمّر، ورفض أنه يجيبه على سؤاله. وكان اضطرابه بمثابة الاعتراف.

وأخذ «نيقولا»، وهو جالس على سريره، يراجع في ذاكرته للمرة المئة تفاصيل ودقائق التحقيق الذي أجري معه في «قصر الشتاء». وكان يريد بذلك إزكاء كراهيته لنظام الحكم الملكي، وتقسية طباعه وجعلها أكثر صلابة وحزماً، توقعاً لمعارك النضال، القادمة. ثم، بدلاً من ذلك،

استسلم لميله المألوف، وهو أن يضع نفسه محل الخصم، ليأخذ مفهوماً آخر من الأحداث. وكون العاهل يهتم، هو شخصياً بالمتمردين، يثبت إلى أي حدٍ كان حائراً ومضطرباً، في انتصاره، بسبب ضخامة حجم المؤامرة التي اكتشفها. وكان مزيج من الغضب والاحتقار والشفقة ومن الفضول المرضي، يدفعه إلى تفحص هؤلاء الرجال الذين تجاسروا على التمرد والثورة ضد عشرة قرون من التاريخ الروسي. وكان يريد أن يحصل منهم بالذات وهم لا يزالون تحت تأثير حرارة جريمتهم، على التفسير الواضح لظاهرة يصعب فهمها من قبله، كالتمرد الذي حصل بتاريخ ١٤ كانون الأول «ديسمبر». وأكثر ما يثير الدهشة، دون شك، هو أن أغلبية هؤلاء المتمردين، كان يعرفهم جيداً: ضباط من العاملين في موقع حماية العاصمة، نبلاء وأشراف من المقرّبين من القصر ومن المحيطين به. ولذلك كان يرى نفسه محاطاً بالمشبوهين، وهكذا فقد بدت له جميع الوسائل والأساليب، صالحة من أجل سبر أغوار الضمائر.

وفكّر «نيقولا» أنه لو كان في وضع القيصر، لما تصرف بطريقة مختلفة. وقد أثاره هذا الافتراض. وقال في سرّه: «هذا ما يحصل، عندما يطلق المرء العنان لخياله، فالثوري لا ينبغي له أبداً أن يحاول فهم وجهة نظر الناس الذين يجابهونه. فالتماثل والتماهي مع الغير، حتى ولو لبضع ثوانٍ، يعني الصفح عنهم على مدى الحياة. فالرجل القوي ليس ذلك الذي يتأثر بكل الأصداء ويتجاوب معها، ولكنه ذلك الذي يرفض أن يؤمن ويصدق أنّ هنالك حقيقة غير حقيقتة هو.»

وفكرة كونه يحمل الاسم نفسه الذي يحمله الإمبراطور، جعلته يبتسم. وعيد مولدهما، أي عيد شفيعهما كليهما، يقع في ٦ كانون الأول «ديسمبر». وتذكّر لقاءهما الأول، قبل عشر سنوات، في معسكر «فيرتوس» في فرنسا. وبالقرب من «أليكسندر الأول» الذي كان يمتدح

«نيقولا» ويهنئه باقتراب موعد زواجه بـ «صوفيا»، كان يقف الدوق الأكبر، شاباً، أنيقاً، متكبراً. وإحدى الصور غطت الأخرى: فبدلاً من الدوق الأكبر «قيصر» وبدلاً من الملازم المتألق، في الحرس «الليتواني» سجين قذر. وهكذا فقد أضاع كل شيء! وهذه الليلة، رأى زوجته في الحلم وبكثير من الدقة، بحيث أنه عندما فتّح عينيه دهش واستغرب لأنه لم يرها جالسة قرب سريره.

وبعد أن تناول فطروه، أدخل «ستريبوكوف» إلى زنزانته ضابطاً شاباً، متأنقاً في هندامه، يحمل في يده مغلفاً مختوماً بالشمع الأسود، وقال:

- هذا لك من لجنة التحقيق.

كان يزمّ أنفه، بسبب الرائحة التي تفوح من السطل ولكنّ «نيقولا» لم يعد يخجل من ذلك. وسأله:

- ما هذا؟ أهو جواز الطريق؟

فقال الضابط:

- إنها استمارة استجواب تتضمن بعض الأسئلة، ويرجى منك أن تملأها بإجابتك على تلك الأسئلة. وسأحضر لآخذها غداً، في مثل هذه الساعة، وسيحضرون لك ريشة ومحبرة. وبالنسبة للورق، لن تحصل على ورقة أخرى غير هذه. فالتحضير على المسودّة ممنوع.

- ولماذا؟

- لكي لا تكون أجوبة المتهمين قد حضّرت قبل أن تكتُب على الاستمارة، يجب أن تكون عفوية، صادرة عن القلب!

وأدى التحية وانصرف وفتح «نيقولا» المغلّف. فبدت لعينيه قائمة تتضمن ثلاثين سؤالاً، هي نفسها، على وجه التقريب التي ألقاها عليه الجنرال «ليفاشوف» والقيصر، في الاستجواب الأول الذي أجري له: «متى وبواسطة من قُبلت في الجمعية السرية؟... من هم الأعضاء المشتركون بالمؤامرة الذين

التقيت بهم؟... هل أخذت علماً بوجود أيّ مشروع للدستور؟» وأراد في بداية الأمر أن يرفض الإجابة على هذه الأسئلة. ولكنّ «ستريبوكوفتّ» نصحه بالتعقّل:

- إذا لم تفعل ذلك، فإنهم سيضعونك في الكيس.

- أيّ كيس؟

- إنها زنزانة تحت الأرض، مغلقة بصفيحة سميكة، فيها فتحة صغيرة للتهوية. وهناك ليس العيش سهلاً كما هو هنا. فالسجين هناك، لا يرى شيئاً، إنه يختنق!...

فأطلق «نيقولا» ضحكة تشوبها المرارة. كان مشروع احتمال وضعه في «الكيس» يجذبه. وفجأة شعر برغبة شديدة بأن يحتقر السلطة الحاكمة ويزدري بها، وأن يخوض التجربة حتى نهايتها، وأن يتحسّس ويلمس غاية الظلم. فالحقيقة، ربما كانت في قاع ذلك البئر، الذي يهدّدونه به. وبعد ذلك، ، عندما تناول الورقة من جديد، قال في سرّه إنه يمكنه أن يخدم قضية رفاقه بشكل أفضل، ويربك القضاة أكثر، إذا أجاب بمكر ودهاء على بعض أسئلتهم، بدلاً من رفضه الإجابة عليها كلها. وبدأ العمل. وعندما كان يكتشف فخاً، في أحد الأسئلة، كان يقابله بعبارة تنم عن التهرب من الإجابة: «أجهل ذلك... لم أكن مطّلعاً على شيء من هذا...» وبالمقابل، كل مرة كان يسأل فيها عن أهداف الرابطة ويطلب منه بعض التفاصيل عن تلك الأهداف، كان يدافع بحماسة شديدة عن مثله الأعلى السياسي. فمثلاً، على السؤال التالي: «كيف كان الثوريون يتصرّفون لاستمالة أنصار جدد لقضيتهم؟» أجاب: «عند العودة من حملة فرنسا، ومن الحرب هناك، لم يكن يوجد ضابط، جدير بهذا الاسم، لم يشعر بالعار من الاضطهاد الذي تعاني منه بلاده. وجميع أولئك الذين حاربوا نابليون، تحت أمرة وقيادة «أليكسندر الأول» المجيد، لكي يعيدوا، لقاء دمائهم، الحرية

لأوروبا، لم يطل بهم الوقت لكي يدركوا، أنّ هذه الحرية، محرّمة عليهم، هم، وأنّ المسؤولين يرفضون إعطاءهم إياها، في بلادهم. وبعد أن أطلعوا على شروط وأوضاع الحياة، فيما وراء الحدود كان من الطبيعي أن يفكروا بالتجمع لدراسة إمكانية وضع دستور لروسيا».

وقرأ نصّ أجوبته برضا وسرور: «إنها إهانة مفاجئة وقوية لهؤلاء السادة أعضاء لجنة التحقيق!» ومن المؤسف أنه لن يستطيع رؤية وجوههم عندما سيطلعون على هذه الاستمارة! وبحركة أصبحت مألوفة لديه، أخذ يداعب لحيته، لقد أصبحت طويلة وأخذ شعرها يوخزه. وكان وهو متعب، وسخ، يغطي وجهه الشعر، يشعر أنه أقوى من مجموعة من القادة.

وفي اليوم التالي، حوالي الظهر، عاد الضابط الشاب والأنيق إلى الزنزانة، وضع استمارة «نيقولا» في مغلف وختمه، وعندما همّ بالذهاب، قال للحارس:

- أعطه خبزاً أبيض، مع الشاي الذي تقدمه له.

و «نيقولا» الذي لم يكن يكره الخبز الأسود، تساءل عن مغزى هذه الحظوة.

فهمس له «ستريبوكوف»:

- إنها البداية، فإذا أحسنت التصرف، وإذا قلت لهم كلّ ما تعرفه، سيعاملونك أيضاً بشكل أفضل، وسوف يسمحون لك، حتى بمراسلة أسرتك...

ومن جديد، أخذ «نيقولا» يفكّر بـ «صوفيا». وإذا كان قد رفض أن يكتب لها تحت أنظار القيصر والجنرال «ليفاشوف» ومراقبتهما له، فإنه كان يتحرّق شوقاً ورغبة لأن يكتب لها ويبثها أشجانه، الآن، وهو منفرد لوحده، في زنزانته. وحتى المساء، ظلّ يصيغ في ذهنه العبارات والجمل لرسالة يشرح لها فيها كل شيء، يبرّر فيها موقفه وتصرفاته، ويبثها حبه وأشواقه.

وعند منتصف الليل، طرق أذنيه صوت مفاتيح تتصادم مع بعضها، وتخلّلت بعنف، عبر أحلامه، بعض المشاعل، التي أضاءت الزنزانة كلها فهربت الصراصير، وقفز «نيقولا» واقفاً على ساقيه. وكان يقف أمامه الجنرال «سوكين»، بساقه الخشبية، والمقدم «بودوشكين» بوجهه المستدير كالقمر في تمامه. وبرفقتهما حارس يحمل سلة، فيها حذاء وملابس «نيقولا» التي انتزعت عنه يوم اعتقاله.

- عليك أن تغيرّ ملابسك وان تتبعنا.

وعندما سمع ما قال له «سوكين» أخذ يفكر: «إلى أين سيقتادونني؟» وشعر بالرغبة بأن يسألهما عن ذلك، ولكنه لم يفعل بدافع من الكبرياء. وأخذت تزاحم في ذهنه، الذي لا يزال تحت تأثير النوم، بعض الفرضيات المأساوية: مفرزة تنفيذ حكم الإعدام، «الكيس» أو الزنزانة في باطن الأرض، الرحيل إلى سيبيريا، التعذيب...

ودقت ساعة الكاتدرائية، معلنة الثانية صباحاً. وأخذت أجفان عينيه ترفّ. وشعر بأنّ فمه جاف ودَبق، وأنّ معدته فارغة، وأخذ يرتدي بصعوبة الملابس التي كان قد نسي رقتها ونعومتها. وعندما رأى من جديد صدريته الخمرية اللون، التي ينقصها زر فضي، ابتسم بحزن وأسى.، وتقدّم منه حارس مجهول، فعصب له عينيه، وألبس رأسه كيساً، مثلما حصل له عند وصوله إلى السجن. وأمسكه «بودوشكين» من يده لكي يقوده. وبعد مسيرة طويلة في الممرّ، شعر ببرودة الهواء الطلق عبر القماش الذي يغطي وجهه، فانقطعت أنفاسه بسبب ذلك: فلماذا لا يستطيع أن ينتزع هذا الكيس الذي يغطي له رأسه ووجهه، ويذهب فيتدحرج على الثلج، ويلتقط برودة وعذوبة الليل ويختزنهما في رئتيه؟!

- هيا، امش! امش!

كان هنالك من يدفعه في ظهره، وهو يصعد درجاً، ثم أدرك من شعوره بالحرارة، وسماعه التمتمة، أنه دخل إلى غرفة مأهولة.

وقال له «بودوشكين» وهو ينزع الكيس عن رأسه والعصابة عن عينيه:

- اجلس!

وأجلسه خلف ستار مصنوع من قماش أخضر، تحت حراسة جنديّين. وعبر شقٍ في القماش، استطاع «نيقولا» أن يرى ثلاثة سجناء آخرين يصلون إلى هناك، ولكنه لم يستطع أن يعرفهم، لأنهم، هم أيضاً، كانت رؤوسهم ووجوههم مغطاة بالأكياس.

واختفوا، هم أيضاً، بدورهم وراء ستائر قماشية. وفي الممرّ، كان كثير من الضباط يروحون ويجيئون، ومهاميزهم ترنّ بشكل مسموع. بينما كانوا يتحدثون مع بعضهم بصوتٍ عالٍ، ويتضاحكون، دون أن يولوا أي اهتمام أو مراعاة للمساجين، الذين كان بعضهم، دون شك، من رفاقهم في السلاح.

وبعد مرور ما يقرب من عشر دقائق، أخرج «بودوشكين» «نيقولا» من عزلته، وتبع الجنديان الموقوف على بعد خطوتين. وبينما كان «نيقولا» يمر في أحد الصالونات، وجد نفسه وجهاً لوجه مع «هيبوليت روزنيكوفّ»، الذي كان يتحدّث إلى مجموعة من الضباط، والتقت نظراتهما على جناح السرعة. فلم تتحرك عضلة في وجه «هيبوليت الجميل»، المورّد. وأخذ يتأمل صديقه ببرود شديد وكأنه ينظر إلى رجل غريب. فكتم «نيقولا» غيظه، ومضى.

وأمام أحد الأبواب كان عليه أن يتوقّف، أيضاً، ثم، صاح صوت:

- أدخلوا «أوزاريفّ»!

كان اثنا عشر قاضياً ينتظرونه في صالون صغير، وراء منضدة عليها غطاء أحمر. فتبادر إلى ذهن «نيقولا»: «مجلس العشرة، كما في فينيسيا». وعلى ضوء الشموع المشكولة في شمعدانات ضخمة مصنوعة من الفضة المذهبة، كانت الكتّافيات، شرائط الزينة والأوسمة تتلألأ مثل حراشف السمك. وعرف «نيقولا» من بين الضباط القضاة، الدوق الأكبر «ميشيل

بافلوفيتش» الأخ الأصغر للقيصر، والجنرال «دييبيتش» رئيس هيئة الأركان العامة، «تاتيسشيف» وزير الحربية، الجنرال «ليفاشوفّ»، الجنرال «تشيرنيشيفّ» الجنرال بنكندورفّ» والجنرال «غولينيشيف- كوتوزوفّ»... فيا لها من لجنة تحقيق فخمة، للتحقيق معه وحده!

وطرحت عليه مشافهةً الأسئلة نفسها التي وجهت إليه خطياً. وحاول جاهداً عدم تغيير إجاباته. وبدا الجنرال «تشيرنيشيفّ» أنه أكثرهم حيلةً ودهاءً، وهو ذو وجه مخضّب، أبيض وموّرد، حاجباه منتوفان، وشعره المستعار كستنائي اللون، خصلاته مجعّدة ومتشابكة كصوف جزّة الغنم.

وقال له، هذا الأخير:

- إنّ أهم أعضاء الجمعية السرية التي حاكت المؤامرة، نعرفهم كلهم، وإذا طلبنا منك أن تذكر لنا أسماءهم، فذلك من أجل التخفيف من خطيئتك، وحسب.

فسأله «نيقولا»:

- ولماذا يجب عليّ أن أصدّقك؟

فأجابه «تشيرنيشف»، وهو يريه قائمة تتضمن كثيراً من الأسماء:

- بسبب وجود هذه، على الأقل.

فألقى «نيقولا» نظرة على الورقة: «ريلييف»، «بيستيل»، «كوهيلبيكر»، الأخوة «بيستوجيفّ»، «كاخوفسكي»، «غوليتزين»، «بوسشين»، «اياكو بوفيتش»، «تروبيتزكوّي»، «مورافيفّ- أبوستول»... جماعة اتحاد الشمال، وكذلك، جماعة اتحاد الجنوب، جميعهم، أسماؤهم مسجلة في تلك القائمة! وليس هنالك شك بأنه حتى لم يحدث أي تمرد في المقاطعات الجنوبية. وكان يبدو أنه يستحيل على الشرطة أن تكتشف كل هؤلاء المتآمرين بوسائلها الخاصة، فمن المؤكد أنّ بعض الخونة قد تكلموا، وباحوا بأسمائهم!

وسأله: «تشيرنيشيفّ»:

- هل اقتنعت الآن؟

فلم ينبسّ «نيقولا» ببنت شفة: فقد جفّ حلقه، وارتبط لسانه.

فاستأنف «تشيرنيشيفّ» الكلام:

- يبدو من تصريحات رفاقك جميعهم أنك كنت موجوداً في الاجتماع الأخير الذي عقدته الجمعية السرية، ليلة ١٣- ١٤، كانون الأول.

- فقال «نيقولا» بنبرة تنمّ عن التحدّي:

- هذا صحيح!

- وفي هذه الحالة، فما هو موقف الأمير «تروبيتيزكوي» آنذاك؟ هل كان مؤيداً للتمرّد، أن معارضاً له؟

- إنّ ذكرياتي عن هذا الموضوع، غامضة جداً!

- إنها ستتوضح، دون شك، عندما تعرف أنّ «ديكتاتوركم المعيّن»، بدلاً من أن ينضم إليكم في ساحة مجلس الشيوخ، كما كان قد وعدكم، ظلّ يتجوّل طوال النهار في الشوارع المجاورة لها، مراقباً وصول قطعات الجيش، وهو يختبئ مرتجفاً. وبعد الهزيمة، أخذ يتنقل من منزل أحد الأرستقراطيين، إلى منزل أرستقراطي آخر، آملاً، بالهرب والنجاة من ملاحقتنا له، وانتهى به المطاف في السفارة النمساوية، عند صهره، الكونت «لبزيلتيرن». وهناك ألقي القبض عليه، عند منتصف الليل. فهل، بعد هذا، ستدافع عنه أيضاً؟

لم يدهش هذا الخبر «نيقولا» كثيراً. ولا شك في أنّ «تشيرنيشيفّ» أطلعه عليه لكي يضعف له معنوياته، باخباره، منذ البداية، بتفاصيل تصرفات شخص، كان يمكن أن يعتبره رئيسه؟ فهذه الخدعة عادية وتقليدية.

وقال «نيقولا»:

- في كل مؤامرة، يصادف أحياناً وجود رجال ضعفاء.

فقال «تشيرنيشيف»

- وإعجابك، أنت، تبديه، بالطبع للرجال الأقوياء؟

- نعم!

- وهل كان يوجد الكثير منهم، بين جماعتكم؟

- ليس بالقدر الكافي.

- على أي حال، فهؤلاء الرجال الأقوياء، هم الذين تحدثوا في الاجتماع الأخير في منزل «ريلييف» عن الاعتداء على حياة القيصر؟!

- لم أسمع شيئاً من هذا القبيل.

فتابع «تشيرنيشيفّ» الاستجواب، بهدوء وإصرار:

- حسب رأي البعض، يكون «ريلييف» هو الذي طلب من «كاخوفسكي» أن يقتل القيصر، وحسب رأي جماعة آخرين، يبدو أنّ «كاخوفسكي» هو الذي اتخذ هذا القرار، دون أن يدعوه أحد إلى ذلك. فإذا ذكرت لنا الحقيقة، يمكنك أن تخفّف المسؤولية التي تقع، على الأقل، على أحد هذين الرجلين. وإذا كتمتها، فإنك لن تفعل سوى التأكيد على إلصاق تهمة محاولة اغتيال القيصر بالاثنين. أليس من الأفضل أن تنقذ أحدهما بالتصريح بالحقيقة في شهادتك، بدلاً من تجريم الاثنين. والتسبب بضياعهما، بصمتك وكتمانك للحقيقة؟

فارتبك «نيقولا» عند سماع هذا البيان التحذيري، فهو، لأول مرة، يجد نفسه في موقف، يمنعه فيه حسّه واهتمامه بالعدالة والإنصاف، من أن يلتزم الصمت. ومع ذلك فإنّ مساعدة القضاة بشأن هذا الجانب الخاص، أليس معناه الدخول معهم في اللعبة كلها المتعلقة ببقية التحقيقات، والقبول بالتعاون بين المتهمين، ومن يتهمونهم، والاعتراف، بشكل مّا، بمبدأ ضرورة فرض العقوبة؟ وحسب ذكرياته، فإنّ فكرة الاغتيال تعود إلى

«كاخوفسكي» ولكنّ «ريلييف» طلب منه، بعد أن انفضّ الاجتماع، أن يتصرّف وينفّذ فكرته. ولذلك فإن مسؤولية الاثنين، تقريباً، متساوية. ومع ذلك، فإنّ «كاخوفسكي» بعد أن قتل «ميلورادوفيتش» و «ستورلير» لم يعد يستطيع أن يأمل بأي تسامح، في حين أنّ «ريلييف» الذي لم يرتكب جرماً، ولم يسفك دم أحد، يمكنه أن يأمل بتخفيف الحكم عليه، وبتحسين مصيره، إذا أتت غالبية الإفادات والشهادات، لمصلحته. وهمّ «نيقولا» بالكلام، تحثه على ذلك، صداقته لهذا الرجل. ولكنه فجأة عدل عن ذلك:

فالله وحده، هو الذي يستطيع أن يقرر من هو البريء ومن هو المذنب.

فسأله «تشيرنيشيفّ» بعصبية واضحة:

- ماذا بك؟ أما زلت مصراً على التزام الصمت؟ فهل تفضّل أن تغرق عمودياً وإلى الأعماق أنت ورفيقاك، بدلاً من أن تساعد أحدهما على بلوغ شاطئ السلامة؟!

- ماذا تعني «بأن نغرق إلى الأعماق» يا صاحب السعادة؟

- إنّ جريمتكم طارئة، وجديدة جداً في روسيا، لدرجة أنه لا يوجد بعد، أيّ قانون لدينا يحدّد العقوبة التي تفرض على مرتكبيها!

إنّ جريمتنا الوحيدة هي أننا أردنا تحقيق الخير لبلادنا!

- لا يمكن أن يريد المرء الخير لبلاده وقتل القيصر، في آن واحد!

وفي تلك اللحظة، وجّه «نيقولا» نظرته نحو «تاتيشيفّ» الذي كان بيده قضيب من الشمع يلهو به، ونحو جاره «غولينيشيف- كوتوزوف» الذي كان يجلس مسترخياً على أريكته. وهاذان الاثنان كانا قد شاركا، قبل أربعة وعشرين سنة، باغتيال الإمبراطور «بولس الأول»، الأمر الذي اتاح لابنه «أليكسندر» أن يتبوّأ العرش. والجميع في «سان بطرسبورغ» يعرفون قصتهما. فبأي زيف، وبأي ضلالة غريبة، يقومان الآن بمحاكمة هؤلاء

الذين تتلخص جريمتهم بأنهم فشلوا في القيام، بما نجح بالقيام به أولئك فيما مضى؟ ولمع لهيب من الفرح في ذهن «نيقولا»، فالإغراء كان أقوى مما ينبغي. فمد سيفه، كما في المبارزة بالسيوف، بحماسة متزنة:

- هنالك حالات، يا صاحب السعادة، يصبح التمرّد فيها ضد الحكومة واجباً مقدساً. والبعض منكم يستطيعون أن يفهموني، ويدركون ما أعني، لو أنهم يستعيدون ذكرياتهم.

فانتفض «تاتيشيف» من الغضب، وهوت يده الثقيلة كالمطرقة على المنضدة. كما تنبّه أيضاً «غولبنيشيفّ- كوتوزوفّ»، مذعوراً، وفتح عينيه كمن يحملق في الظلام.

وقال «بنكندروفّ»:

- ماذا يعني هذا؟ أوضح ما تقصد به!

فقال «نيقولا»:

- الأمر في غاية البساطة، يا صاحب السعادة! فمتآمرو الرابع عشر من كانون الأول سنة ١٨٢٥ لم يريدوا سوى استبعاد «دوق أكبر» ومنعه من تولّي العرش، وتعتبرونهم قتلة وتعاملونهم كالمجرمين. في حين أنّ متآمري الحادي عشر من آذار «مارس» سنة ١٨٠١ قتلوا قيصراً، وبوحشية، تحت جنح الظلام، ومع ذلك فهم يتمتعون بتقديركم واحترامكم. فأين العدالة؟!

فصاح «تاتيشيفّ»، بأعلى صوته:

- يا لها من وقاحة!

وصاح أيضاً «غولينشيفّ- كونوزوف!» مزمجراً:

- اخرج من هنا! فليقتادوه وليثبتوا القيود الحديدة على رجليه!

وعلى النقيض من هؤلاء، بدا القضاة الآخرون مسرورين من الارتباك الذي سببه السجين لزميليهم، لأنه على ما يبدو، كان هنالك بين أعضاء

هذا المجلس كثير من الخصومات والأحقاد يعود تاريخها إلى بدايات حكم «أليكسندر» للبلاد.

وتجهّم وجه «تشيرنيشيفّ»، الصغير المخضب، وبدت عليه تعابير الحيلة والدهاء، وهو يقول:

- لم نجتمع هنا لكي نسمع رأيك بماضي ومستقبل روسيا، السياسيّين، بل لنطلب منك معلومات دقيقة عن خطة عمل «ريلييف» و «كاخوفسكي»، أتريد أن تقول لنا...

فقاطعه «نيقولا»، بحزم:

- ليس لدي ما أقوله.

وقال له «ليفاشوفّ»:

- ليكن ذلك، نحن نتركك لوساوسك، وحالما تغيّر رأيك، أخبرنا بذلك. وفي المستقبل، لا تنسَ أنّ الانصياع والطاعة، وأنت في وضعك هذا، أفضل بكثير وأنفع لك من التكبر والعناد.

وبعد هذا الاستجواب، أعيدت لـ «نيقولا» ملابس السجن. وحُرم من تناول الشاي، ولم يُعطَ، مساءً سوى نصف الحصة المعتادة من البرغل. واستبدل حارسه العجوز الاعتيادي «ستريبوكوف» بحارس آخر فظ، يحمل وجهه الملامح المنغولية، وتفوح من فمه رائحة المشروبات الكحولية. وذات صباح أدخل كاهناً إلى الزنزانة. وعلى الفور، تبادر إلى ذهن «نيقولا»: «إنه جاسوس!» كان هذا الكاهن طويل القامة، عريض المنكبين، له وجه فلاح، ينمّ عن القسوة، عيناه زرقاوان، ولحيته شقراء تتخللها شعرات فضية اللون، وهي طويلة تصل إلى قرب الصليب الذي يحمله على صدره. وقدّم نفسه، على أنه الأب «بييرميسلوفسكي».

فقال له «نيقولا»:

- أشكرك لتقديمك لي دعمك الروحي والمعنوي، يا أبانا، ولكن، لمجرد كونك موفداً من قبل الحكومة، فإني يستحيل عليّ أن أفتح لك قلبي، وأبوح لك بمكنونات نفسي.

فقال الكاهن، وهو يجلس على الأسكملة:

- من أين علمت أني موفد من قبل الحكومة؟ بالطبع، لم أكن لأستطيع الحضور إلى هنا، ضد إرادة لجنة التحقيق. ولكني لست مكلّفاً باستجوابك، وأيّ شيء تقوله لي، فإني لن أردّده أبداً أمام أحد.

وعلى الرغم من هذا التأكيد، ظلّ «نيقولا» حذراً، وأخذ يجيب بمراوغة على أسئلة الزائر، متهرباً من الإجابات الحاسمة والصريحة، وتركه يذهب دون أن يسمعه كلمة تعبر عن شكره وامتنانه. وعندما بقي وحده، أخذ يستنشق رائحة البخور «التي كانت مشبعة بها جبّة الكاهن. وهذه الرائحة الزكية والخفيفة التي علقت بالهواء، وبالكاد كان يشمها، جعلته يضطرب وكأنها قد ذكّرته بطفولته. وانتابته حاجة جسدية لأن يجد السكينة والأمان في الصلاة. وإن كان الأب «ميسلوفسكي» يعمل بإيعاز من لجنة التحقيق، وتحت إمرتها، أم لا، فهو قبل كل شيء، أحد ممثلي الربّ. ومعه دخل الله إلى الزنزانة. وبسبب انفعال «نيقولا» العابر لم يستطع أن يفهمه جيداً. ولحسن الحظ، فقد عاد الأب «ميسلوفسكي» بعد يومين، وكأنّ شيئاً لم يكن. ومن جديد غمرت «نيقولا» رائحة البخور الزكية والنفّاذة. ففتح لها منخريه، وأخذ ذهنه يحلّق فوق السحاب. وبعد أن تبادلا بعض الأحاديث البسيطة والمعتادة، سأله «نيقولا» فجأة:

- أتعرف، يا أبانا، كيف تم إلقاء القبض على أصدقائي؟

- أكثرهم انتظروا في بيوتهم، إلى أن أتوا واقتادوهم.

- هذا غريب!

- لا شك أنهم أدركوا، أنّ ليس لهم ملاذ سوى عدالة القيصر. وهذا موقف يشرفهم، بالطبع!

وكيف هي حالة روسيا، الآن؟

- ماذا تعني بذلك؟

- هل ساد الهدوء، تماماً، في كل مكان؟

- بالتأكيد!

- ألم يحدث تمرّد في مقاطعات الجنوب؟

- بلى، ولكنه قمع بشدة وبسرعة.

- وكيف حصل ذلك؟

- أوه! لقد حصل ذلك بطريقة في غاية البساطة! فزعيم المؤامرة، وهو رجل يدعى «بيستيل» اكتشف واعتقل، بمصادفة غريبة وسعيدة، عشية يوم الرابع عشر من كانون الأول «ديسمبر» وبتاريخ ٣٠ من الشهر نفسه، كان هنالك ضابطان: «سيرج مورافيف- أبوستول» و «بيستوجيف- ريومين» قد قادا جنودهما، واحتلوا مدينة «فسيلكوفّ» الصغيرة، ونادوا فيها بالسيد المسيح ملكاً على الكون. وقد أقام أحد الكهنة بعض الصلوات تحت تهديد المسدّسات. وقد أقسم الجنود، بناءً على أوامر قادتهم، يمين الولاء لله ولقضية الاستقلال. ثم خرج الجميع إلى السهوب للسير والزحف من أجل احتلال البلاد. وبعد ذلك بثلاثة أيام، وفي أول لقاء مع قطعات الجيش الحكومي، تشتّت الجيش المسيحي المزعوم، الذي كان قد تشكل من المتمردين، واسر قادته واقتيدوا إلى «سان بطرسبورغ».

فتمتم «نيقولا»:

- يا له من جنون! إنه جنون محزن ومؤلم!

وقال الكاهن:

- لقد مرّت غلالة أمام أفضل أبناء روسيا، فغشيت أعينهم.

- وماذا سيفعلون بنا، يا أبانا؟

فقال الأبّ «ميسلوفسكي»:

- بعد انتهاء التحقيق، وهذا سيتطلّب بضع أشهر، سوف يحاكمونكم.

- وبعد ذلك؟

- كيف وبعد ذلك؟

- نعم، ماذا سيقرّرون؟ عقوبة الإعدام؟

فرفع الكاهن يديه الكبيرتين بحركة تنم عن الاحتجاج:

- ليغفر لك الله!

أنت تعلم جيداً أنّ عقوبة الإعدام قد أُلغيت ولم يعد لها وجود في روسيا منذ عهد «ايليزابيت»!

- وما الذي يمكن أن يمنع القيصر من إعادة تطبيقها، بمناسبة الظروف الحالية؟

- الاحترام الذي يكنه لتعليمات وأوامر الله.

- ولكن! التعذيب، مسموح به! ومئة جلدة بالسوط تقتل لك بصورة شرعية جداً، رجلاً بعد أن يذوق العذاب الأليم. فكيف يمكنك أن تفسّر ذلك؟

- أنا لا أفسّره بل أستنكره مثلك تماماً! ومع ذلك، ففي حالتك هذه، ليس عليك أن تخشى شيئاً مثل هذا، لا أنت ولا رفاقك، فأنتم لستم قتلة ومجرمين... وأخيراً... فأنتم تنتمون بشكل أو بآخر إلى طبقة نبيلة وأرستقراطية... وهذا سوف يؤخذ بعين الاعتبار...

وخفض بصره وهو يقول ذلك.

فسأله «نيقولا»:

- إذن، ماذا ستكون عقوبتنا؟ السجن لبضع سنوات؟ النفي إلى سيبيريا؟

فأجابه الأب «ميسلوفيسكي» متآوّهاً:

- بالنسبة لكبار المذنبين، أي رؤساء المؤامرة، ربما يحصل ذلك! ولكني على قناعة تامة بأنّ أكثرية البقية سوف يُعفى عنهم.

إنّ الإمبراطور الذي يعرف الجميع عواطفه ومشاعره المسيحية، سوف يعمد إلى إضفاء طابع التسامح على بداية عهده في الحكم، باتخاذ هذا الإجراء الذي ينمّ عن الشفقة والرحمة، ولا ينبغي بعد ذلك أن تتمردوا ضده بصورة إفرادية، بعد أن حاولتم أن تفعلوا ذلك بصورة جماعية. وبدلاً من ذلك، عليكم أن تحاولوا تنويره وأن توضحوا له مقاصدكم وأهدافكم، وتساعدوه على إعادة تنظيم شؤون بلادنا العزيزة، التي تعرضت للكثير من المتاعب والآلام! وليس هنالك أي شك، بأنه يوجد بينكم كثيرون ممن يستحقون التقدير والاحترام. وبالمقابل، ربما كان يوجد بعض من لا يستحق كل ذلك. والأمر المهم، بالنسبة لخير الأمة وسلامتها، بكاملها، أن يُفصل بين الطيبين والأشرار، كما يفصل الزوّان عن الحبوب الصالحة والطيبة...

فأدرك «نيقولا» مغزى تلميحات الأب «ميسلوفسكي»، فهو مطّلع، دون شك على الاتهام الموجّه إلى «ريلييف» «كاخوفسكي».

واستأنف الكاهن الكلام:

- فهل أستطيع مساعدتك؟... وإعانتك على التغلب على تردّدك ووساوسك؟..

فأجابه «نيقولا» بلهجة جافّة:

- كلا، يا أبانا.

فأدرك الكاهن ما يدور في خلد «نيقولا»، وتمتم، وهو يبتسم بجدية ووقار:

- هل أنت مؤمن؟

- نعم.

- وتمارس شعائرك الدينية؟

- كنت أمارسها تماما، فيما مضى، أما الآن فأمارسها بصورة أقلّ.

- سنتكلم عن هذا فيما بعد، وإذا كنت لا ترغب بالاستماع إلى المزيد من أفكاري وآرائي، فأنا أطلب منك أن تصلي، وحسب، ومنذ هذه الليلة،، وبكل ما أوتيت من قوة.

ولم ينتظر «نيقولا» إلى المساء لكي يصلي، كان قد لاحظ، على الجدار آثاراً من الرطوبة، يذكّر شكلها بصورة مريم العذراء وهي تضم الطفل يسوع بين ذراعيها. وهذه البقعة أصبحت أيقونته، فركع أمامها، وتلا الصلاة متوسّلاً فيها الشفاعة من العذراء المقدسة: «يا من تواسين الذين يئنّون وهم في السجون، مقيدون بالسلاسل والأغلال، وتؤمنين لهم، دون كلل أو ملل، الراحة والأمان....»

وبينما كانت كلمات الصلاة والعبادة تنساب من بين شفتيه، سطع في قرارة نفسه ضياء خفي وعجيب. وعندما نهض، كان قد اتّخذ قراره: إنه سيحاول انقاذ «ريلييف» المثالي، المفكّر، ومنظّر الثورة، على حساب «كاخوفسكي»، الذي كان جنونه الدموي يلحق العار برفاقه وتصرفه بهذا الشكل، فإنها سيقوم بمساهمة أخيرة لدعم وتأييد قضية الحرية. واستدعى «بودوشكين» وأخبره بأنه يريد أن تستمع له لجنة التحقيق، من جديد.

وحُققت له رغبته، مساء اليوم التالي: حسب الطقوس المعتادة والتي لا تتغير: الكيس على رأسه، الجلوس وراء الستارة. ونزع الكيس عن رأسه على ضوء المشاعل، أمام منضدة حمراء، يتصدّرها عشرة أشخاص كتّافياتهم ذهبية، لا يبدو منهم سوى الجزء الأعلى من أجسامهم، فهم بذلك يشبهون التماثيل النصفية. ولم يبد القضاة أي دهشة عندما قال لهم «نيقولا» بأنه على حدّ علمه فإنّ «كاخوفسكي»، وليس «ريلييف»، هو الذي طرح فكرة الاعتداء على حياة القيصر.

ولا بدّ أنهم سبق لهم أن سمعوا هذه المعلومة من جميع المتآمرين. وهذه الفكرة جعلت «نيقولا» يقتنع بأنه أصاب وأحسن عملاً، بعودته ثانيةً لمقابلة لجنة التحقيق. وأعتقد أنّ الاستجواب قد انتهى، ولكنّ «تشيرنيشيف» زمّ شفتيه، وهمس:

- بما أنك سمعت «كاخوفسكي» يقترح أن يكون هو الذي سيقتل القيصر، فلا بد أنك لا تجهل أنّ «اياكوبوفيتش» أيضاً، كان يرى وجوب القضاء على جميع أفراد العائلة الإمبراطورية.

و «نيقولا» الذي أذهله هذا الهجوم المفاجئ، أدرك أنه قد تسرّع، وشعر بالراحة وبالفرح قبل الأوان. فكل شيء مترابط في هذه القضية. ويستحيل قول الحقيقة بشأن نقطة معينة، دون أن يرغم المرء على قولها بشأن نقاط وأمور أخرى. ولذلك، أراد أن يتوقف، عند ذلك الحدّ، وقال:

- أنا لا أعرف شيئاً عن موضوع «اياكوبوفيتش».

وأخذ يفكر بأنّ «اياكوبوفيتش» المتبجّح، ذا العصابة السوداء على إحدى عينيه، لم يكن يبدو له أكثر لطفاً من «كاخوفسكي» فلماذا يحمّل هذا الأخير المسؤولية، ويعفي الأول منها؟ لقد أشعل حريقاً، ولم يعد يستطيع السيطرة عليه.

وقال له «تشيرنيشيفّ»:

- حقاً؟ ألا يمكن أن تكون قد اطلعت على الاقتراح الذي قدمه ليلة ١٣- ١٤ كانون الأول «ديسمبر»؟ والذي يقضي بإجراء القرعة، من أجل تحديد من المتآمرين، سيكون عليه أن يغتال القيصر!

فانقبض صدر «نيقولا» كأنّ ملزمة تشدّ عليه بين فكيها، وتنفّس بعمق، وقال:

- كلا، إني لم أطلع على ذلك.

فبرقت عينا «تشيرنيشيف» الصغيرتان بفرح، كما تبرق عينا الصياد، وسأله:

- كيف حصل إذن، والحالة هذه، أنك قد اعترضت على مشروع «اياكوبوفيتش»؟

- أنا؟ إني لم أعترض أبداً...

- دعك من ذلك! فجميع رفاقك أكّدوا لنا أنك قد اعترضت بشدة وبغيظ على فكرة قتل القيصر. والبعض منهم، نقلوا لنا حرفياً، ما تفوهت به من كلام.

وتناول «تشيرنيشيف» ورقة عن المنضدة، قرّب من أنفه نظارة بمقبض، وأخذ يقرأ:

- «في تلك اللحظة، قال «أوزاريف»، بعد أن ناداه ونهره «اياكوبوفيتش» مستفهماً: سأكون غير قادر على قتل القيصر، لو وقع عليّ الاختيار للقيام بذلك، عن طريق القرعة. وينبغي ألاّ يكون المرء روسيّاً، لكي يفكر بطريقة مختلفة عما أفكر أنا!».

وهذه الجملة الأخيرة، «نيقولا» يتذكّر جيداً أنه تلفّظ بها، ولكنها وهي تخرج من فم «تشيرنيشيف»، فقد تغير مدلولها ومعناها، فهي لم تعد جملة يتفوّه بها متمرد وهو يجابه ضميره، بل جملة يتفوه بها خادم تافه ومتزلف لنظام الحكم الاستبدادي. ولأنّ «نيقولا» التزم الصمت، فقد أرسل «تشيرنيشيف» ضحكة خفيفة، وقال:

- وهل ستدّعي بأنّ أصدقاءك قد اختلقوا جوابك لـ «اياكوبوفيتش»؟

وأضاف على ذلك «بنكندروفّ»، قائلاً:

- وهي، أي هذه الإجابة، بالإضافة إلى ذلك، تفيدك، ولمصلحتك لأنّ صاحب الجلالة، سيأخذ علماً بها.

فصعد الدم إلى وجه «نيقولا»، فهو لم يكن يستطيع تحمّل ولا تقبّل هذه المكرمة التي يمنحه إياها الخصم، ولو أنه تلقى مكافأة على خيانة اقترفها، لما تألّم أكثر من ذلك!

وسأله «ليفاشوف»:

- لقد اعترض آخرون غيرك، أليس كذلك؟

فتردّد «نيقولا» في الإجابة، خلال جزء من الثانية، فهل كان عليه بدافع من الكبرياء، أن يستبعد بعض رفاقه ويحرمهم من الاستفادة من الظروف المخفّفة؟

ثم قال:

- نعم.

- ومن هم؟

- «غوايتزين»، و «بتنكوفّ»، «أودويفسكي»، «يوري ألمازوف»...

- هؤلاء، فقط؟

- كلاّ... إنني أحاول أن أتذكر... «كوهيلبيكر»، «روزين»، «أوبولنسكي»، «بوسشين»...

ورغبةً منه بإنقاذهم كلهم، أخذ يذكر كيفما اتفق أسماء الذين عارضوا بالفعل خطة «اياكوبوفيتش» وأسماء أولئك الذين لم يعارضوها ولم يؤيدوها. وكان القضاة يهزّون رؤوسهم، بينما أخذ أحد الكتبة يسجل كل شيء في سجل مفتوح أمامه.

وعندما انتهى «نيقولا» من تعداد الأسماء، قال «بنكندروف» مغمغماً:

- يبدو من المؤكد أنّ جميع هؤلاء الثوريين كانوا من مؤيدي نظام الحكم الملكي!

فصاح «تشيرنيشيفّ» بقوة:

- وهنالك بين أولئك الذين نعرفهم، جماعة لم يذكرهم المتهم. والمسؤولية التي تقع على عاتقهم تزداد خطورة، لأنّ عدداً كبيراً من رفاقهم حاولوا عبثاً ردهم وإعادتهم إلى جادة الصواب. ولذلك لا يمكن التكلم عن جنونٍ وحماسٍ جماعيين، وعن سريان عدوى إيديولوجية...

فكاد «نيقولا» يفقد صوابه، إذ إنّ نواياه الطيبة والخيّرة أخذت تتحول ضده. وتولّد لديه انطباع، بأنّ أي شيء يقوله، لن يكون له من تأثير سوى الإضرار برفاقه. فمن هم الذين نسي أن يذكر أسماءهم؟

وقال موضحاً:

- إنّ الأسماء التي ذكرتها ليست محدّدة بدقة! ومن المؤكد أني نسيت أو أغفلت بعض الأسماء...

فقال له «بنكندروف»، وهم يبتسم قليلاً:

- اطمئن، ولا تخشَ شيئاً، فستعوض النقص في تصريحاتك، تصريحات المتهمين الآخرين.

وبإشارة من «تشيرنيشيفّ» تقدّم جنديا الحراسة من «نيقولا» بسرعة، وقال له «تشيرنيشيف»:

- أشكرك، أيها السيد.

فذهب «نيقولا» وهو يتميز غيظاً، وكأنه يخرج من وكر يختبئ فيه بعض الغشاشين والمخادعين.

وفي اليوم التالي، عند الصباح، أحضر له السجّان، لإفطاره خبزاً أبيض، شاياً، وكمية مضاعفة من السكّر. وبحركة من يده أبعد «نيقولا» الخبز، وأسال الشاي على الأرض، فانسحب السجان بسرعة، متظاهراً بأنه لم يرَ شيئاً. وفي ذلك النهار حلّ محلّه العجوز «ستريبوكوف» الذي لام سجينه لأنه لم يتناول إفطاره:

- لا ينبغي أن تمتنع عن تناول الطعام، يا صاحب السعادة، وإلاّ فسيعمدون إلى تغذيتك بواسطة القمع! وهي عملية ليست لائقة، وأنا أؤكد لك ذلك! هاك! لديّ مفاجأة لك!

وغمزه بعينه وهو يُخرج من جيبه موس حلاقة:

- لقد سمحوا لي أن أحلق لك ذقنك!

فصاح به «نيقولا»:

- اذهب إلى شياطين الجحيم! لا أريد أن أكون مديناً لهم بشيء! أفضل أن أبقى هكذا!...

فانسحب «ستريبوكوف» بسرعة. وأخذ «نيقولا»، في ثورة غضبه، يضرب الجدار بيديه ورجليه لكي يؤلم نفسه، فتخرشت بشرة راحتيه، وأخذ ينظر إلى الدم وهو يسيل من تحت طبقة الوسخ، وهدأ قليلاً، فالمهم أن يحتفظ باحتياطي من الغضب لكي يصبه على الأب «ميسلوفيسكي». فلولا هذا الكاهن الذي يغالي ويبالغ بالفصاحة لما خطرت على باله فكرة العودة للمثول أمام لجنة التحقيق!

وأخذ يردّد، مزمجراً:

- إنه جاسوس، يرتدي جبّة كاهن!

ولكنه عندما رأى باب الزنزانة يفتح، والكاهن يجتاز العتبة، وهو يحني قامته الطويلة شعر من جديد، أنه أعزل وعاجز عن المقاومة. فهنالك رائحة البخور الزكية، واللحية الشقراء، والنظرة القوية الثاقبة، والصليب الفضّي على الثوب الكهنوتي الأسود، فكيف يمكنه أن يصدّق أنّ هذا كله ليس سوى أكاذيب؟ وكان التكتّم على همومه وقلقه فوق طاقته، ولذلك فإنه استسلم، واعترف للكاهن، وعندما أنهى اعترافه، قال له الأب «ميسلوفسكي» بلهجة تنم عن الفرح:

- ما الذي يجعلك تشكو؟ فأنت، بصراحتك، أدّيت خدمة للحكومة ولأصدقائك، في آن واحد. وبفضل شهادتك التي أدّيتها، ربما يحصل «ريلييف» على تخفيف لعقوبته. أمّا «كاخوفسكي» فإنّ جرائمه كثيرة جداً، ومعروفة تماماً، لدرجة أنك لم تستطع أن تضيف عليها شيئاً يذكر باتهامك إياه. وبعد اجتيازك هذه التجربة، فأنا أهنئك، وأباركك وأدعوك لأن تنام بأمن واطمئنان.

وعلى الرغم من هذه الكلمات الطيبة والمشجّعة، فقد ظلّ «نيقولا» مرتبكاً، حائراً.

وفي اليوم التالي، وحالما قُرع جرس الاستيقاظ، فتح «ستريبوكوف» باب الزنزانة، بشكل ينم عن التواطؤ الذي يشوبه الخوف، ودسّ ورقة في يد «نيقولا» وهمس في أذنه:

- اقرأها بسرعة، وأعدها لي كي أتلفها!

فعرف فيها «نيقولا» خط «ستيبان بوكروفسكي»:

«كل شيء أصبح معروفاً. فلماذا برّأت «ريلييف» ونفيت التهمة عنه، في حين أنه هو الذي شجع «كاخوفسكي»؟ لقد انهار «ريلييف» تماماً، واستسلم لسلطة القيصر. وهو يشي بالجميع بكل ما يملك من قوة ومعلومات. وقد أعلن الندم والتوبة، فيا له من بائس! وعلاوة على ذلك، فإنّ غالبية أصدقائنا يتصرفون على شاكلته. وهذا من جراء عملية الإفساد والانحراف، التي تحصل في السجن، وبسببه. حاول أن تتراجع عن تصريحاتك وأن تغيّرها.»

كان أول ردّ فعل بدر من «نيقولا» ثورة من الغضب، عصفت بكيانه وبلبلت أفكاره، فقد غضب لأنّ «ستيبان بوكروفسكي» شوش عليه هدوءه وطمأنينته، بلومه على تصرفٍ، كان هو، بالأساس، يلوم نفسه عليه، واغتاظ لأنّ «ريلييف» قد خيّب أمله، بسبب الاعترافات التي أدلى بها. وممّا زاده غيظاً وغضباً كونه وجد نفسه عاجزاً عن التمييز بين الحقيقة والكذب، وبين العدل والظلم. ثم شعر بشيء من الارتياح، عندما فكّر بأنّ «ستيبان بوكروفسكي»، الذي لم يكن يعرف عنه شيئاً، موجود هو أيضاً في القلعة، وأنه سيتمكن من مراسلته.

وقال لـ «ستريبوكوف»:

- أعطني قلماً، سأكتب له على قفا الورقة.

فصاح «ستريبوكوف»:

- هذا غير ممكن، يا صاحب السعادة، فأنا، من البداية، ما كان ينبغي لي أن أحضر لك هذه الرسالة! فلو اكتشفوا ما فعلت لكانت عقوبتي النفي إلى سيبيريا!

- لن يكتشفوا ذلك، ولو اكتشفوه، فهذا يعني أنه ليس هنالك ربّ في السماء!

فقال «ستريبوكوفّ»:

- آه! أيها السادة الثوريون، إنكم غير متعقّلين!

وتنهّد، رسم إشارة الصليب على صدره، ثم أخرج قلماً من بين طيات كمه.

وكتب «نيقولا»:

«العزيز ستيبان»

أحزنني كثيراً لومك لي. فهل تعتبر «كاخوفسكي» أكثر أهمية من «ريلييف»؟ وأيّاً كان موقف هذا الأخير أمام لجنة التحقيق، فإني أفضله على الأول، الذي يبدو، بالحقيقة، مستيراً، ولكنه قاتل، أيضاً. وهو، على أي حال، الذي قتل «ميلورادو فيتش»!

وقال «نيقولا» وهو يناول «ستريبوكوف» البطاقة:

- أحضر لي الجواب بسرعة!

فقال الحارس المعاق:

- سآتيك به بصورة شفهية، وهكذا يصبح الأمر أقل خطورة. وطوال النهار ظلّ «نيقولا» ينتظر عودة «ستريبوكوف». وفي موعد تناول وجبة العشاء، أحضر له طعامه حارس آخر.

فشعر «نيقولا» بالقلق. وكان يتناول طعامه، عندما فتح الباب من جديد، ودخل «بودوشكين» البدين، المورّد الوجه، إلى الزنزانة، واعتذر عن

مفاجأته له وهو يتناول طعامه، وطلب منه أن يضع الكيس على رأسه وأن يتبعه.

واستقبلت لجنة التحقيق، التي كانت مجتمعة بكامل نصابها، السجين، عبر هالة من أضواء الشموع. وكان «تشيرنيشيف» يمسك بيده ورقة. فعرف «نيقولا» أنها البطاقة التي أرسلها إلى «ستيبان بوكروفسكي»، فاستولى عليه الخوف، الذي أخذ يتزايد عندما فكّر بمصير «ستريبوكوف» الذي اكتُشف أمره، وامسك به، وبالعذاب الذي سيتعرض له والعقوبة التي سينالها، جزاءً له على إخلاصه لقضية «السادة الثوريين».

وقال «تشيرنيشيف»، وهو يبتسم بسخرية:

- إني أعتذر عن انتهاك سرّية مراسلاتكما، ولكننا ونحن في هذا الظلام الذي يخيم علينا، نجد أنّ جميع الوسائل التي تنير لنا الطريق، مقبولة وصالحة. وهكذا، يبدو أنك تتمسّك باتهامك لـ «كاخوفسكي»، بل وتدعم هذا الاتهام وتشدّده؟!

كان «نيقولا» بالكاد يسمعه، لشدة تألّمه، من كونه بدافع من الأنانية، وبشيء من الاستخفاف، قد تسبب بدمار وضياع الحارس العجوز والمعاق.

واستأنف «تشيرنيشيف!» الكلام:

- نحن، جميعاً هنا، على استعداد لتأييدك في هذا الرأي. لاسيما وأنّ «كاخوفسكي» هو وحده، حسب رسالتك، الذي قتل الجنرال «ميلورادوفيتش».

فانتفض «نيقولا»، وقال:

- أنا لم أكتب أبداً أنه فعل ذلك بمفرده!

- الأمر مضمر ومضمّن، لأنك لم تذكر معه أسماءً أخرى.

- فكروا وفسّروا كما تشاؤون، فالأمر سيّان، بالنسبة لي!

- يدّعي بعض أصدقائك أنّ الجنرال «ميلورادو فيتش» قد تلقى في آنٍ معاً، طلقاً نارياً من «كاخوفسكي» وطعنة بالحربة، من «أوبولنسكي».

كان هذا صحيحاً. وشعر «نيقولا» مرة أخرى، أنه منقاد للمشاركة في هذه اللعبة القاسية، التي تقضي بجعل المتهمين يحاكمون بعضهم بعضاً.

وتابع «تشيرنيشيف»، كلامه، قائلاً:

- بل إنّ بعضهم يذكرون في شهاداتهم أيضاً أنّ طعنة «أبولنسكي» بالحربة قد سبقت الرصاصة التي أطلقها «كاخوفسكي»، فإذا كان الأمر قد حصل هكذا، فإنّ مسؤولية «كاخوفسكي» تصبح أقل عبئاً، بينما يزداد، بالنسبة نفسها عبء المسؤولية على «أبولنسكي».

فقال «نيقولا»:

- إني لم أر شيئاً.

وهذا الحل يعفيه من الاختيار.

فقال الدوق الأكبر «ميشيل بافلوفيتش»:

- هذا، يدعو إلى الأسف!

وصرح «تشيرنيشيفّ»:

- على أي حال، إذا أردت، مستقبلاً، أن تقول أيّ شيء لرفاقك، لا تكتب لهم، بل اطلب منا الأذن ولن نرفض إعطاءك هذا الأذن أبداً.

فتأمل «نيقولا» «تشيرنيشيف» بانتباه، وتبادر إلى ذهنه: «أي مفاجأة جديدة يهيء لي؟»، ولم يكد يلقي على نفسه هذا السؤال، حتى أزاح أحد الضباط المرافقين، ستارة وفتح باباً صغيراً، وأدخل رجلاً نحيلاً، مشعث الشعر، نظراته الشاردة تنم عن شيء من الجنون.

وقال «تشيرنيشيف»:

- أتريد الدليل على ذلك؟ ها هو أحدهم ممن يريدون أن يروك:
وقد وافقنا في الحال على طلبه!
فعرف «نيقولا» أنه «كاخوفسكي» وهبط قلبه في صدره، واخذ يتساءل: هل تغيرت، أنا، إلى هذه الدرجة، مثله؟
وصاح «كاخوفسكي»:
- لقد سمعت ما قلته! فكيف تجرؤ على القول، أيها الكلب، إنك لم تر ما حدث عندما أطلقت النار على «ميلورادوفيتش»،؟ مع أنك كنت على مسافة خطوتين مني! وتعرف مثلي أنّ «أوبولنسكي» هو أول من وجّه له الطعنة بحربته!
فقال «نيقولا» بصوت خافت:
- كلاّ، إني لا أعرف ذلك.
وساد الصمت، لحظة قصيرة، كان القضاة خلالها ينظرون إلى الرجلين بالفضول الذي يتصف به هواة مشاهدة صراع الديوك.
وبلهجة أكثر رقة، سأله «كاخوفسكي»:
- ماذا فعلت لك؟ لا تظنّ إنك باتهامي تستطيع تبييض صحيفة الآخرين وتبرئتهم. كلا، لقد قضي علينا، جميعاً! نعم، جميعنا!..
وأخذ يرتجف، جحظت مقلتاه، وقال أيضاً، وهو يضم يديه، الواحدة إلى الأخرى:
- هنالك واحد، لا يوجد سواه، يستطيع أن يصفح ويعفو عنا!:
إنه القيصر! القيصر، والدنا! القيصر الذي تمردنا، وثرنا عليه بسبب جنوننا الكافر والملحد!...
وهذه الشكوى التي تعبر عن الردّة والتراجع كانت مؤسفة ومحزنة جداً، لدرجة أنّ «نيقولا» أخذ يتساءل فيما إذا كان «كاخوفسكي» يمثل هذا الدور لكي ينجو بجلده. ولكن لا، فقد بدا صادقاً في ندمه وتوبته،

مثلما كان صادقاً في حقده وكراهيته. وحاجته للعبادة قد انتقلت من الثورة إلى الإمبراطور، وهذا هو كل ما هنالك.

وسأل «تشيرنيشيف»، «نيقولا»:

- أتظل مصراً على أقولك؟

- نعم.

- و «أوبولنسكي» ليس له أي ضلع في اغتيال الجنرال «ميلورادوفيتش»؟

- ليس له أي ضلع في ذلك الاغتيال.

- أتقسم على ذلك؟

فتمتم «نيقولا»:

- نعم، إني أقسم على ذلك.

وبدا له أنه قد حكم، للتوّ، على «كاخوفسكي» بالإعدام.

فقال له «كاخوفسكي»:

- ليغفر لك الله!

واقتاده الجنديان. وبعد ذلك، جوبه «نيقولا» بـ «أوديوفسكي» وبـ «غوليتزين» وبـ «أوبولنسكي» وبـ «ريلييف». وفي كل مرة كان يُفتح فيها الباب، كان يدخل شبح جديد إلى الصالون. وكانت هيئة أركان التمرد تخرج من أقبية الجحيم، عبر غبش مأساوي. والهزيمة تقرأ على جميع الوجوه، التي دفعها وأثّر بها التعب والعزلة المضنية في الزنزانات. وكاد «نيقولا» ألا يصدّق أن هؤلاء المساجين المضطربين الذين كانوا يجيبون على الأسئلة باهتمام ولهفة، كما يجيب الخدم على أسئلة أسيادهم، هم رفاقه السابقون الذين كانوا يتمتعون بالزهو والكبرياء. كان الجميع يبدون مقتنعين بأنهم قد ارتكبوا خطأ كبيراً بمحاولتهم التمرد والثورة ضد نظام الحكم القائم. وكان «ريلييف» هو الذي أحدث لدى «نيقولا» الانطباع الأكثر إثارة للأسى وللحزن: فقد بدا ضعيفاً نحيل الجسم، شعر لحيته

يغطي وجنتيه، نظرته مكسوفة وضعيفة، وبصعوبة يتماسك لكي يستطيع البقاء واقفاً على ساقيه.

وسأل «نيقولا»:

- لماذا قلت أنّ فكرة قتل القيصر وردت من «كاخوفسكي» وليس مني. وأنت تعلم أنّ هذا خطأ! فأنا أطلب أن يُنسب لي هذا المشروع الفظيع!

فصاح «نيقولا» وقد نفد صبره:

- عمّا تبحث؟ أعن تاج الشهادة والاستشهاد؟

- إني أودّ تأدية الثمن عن الجميع وأن أفتديهم، لأنهم كلهم أخطؤوا بسببي!

فهزّ «نيقولا» كتفيه:

- خذ حذرك، يا «ريلييف»، فأنت تعتقد أنك تتصرف بدافع من الإيثار والتواضع المسيحيين، بينما الكبرياء هي التي تجعلك تضيع وتضلّ عن الطريق! وإذا كنت لا تدافع عن نفسك من أجلك أنت، فعلى الأقل، عليك أن تدافع عن نفسك من أجل زوجتك ومن أجل ابنتك!

- القيصر، بحلمه الذي ليس له حدود، أعلمني أنه سيعتني بهما، وسيشملهما برعايته.

فألقى «نيقولا» نظرة جانبية على القضاة، وتبيّن له أنهم جميعاً يصغون لهذا الكلام الغريب وغير المعقول، وقد بدوا ساهمين، منصرفين إلى التأمل والتفكير. عند ذلك هبطت على منكبيه موجة مفاجئة من التعب والسأم. وكفّ عن المناقشة وعن الكفاح. وبدا له «ريلييف» بوجهه الحالم، غريباً بالنسبة له، مثله في ذلك مثل الضباط القادة بأبهتهم الواضحة، المجتمعين حول المنضدة.

وعندما عاد إلى سجنه، حصل لديه انطباع بأنه عاد إلى مكان نظيف.

☆☆☆

كان «نيقولا»، وهو مستلقٍ على فراشه القشّي، يحاول أن يفهم كيف أنّ بعض رفاقه الذين كانوا، فيما مضى، على أتمّ استعداد لأن يضحوا بحياتهم، بثرواتهم وبمستقبلهم الذي يتطلعون إليه من خلال عملهم ومهنهم، في سبيل خير وحرية الأمة، استطاعوا أن يبدوا الآن مجردين من أي كرامة. ويخيّل للمرء أنّ نابضاً قد انكسر وتحطم في داخلهم. وعلى الرغم من أنهم مدانون فهم ينحازون لقضاتهم ويؤيدونهم. أو بالأحرى، فإنهم يعودون رغماً عنهم إلى المثل الأعلى الذي كانوا يتصورنه في طفولتهم، نعم، هو كذلك فجميع هؤلاء الرجال كانوا قد تعلموا في عمرهم الغضّ، أن يقدسوا القيصر، ويعبدوا الله، في آن واحد. صحيح أنهم، فيما بعد، خاضوا الحرب، واكتشفوا فرنسا. ولكنّ تلك الحرب، كانوا قد خاضوها كضباط في الجيش القيصري، وفرنسا اكتشفوها وتعرفوا عليها في ظل أعلام النصر التي كانت تخفق فوق رؤوسهم. وحتى عندما استهوتهم السياسة الفرنسية، فإنهم لم يكفوا عن البقاء مواطنين روس. واطلاعهم على مبادئ وعقائد نظام الحكم الجمهوري، حصل بعد فوات الأوان، وفي وقت متأخر من حياتهم، وفي فترة كان قد تمّ تكونهم كرجال. وفي تلك التربة القاسية والكتيمة، لم تستطع الأفكار التحررية أن تغرس جذورها إلى الأعماق. وقد توضّعت نظريات «بنجامين كونستان» فوق أعراف وتقاليد نظام الحكم الملكي، دون أن تتلفها أو تزيلها.

وفي الرابع عشر من كانون الأول «ديسمبر»، عندما تحطّم عزم واندفاعة الثوريين، عبر سفك الدماء، عادوا إلى معتقداتهم التي تعلموها في طفولتهم والتي وجدوها سليمة لم تمس. كما يعود الرجل، بشكل غريزي، وهو في النزع الأخير، إلى ذكرى أمه، وبهذا الشكل، فبعد أن فقدوا كل أمل لهم، شعروا بالحاجة للعودة إلى التمسك بمعتقدات أجدادهم. وتذكر «نيقولا» جملة قرأها في أحد

مؤلفات «كرامزين»[1]: «إنّ مبادئ بلادنا، السياسية، ليست مستوحاة من الموسوعة التي وضعت ونشرت في باريس، بل من موسوعة أخرى، أقدم منها بكثير، ألا وهي: «التوراة». وقياصرتنا ليسوا ممثلي الشعب. إنهم ممثلو ذلك الذي يحكم جميع الأمم، ويهيمن عليها... والإمبراطور هو قانوننا الحيّ...»

وعندما أدرك «ريلييف» و «كاخوفسكي» و «أوبولنسكي»، و «اياكوبوفيتش» و «تروبيزكوّي»... وكثيرون غيرهم، أنهم رفعوا يداً دنسة ومنتهكة للحرمات، على ذلك «القانون الحي»، تخلّت عنهم قواهم الروحية. وطلقات المدفعية التي دوت في ساحة مجلس الشعوب، كانت بالنسبة لهم الصواعق التي تنقض على مدنّسي أحد المعابد. فألقوا بأنفسهم منبطحين، وقد استبدّ بهم الرعب والندم. وقال «نيقولا» في سره: «ولو أنهم فازوا وانتصروا؟! هل كان ساورهم أي ندم أو تبكيت من ضمير؟: كلا، بالتأكيد. فوساوسهم لم تنجم إلا عن فشلهم. وهذا ما يعيبهم، وما ألومهم عليه!» وأخذ يمشي بسرعة وفي كل الاتجاهات، فخافت الجرذان من الضجة القوية ولم تعد تخرج من أوكارها. وفي إحدى الزوايا بالقرب من الباب، كان هنالك صرصور يتعارك مع عنكبوت.

وربما كان عراكهم في نظر الله أكثر أهمية من عراك «نيقولا» مع قضاته. وأخذ يتساءل فيما إذا كان يبدر من سجناء فرنسيين، إنكليز، ألمان، أو إيطاليين، ردود الفعل نفسها التي تبدر من السجناء الروس، إذا كانوا في ظروف متماثلة. «كلا، ففي أي مكان آخر، يتمرد ويثور الرجل

---

[1]- نيقولا ميخايلوفيتش كرامزين (١٧٦٦- ١٨٢٦): كاتب ومؤرخ روسي، ألّف أول كتاب تاريخي ضخم، نشر عن روسيا، سنة (١٨١٦) بعنوان: ((تاريخ الدولة الروسية)). - المترجم-

الذي يزج به في السجن. أما في بلادنا، فهو يتقبّل المحنة، معتبراً إياها كدليل على غضب الله. وبقدر ما تكون المحنة مؤلمة وغير متوقعة، بقدر ما تبدو له أنها آتية من فوق ومن العلاء.

وينتهي الأمر بنظام الحكم الاستبدادي أن يجد مبرراً له في الظلم بالذات الذي تتسم به تصرفاته وأعماله. وقد هيّأتنا لهذا قرون طويلة من الخضوع الإجباري. ألسنا أبناء أمة عرفت هيمنة «الغاريغ» «les varegues»: «بحارة محاربون سكندينافيون» والتتار. والعبودية التي فرضها علينا «ايفان الرهيب»، وقبضة «بطرس الأكبر» الفولاذية؟ وإن كنا نريد هذا أم نأباه، فنحن جميعنا، نكنّ احتراماً وراثياً للسلطة.»

وتوقّف عن التفكير لكي يشرب قدحاً من الماء. كان رأسه حاراً. فهل هو مصاب بالحمى؟ وبشكل مفاجئ، خطرت على باله فكرة، وكانت هذه الفكرة على درجة كبيرة من القوة والعنف بحيث أنها طغت على جميع الأفكار الأخرى: إنّ ما اعتبره جبناً عند بعض الرجال كـ «ريلييف»، و «كاخوفسكي» و «أوبولنسكي»، ألا يمكن أن يكون، في نهاية الأمر، أبداءً غير اعتيادي للشجاعة؟ ولماذا لا نفترض بأنهم وقد صحوا من نشوتهم وزالت أوهامهم، بعد أن اصطدموا مع الواقع، فتبين لهم خطر الفوضى والتمزق الذي عرضوا البلاد للوقوع فيه بتمردهم وبمحاولة الانقلاب التي قاموا بها: جنود متمردون وثائرون، فلاحون ينهبون ممتلكات أسيادهم. سكان من مختلف الطوائف والعروق، يطالبون، تباعاً، بالاستقلال في كياناتهم... ولأنهم كادوا أن يسبّبوا هذه الكارثة، فقد أرادوا أن يمنعوا الآخرين من أن يفعلوا ذلك، وقبلوا أن يستخدموا «كفزّاعة» لثوريّي المستقبل. وتنكروا لذواتهم وتحملوا الإهانة والمذلة في سبيل خير الوطن وسلامته. «وربما كان الذي يحب حقّاً وطنه، يجب عليه أن ينكر مبادئه السياسية عندما يتبيّن له أنّ ليس لها أي فرصة للنجاح ولا

تعطي أي نتيجة؟ وتابع «نيقولا» التفكير: «وربما كان عليه أن يصرح علناً بأنه مخطئ، لكي يعود الأمن والاطمئنان إلى النفوس؟» مضحياً بسمعته، ومعتبراً أنّ تضحيته، شرف له.

إيه، ما هذا؟! لقد هرب الصرصور من شبكة نسيج العنكبوت، ولكن وقعت فيها ذبابة. وقد فقدت رأسها وقوائمها. والعنكبوت التي انكبت على طريدتها، أخذت تلتهما بتؤدة وهدوء، والارتعاشات الخفيفة تهزّ الخيوط الدقيقة الممتدة في زاوية الجدار. ومرّ جرذون عبر الزنزانة، قرط قائمة الأسكملة وهرب. ودقت ساعة كاتدرائية القديس «بطرس وبولس» معلنة الرابعة بعد الظهر. وعبر النافذة ذات الزجاج المطلي باللون الأبيض، كان لا يزال يبدو ضوء النهار.

وعاد «نيقولا» فقال في سره: «كلا، لقد أحسنت الظنّ بهم أكثر مما ينبغي! فهم لم يفكروا بهذا. إنهم أنذال، وهذا كل ما هنالك، أو بالأحرى، فقد أصبحوا متنوّري نظام الحكم الاستبدادي، بعد أن كانوا متنوّري الثورة!»

ونظرت إليه عين من فتحة المراقبة الكائنة في الباب، فأخذ يتحسّس لحيته ويداعبها. لقد أصبحت طويلة، ولم تعد توخزه: «لو أنّ «صوفيا» تراني!...» وبسرعة، طرد هذه الذكرى التي كانت، في كل مرة تثبطّ همته. فهو يريد أن يظل قوياً ومتفتح الذهن والبصيرة. ومحنة السجن التي أوهنت عزيمة ومعنويات أشد المتحمسّين من رفاقه، كانت، على النقيض من ذلك، تمنحه حماسة لم يكن يعرفها عشية يوم التمرد. وكان، وهو منفرد في عزلته، دون أي أصداء، أو أي تأييد ودعم من أي نوع، يكتشف أعالي وأغوار أقدار الإنسان، ولم يعد موجوداً في هذه الحياة إلاّ من أجل ما هو أساسي، ويعرف الإحساس المثير عن شعوره بأنّ له روحاً. «والآن، بعد أن أصبحت أعرف لماذا أعيش، يريدون أن يقتلوني أو أن يرسلوني إلى

سيبيريا، أو أن يتركوني أتعفّن وأبلى، في إحدى القلاع. فهل في هذا شيء من الغباء؟»

★★★

وفي اليوم التالي، الثالث عشر من آذار «مارس»، سمع عند الساعة الحادية عشرة، جلبة في الممر، ودقات طبول حزينة تأتي من بعيد. وأخذت أجراس كاتدرائية القديسين «بطرس وبولس» تقرع دقّات الحزن، فنادى «نيقولا» الحارس، وسأله:

- ما الذي يحدث؟

- إنه الاحتفال بتشييع جنازة القيصر إلى مثواه الأخير، يا صاحب السعادة.

فانقضّ الأمل كالصاعقة على «نيقولا»، وأخذ يتأمل الرجل الذي يقف أمامه، وقد أحنى رأسه، وفي يده رزمة مفاتيح، وسأله بصوت خافت:

- ماذا هل مات «نيقولا الأول»؟

فوجه إليه الحارس نظرة تنمّ عن الغيظ، ورسم بسرعة إشارة الصليب على صدره:

- من حدثك عن «نيقولا الأول»؟ حفظه الله بعنايته المقدسة! إنه «أليكسندر الأول» الذي أحضروه من «تغنروغ»، لكي يواروه الثرى! وقد أمضى موكب الجنازة أكثر من شهرين، حتى اجتاز المسافة الطويلة من هناك إلى هنا.

فأحنى «نيقولا» رأسه، وشعر بخيبة الأمل. وهناك كان قد توقف قرع الطبول. وبعد «بطرس الأكبر» و «اليزابيت» و «كاترين الثانية» و «بولس الأول»، ها هو «أليكسندر الأول» يدخل الآن إلى مدفن آل «رومانوف». وبأي سخرية من القدر، يذهب قياصرة روسيا، رجالاً ونساء، بعد أن ينتهي عهدهم في الحكم، ليرقدوا خلف أسوار قلعة القديسين «بطرس وبولس»، على بعد خطوتين من السجناء السياسيين؟

لم يكـن أحـد اقـرب إلى هـؤلاء القياصـرة، في المـوت مـن أولئـك الـذين حكموا وأدينوا من قبلهم، أثناء حياتهم.

وحكّ الحارس مؤخرة عنقه، وقال، بصوت خافت، وكأنه يبوح بسرّ:

- هنالك غموض في هذه القصة، وكل شيء ليس واضحاً فيها! فهنالك جماعة يقولون إنّ «أليكسندر الأول» لم يمت، وأنهم وضعوا جثة أحدهم بدلاً منه في التابوت، وإنه تنكر بزي فلاح وذهب فلجأ إلى أحد الأديرة، لكي يكفّر عن خطايانا بصلواته. أتصدق ذلك، أنت؟

فقال له «نيقولا»:

- كلا.

- إذن لماذا لم يُعرض جثمانه في تابوت مفتوح، لكي يراه الشعب، كما هي العادة؟

- ذلك، دون شك، لأنه لم يكن محنّطاً ومعطّراً بشكل جيد.

- القياصرة ليسوا بحاجة لأن يحنّطوا ويعطروا، لكي تبدو وجوههم جميلة!

- كان عليك أن تتحدث عن هذا إلى الأب «ميسلوفسكي».

- لقد حدثته عن هذا، فقال لي إني حمار. ولكنّ الحمار أيضاً له الحق، بأن يطرح بعض الأسئلة.

وكان يهمّ بالذهاب، عندما سأله «نيقولا»:

- أتعرف ماذا حدث لـ «ستريبوكوف»؟

فتمتم الحارس:

- كلا، منذ ذلك اليوم لم نره، وهذا كل ما هنالك.

ما هو اسمك؟

- زمييكين.

- وكم عمرك؟

- خمس وعشرون سنة.

- ولماذا أنت هنا، بدلاً من أن تخدم في الجيش؟

فبدا القلق على «زميكين»، وحملق بعينيه، وتقلصت شفته السفلى، وقال:

- بسبب بعض الأخطاء، بسبب أخطاء جسيمة!

واجتاز العتبة، طبق الباب، وأدخل المزاليج بعنف في أماكنها. وبعد ذلك بستة أيام، وبينما كان «نيقولا» مستغرقاً في التفكير، وهو مستلق على سريره، تداخلت مع أفكاره جلبة وإيقاعات مسيرة عسكرية، وأنغام موسيقية قادمة من عصر آخر. كانت بعض قطعات الجيش تجري عرضاً عسكرياً في السماء.

ودخل «زميكين» مبتهجاً، وقال:

- أتسمع؟ إنه الاستعراض الكبير! جميع أفواج الحرس تجمعت أمام قصر الشتاء!

- ولماذا هذا الاستعراض، ولأي مناسبة؟

- نحن اليوم في التاسع عشر من آذار «مارس»!

- وماذا حدث في التاسع عشر من آذار؟

- استيلاء جيشنا على باريس، سنة ١٨١٤.

فقال «نيقولا» وهو يضحك وقد تذكّر ذلك:

- كان عليّ أن أعرف هذا!

- وكل أولئك الذين ساهموا في ذلك النصر العظيم، سينالون أوسمة تذكارية فضية!

فقال له «نيقولا»:

- كلهم؟ إنك تدهشني. لقد كنت هناك، وشاركت في ذلك النصر العظيم، ولن أنال شيئاً.

فقال «زمييكين».

- بالنسبة لك، فالأمر مختلف. فأنت من جماعة كانون الأول!

- من جماعة ماذا؟!

- من جماعة كانون الأول، الذين تمردوا في شهر كانون الأول هكذا يلقّبونكم الآن: «**les decembristes**».

وفيما يتعلق بالأوسمة، لقد رأيت بعضها. فهي جميلة. وعلى أحد وجهيها، هنالك «اليكسندر الأول» تحرسه عين الله، وعلى الوجه الآخر، عبارة: «ذكرى احتلال باريس، بتاريخ ١٩ آذار «مارس» سنة ١٨١٤.

وتصور «نيقولا» نفسه، وهو يعبر باب «سان مارتان» على صهوة جواده، على أنغام الأبواق والطبول، وعلى وجهه نضارة الشباب، والباريسيات يهتفن له ويرشقنه بالزهور. وكان فخوراً ومزهواً لأنه روسي.

وقال للحارس:

- إذا التقيت بالأب «ميسلوفسكي»، أبلغه رجائي بأن يحضر إلى هنا.

ولكنّ الأب «ميسلوفسكي» لم يحضر، فلا شك أنّ الحارس نسي إبلاغه الرسالة. ولفترة طويلة ظلّت أصداء الموسيقا العسكرية تهدهد «نيقولا» في الحلم. وعندما لم يعد يسمعها، كان يتصورها.

وهكذا إذن، كل شيء أصبح نظامياً، وعادت الأمور إلى نصابها وإلى مجراها الطبيعي، ومن جديد أخذت تجري الاستعراضات والاحتفالات وحفلات الاستقبال، وحلقات الرقص. وأولئك، الذين ساعدهم الحظ، ولم يساهموا بأي شكل من الأشكال بالتمرد، فقد أسرعوا بتناسي أصدقائهم. فالحب والصداقة والشفقة والإحسان، والقناعات السياسية لا شيء من كل هذا يستطيع أن يقف عائقاً أمام متطلبات مركز متألق في مجرى الحياة. هذه الرغبة بالأمجاد التي تجعل المرء يفقد حسّ الشرف والاستقامة! وفي مساء ذلك اليوم نفسه، وبمناسبة الاحتفال بذكرى ذلك

اليوم التاريخي، تلقّى السجناء قدحاً من «الفودكا». فشربه «نيقولا» بجرعة واحدة، ثم قضم بصلة نيئة، وشعر بأنّ ساقيه قد خارتا. فهو لم يعد معتاداً على احتساء المشروبات الكحولية. وشعر بتقلص حار كالنار في معدته، وبسرعة استطاع أن يندفع نحو السطل لكي يتقيّأ.

وأتى الأب «ميسلوفسكي» لزيارته، يوم الأحد التالي، عند الساعة السادسة. فسأله «نيقولا» دون موارية فيما إذا كان يمكنه أن يتكفّل بإيصال رسالة إلى زوجته.

فقال له الكاهن:

- ليس لي الحق بأن أفعل ذلك.

- إذن أكتب لها نيابة عني.

- وهذا أيضاً محظور عليّ القيام به. فماذا تريد أن تخبرها؟

- إني في السجن.

- إنها تعرف ذلك.

- وكيف؟

- لقد أحيطت علماً بذلك جميع أسر السجناء، في الوقت المناسب.

فاجتاحت «نيقولا» موجة من الأمل، جعلته ينتفض، ثم عاد إلى اللا مبالاة وعدم الاكتراث. فإن كانت أسرته قد أخذت علماً بأنه في السجن، أم لا، فماذا سيغير ذلك من وضعه؟ فالفرصة النادرة والضئيلة التي كان من الممكن أن تتاح له لاستعادة رضا «صوفيا» وحبّها، يكون «ميشيل بوريسوفيتش» قد قضى عليها، دون شك. وهي التي تُزجر وتؤنّب من قبل عمها، الذي لا يفارقها قيد خطوة، لا بد أنها أصبحت تزداد عداءً له، وإصراراً على رفض التصالح معه. وعندما كان «نيقولا» يفكر بماضيه، يراه وكأنه شيء قد انتهى، وليس له أي علاقة مع الرجل الذي يتقمّصه هو الآن. جملة من القصص الصغيرة العديمة الأهمية، مكدّسة في كيس

وكأنها كبب الخيطان، وهو إلى جانبها، بفطنته وقذارته، اللتين حلتا به معاً وفي آن واحد. ومن المؤكد أنه يصعب كثيراً على المرء أن يحتفظ بكرامته، عندما يصبح ضعيفاً جداً، نتناً، كريه الرائحة. وتحولت نظرته نحو السطل الذي تفوح منه رائحة البول الكريهة التي لم تستطع رائحة البخور الزكية التي تفوح من ثوب الكاهن، أن تتغلب عليها.

وتساءل «نيقولا»:

- هل سيحاكموننا عما قريب؟

- إنّ لجنة التحقيق تعمل باستمرار ودون توقف. وعليك أن تتذرّع بالصبر، وألاّ تشكّ في حلم الإمبراطور!

فأخذ «نيقولا» يعدّ قطع الخبز الأسود، الصغيرة، التي ألصقها على الجدار فوق سريره: لقد مر عليه وهو في السجن، ثلاثة أشهر واثنا عشر يوماً. والجوّ أصبح أقل برودة، ولكن الجليد الذي يغطي النهر لم يذب بعد.

وسأله الكاهن:

- ألا ترغب بالاعتراف، وبتناول القربان المقدس قبل حلول عيد الفصح؟

- فأجابه «نيقولا»:

- بلى:

فأنارت الابتسامة لحية الأب «ميسلوفسكي» الشقراء، وحدقتي عينيه الزرقاوين. وعاد يوم أحد الشعانين، حاملاً معه القربان المقدس.

ويوم «سبت النور» مرّ الحارس على جميع الزنزانات وأوصى المساجين بأن يغلقوا آذانهم، لأنّ جميع مدافع القلعة ستطلق حممها دفعة واحدة، عند منتصف الليل، احتفالاً، وتحيةً لقيام السيد المسيح. وأخذ «نيقولا»، وهو مستلقٍ على سريره، ينتظر البشارة والخبر السعيد، وقلبه يخفق بقوة. كل شيء كان مظلماً، وقد خيم الصمت والسكون حوله، ولكن، خارج تلك

الجدران، في الكنائس الكبرى في المدن، وفي كنائس الريف الصغيرة، تتزاحم جماهير المؤمنين، وكل منهم يحمل شمعة في يده. من أدنى البلاد إلى أقصاها، من الشمال إلى الجنوب ومن الشرق إلى الغرب تبدو الأراضي الروسية مزروعة بالنجوم الوامضة. وليس هنالك أي شك، بأنّ «صوفيا» و «ميشيل بوريسوفيتش» قد ذهبا إلى «شتكوفو» للاستماع إلى قداس منتصف الليل. وفي جناح الكنيسة وساحتها، الفلاحون يسجدون بين سلال ملأى بالبيض الملون وبحلويات عيد الفصح. والجميع يرتدون ملابس العيد الزاهية، وتبدو عليهم البهجة والحبور. وهم يتهامسون ويتدافعون وكل منهم ينتظر الوقت المناسب الذي يُسمح له فيه أن يعلن عن فرحته. والأب «جوزيف يتلو صلاة القداس، بصوت أكثر مهابة من المعتاد. وأخذت مجموعة من الفلاحين العبيد تنشد تراتيل الأمل. وعما قليل، يخرج الموكب الديني من الكنيسة، والمشتركون فيه يحملون اللافتات والأيقونات... وانقبض صدر «نيقولا»، بماذا كان لا يضحي، لكي يكون هنالك الآن، بالقرب من زوجته، وبين فلاحيه! ولو كان الإنسان يعلم إلى أي مصادفات سعيدة وعجيبة من الظروف هو مدين بأوقاته التي يقضيها بهدوء واطمئنان، ولو كان يستشفّ ضعف وسائل حمايته من البؤس والمصائب. لجنى من كل ثانية كل عصارة ورحيق المتعة والسرور التي تستطيع أن تمنحه إياها، ولأحبّ وأعزّ أقاربه والمحيطين به، كل يوم، كما لو أنهم، سيرحلون عن هذا العالم، في اليوم التالي.

وأخذ يتمتم:

- يا إلهي، امنحني القوة كي أستطيع أن أتحمل ما ينتظرني، بروح عالية، ودون أن تضعف عزيمتي! وفي تلك اللحظة نفسها، دوّت طلقات المدفعية فوق رأسه، فاهتزّت الجدران، وتطاير زجاج النافذة الصغيرة، شظايا، واخترق الزنزانة وهج كلهيب الحريق. ولفح وجه «نيقولا»، تيار

سريع من الهواء فخرّ راكعاً على ركبتيه. واستمر القصف خمس دقائق. ثم أخذت تقرع جميع أجراس الكنائس القريبة والبعيدة.

ودخل الحارس «زمييكين» وقال:

- المسيح قام!

فقال «نيقولا»:

- حقاً، قام!

وتعانقا.

٥

بعد عيد الفصح، أخذ السجناء يتلقّون كمية أوفر من الطعام، ويعطى لهم مشروب «الكواس» «du kwass» كل يومين. وأصلح زجاج نافذة زنزانة «نيقولا» واستعيض عنه بزجاج آخر، ولكن على الرغم من توسلاته، فقد طُلي كالزجاج السابق بمزيج من الصمغ والطبشور. ولأنه لم يكن يرى السماء، فكان يصعب عليه أن يتصور الربيع. وفي صباح يوم من أيام شهر أيار «مايس»، أتى إليه «زمييكين»، وهو يبدي التكتم الشديد، لدرجة أنه أخذ يتهيأ من جديد لمواجهة لجنة التحقيق. ومع ذلك، فإنه، هذه المرة، لم تُعصب عيناه. وقد اقتاده الحارس، فاجتاز به ممرات طويلة، واصعده على أدراج لولبية الشكل، وعبر وإياه جسوراً خشبية صغيرة، وفجأة خرجا إلى الهواء الطلق، وغمرتهما أشعة الشمس التي بهرت عيني «نيقولا» كما امتلأت رئتيه بالهواء النقي والبارد: فترنّح وكاد يسقط لو لم يستند على ذراع «زمييكين» الذي كان يضحك بهدوء.

فسأله «نيقولا» وهو يلتقط أنفاسه:

- إلى أين أحضرتني؟

- إلى حديقة «وهدة أليكسي»

- ولماذا؟

- منذ البارحة، سُمح للسجناء بالتنزه هنا، ثلاث مرات في الأسبوع، كل منهم بدوره، وعلى التوالي. وأردت أن أجعلها مفاجأة لك.

فأخذ «نيقولا» ينظر حوله: الحديقة صغيرة، مثلثة الشكل، تحيط بها أسوار عالية. نبتت عليها الأعشاب والطحالب. وبعض الحشائش، ومجموعات صغيرة من نباتات الليلك، وشجرتا سندر هزيلتان، وشجرة كشمش أكثر هزالاً، كانت قد نبتت هناك وتعيش بأعجوبة في قاع ذلك البئر. وكان هنالك باب سرّي يؤدي إلى ممر مغطى، يتجه نزولاً نحو النهر. وفي آخر هذا الممر الذي يشبه النفق، كانت مياه نهر «النيفا» تتلاطم على أعمدة حاجز الرصيف. و «نيقولا»، وقد شعر بالنشوة لوجوده في الهواء الطلق، ارتمى على مقعد خشبي. فلمح بالقرب منه مرتفعاً صغيراً، يعلوه صليب، وكأنه قبر، ولكن ليس عليه أي كتابة.

فسأل الحارس، بصوت خافت:

- أهذه مقبرة، هنا؟

فأجابه الحارس:

- أوه! كلا، ليس هنالك أي قبر آخر. والأقدمون يروون أنّ الأميرة «تارا كنوفا» هي التي دُفنت هنا. لأنّ «كاترين الكبرى» كانت قد سجنتها في هذه الوهدة، لكونها حاولت أن تتسنّم عرش روسيا، ويبدو أنها ماتت غرقاً في سجنها، أثناء إحدى الفيضانات التي تحدث في نهر «النيفا»...

كان «نيقولا» يصغي وهو شارد الفكر لثرثرة «زميبكين» ويتأمل وهو في غاية التأثر، والدموع تكاد تطفر من عينيه، أوراق شجرتي السندر، التي أخذت تتفتح من جديد. وهو الذي انفصل عن العالم طوال عدة شهور، انتهى به الأمر إلى الاعتياد على حياة العزلة في السجن، لدرجة أنه أخذ يفقد شيئاً فشيئاً حب الطبيعة والتمتع بجمالها. وهذه العودة المفاجئة إلى الهواء الطلق أيقظت لديه رغبات كثيرة بالانطلاق والهرب. ألم يكن تشويق السجناء والتلويح لهم بمسرات لا مستقبل ولا متابعة لها، يشكل أقسى أنواع التعذيب؟ ألا يحاولون تثبيط عزائمهم وزيادة يأسهم، بإنعاش حواسهم

التي كانت قد تخدّرت وارتاحت، ثم بإعادتهم بعد ذلك إلى الغوص في ظلمات السجون؟ كان يتألم، بمتعة، من رائحة العشب الندي، الزكية، التي تمتزج مع رائحة الرطوبة المنبعثة من النهر، ومن صوت المجاديف وهي تصطدم بالماء، ومن صراخ الطيور المائية، الحاد، ومن تلك الجلبة البعيدة، الصادرة عن المدينة المنصرفة إلى العمل. وأمسك «زميكين» بذراعه، واجبره على النهوض، ثم الصعود والسير على ممر ضيق، وجعله يرى، في الأعالي، وفوق رأسيهما، قبة كاتدرائية القديسين «بطري وبولس» المذهبة، التي يعلوها ملاك يحمل صليباً. فجحظت عينا «نيقولا»، وانتابه دوار، فخفض نظره نحو الأرض، وتمتم:

- لم أعد أستطيع البقاء هنا، هيا بنا ولنعد!...

وعندما عاد إلى زنزانته، شعر أنّ حالته النفسية قد تحسنت قليلاً، ولكنه لم يستطع أن يكفّ عن التفكير بالحياة التي تتابع مجراها الطبيعي خلف جدران السجن. وجميع صور تلك الحياة كانت تؤدّي به إلى زوجته. فزرقة السماء، ومرور السحابة، ببطء، وحفيف أوراق الأشجار، كلّ هذا كان له علاقة خفيّة بها. ولكن ألم تكن قد سافرت إلى فرنسا؟ ففي هذه الحالة، لم يعد يأمل حتى العزاء بتذكرها في إطار اعتيادي ومألوف. ويكون قد فقدها بصورة مزدوجة: في الواقع وفي الحلم. وتارة، كانت هذه الفكرة تبدو له قاسية ولا تطاق، وتارة كان يقول لنفسه أنه من الأفضل لها، وله أيضاً، أن تغادر روسيا وأن تنسى زواجهما.

وبعد اليوم التالي، عندما أراد «زميكين» أن يصطحبه من جديد إلى الحديقة، رفض الذهاب. والحارس الذي كان يبدو واضحاً أنه يشعر بمودّة شديدة نحوه، لامه على افتقاره للحيوية والنشاط، واستدعى الأب «ميسلوفسكي».

وعندما أتى الكاهن، قال له «نيقولا»:

- لا تطلب مني، يا أبانا، أن أذهب للقيام بهذه النزهة. فهذا، بالنسبة لي أكثر مما ينبغي، أو أقل بكثير مما ينبغي، ولأنني حُرمت من حريتي، فأنا أفضل العيش وكأني دُفنت حياً.

فقال الكاهن:

- ربما كنت على صواب، فليس هنالك قوة الاّ في الوحدة.

- ألديك علم إلى أين وصلت قضيتنا؟

- سوف تنتهي لجنة التحقيق عملها، في نحو أسبوعين، على وجه التقريب.

- والمحكمة؟

- إنها لم تُشكّل بعد.

وطوال المدة التي أمضاها الكاهن في الزنزانة، كانت نفس «نيقولا» تساوره بأن يحدثه عن «صوفيا»! حقّاً، لقد اعترف، بمناسبة عيد الفصح، أمام الكاهن، بكل خطاياه، ولكنه فعل ذلك بصورة مجملة وعامة، ودون أن يوضح بأي ظروف قد ارتكبها. وكان آنذاك يشعر بالحاجة لأن يتحدث بالتفصيل عن الأخطاء التي ارتكبها بحق زوجته، وعن قضية الرسالة التي لا تحمل توقيع من كتبها، والمبارزة، وموت شقيقته، والكراهية التي يلاحقه بها أبوه، وكل تلك القصة الفظيعة المتعلقة بالغش والخداع والفسق والبطالة، التي كانت تبدو له وكأنها تخصّ حياة شخص آخر. ومع ذلك، فإنه في كل مرة يصعد فيها الاعتراف إلى شفتيه، كان يوقفه، بدافع الكبرياء وعزة النفس. وأخيراً، شعر أنه منهك وبائس، فاستلقى على فراشه المحشو بالقش، صرّ على أسنانه، وأدار وجهه نحو الجدار. فأدرك الأب «ميسلوفسكي» أنه يعاني من آلام نفسية موجعة، وخرج بهدوء وهو يسير على رؤوس أصابع رجليه. عند ذلك أخذ «نيقولا» يشعر بالندم لأنه لم يذهب إلى الحديقة. فهذا المثلث الذي تكسوه الأعشاب

والنباتات الهزيلة أصبح في ذهنه بمثابة جثّة خضراء. وكان ينظر إلى نافذته المطلية بطبقة بيضاء، ويفكر بالسماء التي لا يستطيع أن يراها، ولا أحد يمكنه معرفة حدودها أو اكتشاف أسرارها.

وفي اليوم التالي، عندما عاد إليه «زمييكين» بابتسامته المشجعة، قال له «نيقولا»:

- إيه، حسن! أنا موافق، هيا بنا للنزهة في الهواء الطلق!

فقال له «زمييكين» متمتماً:

- ولكني، يا صاحب السعادة، لست قادماً إليك من أجل القيام بالنزهة!

- من أجل ماذا، أتيت إذن؟!

- أتيت لأنّ العميد «يودوشكين» أمرني أن اصطحبك في الحال إلى مكتب اللواء «سوكين».

فقطّب «نيقولا» حاجبيه، وأخذ يتساءل: «ماذا يريدون مني أيضاً؟ أمزيداً من التحقيقات؟ توجيه التحذير والتأنيب؟ تغيير الزنزانة؟ وبعد لحظة من التردّد والقلق، قرّر أنّ كل شيء أصبح لديه سيّان، وخرج من زنزانته، بلا مبالاة، وهو خالي الذهن من أي فكرة. ورافقه «زمييكين» وحارس آخر، وهما يمشيان مسرعين أكثر مما ينبغي بالنسبة له: إلى مكتب حاكم القلعة، وهناك، أدخله صف ضابط إلى صالون، سجفه وستائره قديمة، وطلب منه أن ينتظر. وكانت رائحة حساء الملفوف منتشرة في الجو. وبعض عصافير «الكناري» تغرد وتزقزق وهي سجينة في قفص معلّق هناك. وعلى الجدار عُلّقت لوحة ملوّنة تمثل القيصر «أليكسندر الأول» على صهوة جواده، متوجاً بإكليل الشهرة والمجد. وبينما كان «نيقولا» يتأمل تلك اللوحة، فتح باب في الجانب الآخر، فالتفت إلى تلك الجهة، وعند ذلك، شعر أنه في عالم الخيال وقد فقد اتصاله مع الواقع، فهل هي هلوسة نجمت عن شدّة تعبه، مثلت له زوجته وهي تجتاز العتبة متجهة نحوه، وقد بدت

شاحبة الوجه، حزينة وهي تبتسم له، تماماً كما كان يتصورها في أحلامه. ومع توضّح الرؤيا، كان يشعر بسعادة مشوبة بالذعر، تتنامى في داخله.

وتمتمت:

- «نيقولا»!

عند ذلك، تبدّدت شكوكه، وخطا خطوة إلى الأمام، وهو شارد اللب، وعلى عينيه غشاوة. وأخذت الجدران تدور كأجنحة مطحنة الهواء، وخارت ركبتاه، فأمسكه من كتفيه صف الضابط والحارس وأجلساه على إحدى الأرائك. وعاد إليه وعيه، لأنّ يداً ناعمة أخذت تتحسّس جبينه، وتمتم، وهو لا يعي تماماً ماذا حدث له:

- «صوفيا»! «صوفيا»! أنت بجانبي! ولم تسافري!...

فسألته، وهي تجلس بالقرب منه:

- وإلى أين كان يمكنني أن أسافر؟

- إلى فرنسا...

فتأملته بشكل ينمّ عن دهشة شديدة، لدرجة أنه قد تبادر إلى ذهنه: «لقد كذب أبي عليّ في رسالته. فهي لم تتخذ أبداً هذا القرار، وربما كانت حتى لا تعرف أني قد خنتها!»

وقالت له بعذوبة أثارت الاضطراب في نفسه:

- اهدأ، وكن مرتاح البال!

- لا أستطيع أن أهدأ، ولا أن يرتاح بالي!... فكل هذا قد تجاوز الحد، وهو أكثر مما ينبغي، وفوق طاقتي!... اشرحي لي: أمن الممكن أن يكونوا قد سمحوا لك بزيارتي؟

- بلى. لقد قمت ببعض المساعي، مثلما فعلت زوجات المساجين الآخرين...

وعلى استحياء، أمسك يديها ورفعهما إلى شفتيه. فدخل عطر زوجته إلى رأسه. فأغمض عينيه وهو يشعر بمزيد من المتعة والسرور: «بما أنها تركتني أقبل يديها، فهذا يعني أنه لم يتغير شيء بيننا!»

وسألها باللغة الفرنسية:

- كيف عرفت أنه ألقي القبض عليّ؟

- أخبرني «نيكيتا» بذلك.

- وهل رأيته؟

- نعم...

وترددت وهي تنظر بطرف عينها إلى صف الضابط والجندي اللذين يقفان، لا يتزحزحان، بالقرب من الباب.

فهمس لها «نيقولا»:

- اطمئني، فهما لا يفهمان كلمة مما نقول! إذن؟ «نيكيتا»؟

- إنه لم يتعرض لأيّ أذى، وهو سليم ومعافى.

- الحمد والشكر لله! لقد خشيت كثيراً عليه!

- لقد وصل، ذات ليلة، إلى «كشتنوفكا»... وروى لنا...

- يا له من أمر فظيع، يا «صوفيا»!... فظيع، غير معقول وينمّ عن الرعونة والغباء!... كل شيء كان من الممكن أن ينجح، وكل شيء قد فشل!... قضية لها هذا القدر الكبير من القيمة والأهمية، والوسائل كانت هزيلة وبائسة!... وذلك الدم، ذلك الدم الذي سفك هدراً ودون جدوى!... فهل أنت ناقمة عليّ بشأن ذلك؟

- بشأن ماذا؟

- لأني حاولت تحقيق فكرتي، وتابعتها حتى النهاية؟

- وكيف يمكنني أن أنقم عليك؟... أنت تعرف أفكاري!...

فأنا معك، بكل قلبي وجوارحي، يا «نيقولا»!...

- كان لا بدّ من أن يحصل ما حصل، أليس كذلك؟ أنت تؤيدين هذا الرأي؟ كان ينبغي أن نفعل ذلك؟!...

- نعم، يا «نيقولا»!... لقد أحسنت صنعاً... ولكن عليك الآن أن تدع الماضي، وأن تتحول عنه، يجب أن تتماسك، وأن تسترد قواك لكي تناضل، خطوة خطوة، وبتأنٍ وتؤدة، كي تحاول الخروج من هنا!... انتبه!...

وصمتا، كان صوت مدقّ يقرع أرضية الغرفة، الخشبية، قد أخذ يقترب منهما. ودخل اللواء «سوكين» وهو يعرج، على ساقه الخشبية، حيّا «صوفيا» وجلس على أريكة، بالقرب من النافذة. ويبدو أنّ لديه الأمر بأن يحضر لقاءات السجناء مع زوجاتهم. وبإشارة من يديه، أوعز لصف الضابط وللحارس بأن ينصرفا. وهو نفسه، وقد التفت قليلاً، تظاهر بأنه ينظر إلى باحة القلعة، ولكنّ عينه الصغيرة الثاقبة ظلّت متركزة في زاوية جفنيها. فكتم «نيقولا» حركة تنمّ عن الغيظ. لأنّ حضور هذا الشاهد ببزته العسكرية الرسمية، ومن البديهي أنه يجيد اللغة الفرنسية، قد أفسد عليه سعادته. فهل ستتمكن «صوفيا» من تحمل الضيق الذي تشعر به، وأن تتغلب عليه؟ لقد تمكنت من ذلك، وها هي تبتسم بشجاعة ومودّة، قائلة:

- لا بأس بذلك، فهذا شيء لا يؤبه له!

وبعد أن استردّت أنفاسها، أضافت:

- «نيقولا»، لدي خبر خطير، عليّ أن أبلغك إياه: أختك...

فتمتم:

- نعم، هذا فظيع! ولكن كيف حدث ذلك؟

- سأشرح لك كل شيء فيما بعد...

- لا أستطيع أن أتصوّر أنّ «ماري»، عزيزتنا الصغيرة «ماري»...

- ومن أخبرك بالحادث؟

- أبي.

فذهلت، وبدا عليها الاستغراب والغضب، وسألته بأعلى صوتها:

- ماذا؟ وكيف؟ هل كتب لك؟

- نعم.

- مع أنه وعدني بأنه لن يفعل ذلك!

فقال لها بلهجة تنم عن الغيظ:

- إيه! لقد خدعك مرة أخرى! فهل يدهشك ذلك؟

فيا له من وحش! وكم يكرهني! تلك الرسالة!... نسيج من الكلام البذيء المخالف للحقيقة ومن الأكاذيب!... فقد أكّد لي أنك لم تعودي تحبينني، وأنك لا تريدين أن تريني بعد الآن!... فلماذا لم تكتبي لي أنت؟

- لقد كتبت لك، ولكن بعد فوات الأوان، دون شك.

فقد أرسلت رسالتي يوم الرابع عشر من كانون الأول «ديسمبر». ولا بد أنها وصلت إلى هنا، بعد أن كنت قد أصبحت في السجن.

فأخذ يفكر. وانتابه همّ قضى على حماسته.

وسألها بلهجة تنمّ عن التخوف والقلق:

- وماذا قلت في رسالتك؟

- لا أهمية لذلك!

- الشيء نفسه الذي قاله أبي؟

فلم تجب. وهذا التكتم أغاظه. ولم يعد يستطيع تقبل فكرة اللجوء إلى الكذب، ولا حتى حصول أيّ سوء تفاهم بينهما.

وألقى بنفسه عند قدمي «صوفيا» وتمتم شاكياً:

- إني بائس!

فوضعت يدها على فمه، ولكنه استمر يهمس عبر الأصابع التي كانت تضغط على شفتيه:

- كيف يمكنك أن تظلّي تحبينني بعد كل ما حصل؟

فقالت بصوت مرتعش:

- لا تحدثني عن ذلك، بعد الآن، أبداً!

وفجأة، أعتقد أنّ الأمر أصبح واضحاً بالنسبة له، فابتعد عن «صوفيا»، وأخذ ينظر إليها بريبة وشك، وبقلق شديد، وصرخ:

- آه! لقد فهمت!... لقد أتيت لتريني بدافع الرأفة والشفقة!... فإذا كان الأمر كذلك، فأنا أعفيك منهما، هيا، انصرفي!...

وأخذ يهذي، من الحزن والأسى:

- انصرفي! هيا، انصرفي!...

فطفحت عينا «صوفيا» بالدموع، دون أن تتحرك أي عضلة من عضلات وجهها. فأدرك «نيقولا» أنه أهانها وأغضبها، وهزّ رأسه بعنف:

- اصفحي عنيّ لم أعد أعرف إلى أين وصلت بي الأمور! أنت هنا، بجانبي بعد كل ما حصل!...

- لا ترفع صوتك كثيراً، يا «نيقولا»، هنالك من يصغي لما نقول...

- الأمر سيّان، بالنسبة لي! ولا أبالي بأيّ شيء! إني أحبك!...

فسعل اللواء «سوكين» سعالاً خفيفاً ومصطنعاً، واعتدل في جلوسه على أريكته، وأخذ ينظف أظافره برأس قطعة صغيرة من العاج. وكان «نيقولا» يمكنه أن يقتله لكي يستطيع البقاء وحده مع زوجته لمدة خمس دقائق. واسند جبينه على ركبتي «صوفيا»، وأخذ يردّد بهدوء:

- أحبك! أحبك!...

- وأنا أحبك أيضاً يا «نيقولا».

- ماذا سيحل بنا؟ لقد قضي عليّ، ضعت وأدفع بك لكي تضيعي معي!...

فأخذت تداعب شعره بيد ناعمة وحانية جداً، لدرجة أنه شعر بارتعاشة تنتابه، وتبلغ أطراف أعصابه.

وقالت له:

- علينا أن نأمل، فقد أكدوا لي، في كل مكان أن العقوبة لن تكون قاسية جداً!

- لا يمكنني أن أصدق أنهم سيخلون سبيلي، في يوم من الأيام!

- بلى، إنهم سيخلون سبيلك!...

- وهل تقبلين، عند ذلك، أن أعود إلى قربك؟

فرفعت رأس زوجها بكلتا يديها، وغمرته بنظرة عطوفة تنمّ عن الحب، والصبر والأسف، وقالت:

- كم أنت نحيل! ولا بدّ أنك تألمت كثيراً، وتعرضت للكثير من المتاعب والحرمان!

- إذا قدّر لي أن أعود لأعيش بقربك، فسترين أني سأكون رجلاً آخر!... رجلاً جديراً بك، جديراً بنا، نحن الاثنين!... فقد أدركت كثيراً من الأمور، وأنا في السجن!... وكل شيء، في قرارة نفسي أصبح أكثر وضوحاً وأكثر جدّية!... صدقيني أرجوك، أرجوك أن تصدقيني من الآن فصاعداً، واعتباراً من هذا اليوم!...

عند ذلك فقط، لاحظ أنها ترتدي فستاناً رمادياً، بسيطاً جداً، ياقته من الدنتيلا، وعلى رأسها قبعة سوداء تزينها ريشة بيضاء. ولم يكن يشبع من تفحّص ذلك الوجه الجميل والناعم، الذي يحمله عنق طويل، مرن وأغيد، وتلك العينين الذابلتين، الناعستين اللتين يشعّ منهما بريق مزركش بشذرات ذهبية، وذلك الأنف الأقنى اللطيف، وذلك الظل المخملي على الشفة العليا، كل هذه المفاتن، وهذا القدر الكبير من الفتنة والسحر والنظافة أحدث لديه حالة تشبه الشلل التام، فأخذ يتمتم:

- كم أنت جميلة! كم أنت جميلة!

وعندما عاد إلى التفكير بنفسه، وبوضعه، وجد نفسه منهاراً، كالمتسول عند قدمي امرأة، في غاية الأناقة والجمال. فقال بحزن وأسى:

- إني قذر! ورائحتي كريهة!

فارتفع حاجبا اللواء «سوكين» إلى وسط جبينه، فتحدّته «صوفيا» بنظراتها، ساعدت زوجها على النهوض، أجلسته بجانبها، وتكوّرت بين ذراعيه. فتردّد في ضمها إليه بقوة، بسبب قذارة ملابسه.

وسألها:

- هل يمكنك أن تحضري مرة أخرى؟

- لقد وعدوني بأن يسمحوا لي بذلك.

- ومتى ستحضرين؟

- لا أدري... ربما في القريب العاجل...

- ومن الآن، إلى ذلك الوقت، ماذا ستعملين؟

- سأقوم بمساعٍ أخرى. ومنذ شهرين، وأنا أقرع جميع الأبواب، واستغل جميع العلاقات التي تصلنا بالآخرين!...

- على أي حال، فأنت لا تقيمين في «سان بطرسبورغ» منذ شهرين!

- بلى، يا «نيقولا»! وقد استأجرت منزلاً صغيراً في الجزيرة.

- وتقيمين فيه بمفردك؟

- كلا، «نيكيتا» يقيم معي.

- وكيف، هل ترك إذن عمله؟

- نعم، وقال إنه يفضل أن يكون خادماً عندي، على أن يكون موظفاً حراً عند الآخرين!

- يا له من فتى طيب!

- أتعلم من الذي قدم لي أكبر مساعدة من أجل زياراتي للشخصيات التي تتمتع بالنفوذ؟ إنه «هيبوليت روزنيكوفّ»!

فغمغم «نيقولا»:

- ذلك الفظّ!

- لقد استقبلني بكثير من اللطف والمودّة، وهو يحافظ على صداقتك مع إدانته لأفكارك... لأفكارنا!... وبفضل مساعدته لي، فإني آمل أن أتمكن من مقابلة اللواء «بنكندروف» والدوق الأكبر «ميشيل بافلوفيتش»، وكما ترى، فإننا سنحظى بمساعدة وحماية شخصيات عالية المقام!...

فقال لها:

- يا عزيزتي، يا حبيبتي، لقد قمت بكل هذا من أجلي... من أجلي أنا، الذي لا أستحقه تماماً!...

فقاطعته:

- حدثني عن نفسك، الآن. كيف تشعر، وكيف ترى حالتك الصحية؟ وماذا تعمل طوال النهار في زنزانتك؟ هل تقدم لك كفايتك من الطعام؟

وقال «سوكين» وهو ينهض:

- يؤسفني، أيتها السيدة، أن أبلغك أنّ وقت المقابلة قد انتهى. فانتفض «نيقولا» وكأنه تلقى صفعة على وجهه، وضمّ قبضتيه الضعيفتين، ثم هدأ متأثراً بالنظرة التي وجهتها زوجته إليه.

ووقفت وعانقته مرة أخرى، متجاهلة اللواء الذي كان آنذاك يراقبها وجها لوجه، وبارتياح. وحضر الحارسان، من جديد أمسكا «نيقولا» من ذراعيه، وجذباه، دون قسوة، إلى الوراء. فصاح:

- أريد أن أعيش من أجلك، يا «صوفيا»! عودي لزيارتي! أتوسّل إليكِ أن تعودي!

فقال له «سوكين»:

- إذا كنت ترغب بعودتها، عليك أن تدع حارسيك يقتادانك، وأنت هادئ ومتعقّل، يا «نيقولا ميكايلوفيتش»!

و «صوفيا»، وقد انقبض صدرها، تبعت بنظرها زوجها، وهو يسير مبتعداً، بين حارسين مسلحين. وعندما وصل إلى العتبة، التفت: هذا الشعر الطويل الأشقر، هذه اللحية المشعّثة والوسخة، تلك الحدقتان بلونهما الأخضر الباهر، في ذلك الوجه النحيل، إنها لم يسبق لها أبداً أن شعرت نحوه بمثل هذا العطف والمحبة! كانت قد أتت، وفي قرارة نفسها حقد، لم تستطع الشفقة أن تزيله حتى ذلك الحين. وحتى اللحظة التي رأته فيها، من جديد، كان عليها أن تبذل مجهوداً كبيراً كي تنسى أنه قد خانها. ولكن، من النظرة الأولى، تحرّرت بسرعة من ضغوط الكبرياء، السخيفة.

وعلاوة على ذلك، فإذا كان «نيقولا» الآن في السجن، أليس الذنب ذنبها في كونه قد سجن؟ فهو، من تلقاء نفسه، ربما لم يكن ليفكر أبداً بأن يتمرد على نظام الحكم، فهي التي رسخت في ذهنه، فيما مضى، في باريس. حبّ الحرية، الذي يدفع ثمنه غالياً في الوقت الحاضر. وبقدر ما كانت تعتبر نفسها مسؤولة عن دفعه إلى الاهتمام بالسياسة، بقدر ما كانت تعترف بأنّ ليس لها الحق بأن تبخل عليه بالصفح عنه. ووجهت ابتسامة غامضة للجنرال الذي رافقها إلى الباب، وقالت له:

- أشكرك، يا صاحب السعادة.

***

كان «نيكيتا» ينتظر «صوفيا» في المنزل الصغير الذي استأجرته بالقرب من القلعة، خلف سوق «سيتني». وعندما رآها، بدا عليه القلق، لدرجة أنها تأثرت بسبب ذلك. وحدثته عن زيارتها للسجن. وهذا الحديث أعاد لها اضطرابها الذي شعرت به هناك. ومع ذلك، فإنها، عبر كلماتها الأكثر مرارة، كانت تتراءى فرحتها بلقاء «نيقولا». وتلك المصيبة الكبرى سببت لها الإحباط، وحرمتها من العيش على الشكل الذي ترغب به، ولكنها أغنتها بالحب وزادت من محبتها لـ «نيقولا»، وعلى الأقل، هي تريد

أن تؤمن بذلك، لكي تستطيع مقاومة شعورها بالغيرة. وفي الوقت الذي لم تعد تتوقعه، فقد انفتح جرحها من جديد، فهي تخشى أن يكون عدم إخلاص «نيقولا» قد أحدث أثراً أكثر عمقاً من أن يجعلها تستطيع أن تردّ له اعتباره.

ألا يمكن أن تجد نفسها متشنّجة، وعدائية، بعد زوال فيض العواطف الذي شعرت به في البداية؟ كانت تكره هذا الشعور المتشدّد لديها الذي يمنعها من تقبّل ما يمكن أن تعتبره كثير من النساء الأخريات، إهانة لا يؤبه بها، ويمكن التغاضي عنها.

وسألها «نيكيتا»:

- أما زالت لدى «نيقولا ميكايلوفيتش» الآراء السياسية السابقة نفسها يا سيدتي؟

فأجابته بفخر واعتزاز:

- إنه يتمسّك بها أكثر من أي وقت مضى!

وتبادر إلى ذهنها: «بلى، إني أحبه! نعم وأحبه بقدر ما أحببته فيما مضى!»

- ماذا ستفعلين لكي تتمكني من زيارته مرة أخرى؟

- غداً، سأستأنف المساعي.

- ربما كان عليك أن تتحدثي بشأن هذه القضية، مع السيد «روزنيكوف».

- وهذا ما أنوي القيام به بالفعل!

ولاحظت أنها تتناقش مع «نيكيتا» ليس على اعتباره خادماً، بل كأنه أحد الأصدقاء. والحقيقة هي أنه لم يكن قد بقي شيء من العبد الفتيّ الخجول والجاهل، في هذا الشاب القوي، ذي الملامح الصلبة، والهندام البسيط والنظرة الصريحة والصادقة. وبالإضافة إليه، كان لديها فتاة في

العشرين من عمرها، تعمل كخادمة، اسمها «دونياشا» وكلاهما يبدوان جميلين، وبصحة جيدة، وهي تفكر بأن تزوجهما، في يوم من الأيام.

وصرفت «نيكيتا» من الغرفة، ثم ارتدت ثوباً منزلياً، ولأنها ليس لديها ما تعمله، فقد مشت لبضع دقائق، في الغرفة، ثم جلست كي تكتب رسالة إلى عمها. كانت غاضبة جداً بسبب الرسالة التي أرسلها سراً إلى «نيقولا». ومن البديهي، أنه بتصرفه هذا، أراد أن يهدم الجسور بينها وبين زوجها قبل أن تتمالك نفسها، وأن يفرض عليها أن تقاطعه، دون أن يترك لها وقتاً لكي تفكر وتستجوب قلبها. كان يكره «نيقولا» كثيراً، لدرجة أنه، حتى عندما علم بأنه قد ألقي القبض عليه، لم يبدر منه أي ردّ فعل ينم عن الشفقة أو الحزن عليه. وبدلاً من أن يقلق على مصير ابنه، فقد لعنه لأنه تمرّد على القيصر. وعندما قالت «صوفيا» إنها تريد الذهاب إلى «سان بطرسبورغ» صاح بملء صوته أنّ ليس لها الحق، وقد أحتضنت طفلاً يتيماً أن تتركه لكي تسرع للقيام بمساعدة مجرم سياسي. ولو أنها قررت أن تهرب منه لكي تنضم إلى خصم منافس له، لما استاء وغضب أكثر من ذلك.

وحتى اللحظة الأخيرة، كان عليها أن تتعرض لتهديداته، لحيله ولتوسلاته، وهي تصدر عن عجوز ترعبه فكرة العزلة والوحدة.

ومنذ أن فارقته، كانت تتلقى منه رسالة كل يومين. كان يحدثها في رسائله، قليلاً عن صحة الصغير «سيرج» وكثيراً عن نفسه، دون أن يذكر «نيقولا» أبداً. وكأنه يجهل لأيّ سبب سافرت إلى «سان بطرسبورغ». وكانت رسائله دائماً تنتهي بلوم لطيف يوجهه لها، وباعترافه بأنه حزين، وبالعبارة الآتية: «متى ستعودين؟»

وانحنت «صوفيا» على الورقة البيضاء، وأخذت تجمّع اعتراضاتها وتبحث عن أقوى الكلمات للتعبير عنها.

ولكن، هل توجد وسيلة لإثارة التأثر لدى «ميشيل بوريسوفيتش»؟ إذ إنّ أنانيته تحميه كغلاف من حجر. فهو لم يكن يسمع ألاّ ما يريد أن يسمعه. إذن ما هي جدوى الرسالة. والاعتراض على أي شيء؟ وأخذت تتنهّد. وبينما كانت الريشة لا تزال متوقفة فوق الورقة، داهمتها ذكريات «كشتنوفكا». كانت تتألم لكونها حُرمت من تلك الملكية الواسعة، التي كان كل ركن فيها مألوفاً بالنسبة لها، ومن أولئك الفلاحين الذين كانوا بأمسّ الحاجة لها، وبخاصة من ذلك الطفل الذي عهدت به إليها «ماري» عند موتها. وكم من الأشخاص هجرت، بدافع الإخلاص والوفاء لشخص واحدّ حقاً إنّ الطفل لن يُحرم من العناية والعطف، وهو محاط بعطف جده الذي يعبده، بعد أن رفض في بادئ الأمر قبوله في منزله، وبالعجوز «فسّيليسّا» التي تدلّله على الطريقة الروسية، وبالسيد «لوسور» الذي كان ينتظر أن يكبر لكي يربيه على الطريقة الفرنسية، وبمجموعة من الخادمات اللواتي كنّ يفرحن لابتساماته، ويحزنّ عندما يقطب حاجبيه. ولكن، مع اقتناعها بأنه لن يكون أقل سعادة أثناء غيابها، فهي لم تكن مطمئنة عليه تماماً، لكونها بعيدة جداً عنه. وكانت تشعر بالحنين إليه عندما تتذكّر وجهه الصغير المورّد والعابس، والنور الذي يتلألأ في عينيه، عندما يراها قادمة نحو، وتمتماته المرحة صباحاً. ولا بدّ أنه قد كبر قليلاً خلال الشهرين الماضيين. فهل سيعرفها عندما تعود إلى «كشتنوفكا»؟ وشعرت برغبة جسدية قوية بأن تضمه وهو حار، كثير الحركة، إلى صدرها. كانت تساورها بشأنه هموم كهموم الأم: وصايا لا تحصى أعطتها لـ «فاسّليسّا»، وللمرضعة من أجل العناية التامة بالطفلّ ثم انتابها فتور مفاجئ حوّل أفكارها إلى جهة أخرى. فاحمرّت خجلاً لكونها اكتشفت أنها غريزية، وبهيمية جداً، في تعلقها وارتباطها برجل. وبصورة آلية، غمست ريشتها في المحبرة. وسيحصل منها «ميشيل بوريسوفيتش» على

رسالة عادية ومبتذلة خالية من أي عبارة عاطفية. رسالة إعلامية، وهي الوحيدة التي يستطيع أن يفهمها. وكتبت:

«أبي العزيز، لقد استطعت أن أرى «نيقولا»...»

***

أنهت لجنة التحقيق أعمالها في الثلاثين من أيار «مايو» سنة ١٨٢٦، وفي الأول من حزيران «يونيو» شكل الإمبراطور محكمة عليا، كلفت بالبتّ بمصير مئة وواحد وعشرين متهماً. وانضمّ إلى هذه السلطة القضائية، الخاصة جميع أعضاء مجلس الدولة، وأعضاء مجلس الشيوخ، وأعضاء المجلس الأعلى للكنيسة الروسية، جميع الوزراء، وكثير من الوجهاء وأصحاب المناصب العليا في الحكومة. وتابعت هذه المحكمة أعمالها بسرّية تامة. حتى دون أن تدعو المتهمين لتقديم دفاعاتهم. وراجت إشاعة مؤدّاها أنّ «سبيرانسكي»، وهو أفضل رجال القانون في روسيا، كان يدرس كتب تاريخ وقوانين القرون الوسطى لكي يعثر فيها على سابقة قانونية للإجراءات القضائية والعقوبات الاستثنائية التي يرغب القيصر بتطبيقها بحق المتهمين، الذين كانوا سيتمّ تصنيفهم إلى عدة فئات، حسب أهمية جرائمهم. وبصورة رسمية، ستكون عقوبتهم قاسية جداً، ولكنّ القيصر وعد بتخفيف العقوبات، فيما بعد، لكي يدهش العالم بحلمه وسعة عفوه وتسامحه. وقد أكد ذلك «هيبوليت روزنيكوف» لـ «صوفيا»، على اعتبار أنه يشكل حقيقة موثوقة. ونقلت «صوفيا» هذه المعلومات إلى «نيقولا»، عندما زارته في أواخر شهر حزيران «يونيو». وقد وجدته هذه المرة بحالة صحية ونفسية أفضل مما كان عليه سابقاً: كان أحد الحراس قد حلق له لحيته وقصّ له شعره. وكان يرتدي معطفاً عسكرياً، مرقعاً ولكنه نظيف، وبدا الأمل واضحاً في تعابير وجهه، وهمس لـ «صوفيا»:

- أتعلمين أني لم أعد أرفض القيام بالنزهة في الحديقة، وأني آكل كل ما يقدم لي، لكي أستردّ قواي، وأصبحت أحب الحياة من جديد، وكل هذا من أجلك وبفضلك!

فقالت له:

- هذا ما ينبغي أن تعمله يا «نيقولا»، وأنا مقتنعة بأنّ نهاية محنتك أصبحت قريبة. فقد سبق أن أُفرج عن بعض السجناء، بعد أن تبيّن أنهم غير مذنبين...

- ومن هم هؤلاء؟

- أولئك الذين استطاعوا أن يُثبتوا أنهم لم يكونوا موجودين في ساحة مجلس الشيوخ، يوم الرابع عشر من كانون الأول «ديسمبر». وهكذا فقد أُطلق سراح «كوستيا لادوميروفّ» و «ستيبان بوكروفسكي»!

فقال «نيقولا» بشيء من المرارة:

- لقد سرني خبر الإفراج عنهما.

- وسيأتي دورك!

- إني أشك في ذلك، فأنا كنت مع المتمردين، يوم الرابع عشر من كانون الأول!

- ولكنك لم تتورط كثيراً، كما فعل بعضهم، من أمثال «ريلييف» أو «كاخوفسكي»!

- كلا، بالتأكيد!...

- ما رأيك، إذن؟!

- لا أدري... ربما كنت مصيبة فيما قلت...

واللواء «سوكين» الذي كان حاضراً، ويسمع الحديث، أخذ يهز رأسه موافقاً بشكل ينمّ عن العطف، على ما قالته «صوفيا».

واستأنفت الكلام:

- على أي حال، فقد قال لي «هيبوليت روزنيكوفّ» إنه يجب عليك أن تكتب إلى القيصر، بصورة مباشرة، لكي تطلب منه أن يعفو عنك.

فغمغم «نيقولا»:

- كيف يمكنك أن تطلبي مني أن أفعل هذا، إنه سيكون تصرفاً معيباً بالنسبة لي!

- لقد سبق أن فعل ذلك معظم رفاقك. وعلينا ألاّ نهمل أي فرصة!

فوعدها بأنه سيفكّر في هذا الموضوع. كانت حماسة زوجته من أجل إنقاذه تثير اضطرابه، امتناناً منها لما تبذل من جهود. وعندما عاد إلى زنزانته، عاش حتى المساء وهو يستعيد ذكرى لقائهما.

***

ومنذ أن هلّت أيام الصيف الجميلة الأولى، فُتحت النافذة التي طلي زجاجها بالطبشور، بأمر من حاكم القلعة. وحتى هكذا، أي بعد فتح النافذة، كان الجو في الداخل يبدو شديد الحرارة ورطباً دبقاً كجوّ الحمّام. وبالإضافة إلى ذلك، كان السطل ينشر رائحته الكريهة. ولكن كان هنالك مربع في السماء، بألوانه المتغيرة، يرافق آنذاك «نيقولا» في تخيلاته وأحلامه. وعلى الرغم من رغبته بأن يكون لطيفاً مع «صوفيا» فإنه لم يستطع أن يقرر كتابة رسالة تافهة، تتضمن كثيراً من التملق لاستدرار عطف الإمبراطور. وبعد أن مزّق عدة مسودّات، تحدّث عن ارتباكه إلى الأب «ميسلوفسكي». فنصحه الكاهن بأن يؤجل إرسال عريضته، إلى أن تُصدر المحكمة العليا أحكامها، وقال له:

- بعد أقل من أسبوع، ستعرف ماذا سيكون الوضع بالنسبة لك.

وكان يبدو مهموماً، مشغول الباب، فسأله «نيقولا» عمّا إذا كان لديه بعض المعلومات عن سير القضية.

فأجابه الأب «ميسلوفسكي» بسرعة:

- كلاّ، كلاّ، ليس هنالك أي معلومات واضحة ومحدّدة...

كانت هيئته غريبة جداً، لدرجة أنّ «نيقولا» أدرك أنه يعاني من صراع داخلي مع ضميره. وليس هنالك شك، بأنه أتى في بداية الأمر، لزيارة المساجين، كخادم أمين للإدارة الحكومية. ولكنه، بعد أن تحدّث إليهم، واستطاع التعرف عليهم، فقد اقتنع أنّ هؤلاء الرجال لا يستحقون العقوبة التي يهددونهم بها، وإن كان عملهم الثوري يبدو في نظره ذميماً ويستحقون اللوم عليه، فإنه لا يستطيع أن ينكر أنّ فكرةً صالحةً وخيّرة، هي التي أوحت لهم بوجوب القيام به. وهو لم يعد يدينهم إلا بلطف، وبشكل أبوي. بل وربما كان قد انحاز إلى جانبهم، باسم العدالة الإلهية، وضد عدالة الحكومة، الرسمية. وإذا كان لا يبوح بذلك فإنّ من ينظر إليه يستطيع أن يقرأه بوضوح في عينيه. وهكذا، فإنه كلما أزداد شعوراً بأنه في وضع ملتبس وزائف، كان أولئك الذين كُلف بمواساة آلامهم، يزدادون حباً واحتراماً له.

وفي اليوم التالي، الثاني عشر من تموز «يوليو» استيقظ «نيقولا» على جلبة في الممر: أوامر موجزة تُعطى بسرعة، جماعة يتراكضون، وقعقعة أسلحة حربية. ودخل العميد «بودوشكين» فجأة وعلى عجل، إلى الزنزانة، يتبعه حلاق وحارسان:

- تفضل بارتداء ملابسك، ودع الحلاق يحلق لك ذقنك...

فسألهم «نيقولا»:

- ماذا هنالك؟ ماذا يحدث؟

ولكنّ «بودوشكين» كان قد خرج.

فأجابه «زمييكين»:

- كيف تريد منا، نحن أن نعرف ماذا يحدث؟ لا شك أنه أمر مهم! لقد جلبنا لك ملابسك وأشياءك الجميلة!

فترك «نيقولا» الحلاق يحلق له ذقنه، ثم ارتدى بسرور الملابس التي كان يرتديها عندما جرى توقيفه. واقتاده الحارسان إلى باحة القلعة، حيث كان يوجد عدد كبير من العربات، كالتي تتجمع عند مدخل قصر الشتاء عندما يقام فيه حفل للرقص. وكان سائقو العربات والمرافقون والخدم يتمشون بحللهم الرسمية ذات الألوان الزاهية، بين الأحصنة التي جدّل شعر أعناقها على شكل غدائر، وزوّدت بعدّة فضية. وكان هنالك فصائل من الجنود والشرطة، يقفون معرضين لأشعة شمس تموز الحارة.

كانت أبواب منزل حاكم القلعة مفتوحة، والخفراء يقفون بكبرياء، منتشرين في كل مكان، حتى مدخل قاعة الانتظار. ودخل «نيقولا»، وهو يُدفع بقوة على غرفة ضيقة، أسدلت ستائرها، وقد تجمع فيها نحو عشرين سجيناً. كلهم بملابس فقدت رونقها، وعلى وجوههم أمارات الهم والقلق. ومعظمهم يلتزمون الصمت. ودهش «نيقولا» لأنه لم يعرف أي واحد منهم. فلا شك إنهم، جميعاً، من جماعة «اتحاد الجنوب» فأسف لذلك. وفجأة لمس أحدهم كتفه: هذا الوجه النّحيل، بحاجبيه الكثيفين الأسودين، آه! إنه «يوري ألمازوف»! فيا له من لقاء يحصل في آخر العالم! فتعانقا، وقد أغرورقت عيناهما بالدموع.

وسأله «نيقولا»:

- أتعرف شيئاً؟

فأجابه «يوري ألمازوف»:

- ليس أكثر مما تعرف أنت. إنهم سيحاكموننا، وسنحاول الدفاع عن أنفسنا...

- كيف يحدث أنّ جميع أصدقائنا ليسوا معنا هنا؟

- إنها خفايا وأسرار الإجراءات! ربما لأنهم تابعون لفئة أخرى! فكلّ حسب جريمته، كما جاء في «الكوميديا الإلهية» التي ألفها «دانتي»!

وهكذا فأنت وأنا، سنقيم في ركن واحد، من الجحيم! وعلاوة على ذلك فلسنا مع رفاق سيئين جداً! انظر!

فنظر «نيقولا» إلى حيث أشار «يوري ألمازوف» واكتشف عبر الغبش الذي يسود الغرفة، خمسة أعضاء آخرين من «اتحاد الشمال»: «أودويفسكي»، الرائد «موخاروف»، اللواء «فونفيزين» والأخوين «بيليبايف». فتقدم نحوهم، وصافحهم. كان الأخ «بيليبايفّ» الأصغر، قد أنعم عليه القيصر «أليكسندر الأول» بوسام «صليب القديس- فلاديمير، مكافأة له على أعماله البطولية أثناء الفيضان الذي حصل سنة ١٨٢٤.

وقال له الرائد «موخانوف»

- لا تقلق إذن، إنهم ينظرون بعين الاعتبار إلى هذا الامتياز الذي حصلت عليه! وسيعفون عنك ويكرّمونك!

فأمّن، «نيقولا» على أقواله، قائلاً:

- هذا صحيح! فحسب المعلومات التي حصلت عليها بواسطة زوجتي، الأمر لا يتعدى كونه مجرد شكليات!

وهمس «أودويفسكي»:

- يبدو أنّ الإمبراطورة قد تأثرت كثيراً، وقلقت بسبب الرسائل التي أرسلتها لها عائلات المتهمين! إنها ستساعدنا! فهي قديسة!...

وفتحت الأبواب من جديد. وأسرع بعض الجنود لإخراج ذلك الجمع الصغير من السجناء. وقبل أن يستطيع «نيقولا» الربط بين فكرتين، وجد نفسه، وقد دفعه التيار، في القاعة التي استجوبته فيها لجنة التحقيق، عدة مرات. والمنضدة المغطاة بقماش أحمر، قد التوت وأصبحت على شكل الهلال، حولها، يجلس الآن، ليس بعض القادة العسكريين وحسب، بل أيضاً بعض رؤساء الكهنة، وبعض أعضاء مجلس الشيوخ ببزاتهم القرمزية. ولعدم وجود أماكن كافية، فقد جلس عدد من القضاة، قليلاً إلى

الخلف، على كراسٍ ومقاعد، رتبت على شكل نصف دائرة. وأصحاب المناصب العليا في الدولة، الذين يرتدون الملابس الفخمة، وكأنهم يحضرون مهرجاناً أو احتفالاً رسمياً، بدت وجوههم جامدة، وملامحهم لا تعبّر عن شيء. وهذا العرض من الزينات الذهبية والأوسمة الكثيرة والمتنوعة، أبرزت أكثر، بفعل التناقض، بؤس السجناء الذين اصطفوا بجانب الجدار، ووقفوا في وضعية الاستعداد. وكان العجوز «لوبانوفّ-روستوفسكي» وزير العدل، يقف بالقرب من منبر، وكأنه سيتلو الصلوات، ولكنّ المنبر كان يحمل، بدلاً من كتاب المزامير، إضبارة القضية، الضخمة.

فقال «نيقولا» لـ «أودويفسكي»:

- يا له من إخراج مسرحيّ مدهش!

فغمغم الرائد «موخانوفّ»:

- إنهم يريدون إثارة مشاعرنا، لكي يكون للدرس أقوى مفعول ممكن. ورجال الشرطة الذين كانوا يحدجونهم بنظرات، غاضبة، أمروهم بالتزام الصمت. وأشار وزير العدل بسبابته إلى مقطع في السجل المفتوح على المنبر وبناءً على هذه الإشارة، وضع أحد أمناء السر نظارته على عينيه، وأخذ يقرأ:

- تقرّر أن يُحرم من جميع حقوقهم وممتلكاتهم ومن ألقابهم ورتبهم وأوسمتهم، ويرسلون إلى سجن الأشغال الشاقة لمدة اثنتي عشرة سنة، ثم يبعدون بشكل دائم إلى الإقامة في مقرّ، تحت المراقبة، في سيبيريا، أولئك الذين اعتبروا من الفئة الرابعة، والآتية أسماؤهم، فيما يلي....»

وسعل، ثم بدأ يعدّد الأسماء:

- الرائد، في المرتبة الثانية «موخانوف»، قائد اللواء «فوتعيزين»... فأخذ «نيقولا» يردّد، وقد تجمد جسمه حتى العظام: «اثنتا عشرة سنة أشغال شاقة

والنفي إلى الأبد! هذا غير ممكن! فالعقوبة شديدة جداً وفي النهاية، سيعلنون عن تخفيف هذه العقوبة!»

وأمامه، بدا القضاة وكأنهم، رغما عنهم، يعانون من الشعور بالذنب. وكان بعضهم لا يجرؤون حتى على النظر مواجهة إلى المحكومين. بينما أحنى رؤساء الكهنة رؤوسهم واستغرقوا في التفكير، وهم يداعبون لحاهم.

وأخذ «تاتيشيف» وزير الحربية، يستنشق السعوط، ويعطس بعصبية واضعاً منديله على فمه. والجنرال «تشيرتيشيف»، وقد تزيّن وتعطر أكثر مما هي عادته، أخذ يتفحّص أظافره، بانتباه لا يقل عن الانتباه الذي يوليه الصائغ لمجوهراته.

- «أوزاريف، نيقولا ميكايلوفيتش»...

فانتفض «نيقولا» عندما سمع اسمه، ونظر إلى رفاقه، على يمينه وعلى يساره: جميعهم كانوا جامدين، ساهمين، وقد استبدّ بهم الرعب.

- العقيد «ناريشكين».... حامل العلم، الأمير «أوديوفسكي»!...

وهكذا فقد انتهى أمين السر من تلاوة أسماء المتهمين من الفئة الرابعة، وعند ذلك صمت، وتراجع خطوة إلى الوراء، فحلّ محله أمين سرّ آخر، لكي يذكّر، بصوت رتيب، وعلى سبيل المعلومات، بالحكم الذي صدر قبل بضع دقائق، بحق المتهمين العائدين إلى الفئات الأولى، الثانية، والثالثة:

أشغال شاقة مؤبدة، أشغال شاقة لمدة عشرين سنة، ولمدة خمسة عشر سنة... وأخيراً، وبعد أن مدّ عنقه كالديك عندما يصيح في الصباح، أعلن أنّ المجرمين السياسيين «بول بيستيل»، «سيرج مورافيف- أبوستول»، «ميشيل بيستوجيف ريومين»، «كونراد ريلييف» و «بيير كاخوفسكي» قد حكم عليهم بالإعدام شنقاً. فشعر «نيقولا» بصدمة قوية في أحشائه، وأخذ يلهث من شدة الغيظ، دون أن تبدر منه أي حركة. ظلّ ينتظر، خلال بضع

ثوانٍ الإعلان عن العفو الإمبراطوري. ولكنّ أمين السر، بعد أن أدّى تحية روتينية، انسحب دون أن يضيف كلمة واحدة.

عند ذلك، صاح «لوبانوفـ- روستوفسكي»:

- خذوهم!

وحدثت جلبة وتعالت أصوات السجناء، معلنين احتجاجهم على الأحكام، وصاح «نيقولا» بأعلى صوته:

- لا يحق لكم أن تحاكمونا هكذا! دعونا، على الأقل، نقدّم لكم، ما لدينا من دفاع!...

فكّرر «لوبانوفـ روستوفسكي» أمره، بغضب:

- خذوهم! وادخلوا الآخرين!

فصاح أحد ضباط الصف:

- بالصفّ، إلى اليمين!

وخرج السجناء من القاعة. واقتادهم الحراس إلى «وهدة اليكس» حيث خصصت لهم زنزانات جديدة. ولم يكد «نيقولا» يجلس على فراشه القشي، حتى دخل الأب «ميسلوفسكي» وهو شاحب الوجه، بادي الاضطراب، وقال:

- عليك، بخاصةٍ، ألا تصدّق كلمة واحدة مما سمعته! فسوف يعلن العفو عنهم، وهم يقفون قرب المشانق! أحكامكم، أنتم أيضاً سوف تخفّف!

- كيف تلقّوا خبر الحكم عليهم بالإعدام؟

- بكثير من الهدوء! وعلاوة على ذلك، فهم لا يجهلون أنه إجراء يُقصد به التخويف! وبما أنّ عقوبة الإعدام قد ألغيت في روسيا، فإنّ القيصر لا يستطيع أن يخرق قانون بني البشر، ورؤساء الأساقفة الأربعة، أعضاء المحكمة العليا، لا يستطيعون مخالفة قانون الإله.

كن واثقاً! عليك أن تتحلى بالثقة والصبر!...

وبحماسته، كان يشارك المحكومين السياسيين مشاعرهم ومصابهم فالبؤس والشقاء والمصائب، هي وطنه. وبارك «نيقولا» بسرعة، وقال له:

- لا أستطيع البقاء عندك زمناً طويلاً، يجب عليّ أن أمرّ على جميع أصدقائك. إلى اللقاء، غداً!...

٭ ٭ ٭

وعندما خيم الظلام، لم يستطع «نيقولا» أن ينام. وعبر النافذة المفتوحة، كان ليل تموز «يوليو» يبث في الزنزانة حرارته الرطبة، عطره المثير، والضجيج النائي، المنبعث من المدينة. ومن وقت لآخر كان صوت بعض المجاذيف يتردّد بمحاذاة جدار القلعة. والفئران تمدّ أنوفها من أوكارها مستطلعة ردود فعل الساكن الجديد، لم يكن يعرها أي انتباه. كان فمه جافاً ويشعر بعطش شديد وكأنه مصاب بالحمى. والعرق جعل قميصه يلتصق بجلده. وقد ترك له الحراس ملابسه الخاصة وأوصوه بألاّ يوسّخها. فماذا تعني هذه المراعاة. كان، وهو مستلق على ظهره، وعيناه متجهتان نحو السماء ذات اللون الأزرق الذي يكتنفه الظلام، يحاول أن يجمع أفكاره المشتتة. السجن مع الأشغال الشاقة، لمدة اثنتي عشرة سنة!... وإذا لم يلغ الحكم أو يعدّل، فهذا يعني أنه لن يرى أبداً «صوفيا»، بعد الآن. وبعد أن التقى بها من جديد، فهو لا يستطيع أن يتحمل حدوث هذا الفراق. وبإعادتها له طعم السعادة، فقد انتزعت منه شجاعته. وأخذ يردّد: «كلّ شيء سيتدبّر! وسوف يخفّض الإمبراطور عقوبتي، ويحولها إلى السجن بضع أشهر في القلعة. وأصدقاؤنا الخمسة لن يُشنقوا. وسيعود الأمان والاطمئنان إلى النفوس في روسيا. ولا يمكن أن يريد الله أن تسير الأمور بغير هذا الشكل!» وخلال ساعات عديدة ظلّ يصلّي بالكلمات نفسها التي كان يصلي بها في طفولته.

وأثناء الليل، سمع أصوات مطارق، وصرير مناشير. فلا بد أنّ مجموعة من النجارين، كانت تقيم منصات بالقرب من القلعة. ثم حمل له نسيم الفجر الخفيف واللاذع أصوات أبواق ودويّ طبول، بالكاد كان يستطيع سماعها. وقُرعت أجراس الاستيقاظ في مختلف ثكنات «سان بطرسبورغ». والسماء، عبر مساحة النافذة لم تكن سوى عدمٍ، مكوّنٍ من ضبابٍ رماديّ. وزقزقت بعض العصافير، واخترق الفضاء نورس وهو يرسل صراخه الحاد.

و «نيقولا» وقد أنهكه التعب وطول السهر، كان يوشك أن ينام، عندما أتى طبيب السجن ليتفقد حالته الصحية. لأنه لا شك بأنّ المراجع العليا، في الدولة كانت تخشى من أن تكون قسوة الأحكام قد زعزعت أعصاب السجناء. وهذه العناية بدت مضحكة وسخيفة جداً، في نظر «نيقولا» لدرجة أنه صرف زائره، دون أي اهتمام أو مراعاة لحقيبته، لنظارته ولهيئته، كرجل علم. وبعد ذلك مباشرة، أتى الأب «ميسلوفسكي»، بدوره، وأكّد لـ «نيقولا» وهو يتحسّس ذؤابة لحيته الشقراء:

- الأخبار الأخيرة تدعو إلى الاطمئنان، فالعقوبة لن تطبق ليكن السيد المسيح معكم، وفي عونكم!

وتخلى عن مكانه للمقدم، الذي كان يتظاهر بالاهتمام، وأمر «نيقولا» أن يرتدي ملابسه ويتبعه، في الحال.

فسأله «نيقولا»:

- إلى أين ستقتادني؟

- ليس لديّ أيّ تفسير أعطيك إياه. ولكني لو كنت في مكانك، لما تباطأت في الذهاب!

ففكّر «نيقولا» وقد راوده الأمل: «إنهم سيعلنون لنا تخفيض الأحكام، والعفو!» وأحاط به الحراس والجنود المسلّحون، فنظر إليهم بمودّة. وسار تحت

حراستهم، فاجتاز الجسر المتحرك الذي يصل «وهدة أليكس» بالقلعة، ونزل إلى الباحة، وهناك، عبر غبش الصباح الباكر، كان قد تجمع نحو مئة سجين، وهم يتدافعون بالمناكب. وكان لا يزال يصل بعضهم، قادمين من مختلف السجون والزنزانات. كانوا قد أوقظوا بشكل مفاجئ وعلى عجل، ولم يحلقوا ذقونهم، يرتدون ملابس سيئة، أجسامهم نحيلة، وجوههم شاحبة، يتبادلون النظرات التي تتبادلها الحيوانات المطاردة والمطوّقة. وكان اللواء «سوكين» ببزته الجديدة، يصرخ بأعلى صوته، مصدراً الأوامر. وصف الضباط ببزاتهم ذات الطيات الحمراء، وقد انتابتهم الحماسة، أخذوا يرتّبون المحكومين، حسب الفئات التي سبق للمحكمة أن صنفتهم بموجبها، كل منهم حسب أهمية جريمته: كان هنالك كبار منظمي المؤامرة، أولئك الذين اعتُبروا قد أذنبوا لكونهم كانوا ينوون قتل القيصر، وأولئك الذين انساقوا مع الآخرين، وأولئك الذين لم يعملوا أي شيء لكي يمنعوا حصول التمرد والثورة...

ووجد «نيقولا» نفسه بين الأخوين «بيليايف» و «يوري ألمازوف». ولمح، إلى يساره، بين المحكومين بالسجن المؤبد، مع الأشغال الشاقة: «تروبيتزكوّي»، «أوبولنسكي»، «كوهيلبيكر»، «أليكسندر بيستوجيف»، «ايكوبوفيتش» و «بوسشين»... وفي مجموعة أخرى، التي حُكمت بالسجن عشرين سنة مع الأشغال الشاقة، لمح أيضاً الأخوين «نيقولا» و «ميشيل بيستوجيف»... ولكن، «ريلييف» و «كاخوفسكي» و «بيستيل» لم يكونوا موجودين هناك.

وغمغم «يوري ألمازوف» متسائلاً:

- ما هو المشهد الذي سيعرضونه علينا، أيضاً؟

فقال «نيقولا»:

- على أي حال، لم أكن أعتقد أبداً أنّ عددنا كبير إلى هذه الدرجة! فهذا أمر مشجّع!

وكان ثلاثة أرباع المحكومين مجهولين بالنسبة له، ورأى بينهم بعض المدنيين، بملابس سوداء، ضائعين لم يكن يتبيّنهم جيداً، بين جشد من العسكريين ببزاتهم الحمراء، كتافياتهم المذهبة، وقبعاتهم التي تشوه شكلها وغطاها الغبار. وعلى صدور بعضهم، كانت تتلألأ أشهر أوسمة الإمبراطورية، وأعلاها شأناً. وبعد أن رُتبت مختلف المجموعات، وأحصي أفراد كل منها، بدا الجنرال «تشيرنيشيفّ» على صهوة جواده، ولم يكن كبد نفسه عناء التزيّن، صباح ذلك اليوم، وكان وجهه شاحباً، كأنه قدّ من تراب غضاري. وجواده الأصيل ينخر، يشب ويقنطر، وهو يمسك بزمامه بيد عصبية. فهو ليس خيالاً ماهراً.

وكان الخبراء في الفروسية بين المتمردين، يلاحظون ذلك، يقيّمونه وينتقدونه بصوت خافت، فيما بينهم. وعندما لاحظ ابتساماتهم الساخرة، رجع على عقبيه وولّى غاضباً. وقامت مفرزة من فوج «بافلوفسكي» بتطويق محكومي الفئة الرابعة. وتكريماً للقيصر «بولس الأول» الذي شكل هذا الفوج، كانوا يفضّلون أن يضموا إليه رجالاً فطس الأنوف، على شاكلة القيصر الراحل.

وأخذ «نيقولا» ينظر إلى تلك الرؤوس، بل تلك الجماجم تحت تيجانها النحاسية العالية، وقد تبادر إلى ذهنه: «نحن في بلاد يسكنها مجانين!»

وبرز صف ضابط، فتكلم، وصاح بأعلى صوته، فسار الجمع، وعبر بوابة «بيتروفسكي» وخرج من القلعة. وإلى اليسار، بالقرب من المنحدر، أقيمت صقالة غريبة الشكل: عمودان يربط بينهما قضيب حديدي، وقد تدلّت من هذا القضيب الحديدي، خمسة حبال.

فهمس «نيقولا»:

- هذه مشنقة!

فقال «أودوفسكي»:

- نعم، لقد اخبرني بذلك الأب «ميسلوفسكي» إنهم يتابعون المهزلة حتى النهاية. وفي آخر لحظة، يصل خيال موفد من قبل القيصر، وقد أرخى العنان لحصانه، ويعلن النبأ السار، بل البشارة!...

- توقفوا!

وتوقف الجمع على حافة مرتفعة. وبعيداً عنهم، في آخر الساحة كان يتدافع عدد صغير من المشاهدين الصامتين: بعض العسكريين ببزاتهم الرسمية الغريبة، بل الأجنبية، بعض الدبلوماسيين ورجال السلك السياسي. جماعة من حاشية القصر الإمبراطوري. ويبدو أنّ عائلات المحكومين لم يحاطوا علماً بشيء.

وقال «موخانوف»، ضاحكاً:

- قليل من الناس أتوا لمشاهدتنا، ولن تنجح هذه الحفلة، ولن تدرّ دخلاً كبيراً على من أقامها!

وضحك «نيقولا» هو أيضاً، لحاجته للتغلب على قلقه وغمه: لن تتم عملية الإعدام، ولا يمكن أن تتمّ، والأبهة نفسها التي تميز بها هذا الاحتفال، تثبت أنه أقيم، فقط لإخافة المذنبين وللتأثير على عقولهم! وعلى سطح منصة الإعدام، أخذ عدة جلادين يتمشون، وقد ارتدوا الملابس الحمراء. وبين مكان وآخر، كانت النيران تشتعل في مناقل خاصة وحولها رجال مزودون بالحراب والمذاري كي يحركوها ويزيدوا من إشعالها. والدخان الكثيف يتصاعد نحو السماء. والشمس تتردّد بالشروق وكأن قد اعتراها الخجل، وكانت مفارز من جميع أفواج الموقع تطوّق الحافة المرتفعة. ومن الجهات الأصلية الأربع، برزت المدافع فاغرة فوهاتها. واللواء «تشيرنيشيفّ» يعدو به جواده في كل الاتجاهات، وكان يوقفه أمام هذا أو ذاك من السجناء، وبعد أن يتفحصه عبر نظارة بمقبض، يحملها بيده، ينطلق، وهو يبدو منشغلاً، والهواء يتلاعب بريشة قبعته.

وكان واضحاً أنه هو الذي نظم الاحتفال، ويتابع الإشراف عليه. إذ إنّ الإمبراطور لم يكبد نفسه عناء الحضور، وربما أنه لم يجرؤ على ذلك! ويقال أنه في «تسارسكوي- سيلو». وأعلن دويّ الطبول افتتاح مراسم الاحتفال. وبإيعاز من «تشيرنيشيف» أعاد أحد الضباط المرافقين، قراءة الأحكام العامة، وهو يشدّد عمداً، على كل الكلمات. وعدّ «نيقولا» الأسماء: أكثر من مئة وعشرين! وعندما انتهى تعداد الأسماء، دوّى أمر:

- ركوعاً!

فركع جميع المحكومين، وقُرعت الطبول مرة أخرى إعلاناً للتجريد من الرتب العسكرية والإذلال. واقترب الجلادون من الضباط ونزعوا عنهم كتافياتهم، أشرطتهم، أوسمتهم، علامات رتبهم، أخيراً ستراتهم. وألقوا كل شيء في النار، فتعالى اللهب والطقطقة، وارتفع الدخان، وانتشرت رائحة القماش المحروق. و «نيقولا» وإن لم يكن عسكرياً، فقد انتُزعت عنه سترته، وسأله الجلاد بمجاملة ومنّة:

- ألم يبق شيء في جيوبك؟

- كلا.

- هاتها، إذن!

وقذف السترة، فطارت كعصفور أسود وقد بسط جناحيه. وسقطت على المحرقة مثيرة حزمة من الشرارات. وعندما لم يبق على الأكثرية سوى القمصان، بينما كانت جذوع بعضهم عارية تماماً، امتشق الجلادون سيوفاً، كانت قد شحذت وصُقلت مسبقاً، وأخذوا يكسرونها على رؤوس الضباط. وكان العديد من هؤلاء الرجال من أبطال الحرب الوطنية. وقد بدت وجوههم، أثناء عملية الإذلال هذه، على درجة عالية من النبل المأساوي. كانوا يكزّون على أسنانهم، وعيونهم جافّة، وليس لديهم ما يواسيهم سوى ذكرياتهم. وأحياناً كان أحد السيوف لا ينكسر على الرغم من عنف الصدمة. وكان بعض الضباط القادة، من ذوي الرتب العالية: ألوية

وعمداء، وبعض الضباط الشباب، يسقطون على الأرض، وقد جُرحت أذنهم أو كُشط كتفهم، بطريق الخطأ، فكانوا يغمغمون متذمرين:

- يا لكم من مغفلّين ورعناء!

- إنكم تقومون بعملكم كأغرار، ليس لديكم أي خبرة!

وتمتم «أودوفسكي» وهو يترنح تحت الضربة العنيفة:

- حتى هذا العمل، لا يجيدون القيام به، في روسيا!

وانزعج الجلادون وثارت أعصابهم، وأخذوا يرغون ويزبدون، و «تشيرنيشيفّ» ينظر إليهم باستياء. وأخذ «نيقولا» يفكّر وهو غاضب ببرود، ويقول في سره: «إنهم يعتقدون أنهم يحقّروننا، وهم لا يحقّرون سوى أنفسهم!» وعندما كسر آخر سيف على الرأس الأخير، أحضر بعض الجنود الملابس الخاصة بالسجناء، المقلمة باللونين الأبيض والرمادي، وهم يحملونها على سواعدهم، وأخذوا يلبسونها للمحكومين. ولم يكن لديهم الوقت الكافي لكي يختاروا لكل محكوم الثوب الذي يناسبه. وهكذا فإنّ طوال القامة لبسوا أثواباً قصيرة، والقصار ألبسوهم أثواباً أطول مما ينبغي. وبعد فترة قصيرة لم يعد هناك بجانب القلعة، سوى مجموعة من المهرجين بملابسهم المسرحية. وأخذت فرقة موسيقية عسكرية تعزف لحن السيّر المرح الذي يزخر بزغردات المزامير ورنين الصنيجات. وهو لحن يحثّ على الرقص، حتى أنه يجعل الخيل ترقص فرحةً. وترجل اللواء «تشيرنيشيفّ» أمام مدعويه، فهل كان يرغب بأن يتلقى ثناءهم وشكرهم على المشهد الذي قدمه لهم؟ وتحت السماء الزرقاء، دوّت صيحات بعض صف الضباط، الحادة. وهبّ نسيم جعل ريشات القبّعات ترتجف. ودوّى صوت الأبواق. فسار المحكومون متجهين نحو القلعة. وجميعهم رفعوا رؤوسهم بفضول عند مرورهم من أمام المشنقة.



وعبثاً استجوب «نيقولا» الحارس، عندما أحضر له الحساء، في المساء، محاولاً أن يحصل منه على بعض المعلومات. فأقسم له الحارس بأنه لا يعرف شيئاً عن الخمسة المحكومين بالإعدام، ولكنّ نظرته التي تنم عن التهرب كانت تكذّب كلامه. ولأنّ «نيقولا» أراد أن يستوضح الأمر جيداً، فقد طلب منه أن يذهب ويحضر الأب «ميسلوفسكي»:

فقال له الحارس:

- لقد فات أوان ذلك، فالوقت متأخر جداً!

- أريده أن يحضر، لكي أعترف له.

فرضخ الحارس لما طلبه منه «نيقولا»: إذ إنّ مناجاة الرب مسموحة في أي وقت، وليس لها، في السجن موعد محدّد.

وكان قد خيّم الظلام، عندما دخل الكاهن إلى الزنزانة. وكان يكفي أن يرى «نيقولا» وجهه المكفهر والشاحب، لكي يتوقع منه أخباراً سيئة. وتهالك الأب «ميسلوفسكي» على الأسكملة، غطى جبينه بيديه وتمتم:

- يا صديقي العزيز، إنّ هذا شائن ومعيب!

فقال «نيقولا»:

- ماذا؟ إنهم لم يشنقوهم؟!

- بلى.

وخلال تلك اللحظة، تأرجح «نيقولا» نفسه، في الفراغ معلقاً بحبل ولم تعد رجلاه تلامسان الأرض. وقد شلّ الرعب أنفاسه وكاد يخنقه.

واستأنف الأب «ميسلوفسكي» الكلام:

- ما كنت لأتصور أبداً أنّ أمراً كهذا يمكن أن يحدث. وقد طمأنني بشأن ذلك كثير من أصحاب المناصب العليا!... وقد خدعت بكلامهم، كالطفل الصغير!... يا للعار!... ويا له من عار يلطخ سمعة بلادنا!...

فسأله «نيقولا»:

- وهل حضرت وواسيتهم في اللحظات الأخيرة من حياتهم؟

- نعم، والخمسة كانوا يثيرون الإعجاب بشجاعتهم وبمحافظتهم على وقارهم وكرامتهم!

- وماذا قالوا؟

- «ريلييف» حدثني عن آلام السيد المسيح... «ومورافيف- أبوستول» صرح لي، قائلاً: أنا أسامح القيصر، وأصفح عنه إذا حقق السعادة لروسيا!... والبروتستانتي «بيستيل» نفسه طلب مني أن أباركه!...

- وبعد ذلك؟

- ماذا؟

- هل عصبوا لهم عيونهم؟

- وماذا يهمك ذلك؟

- اشعر بالحاجة لمعرفته... لكي أتصورهم بشكل أفضل... ولكي أشعر نحوهم بمزيد من الحب... ولكي أزيد من احترامي ومن تقديسي لذكراهم!...

- لقد ألبسوهم على رؤوسهم أقنعة كالأكياس، وربطوا لهم أيديهم خلف ظهورهم، وعلقوا على صدر كلٍ منهم، لوحة صغيرة، كتب عليها: «قاتل ملك!» وإلى الأمام، إلى المشنقة! ،أخذت الموسيقا تعزف بعض الألحان... وهذا ما حصل!...

وأرسل الكاهن تنهيدة عميقة، وأبعد يديه عن وجهه، وأخذ جبينه ينقبض وينبسط، بصورة متقطّعة، بينما كانت الدموع تسيل على خديه وتضيع بين شعر لحيته.

وسأله «نيقولا»:

- وهل ماتوا، على الأقل، بسرعة وعلى الفور؟

- كلا.

- كيف، كلا؟

وفجأة، لم يعد الأب «ميسلوفسكي» يستطيع أن يتمالك نفسه، فارتعش جسمه، وكاد يتفكّك. وكل ما كان يرغب بكتمانه، تصاعد إلى شفتيه كالفيض وهو يتدفّق:

- كلاّ، يا صديقي المسكين، كلاّ! لقد كانت نهايتهم فظيعة!... فعندما فتح الجلاد، بوابة الحفرة تحت أقدامهم، انقطعت ثلاثة من الحبال الخمسة!... فظل «بيستيل» و «بيستوجيف- ريومين» مشنوقين، ولكنّ «ريلييف»، «كاخوفسكي» و «مورافيف- أبوستيل» سقطوا في الحفرة، وتكسرت سيقانهم!... وأخرجوهم منها وقد تهشمت أجسامهم وتلطخت بالدماء! فاستولى الذعر على الجلادين، وجنّ جنونهم! فأين يمكنهم أن يجدوا حبالاً أخرى؟...

وجميع الدكاكين كانت مغلقة!... واستمر البحث نصف ساعة!... نصف ساعة من الغم والقلق للمحكومين، ومن العار لمنفذي عملية الإعدام! وأخيراً شنقوهم ثانية، بينما أخذت الموسيقا تعزف بمزيد من القوة والحبال، ، هذه المرة، كانت قوية!... ولم أستطع تحمل ذلك المشهد! وفقدتُ وعيي!... وأنا أتهم نفسي وأشكوها أمام الله!...

فارتعشت أعصاب «نيقولا» واقشعرت بشرته، بسبب غضب شديد، لا جدوى منه، قد استبدّ به. وسأل الكاهن، بصوت خافت ومرتعش:

- أما زلت تعتقد، يا أبانا، أنّ القيصر كرّسه الرب، وأنه ممثله على الأرض؟

فأجابه الكاهن:

- لم أعد أعرف شيئاً، فكل شيء قد اختلط وتشوش في ذهني... فالجريمة غيّرت موقعها، وانتقلت من جانب إلى آخر... والقضاة لبسوا ثوب

العار، والمتهمون صعدوا إلى السماء، تكلّلهم هالة الشهداء... فليتقبّلهم الله وليمنحهم الغبطة الأبدية!

آمين.

ورسم على صدره إشارة الصليب.

وقال «نيقولا»:

- على أي حال، بعد تنفيذ أحكام الإعدام، هذه، فنحن لم يبق لنا أقل أمل!

- وكيف ذلك؟

- إذا كان القيصر لم يتردّد في شنق المتآمرين الرئيسيين، فلماذا سيتردّد بإرسال بقية الآخرين إلى السجن، مع الأشغال الشاقة؟

فقال الأب «ميسلوفسكي»:

- إني أعتقد، فعلاً، أنكم تكونون مخطئين الآن، إذا عوّلتم على رحمة القيصر، وأملتم أن يعفو عنكم.

وشعر «نيقولا» أنه أدين وحُكم عليه للمرة الثانية. وأنّ أمامه فراغاً فاغراً فمه، واسعاً وشاسعاً: سيبيريا. وأخذ يتساءل: «هل علمت «صوفيا» بما حدث؟» لقد أخذت تبتعد. وأصبح، لا يستطيع أن يفكّر بها على اعتبار أنها زوجته. وانتابته شهقة من النحيب حطمت صدره، فارتمى على السرير، بالعرض، أغمض عينيه، وحسد أولئك الذين ماتوا.



وفي اليوم التالي، بينما كانت الشمس ساطعة في أعالي السماء الصافية، تنامت إلى مسامع «نيقولا» أناشيد وتراتيل آتية من بعض الكنائس، فظلّ فترة طويلة يصغي إليها بكآبة وحزن، ثم نادى الحارس ليطلب منه تفسيراً لما يسمعه من تراتيل.

فقال له الرجل:

- تقام صلاة للتعبير عن الشكر، في ساحة مجلس الشيوخ، في المكان الذي حصل فيه التمرد والفتنة. وقد عاد الإمبراطور وأسرته خصيصاً بهذه المناسبة، من «تسارسكوي- سيلو». وقد تجمع هناك جميع رجال «الأكليروس» العاملين في كاتدرائية «نوتردام- دو- كازان» «سيدة قازان»!

ويمر رئيس الأساقفة أمام جنود الحرس ويرش عليهم الماء المبارك!...

إنه احتفال جميل!...

فابتسم «نيقولا» وسأله، متمتماً:

- في أي يوم نحن؟

- في الرابع عشر من تموز «يوليو».

- هذا هو تماماً ما كان يبدو لي! أتدري ماذا حدث، يوم الرابع عشر من تموز، في فرنسا؟ منذ سبعة وثلاثين عاماً؟

- كلا، يا صاحب السعادة.

- الاستيلاء على سجن «الباستيل»

- ولم تعبّر نظرات الرجل عن كونه فهم شيئاً مما قاله «نيقولا» وهزّ رأسه، وخرج.

٦

أحضر «نيكيتا» جريدة لم يكن قد جفّ حبرها، بعد، وناولها لـ «صوفيا»، دون أن يلفظ كلمة. كانت تعرف ما ستقرأ، لأنّ «هيبوليت روزنيكوف» كان قد أطلعها عليه عشية ذلك اليوم. ولكنها ظلّت تأمل، ضد العقل والمنطق، أنّ الأحكام يمكن أن تكون قد خُفضت في غضون ذلك. وفي وسط الصفحة الأولى، نص الأحكام. وكانت الأحرف تتراكض متدافعة: «مع سبق التصوّر والتصميم... جريمة ضد أمن الدولة... جمعية سرية تحريض الجنود على الثورة... اغتيال القيصر...» كل التعابير المخيفة في اللغة الخاصة التي تستعملها المحاكم الاستثنائية. وفي قائمة طويلة من الأسماء، قفز إلى نظرها اسم زوجها: «نيقولا ميكايلوفيتش أوزاريفّ»... إلى سجن الأشغال الشاقة لمدة اثنتي عشرة سنة، ثم النفي المؤبد....» وتركت الجريدة تسقط على ركبتيها.

فسألها «نيكيتا»:

- هذه هي الأحكام، أليس كذلك، يا سيدتي؟

فأجابته:

- نعم.

- يا لها من مصيبة! كان هنالك صف طويل من الناس أمام باب المطبعة، بانتظار صدور الجريدة! وقد بدا الحزن على جميع الوجوه!

وبصعوبة استطاعت أن تجابه تلك النظرة، البالغة الرقة، والحنان. وقد تقلّص جسمها من شدة اليأس، حتى أنها لم تستطع أن تبكي. لا تستطع أن

تبكي، كانت عيناها جافتين، ملتهبتين، والألم يمزّق أحشاءها وعلاوة على ذلك، فهي تتألم، لأنها بطبيعتها، لا تستطيع أن تستلم بكليتها للحزن. وبدا لها، بشكل مفاجئ، أنه يستحيل عليها أن تبقى جامدة، لا تقوم بأيّ نشاط، مع تلك الفكرة، الصلبة كالحجر في صدرها. وحاولت أن تكتب لعمها لكي تخبره بأنّ «نيقولا» قد حكم عليه بالسجن، مع الأشغال الشاقة. ولكنّ تسلسل الجمل وترابطها كانا سيئين. فهي توجه خطابها لتمثال جامد. ولشدة انزعاجها أرجأت إلى وقت آخر، إنجاز رسالتها، وتناولت الصحيفة، من جديد. وبجانب نص الأحكام، نشرت الصحيفة، النداء الذي وجهه الإمبراطور إلى الجيش:

«يا محاربي روسيا الشجعان، الرابع عشر من كانون الأول «ديسمبر» سنة ١٨٢٥ والثالث من كانون الثاني «يناير» سنة ١٨٢٦، في هذين اليومين المشهودين والخالدين، اللذين فيهما حميتم العرش، بصدوركم الوفية، وحافظتم على العقيدة الأرثوذكسية، وأبعدتم عن الوطن فظائع وويلات الثورة، أخبرتكم أنّ بعض من دبروا تلك المؤامرة الإجرامية وحرّضوا عليها، كانوا يختبئون في صفوفكم الوفية والمخلصة. وقد نبذتموهم بنفور وغضب. والآن، فإنهم حوكموا، ونالوا العقوبة التي يستحقونها، ،أصبح جيشكم في منأى عن العدوى التي كانت تهدّده؛ وتهدّد روسيا بكاملها. وفي هذه الساحة نفسها، التي كنتم فيها على أتم استعداد لبذل دمائكم والتضحية بأرواحكم، بكل سرور، من أجل إمبراطوركم، وفي هذه الساحة التي قتل فيها الخالد الذكر الكونت «ميلورادوفيتش» والذي لا يمكن أن ننساه، نقدم اليوم شكرنا وامتناننا إلى الله، الذي ساعدنا على إنقاذ الإمبراطورية...»

كان هذا أكثر مما ينبغي! أكثر من أن تستطيع تحمّله! فنهضت وأخذت تدور في غرفتها، كأنها سجينة في قفص. وأن تكون محاولة

الانقلاب التي حصلت يوم الرابع عشر من كانون الأول «ديسمبر» عبثية، وغير معقولة، فهي كانت أول من يعترف بذلك. فأي ثورة لا يمكن أن تنجح دون مؤازرة الشعب والجيش، وتأييدهما لها. والحال، هي أنّ لا هذا ولا ذاك في روسيا، كانا مهيّئين لتفهم معنى الحرية، وللنضال من أجل الحصول عليها. كان ينبغي تربية الجماهير، إيقاظها، توعيتها وتأهيلها، قبل الانتقال إلى العمل، وإلى القيام بالهجوم. وقد سبق لها أن قالت هذا، مئة مرة، لـ «نيقولا».

وجماعة «كانون الأول» «les decembristes» بتسرعهم، وعدم خبرتهم، خسروا الجولة، بينما كان بإمكانهم، خلال بضع سنوات، أن يربحوها. ولكنّ نواياهم كانت نبيلة، خالية من الغرض، ومثيرة للإعجاب! وإن كان القضاة قد استنكروا ودانوا العمل الجنوني الذي قاموا به، فقد كان عليهم أن يقدّروا وأن يتقبلوا أنّ من يجازف بحياته عن قناعة سياسية، ليس مجرماً عادياً، وانه يتصرف بدافع من حبه لوطنه، وأنه، حتى وإن كان عمله مرتجلاً ومبتسراً، فهو يستحق تقدير أبناء وطنه. ولا يجوز أن يحكم رجل بالسجن بالأشغال الشاقة لمدة اثنتي عشرة سنة وبالنفي المؤبد، بسبب انتمائه إلى جمعية سرية، ولا يعقل أن يشنق خمسة متآمرين، دون أن يسمح لهم بتقديم دفاعاتهم. والعاهل، الجدير بهذا الاسم، لا يخمد بالقوة وبالعنف اعتراضات كبار المفكرين في بلاده! و «صوفيا» وقد تملكها الغضب، كانت تقول في سرّها: إنّ مثل هذا الظلم، لا يمكن أن يحصل في أي بلد من بلدان العالم. كانت تشتاق إلى فرنسا، وتفكر بها باعتبارها مملكة تسودها الرحمة ويحكمها العقل. ومنذ بعض الوقت أخذت تشعر بصعوبة في التنفس. فهل تخرج؟ وإلى أين تذهب؟ فالناس الذين تعرفهم في «سان بطرسبورغ» قليلون جداً. وعلاقاتها الوحيدة كانت مع أصدقاء «نيقولا» السابقين. وأرسلت تطلب عربة كي تذهب إلى منزل «كوستيا لادوميروف».

وفاجأته، وهو يتناول القهوة، في صالونه المفروش على الطراز المغربي، مع صديقه «ستيبان بوكروفسكي». والاثنان كانا قد اعتقلا، ثم أخلي سبيلهما، لأنّ التحقيق أثبت أنهما لم يكونا موجودين في ساحة مجلس الشيوخ، يوم الرابع عشر من كانون الأول «ديسمبر». وعندما رأيا «صوفيا» شعرا بالارتباك، لأنهما، دون شك، قد خجلا لكونهما يتمتعان بالراحة والاسترخاء في هذا الصالون الفخم والأنيق، أمام امرأة، زوجها محتجز في إحدى زنزانات السجن. وقد أزعجتهما، كما لو أنها كانت تجسّد وساوسهما. وحدّثاها بغيظ عن تنفيذ حكم الإعدام بأخوتهم الخمسة، وعن العقوبات الجائرة التي فرضت على الآخرين والتي لا تتناسب مع التهم التي وجهت إليهم.

وصاح «ستيبان بوكروفسكي»:

- لا أستطيع أن أغمض عيني، دون أن أتصور مشنقة!

وتنهد «كوستيا لادوميروف»:

- وأنا أيضاً، لا أستطيع أن أفعل ذلك، دون أن أرى طرقات سيبيريا! «نيقولا» آه، يا عزيزي «نيقولا»! إنّ هذا فظيع جداً!...

عندما أفكر بأنه لو لم يرغمني على السفر إلى «تساركوي- سيلو»، صباح يوم الرابع من كانون الأول «ديسمبر» لكنت حضرت إلى ساحة مجلس الشيوخ، مع الرفاق الذين حضروا إلى هناك!...

كان أنفه الكبير أحمر، وعيناه مغرورقتين بالدموع، وبعد أن مخط بقوة، أكد أنه بعد الآلام الجسدية والنفسية التي قاساها، فإنه ينوي أن يذهب إلى الريف لكي يخلد إلى الراحة. وسألت «صوفيا» الرجلين عن رأيهما بموقف «نيقولا» أثناء التحقيق. فأجاباها بتحفظ ومجاملة، كما لو أنهما كانا يخاطبان أرملة. وبناءً على ما اعتقدا أنهما يعرفانه، فإنّ صديقهما المسكين قد زاد من خطورة وضعه برفضه الاعتراف بأنه مذنب،

وبـردّه بعنـف ووقاحـة علـى الأسـئلة الـتي وجّهت إليـه. ومـن خـلال حـديثهما اكتشفت «صوفيا» في «نيقولا» رجلاً متمسكا بشدة وبحماسـة بأفكـاره، مورّطـاً نفسه، بـدافع مـن الكبريـاء، متـصرفاً وهـو في الـثلاثين مـن عمـره بحمية واندفاع شاب حديث السن، وبينما كانا يلومانه على هـذا التـصرف غير المناسب، كانت هـي تزداد إعجاباً بـه لأنـه استطاع أن يفعـل ذلـك وأن يظل محافظاً على مبدئه وعلـى عقيدتـه، بـين كـثيرين مـن المتمـردين الـذين ضعفوا وتنكّروا لمبدئهم ولعقيدتهم. وفجأة شعرت بأنها لم يعد لها أيّ شـيء مـشترك مـع هـذين النـاجين الـسعيدين، مـن مأسـاة سياسـية، فقاطعـت «كوسـتيا لادومـيروف» في منتـصف إحـدى جملـه ونهـضت مـستأذنه بالانصراف، وهي واثقة أنّ انصرافها يريح الرجلين.

وعنـد عودتهـا إلى البيـت، وجـدت «نيكيتـا» مـضطرباً جـداً: هنالـك زائـر ينتظر في الصالون، منذ عشر دقائق.

- إنــه ضــابط، يــا ســيدتي! ويحمــل أوسمــة، وزخــارف علــى بزتــه العسكرية!...

وتبـادر إلى ذهنهـا، في الحـال، أنـه «هيبوليـت روزنيكـوف» وكـان هـو، بالفعل. وأخذ يعتذر لكونه أتى دون أن يعلمهـا مـسبقاً بـذلك، وناولهـا ورقـة رمادية اللون، مطوية أربع طيات، فعرفت، على الفور، خط «نيقولا»:

حبيبتي الغاليـة، لا بـدّ أنـك تعلمـين الآن المـصير الـذي ينتظرنـا، ولـيس هنالك كلام يستطيع التعبير عن شـدة ألمي ومعانـاتي. فمـاذا سـيحلّ بـك؟ آمل أن نستطيع رؤية بعضنا قبل أن يرسلوني إلى سيبيريا. وبعد ذلك، يجب أن تعودي إلى فرنسا. وستكونين هناك في وضـع أفضل، مـن بقائـك هنـا، لكي تستطيعي أن تنسيني. لأنكِ يجب أن تنـسيني. أحبـك. وأحلـم بـك لـيلاً ونهاراً.

زوجك السيئ الحظ «نيقولا».

وقال «روزنيكوف»:

استطعت أن أراه، قبل قليل، على انفراد لمدة عشر دقائق. طلب مني ورقة وقلماً، وكتب بسرعة هذه البطاقة. كان هادئاً جداً...

فتحكّمت «صوفيا» بارتجاف يديها، وتمتمت:

- كان هادئاً؟ ماذا تعني بذلك؟

- أعني أنه بدا شجاعاً، يا سيدتي. فقد علم بالحكم عليه، دون أن يفقد توازنه وشجاعته. والسجن لم يغيّره...

وسألته، وهي تبذل جهداً لكي تلفظ ببرود، هذه الكلمات المرعبة:

- ومتى سيرسلونه إلى سجن الأشغال الشاقة؟

- لا أدري.

فقالت، متذمرة:

- ولكن، لا بدّ أن يكون لديك فكرة عن ذلك!

فقال «روزنيكوف»:

- لقد سافرت البارحة، المجموعة الأولى، وهي مؤلفة من ثمانية رجال، وذلك مباشر بعد تنفيذ أحكام الإعدام فضغطت «صوفيا» بيديها على قلبها، لكي تتقي أن تصاب بالإغماء:

- منذ الآن؟ وبهذه السرعة، هذا غير ممكن!..

- اطمئني: كان هؤلاء من محكومي الفئة الأولى، مثلاً: «تروبيتزكوّي»، «أوبولنسكي» «فولكونسكي»، «اياكوبوفيتش»...

- والآخرون؟

- لم يتقرر أي شيء بشأنهم بعد، ويبدو أنه لا يوجد أماكن في السجون، في سيبيريا، لإقامتهم، والأمر يحتاج لبعض الوقت لتهيئة كل شيء...

- وهل يتم ذلك خلال بضع أيام؟

فقال «روزنيكوف»، بلطفٍ محاولاً تطمينها:

- بل ربما احتاج الأمر لعدة شهور! وحتى ذلك الحين، يظل هنالك بعض الآمل، فاحتفالات التتويج أصبحت قريبة، وبهذه المناسبة، ربما عمد القيصر إلى...

فقاطعته:

- لقد انتهى بي الأمر إلى عدم الإيمان بحلم القيصر.

فبسط ذراعيه، في حركة تنم عن الخضوع والتسليم، وقال:

- إنّ عنف التمرد قد حدد عنف الرد عليه، والإمبراطور أراد أن يلقّن الجميع درساً، وأن يجعل المتمردين عبرة للآخرين. وأنا، سبق لي أن حذّرت «نيقولا»...

فقالت له:

- أعلم ذلك.

وأدركت أنها تتحدث إليه بلهجة جافة جداً، بينما كان هو، يبذل كل جهده لكي يقدّم لها المشورة والنصيحة، ويساعدها في مساعيها، على الرغم من اختلافهما في الأفكار والآراء، ولحسن الحظ، فهو لم يكن شديد الحساسية. وكان رضاه عن نفسه، وإعجابه بذاته، يحميانه من الإساءات والإهانات. وبدا مغضّن الجفون، ضخم الشارب، له نقرة صغيرة في ذقنه، وهو يتأمل المرأة الشابة بتعاطف واستئناس واضحين، وكان في ظاهر الأمر، معجباً بها، ويودّ أن يظهر أهميته، أمامها. وكان بإمكانها أن تهز مشاعره، وتحوله عن بعض آرائه بإبدائها بعض التأنق والغنج والدلال. ولكنّ هذه المهزلة كانت فوق طاقتها.

وسألها:

- هل ستعودين إلى فرنسا، كما أوصاك «نيقولا»؟

فهزت كتفيها:

- هذا غير وارد!

فتلألأت أسنانه عبر ضحكة مدويّة:

- كنت متأكداً من جوابك. آه! إنك، تماماً كما كنت أتصورك!

- ألا يمكنك أن تحصل لي على إذن بمقابلة ثانية مع زوجي؟

- سأعمل المستحيل، وآمل أن أوفّق في ذلك... ولكنكنّ كثيرات جداً، أنتن اللواتي تضايقن الحكومة بطلباتكن!... وقد تراكمت الرسائل على الجنرال «بنكندروفّ»... لدرجة أنه لو كان عليه أن يردّ عليها، لما كفته أيام عمله من أجل القيام بذلك... أما القيصر، فهو نادم لأنه سبق له أن سمح للأميرة «تروبيتزكوّي» أن تلحق زوجها إلى سيبيريا!...

فتمتمت «صوفيا»:

- كيف؟ هل تلقت الأميرة «تروبيتزوكوي» الآذن...؟

- نعم. بل إنها، في هذا الوقت بالذات، أخذت تستعد للسفر. وهنالك زوجات سجناء غيرها، كالأميرة «ماري فولكونسكي» والكونتيسة «أليكسندرة مورافيف» يقمن، هنّ أيضاً، بمساعي في هذا الاتجاه... وعندما لاحظ الاهتمام الذي أبدته «صوفيا» بهذا الموضوع، أضاف بسرعة:

- ولكنّهن لن يحصلن على نتيجة! فوضع الأميرة «تروبيتزكوّي» يشكل حالة خاصة واستثنائية! إذ إنّ القيصر بالذات يهتم بها شخصياً! وهي تحمل اسماً كبيراً، ولها علاقات كثيرة وقوية!...

وسألته «صوفيا»:

- ولمن يجب تقديم الالتماس؟

- لا إلى أحد.

- وبمعنى آخر، يجب تقديمه إلى الإمبراطور؟

- كلا! عليك أن تتجنبي ذلك، ولا تفعلي شيئاً من هذا القبيل! لأنك بذلك، يمكن أن تجعلي السلطات تصبح أكثر تشدداً حيال زوجك!...

فاعترفت بذلك، وهي تتنهّد:

- هذا صحيح.

فرشقها «روزنيكوف» بنظرة من جانب عينه: فهو لم يكن متأكداً من أنه قد أقنعها.

وظلّت برهة، ساهمة، حالمة، ثم قالت، وكأنها تخرج من بين السحاب، وهي تحدّق مباشرة في وجهه:

- في أي مسعى أقوم به لتحسين مصير زوجي، سأكون بحاجة لمساعدتك يا سيدي.

فردّ عليها، وهو يحني قامته:

- أطلب منك، كمنّة وفضل، أن تعتمدي على مساعدتي، وأن تطلبيها مني، بكل حرية، وعلى الدوام.

فقالت في سرها: «ربما كان مغروراً معجباً بنفسه، ومن هواة الدسائس، والمغامرات الغرامية، ولكن لا بد من أن يكون ذا روح عالية وقلب طيب.» وفرضت على نفسها أن تستبقيه في الصالون، وأن تطلب من خادمتها أن تقدم له الشراب، واستفسرت منه عن أحواله. فهي لم تكن تستطيع أن تتيح له متعة أكثر من هذه. فابتهج، وحدّثها عن المراحل التي مر بها في عمله وفي خدمته العسكرية وكيف أنّ موت «ميلورادوفيتش» كاد يعرض وضعه ومركزه للخطر، ولكنّ صداقة الدوق الأكبر «ميشيل»، والجنرال «بنكندروف» لحسن الحظ قد سوّت الأمر، وأصلحته بشكل واضح تماماً.

☆☆☆

بعد تنفيذ حكم الإعدام بالمتمردين الخمسة الرئيسيين بأحد عشر يوماً، قام «نيقولا» الأول بالدخول، بصورة احتفالية إلى موسكو، لكي يتوّج فيها إمبراطوراً. واستمرت احتفالات التتويج مدة تزيد على الشهر.

ولكن لا فرحة الشعب، ولا الاستعراضات العسكرية، ولا الأبهة الدينية في الكريملين ولا التهاني والمباركات التزلفية التي قدمتها له الطبقة الأرستقراطية، لم تحثه على تغيير رأيه بشأن «جماعة كانون الأول» وعلى إعادة النظر بالأحكام التي صدرت بحقهم. وفي قلعة القديسين «بطرس وبولس» كان السجناء قد فقدوا أي أمل بتخفيض عقوباتهم. وكثير من الدلائل التي لا تكاد تلاحظ، جعلتهم يدركون أنّ الحياة، خارج أسوار القلعة، قد عادت إلى مجراها الطبيعي، وأنهم بعد أن أثاروا مشاعر الشعب لبعض الوقت، لم يعد أحد يهتم بهم، وأنّ روسيا بكاملها قد أسرعت بنسيانهم، لكي تنصرف إلى محبة عاهلها الجديد، وإلى فرحتها به. ألم يقولوا بأنّ «نيقولا الأول» قد أعاد «بوشكين» من منفاه في ملكيته الكائنة في «ميكايلوفيسكوي» التي نفاه إليها الإمبراطور الراحل، وأنّ الشاعر قد وعد بأن يتصرف بعد ذلك كمقابل للحرية التي ردّت له، كأحد أفراد الرعية الموالين والمخلصين؟

إنه انتصار آخر للاستبداد والطغيان على النبوغ والعبقرية، وللمادّة على الروح! ولكي يتسلّى «نيقولا» ويواسي نفسه، كأن ينشد أحياناً في سجنه «النشيد إلى الحرية»، وحاول حتى أن يترجمه إلى اللغة الفرنسية، مفكراً، أنه ربما استطاع، في يوم من الأيام، أن يقرأه لـ «صوفيا». ولأنه لم يكن لديه شيء من أدوات الكتابة، فقد كان عليه أن يؤلف الترجمة ويحفظها في ذاكرته. وهذا العمل واساه وسرّه في بداية الأمر، ثم أغاظه وجعله يشعر بخيبة الأمل. إذ إنّ شعر «بوشكين» الدّقيق جداً بمعانيه الظريفة وبموسيقاه العذبة، لم يكن من السهل نقله إلى لغة أخرى:

«أنتم، يا من حظيتم من القدر بسلطة متقلّبة وزائلة، يا طغاة العالم، ارتعدوا وارتجفوا! وانتم، أصغوا إليّ، وتشجعوا!

انهضوا، أيها العبيد الساجدين!...»

كان هذا الشعر يبدو سيئاً وكريهاً باللغة الفرنسية، بقد ما كان يبدو جميلاً ومحبّباً باللغة الروسية! وتذكر الفترة التي كان يقاسي فيها العذاب، بسبب الترجمات اللاتينية التي كان يفرضها عليه السيد «لوسور». فقفزت، كما تقفز الفقاقيع على سطح الماء، بعض العبارات، من أعماق ذاكرته: كلمات «هوراس» وهو يدعو عبده «دافوس» للمشاركة بالعيد «الزحلي» وبالحفلات الخلاعية والإباحية التي تقام بمناسبة نهاية العام، والعام الجديد، والتي تُلغى أثناءها كل الفروق بين الأسياد والخدم:

«age... libertate decembri uteres»: «هيا... اغتنم الفرصة، وتمتع بحريّة كانون الأول!... وتراءت ابتسامة على شفتي «نيقولا»، وقد تبادر إلى ذهنه: «حريتنا في كانون الأول، نحن، لم تدم وقتاً يعادل وقت الحفلات الرومانية التي تقام في رأس السنة!».

وأثناء ذلك، فقد تراخى قليلاً، مع مرور الأيام، الانضباط، وشدة النظام، داخل سجن القلعة. وأخذ صف الضباط والحراس والجنود، يحاولون تخفيف قسوة حياة المعتقلين وتلطيفها. ونقل «نيقولا» إلى زنزانة أكثر سعة من زنزانته السابقة. وقال له الحارس، وهو ينقله إلى مكانه الجديد:

- هنا، ستكون في وضع أفضل من وضعك السابق! فهذه أفضل زنزانة، وهي التي أعطيت فيما مضى إلى «بيستيل»!

وهذا الأمر، أثار الاضطراب لدى «نيقولا»، فألقى نظرة على الفراش. فهو على حاله، لم يغيروه، وقد أمضى عليه «بيستيل» ليلته الأخيرة، وأفكاره، عشية يوم إعدامه، كانت قد تطايرت عبر هذه النافذة، وأخذ «نيقولا» يتفحص الجدران من الأعلى إلى الأسفل، آملاً أن يكتشف عليها رسالة ما نقشت برأس مسمار. كلا، لم يكن هنالك شيء، فالحجارة ناعمة ملساء، والسقف أبيض مطلي بالكلس. عند ذلك أخذ يسير في كل

اتجاه، واضعاً خطواته مكان خطوات السجين الذي رحل عن هذا العالم.
كان قد انتقد «بيستيل» بقسوة، عندما كان على قيد الحياة، ولكنه آنذاك، أخذ يفكر به بتقدير واحترام. فهو وحده، بين جميع «متمردي كانون الأول»، أي رئيس «اتحاد الجنوب» الذي استشعر، وأدرك مسبقاً، أنه فيما يتعلق بالقيام بانقلاب، أنّ الحلول الوسط تُرضي القلوب الطيبة، ولكنها تنقص فرص الفوز والنجاح، وأنّ الجماهير لا يمكنها أن تنتزع حريتها ألا إذا كان يقودها زعيم، يتمتع بقدر مماثل من العتوّ والتصميم والقسوة، للقدر الذي يتمتع به الزعيم الذي تثور ضده تلك الجماهير، وأنّ الثوري الحقيقي يجب أن يكون إنسانياً فيما يتعلق بالأهداف التي ينبغي تحقيقها والوصول إليها، فظاً، غير إنساني عند اختيار الطرق والوسائل التي يجب استخدامها. وهكذا، فإنّ درس «الرابع عشر من كانون الأول» يبدو هنا، الآن، واضحاً تماماً. فالمتمردون خسروا الجولة، لأنهم كانوا جماعة من الحالمين والفنانين، بل ومن الأغرار كالأطفال. وكان ينقصهم أن يكون فوقهم، وعلى رأسهم، ديكتاتور، ذو قبضة حديدية، وتحتهم وخلفهم، جماهير الشعب، التي لا يحصى لها عدد. آه! كم كان «نيقولا» يأسف، اليوم، لأنه لم يستطع أن يتبادل بضع كلمات، مع «بيستيل» قبل إعدامه! فما هي الأفكار التي راودت ذهن هذا المادّي الذي يتصف بالبرود، عند صعوده على منصة المشنقة؟ أهي الخشية والخوف من العالم الآخر؟ أم الغيظ لكونه راهن على الخطة السيئة؟ أم الفخر والزهو، لأنه ظلّ وفيّاً ومخلصاً، حتى النهاية، لقناعاته السياسية؟! كان «نيقولا» يأمل أن يكون هذا الافتراض الأخير، هو الصحيح والصائب، لأنه كان بحاجة إليه لكي يبرّر تصرّفه الخاص، في نظره هو.

كانت زنزانته الجديدة، تطلّ كالسابقة، على نهر «النيفا». وكان يسمع ضجيج المدينة الآتي من بعيد. وأحياناً، عندما يخيم الظلام، كان

أحد القوارب يبطئ من سيره وهو يقترب من جدار السجن. فيتعالى صوت امرأة وهي تنادي اسماً، فيرد عليها صوت مبحوح وقلق، لرجل، يرسله عبر نافذة إحدى الزنزانات. فيصيح الخفير من أعلى الأسوار:

- ابتعدوا! هذا ممنوع!

فيردّ عليه المجدّفون:

- انتظر قليلاً! ألا ترى أنّ قاربنا قد جنح على الرمل؟

وبينما كانوا يتظاهرون بأنهم يحاولون إعادته بصعوبة إلى الماء يتابع السجين والمرأة التي أتت في القارب تبادل بعض الكلمات باللغة الفرنسية.

ويعاود الخفير تحذيره:

- هذا يكفي! انصرفوا من هنا، وإلا فإني سأطلق عليكم النار! واحد، اثنان، ثلاثة!...

- حسن، حسن! لا تغضب، يا أخانا العزيز!

ويذهب القارب، متأرجحاً ببطء على مياه النهر. وكانت زوجات المحكومين تدفع أجرة مرتفعة السعر لأصحاب القوارب للقيام بهذا النوع من الجولات بالقرب من القلعة. وعدة مرات، خيّل لـ «نيقولا» أنّ الصوت الذي يسمعه هو صوت «صوفيا»، الذي كان يتعالى عبر ظلام الليل، وفي كل مرة كان يتبين له أنه مخطئ، ينتابه حزن شديد.

وذات يوم، أخبره الأب «ميسلوفسكي» أنّ القيصر، وقد تأثر بتوسلات المقربين منه، أعلن عن موافقته بأن يقوم أقارب السجناء وزوجاتهم بزيارتهم بصورة منتظمة، في سجنهم بالقلعة.

فسأله «نيقولا»:

- ومتى ستبدأ هذه الزيارات؟

- الأسبوع المقبل.

- كثيراً ما سمعنا بأنه سمح لهم بذلك!

- ولكن، هذه المرة، فقد أصبح هذا رسمياً.

فقال «نيقولا»:

- لم يعد يوجد شيء رسمي، في روسيا، يا أبانا! وأنت تعرف هذا جيداً! ونحن نعيش في ظل النوايا الحسنة!...

ولاحظ، وهو يتكلم أنّ الكاهن يحمل صليب «سانت- آنّ» حول عنقه. فلا شك أنّ القيصر أنعم عليه بهذا الوسام مكافأة له على الخدمات التي أدّاها، كمرشد لسجناء القلعة!

فقال له «نيقولا» مبتسماً:

- إني أهنّئك!

فاحمر وجه الأب «ميسلوفسكي» وكأنه قد أُمسك به بعد ارتكابه خطأً، مّا، وتنهّد، قائلاً:

- كلا، يا صديقي. لا تهنّئني. فهذا أمر شاق جداً بالنسبة لي!... ولكن ماذا تريدني أن أعمل؟ فلا يستطيع أحدنا.... لا يستطيع دائماً أن يرفض كل شيء!... وأسرع بالخروج. فصعد «نيقولا» على الأسكملة، لكي يلقي نظرة عبر النافذة: كان نهر «النيفا»، عند الغروب، يشبه تدفق المعدن وهو في حالة الذوبان. والمدينة كلها تتلألأ، مورّدة، سوداء وذهبية، مزركشة بالألواح الزجاجية، مزروعة بالقباب والصلبان والأسهم، التي ترتفع، عالياً، في سمائها. وانفصل زورق، مبتعداً عن مجموعة زوارق القلعة، كان الأب «ميسلوفسكي» ينتصب واقفاً، في مؤخرته، حاسر الرأس، يتلاعب الهواء بلحيته، وقامته تبدو بوضوح، قاسية كقوقعة الجعُل، في انعكاس الضوء على توهج السائل. ورفع يده، مباركاً السجن. فتبادر إلى ذهن «نيقولا»: «ها هو يوم آخر يمضي، فهل يجب أن اسرّ لذلك أم أن آسف له؟» كان لا يزال يجهل فيما إذا كان «هيبوليت روزنيكوف» قد سلم رسالته الموجزة، إلى «صوفيا». ولكي يوجد لنفسه هدفاً في الحياة، قال، بولعٍ، لنفسه إنّ الأب

«ميسلوفسكي» مصيب فيما يقول، وإنّ زوجته ستأتي لتزوره عما قريب، بل إنها ستعود لتفعل ذلك كثيراً، وفي معظم الأحيان. وأظلمت السماء، وتصاعدت رائحة أشجار السّنط «الأكاسيا» من الجزر القريبة. فلا بدّ أنّ هنالك جماعة تتناول عشاءها في الحدائق، تحت ضوء المصابيح. وكانت السيدات تطرد البعوض بمناديلهنّ. وعندما بدا القمر في السماء، أنار بضوئه الزنزانة كلها. وارتسم ظل الحاجز باللون الأسود على الجدار الأبيض.

***

هذه المرة، تحققت توقّعات الأب «ميسلوفسكي». ففي نحو منتصف شهر أيلول «سبتمبر»، أُخرج «نيقولا» من زنزانته، واقتيد تحت الحراسة إلى منزل حاكم القلعة، حيث كانت «صوفيا» تنتظره. فارتمى كل منهما بين ذراعي الآخر، وبكى «نيقولا» من شدّة فرحته، تحت نظر الجنرال «سوكين» الذي كان ينظر إليه بانتباه، وتمتم، بعد زوال الانفعال الشديد الذي انتابه في بداية اللقاء، يسألها بصوت خافت:

- هل سلّمك «روزنيكوف» بطاقتي؟

فأجابته:

- نعم، وكيف يمكنك أن تنصحني بالعودة إلى فرنسا؟

- ولكن، كيف يكون الأمر غير ذلك، يا «صوفيا»، فهذا هو الحل الوحيد المعقول! وماذا ستعملين في «سان بطرسبورغ» بعد ذهابي إلى سجن الأشغال الشاقة؟

- إني لا أنوي البقاء في «سان بطرسبورغ».

- إلى أين يمكنك أن تذهبي إذن؟... أتذهبين إلى «كشتنوفكا»؟... للإقامة مع أبي؟... أنا لا أريد ذلك!... لا أريده مقابل أي شيء في العالم!...

فابتسمت له بهدوء وعذوبة، وتمتمت:

- سأتبعك إلى سيبيريا.

فبدرت منه انتفاضة وحركة إلى الوراء، وصاح:

- إنك مجنونة! هذا مستحيل!...

- الأميرة «تروبيزكوي» هي الآن في طريقها لكي تلحق بزوجها. والأميرة «فولكونسكي» والكونتيسة «أليكسندرا مورافيفّ»، لن تتأخرا بأن تحذوا حذوها. وهنالك زوجات غير هؤلاء، سيطلبن أيضاً جواز مرور إلى «ايركوتسك». وأنا، من جهتي، فقد بدأت القيام ببعض المساعي...

وحاول أن ينصحها ويقنعها، وقد غمرته السعادة:

- هل فكرت كيف يمكن أن تكون حياتك هناك، في تلك البلاد الموحشة، وفي تلك الصحراء؟ ولن يسمح لك بالإقامة في مكان قريب من السجن! ولن يكون لك الحق بأن تريني عندما تشائين!...

- سأكون، على أي حال، أقرب إليك ممّا لو بقيت هنا!

- ستفسدين وتبدّدين أجمل سني حياتك! وتندمين على قيامك بالذهاب إلى هناك وتقبّل النفي، هذا النفي المخيف، الذي لا نهاية له، ولا أمل يرجى معه! «صوفيا»، حبيبتي «صوفيا»! لا أستطيع أن أقبل تضحيتك!

فتلفّظت بهذه الكلمات، بسرعة، وبصوت ينمّ عن ضيق في التنفّس:

- وماذا لو قلت لك إنه أصعب عليّ أن أعيش بعيدة عنك، من أن أرافقك إلى الجحيم!

وحولت نظرها، كما لو أنها قد خجلت من هذا الاعتراف. فضمها بين ذراعيه، وهو يشعر أنه يذوب فيها إلى الأبد. فالعقوبة أصبحت، بالنسبة له مكافأة، واليأس أصبح عزاء وسلوى. واللحظة الراهنة آنذاك كانت أطول من جميع ذكرياته مجتمعة. وأخذ يردّد:

- كلا، يا «صوفيا»! كلا! إني أرفض ذلك!

ومع ذلك، فإنه بكل كيانه، كان يخشى أن تعدل عن قرارها. وفرّق بينهما الجنرال «سوكين» واعداً إياهما بأنهما سيريان بعضهما، مرة ثانية، عما قريب. وبالفعل، فقد استطاعا، بعد ذلك، أن يلتقيا كل ثمانية أيام. وكانت دقائق تلك اللقاءات التي تحسب بكل تقتير، تتخذ بالنسبة لهما طابع لمحات الأحلام الخاطفة، فكانا يتبادلان، بأسرع ما يمكن التعبير عن قلقهما، عن آمالهما، وعما لديهما من معلومات، ومن نصائح، لكي يظلاّ بعد ذلك، ولو لبرهة قصيرة، صامتين، وكل منهما يضمّ الآخر، بين ذراعيه. وكان الرحيل إلى سجن الأشغال الشاقة، يشكل فكرة ثابتة، تلازمهما كليهما. وكل لقاء كان يمكن أن يكون الأخير. وعندما يفترقان كانا يتساءلان عما إذا كانا سيلتقيان الأسبوع المقبل. وكان «نيقولا» يرغب بمعرفة كل شيء عن المساعي التي تقوم بها زوجته. فكانت تكذب، وهي تؤكد له، أنّ مساعيها من أجل تلك القضية تسير في طريقها الصحيح: فالرسالة التي أرسلتها إلى الدوق الأكبر «ميشيل بافلوفيتش» ظلّت بدون جواب. والجنرال «بنكندروفّ» الذي وجهت له رسالة، بعد ذلك، ابلغها بواسطة «هيبوليت روزنيكوف» أنّ عليها أن تتذرع بالصبر وألاّ تبدو ملحّة ومستعجلة أكثر مما ينبغي.

وليأسها من النجاح في مساعيها، ذهبت إلى السفارة الفرنسية لكي تطلب المساعدة من السيد «دولا فيرونايس». فاستقبلها الدبلوماسي بكل لطف ومجاملة، أبدى تأثره لحزنها، وأكد لها أنه لا يمكنه أن يقدم لها أي مساعدة في تلك القضية وفي هذه الظروف الصعبة. وعرض عليها أن يعيدها إلى فرنسا. إذا رغبت بذلك. فرفضت بصراحة وغضب.

وعمها الذي يجهل أنها قررت اللحاق بـ «نيقولا» إلى سيبيريا، ظل يتوسّل إليها، دائماً أن تعود إلى «كشتنوفكا»، فكانت تردّ عليه بوعود تزداد غموضاً.

وحلّ الخريف بشكل مفاجئ، بهبّات رياحه الباردة، وزخّات أمطاره الناعمة. ورُكّبت الأطر ذات الألواح الزجاجية على نوافذ الزنزانات، وأخذت النهارات تقصر بسرعة، رمادية وداكنة عند بزوغ الفجر، وعند حلول المساء. ومنذ الساعة الثالثة بعد الظهر، كان «نيقولا» يستطيع أن يرى بعيداً، على الضفة المقابلة، المصابيح وقد أخذت تتلألأ والعامل الذي يشعل الفوانيس وهو يمر في الشوارع حاملاً سلمه. وعندما يهطل المطر بغزاره، كان على السجناء أن يمتنعوا عن الذهاب إلى النزهة في الحديقة الصغيرة المثلثة الشكل. وتوقعاً لفصل الشتاء البارد، اشترت «صوفيا» لزوجها سترة من جلد الخروف وحذاءً مبطناً بالفرو. واستطاعت أيضاً، بواسطة تواطؤ أحد الحراس أن ترسل له بعض النقود والمأكولات.

وظلا يلتقيان، بانتظام، مرة في الأسبوع. ولكن، مع انقضاء الوقت، أخذ «نيقولا» يزداد اقتناعاً بأنها لن تحصل على الأذن بمرافقته إلى سيبيريا. وكثيراً ما قالت له: «كل شيء يسير بشكل حسن! «روزنيكوف» يلاحق الجنرال «بنكندروف» ويحاصره! والجنرال «ديبتش» تدخل لصالحنا لدى الدوق الأكبر «ميشيل»! فكان يرد على ذلك بابتسامة عذبة، تنمّ عن الشك. وعلاوة على ذلك، فإنها هي نفسها، لم تعد تعرف أي باب، عليها أن تقرع. فجميع أصحاب النفوذ الذين تعرفهم في «سان بطرسبورغ»، يساهمون في مساعدتها. وكانت تغضب وتثور من أن يكون لديها كل هذه الطاقة الاحتياطية، ولا تلقى في كل مكان، سوى الصدّ، والكذب والتهرب.

أخذت نُدَف الثلج الأولى تنهمي على أرض دافئة رفضت أن تحتفظ بها، ثم غطت المدينة قشرة بيضاء. وبدت بعض الزحافات بين العربات. وظهرت بعض قطع الجليد على مياه النهر، الصفراء، وقبل أن تتكوّن العوائق والحواجز الجليدية، فكك النجارون جسر «الأبدية» الذي يصل الجزيرة بالأرض اليابسة على ضفة النهر.

وفي التاسع من كانون الأول «ديسمبر» عند منتصف الليل، وبينما كانت «صوفيا» تهم بالذهاب إلى سريرها، قرعت باب غرفتها خادمتها «دونياشا»:

- سيدتي! سيدتي! «نيكيتا» يريد أن يراك لأمر مهم!

فوضعت وشاحاً على منكبيها، وفتحت الباب، فوجدت نفسها أمام الشاب والفتاة، وقد بدت على وجهيهما أمارات الحيرة والقلق.

وقال لها «نيكيتا»:

- كنت أتنزّه بالقرب من القلعة، فشاهدت قافلة من السجناء تبدأ رحلتها إلى سيبيريا!

و «صوفيا»، وقد انحبست أنفاسها، تلفظّت بصعوبة وبكلمات متقطّعة:

- ماذا؟... الآن؟... وفي منتصف الليل؟!...

- نعم، يا سيدتي.

- وهل تعرف فيما إذا كان «نيقولا ميكايلوفيتش» في عداد هؤلاء المسافرين؟

- كلا، يا سيدتي، لم أستطع أن أرى أحداً... فالجنود ورجال الشرطة منتشرون في كل مكان هناك!...

فصرفته، وارتدت ملابسها على عجل، بمساعدة «دونياشا» التي كانت تبكي. وقد توترت أعصاب «صوفيا» ونفد صبرها، وكادت تذهب دون معطف لو لم تجبرها الخادمة على ارتدائه. وبعد عشر دقائق، كانت في الشارع و «نيكيتا» يسير على خطاها. كان المنزل يقع بجوار القلعة. وعندما وصلت إلى بوابة «بيتروفسكي»، تبين لها أن الساحة خالية، فتردّدت لحظة، ثم اتجهت نحو الجسر المتحرك.

فقال لها «نيكيتا»:

- أين تذهبين يا سيدتي، لم يعد هنالك أي جدوى من ذلك!... فأنت ترين جيداً، أنّ الجميع قد سافروا!...

ولكنّ «صوفيا» تابعت سيرها، فصرخ الخفير: «قف!» ودفع حربته إلى الأمام. وخرج ضابط من مركز الحراسة، ورفع مصباحه، لكي يرى وجه المرأة، التي قالت له:

- أريد مقابلة الجنرال «سوكين»:

- ليس هذا هو الوقت المناسب لهذه المقابلة.

- يجب، مع ذلك أن أعرف فيما إذا كان زوجي بين من سافروا من تلك القلعة!

- ستعرفين ذلك، غداً.

- إلى أين أخذوهم؟

- ليس إلى «شبه جزيرة القرم» بالتأكيد!

فهمس لها «نيكيتا»:

- تعالي، يا سيدتي، إننا إذا أسرعنا، ربما استطعنا أن نلحق بهم في الاستراحة الأولى!

فأعادت هذه الفكرة الأمل والحيوية إلى «صوفيا». فتبعت «نيكيتا» إلى موقف «ركونفيرسكي»، حيث كانت توجد محطة لعربات الأجرة. كان هنالك حوذي يغفو على مقعده في العربة وندفات الثلج المتطايرة تحيط به، فاستيقظ مذعوراً، عندما ناداه «نيكيتا»، ألقى نظرة على الزبائن، وطلب أجرة ضخمة لكي يوصلهما، ليلاً، إلى محطة الاستراحة الأولى، على طريق «موسكو» فصعدت «صوفيا» إلى العربة دون أن تناقشه بشأن الأجرة. وجلس «نيكيتا» بقربها وقد تكوّر وضمّ ركبتيه.

ومع ابتعادهم عن مركز المدينة، كانت الشوارع تصبح أكثر عتمة.

وعندما أصبحوا في البرية العراء، أطلق الحوذي العنان لأحصنته. وركزت «صوفيا» انتباهها على ذينك الرأسين الأسودين، والعنقين اللذين يعلوهما الشعر المشعث، وهما يتأرجحان في غبش الليل. وكان صوت

الحوافر هو صوت قلبها المضطرب والذي يخفق بشدة. كانت تريد أن تتغلب على قدرها بواسطة السرعة. وبعد مرور «قرن» من الزمن، برز بناء مركز البريد، ببابه المفتوح على مصراعيه، ومصباحه الأصفر الذي تحيط به هالة تخترقها نقاط بيضاء. لا أحد في الباحة. كان السجناء قد غادروا المركز.

وفجأة شعرت «صوفيا» أن قواها قد خارت. فدخلت إلى القاعة العامة، وجلست بالقرب من المدفأة. كان هنالك قرويان نائمان، رأس أحدهما مقابل قدمي الآخر، على مقعد عريض، والبخار بتصاعد من حذائيهما. وطلبت «صوفيا» رؤية سجل المسافرين: كان على الصفحة الأخيرة اسم واحد، هو اسم الضابط الموفد من قبل إدارة السجون، كقائد مشرف على القافلة ومسؤول عنها، وهو «جيلدين». وفي أسفل الصفحة، أسماء جميع المدن التي تقع على طريق القافلة: «ريبنسك»، «اياروسلاف»، «فياتكا» الخ... كان مدير المركز يراقب بطرف عينه وبخبث، هذه المرأة القلقة، التي ترتدي معطفاً غالياً مصنوعاً من فرو القندس، وانتهى به الأمر، أن قال لها..

- هل أستطيع أن أقدم لك أي مساعدة، يا سيدتي؟

فأجابته:

- كلا، كنت أودّ أن أصل قبل فوات الأوان، لكي أراهم...

- من هم؟ المحكومون بالأشغال الشاقة، لقد فات الأوان على ذلك، فعلاً!، وقد ابتعدوا الآن! ولكن، ربما كنتِ تودّين معرفة من هم الذين أرسلوا إلى هناك، هذه الليلة؟

فصاحت:

- أوه! نعم!

فأحنى مدير الاستراحة، وجهاً بلحية شقراء علقت بها بذور الشوفان. فغمرت «صوفيا» رائحة الخيل. وتمتم الرجل:

- لقد سجلت جميع الأسماء لكي أستطيع تقديم الخدمة التي قد يحتاجها أشخاص مثلك، ولكنك تعرفين، يا سيدتي، إني أجازف بعملي هذا، وأتعرض لخطر جسيم...

ففتشت في حقيبة يدها، وناولته عشرين روبلاً، بشكل حوالات على الدولة، فأخذ النقود ودسّها في ساق جزمته، واستأنف الكلام، بخشية مصطنعة:

- مجازفتي خطيرة، وأعرض نفسي لخطر جسيم جداً، يا سيدتي!

فأعطته عشرين روبلاً أخرى.

عند ذلك، قال لها:

- فلتعوّضها عليك «أم الرب»، بالسعادة والهناء!

وناولها ورقة مغطاة بالأسماء: فقرأتها أربعة أربعة، كما لو كانت تنزل مسرعة على أحد الأدراج: «أنّينكوفّ» «وولفّ»، «كيريييف»، «تورسون»... وعندما وصلت إلى أسفل الصفحة، أرسلت تنهيدة تنم عن الراحة والخلاص: لم يكن اسم «نيقولا» موجوداً في تلك القائمة.

☆☆☆

وهذا الإنذار هزّ كيان «صوفيا» بقسوة حتى الأعماق، لدرجة إنها لم تكد تعود إلى البيت، حتى اتخذت قراراً متطرفاً وأخيراً: كتبت رسالة إلى الإمبراطورة «أليكسندرا فيودوروفنا»- التي لم يسبق لها أن قدمت إليها- لتشرح لها رغبتها بأن تتبع إلى سيبيريا «المجرم السياسي نيقولا ميكايلوفيتش» ولتتوسل إليها بأن تتوسط بشأن هذا الموضوع، لدى زوجها الجليل. وهذه المرة، وقد تخلّت عن الاستعانة بأي وسيط، فقد حملت هي بنفسها الرسالة إلى القصر. وهناك وعدها ضابط مرافق، وهو شاب يتسم بالبرود، أنّ رسالتها ستصل بسرعة إلى صاحبتها، ولكنه رفض أن يسجل لها طلبها لمقابلة الإمبراطورة. ولأنها صرفت من هناك دون مجاملة أو مراعاة

فقد ندمت لأنها لم تطلب المساعدة من «هيبوليت روزنيكوف» عند قيامها بهذا المسعى.

وعند مقابلتها لـ «نيقولا»، يوم الزيارة، كان عليها أن تتمالك نفسها لكي تبدو أنها لا تزال متفائلة. أما هو فقد اعترف لها بأنه لكثرة ما انتظر رحيله، بين أسبوع وآخر، فقد انتهى به الأمر تقريباً، إلى أنه أصبح يأمله ويتمناه. وهكذا، فعندما يظل الذهن، زمناً طويلاً، ثابتاً ومركزاً على أمر واحد بعينه، تحدث فتنة وانبهار، والكارثة التي ينبغي تحاشيها تتحول إلى هدف يجب بلوغه وتحقيقه. وكان، كجميع رفاقه، يخشى كثيراً من أن ينتقل إلى حصن «سشلسّيلبورج» بدلاً من إرساله إلى سيبيريا، لأنّ إدارة ذلك الحصن كانت أحياناً تنسى السجناء هناك، حتى نهاية حياتهم، أياً كانت المدة القانونية لعقوبتهم. فلو أصابه سوء الحظ، هذا، فإن «صوفيا» لن تستطيع، حتى مجرد الإقامة في مكان قريب من منفاه. وحاولت أن ترفه عنه وترفع من معنوياته، بقدر الإمكان، وبعد ذهابه إلى زنزانته، استفسرت عن هذا الأمر من الجنرال «سوكين».

فقال لها:

- إنّ مسالة إرسال بعض السجناء إلى «سشلسيلبورج» هي واردة، بالفعل، ولكننا حتى الآن لا نعرف من هم الذين سيقرر إرسالهم إلى هناك.

فلم تستطع «صوفيا» أن تنام تلك الليلة. وقد حصل لديها انطباع بأنها تدعم بطرف ذراعها جداراً يوشك على الانهيار. وفي يوم الرابع عشر من كانون الأول «ديسمبر»، منعت الزيارات إلى السجن.

وليس هنالك أي شك، من أن السلطات لم تكن تريد أن تتيح أي فرحة للسجناء في هذا اليوم الذي يعتبر الذكرى السنوية لجريمتهم. وكان رجال الدرك يراقبون خفية مداخل وأبواب الكنائس، كما لو أن المسؤولين كانوا يخشون من تظاهرات دينية مخربة. هل مرّ على ذلك، عام الآن؟!

لقد لاقت «صوفيا» صعوبة في تصديق ذلك. فإلى هذه الدرجة كانت العزلة والقلق قد تداخلا في عاداتها وأثرا فيها. وفي عيد الميلاد، استطاعت أن تمضي مع «نيقولا» عشر دقائق، وأن تسلمه، بإذنٍ من الجنرال «سوكين» طرداً يحتوي على بعض المأكولات. وكانت «سان بطرسبورغ» مزدانة بالأعلام والزينات وتشع فيها الأنوار، ومن فندق إلى آخر ومن قصر إلى قصر، لم يكن هنالك سوى حفلات الرقص، وولائم العشاء والحفلات الموسيقية، والتمثيليات التي تعرضها المسارح، والمواكب وحفلات الرقص التنكرية. وقد ظلّت عائلات السجناء، في عزلة، وسط هذا الهيجان العام.

ونحو منتصف شهر شباط «فبراير» أتى «هيبوليت روزنيكوف» لزيارة «صوفيا» مرة أخرى. وقد تأثرت من هذه المبادرة التي تنمّ عن الانتباه والاهتمام. ولكنه لم يكن يحمل لها أي خبر. وهي لم تجرؤ على أن تقول له إنها كتبت إلى الإمبراطورة، مباشرة. كان مرحاً، معطراً، وقد قص شعره الذي بدا قصيراً، وسرواله المصنوع من جلد الأيل، يشد على فخذه الناصح، حتى أنه يكاد يتمزقّ. وبعد أن ذهب، جلست لتكتب رسائلها: كان عليها أن تكتب رسالة إلى أهلها. حقا، إنها كانت قد أخبرتهم أنّ «نيقولا» متورّط في مؤامرة سياسية، ولكن بلهجة خففت فيها من أهمية وخطورة تورطه في تلك المؤامرة، بدافع من الشفقة عليهم لكي لا تسبب لهم المخاوف والقلق. وقد حان الوقت لاطلاعهم على الحقيقة. وهذا الحكم بالسجن مع الأشغال الشاقة، لا يمكن إلا أن يبدو مذلاً ومهيناً، عندما ينظر إليه من فرنسا. وكان يخيل إلى «صوفيا» أنها تسمع الصراخ الغاضب الذي يطلقه أبوها، والاحتجاجات الباكية التي تعلنها أمها. إنهما يهتمان بالحياة الاجتماعية ويسايران ظروفها وأزياءها وهما المخلوقان الأقل استعداداً لكي يفهما أنّ عقوبات معينة ترفع من قدر أولئك الذين كان ينبغي عليها أن تذلهم وتخفض قدرهم.

كانت وهي تكتب قد وصلت إلى منتصف الصفحة، عندما جذبها إلى النافذة رنين أجراس: إنها زحافة مزودة بغطاء، أوقفت في الباحة. ونزل من صندوقها رجل ضخم الجثة، يشبه الدب، متدثراً بمعطف كثيف من الفرو، وحتى قبل أن تتبين وجهه عرفت أنه عمها. فشعرت بالقلق، على الفور: فهل حدث شيء خطير للصغير «سيرج»؟ كلا، فعند أقل نذير بالخطورة، كان يمكن أن يستدعيها بإحدى رسائله، إلى «كستوفكا». وإذا كان قد تكبد مشقة السفر، فإنه فعل ذلك لكي يرى ابنه، هذا الابن الذي كان ينكره فيما مضى، والذي ربما بدأ يشعر نحوه بشيء من الشفقة والرحمة، وتحول كهذا كان يمكن أن يكفّر به عن أخطائه، في نظر «صوفيا» وفي الحال، كانت على استعداد لملاطفته وللصفح عنه... ولكن لماذا لم يخبرها مسبقاً برغبته بالحضور؟ كان لا بد له من أن يحاول دائماً أن يسبب لها مفاجأة مّا! وأرسلت «نيكيتا» و «دونياشا» للمساعدة في تنزيل الأمتعة والحوائج، وخرجت، هي، فوقفت في أعلى درج المدخل، لكي تستقبل «ميشيل بوريسوفيتش».

وعند رؤيتها عن قرب ذلك الوجه الذي تنم ملامحه عن السعادة، شعرت باضطراب أقوى مما كانت تتوقع. وقبّل يديها الاثنتين بورع وتفانٍ. كانت عيناه تدمعان من شدة البرد، وانفه مخطط بوريدات زرقاء. واهتزازات الزحافة أثناء الرحلة قد شوهت وضع ياقته وشعّثت عارضيه الأشيبين.

وتمتم:

«صوفيا» ها أنا، أخيراً، ألقاك! فالحياة بدونك كانت شاقة جداً!

فسألته، وقد عاودتها خشيتها الأولى:

- وسيرج؟

- إنه بصحة جيدة، وفي أحسن حال!

فتنفست الصعداء: إنه إذن أتى لكي يرى «نيقولا»!

وسألته:

- لماذا لم تخبرني بأنك تنوي المجيء؟

فأجابها بأعلى صوته:

- كل شيء تقرر بمزيد من السرعة! فجأة لم أستطع المقاومة! وكان عليّ أن أنطلق! كالمجنون!

واصطحبته إلى الصالون. فتهاوى بتثاقل على إحدى الأرائك، وأجال حوله نظرة فاترة. فلا شك أنه كان يحاول أن يثبت أنه كان متعباً وبحاجة للعناية وللراحة. وكانت «صوفيا» تقف أمامه، حائرة مرتبكة. كان لديها عتاب ولوم شديدين عليها أن توجههما له، ولكنها لم تشأ أن تفاجئه وتزعجه الآن، لأنه يبدو أنه سيحسّن معاملته لابنه، ولأنها عزمت أن تقول له كل شيء، مع أكبر قدر من المداراة.. فقد ابتسمت بحزن وتمتمت:

- آه! يا أبي، كم أنا ناقمة عليك! لقد حنثت بوعدك لي!...

فبدت عليه الدهشة، وتقلّص عنقه، وتراقص حاجباه:

- أنا؟ متى؟ وكيف؟

- بإرسالك تلك الرسالة إلى «نيقولا» تخبره فيها أني مطلعة على كل شيء وأني لم أعد أريد أن أراه! وكنت قد طلبت منك أن لا تفعل ذلك! لأني كان عليّ أن أكتب له، أنا بنفسي!...

- نعم، يا ابنتي العزيزة، ولكنّ الوقت كان يمرّ وينقضي، وأنت لا تحزمين أمرك ولا تقررين شيئاً، وتتألمين بصمت... فتكفّلت أنا أن أنوب عنك بهذه المهمة الشاقة... معتقداً أني قد أحسنت التصرف... وأنت تعلمين أني لا أفكر ألا بسعادتك!...

كان بإمكانها أن تتوقع هذا الجواب وأن تعرفه مسبقاً. و «ميشيل بوريسوفيتش» هو هو، يحافظ على مستواه دائماً. وينبغي تقبّله كما هو، أو أن يُرفض استقباله. ولأنها لزمت الصمت، فقد تابع بلهجة متواضعة:

- ألديك مكان لإقامتي، يا «صوفيا»؟ أم أنّ عليّ أن أذهب إلى أحد الفنادق؟...

ومرّت لحظة، أرادت خلالها أن تعيده إلى استئناف المناقشة، أن تخرجه من مخبئه، تكشفه للعيان وتقنعه بأخطائه، ولكنها غيرت رأيها، فقد تعبت من المماحكة والعراك، وقالت له:

- نعم، يا أبي، اتبعني.

كانت قد عملت على أن يهيأ له سرير في غرفة كبيرة، لا يشغلها أحد، في آخر المنزل، فانزوى فيها لكي يغتسل ويغيّر ملابسه.

و «أنتيب» الذي اصطحبه معه من «كشتنوفكا» أخذ يركض من المطبخ إلى الغرفة بأباريق المياه. وعندما مرّت «صوفيا» في الممر، سمعت صوت الماء وهو يجري، والأواني وهي تطقطق، و «ميشيل بوريسوفيتش» وهو يرسل تنهدات الارتياح، ويوجه الصفعات إلى جميع جوانب جسمه. وبعد ذلك، بدا من جديد، مورّدا، مرتاحاً. يشد على بطنه رداءه المنزلي «الروب دي شامبر» الأخضر اللون، بعرواته المزخرفة على الطريقة الألمانية، وقد انتعل خفاً لدنا، ناعم الملمس. ودعته «صوفيا» لتناول الشاي. وعندما رأى السماور، انبسطت أساريره وابتهج تماماً. وفتحت وعاءان من المربى، وتردّد في الاختيار بين مربى الخوخ، ومربى التوت، وأخيراً وقع اختياره على هذا الأخير وكان الشره بادياً في وجهه، وأخذت تراقبه، وكأنها تراقب حيواناً غريب الطباع. وأخذ يدهن بالزبدة فطيرته الثالثة، ولم يسأل بعد عن أخبار ابنه. فتضايقت «صوفيا» وأخيراً، قالت له:

- لقد رأيت «نيقولا» قبل البارحة!

فغمغم:

- إنه محظوظ جداً فأنا لم تريني منذ سنة!

- أبي، كيف يمكنك أن تجري هذه المقارنة...؟ إنه تعيس جداً!... وأنا زوجته... ويجب عليّ أن أحاول عمل المستحيل لمواساته وتشجيعه!...

فقال، وفي عينيه بريق من السخرية الخبيثة:

- ذلك، لأنك عدت فأصبحت زوجته من جديد؟

- إني لم أكف في أي يوم عن أن أكون زوجته!

- يا لسعة الصدر، إنك تجعلينني أعتقد أنه يكفي أن يهمل مداراتك والاهتمام بك كي تتعلقي به! إنّ الشفقة تعميك يا عزيزتي «صوفيا»، وإلى أي مدى تنوين الذهاب، في تفانيك وتضحيتك؟

فجمعت شتات فكرها، وتماسكت لكي لا تجيبه.

ولكنه، من جهته، فقد استأنف الكلام، بصوت هادئ ولطيف:

- أحتّى سيبيريا؟

فانتفضت. كيف استطاع أن يطلّع على مشروعها؟ فهي لم تقل له شيئاً عنه في رسائلها. وانحنى نحوها، ولم يعد يهاجمها، بل كان يتوسل إليها بصمت. فتركته يعوم، لفترة طويلة، في الفراغ.

وأخيراً، همس لها:

- قولي لي إنّ هذا غير صحيح!

فقالت له:

- بلى، إنه صحيح!

فشد بقبضتيه على جبينه:

- هذا شائن، ومعيب!

- ومن أخبرك بذلك؟

- نقيب الأشراف في «بيسكوف». إذ إنه، في أعقاب الرسالة التي وجّهتها للإمبراطورة، تلقى أمراً من «سان بطرسبورغ» بأن ينظم تقريراً عن حياتك في «كشتنوفكا». ولأنّ صداقة قديمة، تربط بيننا، فقد أطلعني في الحال، على الموضوع...

فاستنتجت «صوفيا» من ذلك، بسرعة أنّ الحكومة إذا كانت قد أوعزت بإجراء التحقيق عن حياتها وشؤونها، فذلك يعني أنّ طلبها سيؤخذ بعين الاعتبار. وأشرق وجهها بالأمل، بشكل واضح، لدرجة أنّ وجه «ميشيل بوريسوفيتش» قد تجهم، وقال:

- لا تتسرعي، ولا تفرحي قبل الأوان! فالمعلومات عنك ربما لن تكون كلها في مصلحتك!

فقالت له:

- أنّ هذا يثير دهشتي!

فاعترف، قائلاً، مع ابتسامة هزيلة:

ويثير دهشتي، أيضاً.

وساد بينهما صمت ثقيل، انصرف كل منهما، خلاله، للتفكير. و «صوفيا»، وقد انطوت على ذاتها، أخذت تتابع تسلسل إحدى الأفكار، التي انفجرت، فجأة، بقوة البداهة؛ وسألته:

- ألأنك عرفت أني أريد السفر إلى سيبيريا، أتيت إلى هنا، أليس كذلك؟

فصمد أمام نظرتها، دون أن يرف له جفن، أو يعترض، وقال:

- نعم، يجب أن أمنعك تماماً من ارتكاب هذا العمل الجنوني!

- أنت تتكلم كابنك! هو أيضاً أراد أن يثبّط همتي، ليمنعني من السفر! فلماذا أصغي إليك، بينما لم أصغي له، هو؟

- إنه لم يستطع أن يقول لك، كل ما سأقوله لك أنا! فهو، في قرارة نفسه، أشدّ رغبة ليراك بقربه من أن يوضح لك عبثية وعدم عقلانية هذا المشروع!

- إني أعرف تماماً ماذا ينتظرني هناك.

- كلا، ليس لديك أي فكرة عما هي سيبيريا! يجب أن يكون المرء قد ولد فيها لكي يستطيع أن يتحمل العيش فيها! وربما خصصوا لك مسكناً بعيداً جداً عن السجن الذي يحتجز فيه «نيقولا»، وأرغموك على الإقامة فيه! فلن تستطيعي رؤيته أبداً، وبعد أن تكوني غادرت «سان بطرسبورغ» وابتعدت عنها فلم يعد بإمكانك حتى أن تتوسطي أحداً، ولا أن تقدمي له أي مساعدة!

- إني أتحمل هذه المجازفة!

- هذه ليست مجازفة، بل هي الفشل المؤكد، على وجه التقريب!

وبما أنك تشعرين بمثل هذه الحاجة لإثبات وفائك وإخلاصك، فعليك أن تقولي لنفسك، وأن تقتنعي، بأنّ الفرصة لإثبات ذلك، ستكون متاحة لك في «كستنوفكا» أكثر مما تتاح لك وأنت، فيما وراء بحيرة «بايكال»!...

- أنا لست مع هذا الرأي!

- أيمكن أن تكوني نسيت صغيرك «سيرج»؟ لقد عهدت أمه به إليك، وهي على فراش الموتّ ،أنت مسؤولة تجاهها، عن هذه الحياة الغضة!

فأدركت المهزلة الفظيعة التي يستعد لتمثيلها، بل الخدعة المخيفة التي يرتبّها، وتشدّدت في النفور والرفض.

واستأنف الكلام:

- ليس له سواك في هذا العالم! أنت أمه، فإذا فارقتهِ فإنك تحرمينه من الحنان ومن الدفء اللذين يحق لكل طفل أن يتمتع بهما! وهل تقبلين أن يصبح يتيماً، للمرة الثانية؟

وبحّ صوته. وأخذت الدموع تتراءى على حافة جفنيه، مترددة في النزول.

فقالت له:

- إني أحب «سيرج» من كل قلبي، ولكني أعلم، إني إذا سافرت فلن يكون أكثر بؤساً. وهو سينمو ويترعرع، دون أن ينقصه شيء، وهو في

بيتك. أمّا «نيقولا» فهو رجل سيهلك ويضيع، إذا لم أذهب وأبقى معه، فهو بحاجة لي أكثر من أي شخص آخر!

فقال «ميشيل بوريسوفيتش»:

- أتضعين في الميزان طفلاً بريئاً ومجرماً سياسياً؟!

فصاحت، غاضبة، بعد أن نفذ صبرها:

- أرجوك ألاّ تستخدم سيرج وتستغله لكي تستدر عطفي، بينما أنت لا تفكر ألا بنفسك وحسب، في هذه القضية!

فقال، وهو يحملق بعينين جاحظتين:

- أنا؟ كيف يمكنك أن تفترضي هذا؟!

- أعرفك جيداً، يا أبي! فأنت تريد أن يعود كل شيء إليك! ومتعتك الخاصة والطيبة، هي القانون الذي تفرضه على كل المحيطين بك! وإذا كنت لا تريد أن اتبع «نيقولا» إلى سيبيريا، فذلك لأنك تخشى أن تشعر بالملل، إذا بقيت وحدك في «كشتنوفكا»! وقليلاً ما يهمك أن يموت ابنك، في شقائه، في الطرف الآخر من العالم، شريطة أن تستطيع ممارسة لعبة الشطرنج معي، مساء كل يوم!

فوضع يده على قلبه، وقال، وهو يضغط على الكلمات:

- إنك تقتلينني!

كانت تكشيرته التي تعبر عن الأم مسرحية جداً: شفتان متقلّصتان، حدقتان جاحظتان، الأمر الذي زاد من استياء «صوفيا» ومن غيظها:

- كفّ عن التأوه والشكوى دون مبرر! ففي الوضع الذي نحن فيه، لا نحسب أي حساب لمتاعبك الشخصية التافهة ولا نأبه بها!

وعندما سترى «نيقولا» نحيلاً، وسخاً، مريضاً بسبب عزلته في السجن، سوف تدرك بالتأكيد...

فتجمدت ملامح «ميشيل بوريسوفيتش»، والشمع الليّن أصبح رخاماً صلباً، وصرّح، قائلاً:

- ليس في نيتي أن أراه!

فاعتقدت أنها لم تسمع جيداً ما قاله:

- ماذا قلت؟

فقال، موضحاً:

- لم يسبق لي أبداً أن وطئت قدمي سجناً، وليس عليّ بعد أن بلغت هذه السن، أن أبدأ القيام بذلك!

- ولكنّ الأمر يتعلق بابنك!...

- إنه لم يعد ابني، لأنه تآمر على حياة القيصر! لقد قرأت الأحكام، وأعرف كل شيء! وغلطته ألحقت بي العار!... واسم «آل أوزاريف»، اسمنا، تمرّغ بالوحل!... وتريدن مني أن أصفح عنه؟

فتأملته برعب، وقالت بصوت يخنقه الانفعال:

- أنا لا أطلب منك أن تصفح عنه، بل أن تحبه، أن تشفق عليه، وترثي لحاله! فـ «نيقولا» ليس قاتلاً ولا سارقاً! ولم يرتكب أي دنيئة أو عمل شائن! بل، على العكس من ذلك!... لقد ضحى بنفسه من أجل مثل أعلى!... وإذا كان هذا المثل الأعلى لا يخصك، ولا تؤمن به، فهذه قضية أخرى! وعليك أن تعترف على الأقل، أنه ينمّ عن إخلاص عظيم!

فقال «ميشيل بوريسّوفيتش»، هازئاً:

- الأمر الذي أعترف به، على الخصوص، هو أنّ ابني قد قلب لك أفكارك جيداً وجعلك تغيرين رأيك، فقد كنت تتكلمين بشكل مختلف، عن هذا الذي تقولينه، قبل أن تقابليه من جديد!

- ربما... تكون المصيبة قد جمعتنا ووحّدت بيننا... وكذلك القضية التي من أجلها يعاني ويتعذب الآن!

- قضية من يغتالون الملوك، ويسفكون الدماء، ويشعلون الحرائق؟!...

- قضية الحرية! ومني أنا، وأنت تعرف ذلك، إنّما أخذ أفكاره السياسية. وربما ما كان حصل له أن يكون في السجن اليوم، لو أنه لم يلتق بي، ولو أنه تزوج فتاة روسية اخترتها أنت له، ومع ذلك، فأنت ترى الآن أنني يجب أن أتنكّر له وأن أتخلى عنه؟! كلا، يا أبي، إنني لم أشعر في أي يوم من الأيام أني أكثر قرباً من «نيقولا» من الآن، ! وأنا فخورة لكوني زوجته!

وتوقّفت عن الكلام، وهي تلهث، وتنبض حماسة، وقد انتابها مزيج من الغضب والحب، جعل الدموع تطفر من عينيها. فأحنى «ميشيل بوريسّوفيتش» رأسه قليلاً، وتمتم:

- هدئي من روعك، يا «صوفيا»! أنا لم أقصد أن أجرحك... نحن نتكلم... ونتحمّس... وبالحقيقة، أنا لا ألومك بسبب شفقتك على ابني... فهو كتلة من لحمي ودمي...، ولكن، اعذريني، فأنا لا أستطيع أن أتبعك حتى النهاية، في آرائك وأفكارك... فهنالك تقاليد معينة، هي أقوى من كل شيء، بالنسبة لي، بعد أن بلغت هذه السن... فالمبادئ تقسو وتتصلب، كما تتصلب الشرايين...

وهذا التغيير الذي طرأ على لهجته أدهشها. كان واضحاً أنّ «ميشيل بوريسّوفيتش» أخذ يحاول اتباع خطة أخرى. ومن جديد، لم يعد يقع نظرها إلاّ على مهرّج، دامع العينين.

وسألها، متلعثماً:

- هل تفهمين عليّ؟

فأجابته، بجفاء:

- كلا، يا أبي!

- هذا غير ممكن!... وكل هذا لأنني سمحت لنفسي بانتقاد «نيقولا»، «نيقولا» هذا، الذي كنت تلعنينه معي، منذ فترة وجيزة!... هذا حسن،

حسن!... إذا كنت تصرّين إلى هذه الدرجة على أن أراه، فإني سأبذل بعض الجهد من أجل ذلك... وسأذهب إلى هناك... ولكن ليس الآن... فيما بعد... بعد بضع أسابيع... عندما أكون قد تقبّلت الفكرة وألفتها...

فصاحت بأعلى صوتها:

- بعد ما قلته لي عنه، فإني أمنعك من الالتقاء به!

فرفّت جفونه عدة مرات، وكأنه صُرع بضربات مطرقة، ثم تنهد، وقال:

- أترين كم أنت غريبة الأطوار؟!... تارةً تريدين، وتارةً لا تريدين!... حسناً! دعينا من ذلك، فلن نتكلم عنه!... ولكن عودي إليّ، يا «صوفيا»، أتوسّل إليك أن تعودي!... فأنا لا أستحق هذه القسوة منك!... وبدونك، فإني سأموت!... سأموت!...

واعتراه شهيق مكتوم جعل خدّيه يرتعشان. فاستند على ذراع إحدى الأرائك وركع بصعوبة أمام كنّته. فبدرت منها حركة إلى الوراء، كما لو أن بركة ملأى بالمياه القذرة، قد بدت واسعة، عند قدميها. وقالت له بحدّة:

- انهض! إنك بشع وسمج، تثير السخرية!

فظلّ راكعاً، عند ذلك خرجت من الغرفة، وصفقت الباب. وبعد عشر دقائق، أتت «دونياشا» مضطربة جداً، إلى غرفة سيدتها. وقالت لها:

- سيدتي! عمك منزعج جداً، وهو مستلقٍ، وبحالة سيئة على سريره! ويتنفس بصعوبة!

كانت «صوفيا» تتوقع منه أن يلجأ إلى هذه الحيلة، ولذلك قالت لها:

- فليُترك وشأنه، فهو سيتحسّن إذا رأى أنّ لا أحد يهتم به!

- ولكنّ المشكلة، يا سيدتي، هي أنه يطلبك!

- قولي له إني مشغولة.

وأعطتها قارورة أملاح، وصرفتها. وبعد أن بقيت وحدها، أمضت فترة طويلة من الوقت حتى استطاعت أن تتمالك نفسها. كانت تفكّر بقسوة

«ميشيل بوريسّوفيتش» التي تدعو إلى الدهشة، وبغطرسته وعنفه، وبأحابيل الحيل والقسوة التي تصدر عن دماغه الطفولي. وهو لكونه تواقاً جداً ومتعطشاً للرعاية وللمداراة، ونشوان بالسلطة التي يتمتع بها، فقد تخلى عن الحياء كله، في عرضه لطباعه للعيان. وإذا كانت قد استطاعت فيما مضى أن تجد له بعض الأعذار، فإنها أصبحت مقتنعة الآن، بأن «نيقولا» محق فيما قال:

«هذا الرجل وحشيّ الطباع، سيئ الأخلاق!»

٧

عند عودة «صوفيا» لزيارة «نيقولا»، كانت قد قررت أن تدع «نيقولا» يجهل أن والده موجود في «سان بطرسبورغ»، ولكنه لا يرغب أن يراه. فما الجدوى من تعذيبه في سجنه بهذه القصة العائلية القبيحة، في حين أنه يحتاج للكثير من الهدوء لكي يستطيع تحمل المحنة حتى النهاية؟ كانت وهي متجهة نحو السجن، تسير، مفتوحة العينين، في جو من الحنان الناعم واللطيف. كان الثلج قد تساقط في الليل. وعبر كل ذلك الغلاف الأبيض، كانت القلعة تبدو أكثر ضخامة وأكثر ظلمة. وكان بعض المعاقين يزيلون الثلج عن الجسر المتحرك، أمام بوابة «بيتروفسكي». والخفير في محرسه المقلّم، يرتدي المعطف الطويل الأسود وغطاء الرأس الخاص بالبرد الشديد. كان ذلك هو يوم الزيارة، وكانت الزحافات تندفع، الواحدة بعد الأخرى، تحت القنطرة. وذوو السجناء، لكثرة تلاقيهم هناك، قد اعتادوا أن يعرفوا بعضهم بعضاً، ولذلك كانوا يتبادلون التحية عند نزولهم من العربات، في الباحة. ومعظمهم يحملون الطرود والعلب.

وفي سلة «صوفيا» كان يوجد بعض الملابس الداخلية، قطعة كبيرة من النقانق التي يحبها زوجها كثيراً، وعدد من «السيجار» الصغيرة. ألم يكن هذا كثيراً بالنسبة لسلة صغيرة؟ وابتسمت لبعض الوجوه المألوفة بالنسبة لها، وصعدت درج بيت حاكم القلعة، وقدمت الأذن بالدخول، الذي تحمله، إلى صف الضابط، الذي يحرس المدخل. فألقى الرجل نظرة على الوثيقة، وقارنها مع قائمة يحملها في يده، وقال:

- إنه لم يعد هنا.

وبتأثير الصدمة، شعرت «صوفيا» أنّ رأسها قد فرغ تماماً من محتواه. وهذه المصيبة التي كانت تتوقعها منذ زمن طويل، قد فاجأتها، وأذهلتها، وكأنها لم تكن متهيئة لها، وتمتمت:

- هذا غير ممكن!

فغمغم صف الضابط:

- إيه! بلى، لقد سافر البارحة بالضبط، في الثامن والعشرين من شهر شباط «فبراير» إلى سيبيريا، ضمن إحدى القوافل التي سافرت إلى هناك.

فردّدت بصورة تلقائية:

- إلى سيبيريا!

وهي تحملق بعينيها في هذا الرسول الذي أوفده القدر، لكي يعلن لها، بلا مبالاة، نهاية العالم.

وتمتمت، بحزن وأسى.

- أريد مقابلة اللواء «سوكين» إذا سمحت لي.

- إنه لا يستطيع أن يستقبلك.

- والمقدم «بودوشكين»؟

- إنه مشغول.

- مع ذلك، أرجوك أن تخبره برغبتي بمقابلته.

- هذا مستحيل... أنا أسف... فلديّ تعليمات خاصة بهذا الشأن..

- ولكني يجب أن أعرف أخيراً... إلى أين بالضبط، أرسل زوجي... إلى أي منطقة، وإلى أي مدينة؟!...

- لن يقول لك أحد ذلك: فهذا أمر سرّي، يظل طيّ الكتمان!

- إني أرجوك، بشأن هذا الموضوع...

كانت الكلمات تنساب هارية من فمها، وقد تخلّت عنها قواها.

وقال لها صف الضابط:

- انصرفي من هنا، أيتها السيدة، فلم يعد لك أي عمل في القلعة.

ورفع صوته، وشدّد لهجته. ففكرت «صوفيا» بالملابس الداخلية، بالنقانق والسجائر، وشعرت بأنها سخيفة بشكل مأساوي كما لو أنها كانت قد جلبتها لأحد الأموات. وقالت، وهي تضع السلة، على الدرج:

- أعطِ هذه إلى محكوم سياسي آخر.

واجتازت الباحة، رافعة الرأس. على الرغم من الضعف الذي تشعر به في ساقيها. وأخذ ينظر إليها بعطف وشفقة، ذوو السجناء الذين كانوا ينتظرون دورهم للدخول إلى القلعة، وهم يتهامسون فيما بينهم، عند مرورها بالقرب منهم. وعند عبورها الجسر المتحرك، انزلقت قدمها على أرضيته الخشبية المغطاة بطبقة من الجليد، وكادت تقع، لو لم تمسك بسلسلة الحاجز، الحديدية. فأين كان «نيقولا» في تلك اللحظة؟ لقد تصورته، منطلقاً في إحدى الزحافات، عبر صحراء من الثلج، وهو يوشك أن يموت من شدة البرد، وقد انهارت عزيمته وشعر باليأس الشديد لأنه لم يرها مرة أخرى قبل رحيله، مفكراً بها وكأنها آخر فرصة لأمنه وطمأنينته!

وعند عودتها إلى المنزل، وجدت عمها في انتظارها. فاستولى عليها غضب شديد عند رؤيتها هذا العجوز الذي يتمتع بصحة جيدة، وقد حلق ذقنه من جديد، وأخذ يطالع جريدته في الصالون، بالقرب من المدفأة.

وقالت له:

- لتكن مسروراً! لقد رحل ابنك إلى سيبيريا!

فقال «ميشيل بوريستوفيتش» بهدوء، وهو يقلب إحدى صفحات الجريدة:

- لعله يستطيع أن يحظى هناك، بمغفرة الله!

ثم رفع رأسه، وابتسم بخبث لـ «صوفيا»، وأضاف:

- إنه أمر يدعو إلى الأسف! فقد كنت أفكر بأن ألتقي به في الأسبوع المقبل!...

* * *

كان البرد والجوع يدفعان «نيقولا» نحو النوم. وكان يفقد الوعي لبعض الوقت، ثم يستيقظ مذعوراً، ويدهش عندما يجد نفسه في زحافة غطاؤها ممزق، مع رفيقه «يوري ألمازوف» النائم بجواره وهو يستند على كتفه، وقبالتهما يجلس شرطي، وقد أغمض جفنيه، واستراح شاربه، وبدا لون أنفه ضارباً إلى البنفسجي. لقد مضى أكثر من أسبوع على مغادرتهم العاصمة. ست عربات يجر كل منها ثلاثة أحصنة، والعربة التي كان «نيقولا» فيها هي أصغرها وقد وضعت في آخر القافلة. وكانت أجراس تلك الأحصنة تحدث برنينها جلبة أشبه بجلبة العيد في تلك الصحراء. كانت القافلة تسير بصورة مستمرة خلال ثمانية وأربعين ساعة، وتتوقف كل ليلتين في إحدى محطات الاستراحة. ولا بد أن حدود سيبيريا لم تعد بعيدة، بالنسبة لهذه القافلة. ورفع «نيقولا» غطاء الزحافة قليلاً، فلم يرَ سوى الوشاح الأبيض الذي يغطي كل شيء. كانت معدته تقرقر، ليتهم أعطوه، على الأقل، قليلاً من الحساء الساخن، في آخر استراحة توقفت القافلة فيها، ولكنّ الضابط «كوروتشكين» رئيس القافلة، كان يقتر بالإنفاق على الطعام، لكي يضع في جيبه أكبر مبلغ من النقود المخصصة لنفقات الرحلة. و «يوري ألمازوف» الذي أزعجته إحدى اهتزازات الزحافة، أخذ يئنّ، وغيّر وضعية نومه.

وقال «نيقولا»، متحدثاً باللغة الفرنسية:

- إذا لم يقدموا لنا طعاماً، في المحطة التالية، يجب علينا أن نحتج.

فقال له «يوري ألمازوف»:

- كيف تريد أن تحتج؟ وبأي صفة، وباسم من؟ ونحن تحت رحمة هذا الوغد!...

فصاح بهما الشرطي الجالس قبالتهما:

- تفضلا بالتعبير عما تريدان قوله، باللغة الروسية، كي أستطيع أن افهم ما تقولان، وإلا فأني سأخبر الضابط بذلك!

وبموجب النظام، كان الضابط المسؤول عن القافلة يستطيع أن يحرم المحكوم من وجبة طعام، كعقوبة له، إذا تكلم باللغة الفرنسية مع رفاقه. وتذكر «نيقولا» أنه في طفولته، كان مربيه السيد «لوسور» يمنعه من التكلم باللغة الروسية، على المائدة، تحت طائلة حرمانه من التحلية، بعد وجبة الطعام. فنزلت ابتسامة من عينيه على شفتيه. وكتم الشرطي استياءه. وغفا «يوري ألمازوف» من جديد، وهو يكاد يتجمد من شدة البرد، وأخذ يحرك رأسه بهدوء، وبدا حاجباه أسودين وذقنه مزرقة بسبب البرد الشديد، والبخار الكثيف يتصاعد من بين شفتيه المشققتين، حتى أن الدم يكاد يسيل منهما. وصهل أحد الأحصنة، وفرقع سوط وارتد على غطاء الزحافة.

ولكي يتسلى «نيقولا» حاول أن يتبين لحناً موسيقياً في رنين الأجراس المضطرب وغير المتناسق. ولكن النغم الوحيد الذي كان لا يزال ذهنه المتعب يحتفظ بذكراه هو النغم الذي كان يعزفه نافخ البوق وأجراس التنبيه والاستيقاظ، في القلعة. وكان قد سمعه لآخر مرة، في تلك الليلة، عندما أيقظه الحراس من نومه، واقتادوه تحت الحراسة، إلى منزل المقدم، حيث وجد هناك رفاق طريقه الحاليين: خمسة عشر سجيناً، منذهلين ومضطربين، كل منهم يتأبط صرة من الملابس. وقبالتهم وقف الجنرال «سوكين»، معلناً بكبرياء، ما يلي:

«بناء على الأمر الإمبراطوري، سوف توضع القيود الحديدية في أرجلكم!»

فأخذوا يتبادلون النظرات بذهول ورعب شديدين، ولكنهم، في قرارة نفوسهم، كانوا كلهم يتوقعون هذه المذلة، وقال أحد الحراس لـ «نيقولا»:

«اجلس على هذه الأسكملة!» وكأنه يريد أن يجرب له حذاء جديداً. ثم جثا أمامه وأخرج من كيس كان معه، السلاسل الثقيلة الملتوية والمتلفة على بعضها كالأفاعي. شعور بالبرد على الجلد. دورة المفتاح. حلقتان ثبتتا في العرقوبين. وعندما نهض «نيقولا» ليمشي، وجد صعوبة في وضع إحدى رجليه أمام الأخرى.

إذ إنّ عشر ليبرات «ما يقرب من خمسة كيلوغرامات» من القطع الحديدية كانت تعيق تحركاته. وكان يجر خلفه قعقعة جهنمية. وكان رفاقه يتمايلون ويتعثرون مثله على سيقانهم المعاقة. فأمسك بهم الحراس بسواعدهم لمساعدتهم على نزول الدرج. كان هنالك شرطي في كل زحافة، بالإضافة إلى الضابط «كورتيشكين» الذي يقود القافلة التي انطلقت في الساعة الواحدة صباحاً، وسط عاصمة ميتة. فودع «نيقولا» البيوت، ومعالم المدينة، والحياة التي أحبها. ولا بد أن «صوفيا» كانت لا تزال نائمة في تلك الساعة المبكرة، ألم يكن يتراءى لها عبر أحلامها، التمزق الناتج عن ذلك الرحيل؟ ووجه إلى زوجته صرخة صامتة ومكتومة، وقد تجمدت الدموع على حافة جفون عينيه. كانت الأحصنة تسير متمهلة، والضابط يمشي على الرصيف المغطى بالخشب، إلى جانب عربته، وقد استندت فتاة على ذراعه، وهي تهمس وتبكي وتمخط، بينما أخذ الضابط يغمغم: ماذا بك، يا «مارتا»! هذا سخف منك، يا «مارتا»! ولكنه، هو، لن تطول رحلته أكثر من شهر! وقبل الوصول إلى الحاجز، صرف الفتاة. وهناك أخذ موظفو الجمارك ورسم الدخول يتفحصون الأوراق، يرفعون الأغطية ويفتشون العربات.

وفك سائقو العربات الأجراس التي كانت مربوطة لكي لا تحدث ضجة أثناء مرور العربات في المدينة، في تلك الساعة المبكرة. وعلى حين غرة، انطلقت القافلة، بسرعة، في البراري المقفرة.

وأخذ «نيقولا» يفكر: «هل انقضت الآن ثمانية أيام؟ هذا إن لم تكن تسعة! أو ربما سنة بكاملها! لم أعد أعرف شيئاً. أكل، ونوم ولا شيء سوى ذلك، يؤبه له». أراد أن يتأكد من ذلك ولم يستطع.

كان هنالك حزن مزعج يلازمه على الدوام ويشده إلى الوراء، وإلى الماضي.

وأخذ ينظر إلى سلاسل قيوده. هذه الكتلة من الحلقات الحديدية اللامعة، الراقدة بين رجليه، هذه الحياة الحديدية التي امتزجت بحياته. وفي «ببيرم» فكوا قيوده، لكي يقتادوه إلى الحمام مع رفاقه. والعمال الذين يشتغلون هناك، في الحمامات، جميعهم من المحكومين بالأشغال الشاقة السابقين.

ولأنهم حكم عليهم بموجب الحق العام، بسبب جرائم عادية سبق لهم أن ارتكبوها، فهم يحملون على وجوههم علامة تدل على ذلك العار. كان البعض منهم. أنوفهم محززة ومشطوبة. وأمسكوا بالقادمين الجدد، وأخذوا يفركون لهم ظهورهم بخرق من قشر القنب ولحائه، ويهمسون في آذانهم النصائح التي استمدوها من خبرتهم وتجاربهم السابقة: «إذا بقيتم في «ايركوتسك» فسترون، أنها الفردوس! «تشيتا» أيضاً ليست سيئة! ولكن، وقاكم الله من مناجم «بلاغوداتسك»!...»

وبعد أن تم تنظيف جميع «السياسيين»، قيدوا بالسلاسل والأغلال من جديد، واقتادهم الضابط «كوروتشكين» إلى الكنيسة.

كانت الصلاة قد بدأت. وأخذ بعض «الملائكة» يرتلون الأناشيد بجانب الحاجز المزدان بالأيقونات. وكان أحد الكهنة، الذي يرتدي الملابس الكهنوتية المذهبة، يصلي ويدعو الله بصوت مجلجل ومخملي. وأوقف السجناء في إحدى الزوايا، بعيداً عن المؤمنين. وعند خروج الناس الطيبين من الكنيسة، بعد انتهاء القداس، ومرورهم أمام السجناء. كانوا يتصدقون عليهم. ويسألهم بعض هؤلاء:

- لماذا يرسلونكم إلى سيبيريا!
فكانوا يجيبونهم:
- بسبب تمرد الرابع عشر من كانون الأول «ديسمبر».
ولم يكن يبدو على أحد، أنه يعرف ماذا حصل في الرابع عشر من كانون الأول. وأحياناً، كان أحد الفلاحين الأكثر فهماً ويقظة، يهز رأسه، ويسألهم:
- أهذا يعني أنكم سياسيون؟
- نعم، أيها العم العزيز.
- قضية سيئة على الأرض، يمكن أن تصبح قضية صالحة في السماء! كان الله في عونكم!
ونظرت فتاة، تضع وشاحاً على كتفيها، إلى «نيقولا» وتمعنت به بكل قوة، وهي تتمتم: «يا للمسكين! يا للمسكين!» ودست له روبلاً في يده. فلم يرفضه ولم يشكرها، وقد شعر بالغصّة، وعقد التأثر لسانه، وحتى ذلك الحين، ما زال يفكر بذلك الوجه النضر، المستدير، العادي والمألوف الشكل، وبتلك العينين الكبيرتين الطافحتين بالمحبة وبالرأفة الروسيتين. وتبادرت إلى ذهنه إحدى الذكريات، فتصور نفسه في باحة إحدى محطات الاستراحة، مع «صوفيا»، قبل عشر سنوات، وكانت قادمة معه من فرنسا، ولا تعرف شيئاً عن بلادها الجديدة التي أتت إليها. وبشكل مفاجئ، بدت لها بصورة مرعبة، مجموعة من السجناء المحكومين بالسجن مع الأشغال الشاقة، وقد اصطفوا بجانب الجدار. وبينما كان يتم تبديل خيول العربة، تقدمت نحوهم، وأعطت نقوداً لمن كان، من بينهم، يبدو الأكثر بؤساً. عند ذلك جثا ذلك السجين وقبل ذيل فستانها.
كانت حفرة سحيقة تفصلها آنذاك عن أولئك المحكومين بالسجن مع الأشغال الشاقة الذين يرتدون الأسمال البالية، ويعتبرون حثالة المجتمع.

أما اليوم، فزوجها قد أصبح مثلهم ومنهم. وانتابه دوار ودوخة عندما قارن بين هاتين الصورتين. لقد أدرك أنّ ثروة وعظمة وصحة وفضيلة وحظ بعض الناس، ربما كانت لا تنتج إلاّ عن تسلية إلهية، وأنّ السعادة الحقيقية ليست مدينة بشيء للظروف الخارجية، وشريطه أن يعيش لما هو أساسي في الحياة، فإن الرجل المهزوم والمغضوب عليه الذي لا يتمتع بأي حظوة، يمكنه أن يمثل، بمفرده قوة خارقة للعادة، ومستقبلاً لا مثيل له ولا يعوض، ورؤية للإنسانية لا تزول إلا مع زواله هو. وأخذ «نيقولا» يتلمس الروبل في أسفل جيبه. إنه سيكون تعويذته التي تمثل الفأل الحسن.

وأبطأت الزحافة، وأخذت الأحصنة تلهث من شدة التعب. وبدا أن اجتياز جبال الأورال، لا نهاية له. فمتى يمكن الوصول إلى قمة المرتفع؟

- توقفوا! هيا، انزلوا!

فنزل جميع السجناء. وأمر الشرطي «نيقولا» و «يوري ألمازوف» بأن يربطا سلاسلهما الحديدية بنطاقيهما، لكي يصبح تحركهما أكثر سهولة. ومشى الجميع في صف واحد. وهبت ريح خفيفة أخذت تقذف نُدف الثلج على وجوههم. وكانت تحيط بالطريق أشجار الصنوبر العالية والداكنة اللون.

وبين ذرى تلك الأشجار، يسيل نهر من البخار الأبيض. ومع رنين الأجراس، الفضي الجرس، كانت تتجاوب قرقعة السلاسل، الثقيلة على السمع. وكان هنالك مجموعة من طيور «الطرسوح» الضخمة «طيور بحرية» تتسلق المرتفع، وهي تتمايل في مشيتها. ولأن المبعدين لم يكونوا معتادين على العيش في الهواء الطلق، فقد تعبوا وأخذوا يلهثون ويتباطؤون في السير. و «نيقولا» الذي شعر أن رئتيه تكاد تتمزقان، وقلبه يخفق بصورة متقطعة، أخذ يتعثر ويترنح بين خطوة وأخرى. وسقط

مرتين على الأرض، فساعده الشرطي على النهوض. وعلى القمة بدا بيت صغير، منفرد، يغطيه الثلج، والدخان يتصاعد من مدخنته، ونبح كلب: بادرة تنم عن الحياة! ووصلت الزحافات الخالية إلى مركز الاستراحة، قبل الرجال. ومن هناك أشار لهم الضابط، بأن عليهم أن يسرعوا في السير:

- هيا! ابذلوا بعض الجهد! من هو الذي بلاني بهؤلاء! المعاقين المرتبكين؟ امسكوا جيداً سلاسلكم! وامشوا في أثر الخطى، على الثلج!

وعندما وصل «نيقولا» إلى القمة، أعتقد أنه قد فقد الوعي. كانت أذناه تطنان، وإبر من الثلج المتجمد، في عينيه، وطعم الدم في حلقه، فاستند على جذع شجرة لكي يسترد أنفاسه. وأخذ أحدهم يتكلم معه ولكنه لم يفهم شيئاً مما يقوله له. كان يشعر برغبة بالبكاء وبالتقيؤ.

ومع ذلك، فقد عادت إليه قواه، شيئاً فشيئاً. ونظر إلى العالم المنبسط، في الأسفل، عند سفح الجبال: غابات زرقاء وسوداء، تكللها الثلوج، وتغطي، على مدى النظر، كل سفوح ومنحدرات جبال الأورال. والطريق الأبيض يتجه نزولاً ويغيب تحت غلاف تلك الفروة الكثيفة، ينعطف، ثم يبدو أكثر بعداً، ويضيق، ليبدو على البعد، كالخيط. ورفع أحد سائقي العربات سوطه، ليشير به، وقال:

- هنا، تبدأ سيبيريا!

فحملق «نيقولا» حدقتيه. إنه أصبح أخيراً يقف عند حدود هذين العالمين المختلفين، واللذين لا يمكن التوفيق والجمع بينهما: وراءه، روسيا، الماضي، «صوفيا»، عذوبة الحياة وحلاوتها، وأمامه، سجن الأشغال الشاقة، وأرض النسيان.

وقال «يوري ألمازوف»:

- إيه! ماذا؟ إن ما نراه من هنا، لا شيء فيه يشبه، بعد الآن أوروبا، سوى آسيا!

فحاول «نيقولا» أن يبستم. ولكنّ وجهه، وقد قسا بتأثير البرد القارس، لم يستجب لمحاولته. وبناء على أمر الضابط، اتجه السجناء، وقد أحنوا ظهورهم، وتصاعدت قرقعة سلاسلهم وقيودهم، نحو مركز الاستراحة. وكان يعلو باب هذا المركز، نسر ذو رأسين مصنوع من الخشب، بشكل غير متقن.



خلعت «صوفيا» معطفها، وقبعتها، ناولتهما لـ «دونياشا»، وجلست على حافة الأريكة، وقد أحنت رأسها ووضعت يديها على ركبتيها. وحتى الساعة الرابعة بعد الظهر، ظلت تتجول مسرعة بين مختلف دوائر الدولة ومكاتب المسؤولين. دون أن تجد في أي منها من يعرف قضيتها أو يهتم بها. فبعد أن صرفت من قصر الشتاء، ومن السفارة الفرنسية لم تستطع أن تجد «هيبوليت روزنيكوف» قصر «ميشيل»، حيث يوجد مكتبه. ولأن خطوات عمها أخذ وقعها يقترب في الممر، فقد انكمشت بتأثير الضيق والاستياء. لأنها، منذ رحيل «نيقولا» لم تعد تطيق وجود هذا الرجل العجوز بقربها، لأن العطف الذي يبديه نحوها مشوب بالمكر والخداع، ولأنه يبدو وكأنه يتلذذ بالألم الذي تسببه له أحياناً، عندما تعامله بقسوة. وهو يتبعها بحركاته المصطنعة وبتنهيداته.

وسألها، وهو يدخل إلى الصالون:

- ما هي الأخبار؟

فأجابته:

- لا شيء.

فبدا الاستغراب والحيرة، على وجه «ميشيل بوريسوفيتش»:

- يا ابنتي العزيزة، أنا أسف، وحزين من أجلك!...

فردت بحدة:

- أرجوك، يا أبي، ليس مطلوباً منك، أنت، أن ترثي لحالي!

- بلى! بلى! إني، مع استنكاري للقضية التي تخلصين لها، معجب بمثابرتك، وأستاء عندما أرى أنها لا تنال المكافأة التي تستحقها!

فهزت رأسها ببطء:

- إني لا أستطيع تقبل حالة الشك والحيرة التي يضعونني فيها! فليقولوا لي نعم، أو لا! مع أنّ هذا سهل وبسيط جداً!...

- لا بد أنّ ليس لديك أي فكرة عن المسافة التي تفصلنا عن القيصر، لكي تفترضي أنه يمكن أن يسمعك! أنت تخاطبين جداراً، يا «صوفيا»! وستمضي وتمر الأيام والأسابيع! وتدمرين صحتك، وتمتهنين كرامتك بقيامك بزيارات ومراجعات لا جدوى منها! صدقيني، لقد عملت المستحيل! والآن وقد ارتاح ضميرك، فلك الحق- لماذا أقول لك الحق؟ بل عليك الواجب!- أن تعودي معي إلى جانب الصغير «سيرج»...

فقالت:

- كلا، إني لن أنسحب من الجولة.

فصاح:

- ومن يقول لك أن تنسحبي من الجولة؟ فإذا كان لا بد من أن يصلك جواب، فسيصلك إلى «كشتنوفكا» مثلما يصلك إلى «سان بطرسبورغ». وبدلاً من أن تنتظريه هنا، وتعانين من الملل، وتعب الأعصاب يمكنك انتظاره هناك، وأنت تساعدين المحيطين بك!

وقد أثرت هذه الحجة بـ «صوفيا» وزعزعت كيانها، فهي متعبة، يائسة، وعلى الرغم من كل العلاقات التي أنشأتها والمساعي التي قامت بها، فقد كانت تشعر وهي في «سان بطرسبورغ» كأنها تائهة، وقد ضلّت طريقها وهي تسير في إحدى الغابات. وكانت مستعدة للاستسلام والموافقة على ما طلبه منها عمها، عندما رفعت نظرها نحوه، ورأته واقفاً أمامها، يوجه لها نظرة تعبر عن الحيلة والعطف، التي سبق لها أن رأتها

منه أثناء مباريات الشطرنج. فتماسكت لكي تستعيد صفاء ذهنها، وقالت:

- لن أذهب إلى «كشتنوفكا»!

- ولكن لماذا؟... مع أني، مع ذلك، قد شرحت لك للتو..

- لأنّ التسليم بهذا الأمر يعني التسليم بجميع الأمور الأخرى. وإذا علم المسؤولون، في الدوائر العليا، أني خضعت وقبلت أن أتبعك، فإنهم سيتوقفون نهائياً عن بحث قضيتي، ويضعونها على الرف.

فتمتم:

- ليكن ذلك. فالزمن سيتكفل بإقناعك، بما أنك لا تريدين أن تستمعي لرأيي ولنصائحي!

وسألته، بغتةً:

- وأنت، يا أبي، متى تنوي السفر والعودة إلى «كشتنوفكا»؟

فانتفض، وبدا في حدقتيه وميض ينم عن غضب جنوني، وقال:

- لا أريد أن أفارقك.

- حتى لو كان عليّ أن أقيم هنا بضع أسابيع أو شهور أيضاً؟

- نعم، يا «صوفيا».

- والصغير «سيرج»؟

- ماذا؟

- أيمكن أن نتركه لوحده في «كشتنوفكا»؟

- لديه جميع الخادمات والمرضعات اللواتي يحتاجهن للعناية به!

كانت ترد له اللوم نفسه الذي وجهه لها، سابقاً.

فقالت له:

- كنت تقول لي كلاماً مختلفاً آخر، عندما كنت تحاول إقناعي بالسفر!

فشعر بأنه جرد من سلاحه في وسط المعركة، وتعاظم، طرد الهواء بعنف من منخريه، وقال بصوت متهدج:

- إني أستخف بالصغير «سيرج» ولا يهمني أمره! وحياتي ليست بقربه، بل بقربك أنت!

كان هذا، كما لو أن كتلة كبيرة من الصخر، سقطت لتوها، في بركة ماء، وخيم بعد ذلك صمت طويل، كانت خلاله الدوائر تتسع حول تلك الحقيقة. ودخلت «دونياشا» لتشعل المصابيح. ولمعت كرة من الزجاج الخشن في وسط المنضدة، بين «صوفيا» وعمها، فبدأ وجه «ميشيل بوريسوفيتش» وقد خرج من الغبش، مشققاً كالطين الجاف. وكان قد تخلى عن كل كبريائه، فقال بعد أن انصرفت الخادمة، وهو يتمتم متلعثماً:

- اسمحي أن أبقى، يا «صوفيا»، وسنقيم في منزل أفضل من هذا! وسأساعدك...

كانت «صوفيا» منذ وصولها إلى العاصمة، تنفق على معيشتها من النقود التي حصل عليها «نيقولا» من ثمن البيت الذي بيع. ولكن مهما اقتصدت في نفقاتها، فإن هذا المسكن المتواضع، الذي استأجرته مفروشاً، كانت أجرته الشهرية تكلفها مبلغاً ضخماً. والأغذية، واقل الخدمات شأناً، كانت في المدينة، باهظة الثمن. وعما قريب، ستضطر على رهن بعض حليها عند أحد الصرافين. ولا بد أن «ميشيل بوريسوفيتش» يشعر بالضائقة التي تعاني منها.

واستأنف الكلام، قائلاً:

- لا أستطيع آن أسمح بإضافة هموم مالية إلى هموم قلبك العاطفية! آه! يا «صوفيا»، لماذا ترفضين أن تعتبريني المخلوق الذي يريد لك الخير، أكثر من أي مخلوق آخر في العالم؟

فقالت:

- لست بحاجة لشيء، ولا أنوي أبداً الانتقال من هذا المنزل.

- دعيني إذن، على الأقل، أساهم بنفقات البيت، طالما أني أقيم فيه!

- كلا.

فقال لها:

- إني إذن أدعو نفسي للإقامة فيه، ولكن لزمن طويل!

- للزمن الذي تريده!

كان يأمل الحصول على هذا الجواب.. بعد أن أصيب عدة مرات بخيبة الأمل، وغمرت السعادة ملامح وجهه المسن. أما هي فقد نقمت على نفسها لأنها أدخلت السرور إلى قلبه.

وقال لها:

- فليحقق الله جميع أمنياتك، يا ابنتي العزيزة، حتى تلك التي يسبب لي تحقيقها المزيد من المشقة والعناء!

والتفت نحو أيقونة السيدة - العذراء، الساهرة في زاوية الصالون. فتساءلت «صوفيا» عما إذا كان لا يصلي من أجل شيء آخر.

ورسم إشارة الصليب على صدره، ثم التفت نحو «صوفيا»، وقال لها:

- أود أن أصطحبك، هذا المساء، لنتناول طعام العشاء في أحد المطاعم.

كانت تلك هي المرة الأولى التي يقترح عليها فيها. الخروج في المدينة، ففكرت بـ «نيقولا» التائه في سهوب وفيافي سيبيريا. وهذا البؤس الذي يبدو لها متزايداً، من يوم لآخر، جعل تعاملها صعباً مع جميع أولئك الذين لا يشعرون بما تعاني من بؤس ومتاعب. وهمت بأن ترد بقسوة على اقتراح عمها، عندما قرع «نيكيتيا» الباب وأعلن عن قدوم احد الزوار.

ودخل «هيبوليت روزنيكوف»، يحمله شعاع من النور، مهمازاه يرنان، عيناه تبرقان، وأسنانه تضحك. أدى التحية العسكرية، وانحنى كثيراً أمام

«صوفيا»، ثم أمام «ميشيل بوريسوفيتش»، فك إبزيم سيفه، وصاح، مخاطباً «صوفيا»، باللغة الفرنسية:

- أسف لعدم وجودي في المكتب عندما ذهبت لمقابلتي، يا سيدتي العزيزة فقد عدت بعد قليل من ذهابك من هناك، لديّ، أخيراً، خبر جديد لك! فالجنرال «بنكندروف» يريد أن يراك، بعد غدٍ، الساعة الثالثة!.

* * *

بإشارة هادئة من يده، دعا الجنرال «بنكندروف» «صوفيا» لتجلس أمامه. فوجهت نظراتها نحو هذا الرجل الذي يبدو في الأربعين من العمر، بارز الجبهة، مجعد الخدين، حاد النظرات، والذي عليه يتوقف مصيرها. كتافيتان مذهبتان ضخمتان تتجاوزان كتفيه النحيلين، والشرائط التزيينية ترسم خطوطاً معقدة بين أزرار بزته العسكرية، وكل الجانب الأيسر من صدره مغطى بالصلبان وبالأوسمة. كان يفوح منه «عطر بلاط القيصر». وبدا لها متحفظاً، متعالياً، فقلقت.

وقال لها، بفرنسية تشوبها لكنة روسية واضحة:

- أيتها السيدة، لقد أخذ علماً صاحب الجلالة بالعرائض العديدة التي تقدمت بها للمسؤولين في حكومته.

فتمتمت:

- يسعدني ذلك كثيراً، يا سعادة الجنرال.

كانت قد ارتدت ملابسها بعناية من أجل هذه الزيارة: «ريد نغوت» من المخمل الناعم والسادة، أخضر مائل للسواد، قبعة من المخمل نفسه، مزينة بريش اللقلق، من اللون البنفسجي، وملتوية على الأذنين، وكانت واثقة بأنها ستحظى بالإعجاب. ولكي تحصل على القرار، ما كانت لتتردد حتى لإبداء بعض الغنج والدلال. ولكن «بنكندروف» بدا غير مكترث بمفاتنها. وكان، أمام هذه المرأة، كأنه أمام إحدى الإضبارات، نظراته ثابتة، وشاربه هادئ.

وأخيراً، قال لها:

- كان من الممكن أن يستاء الإمبراطور من إلحاحك، ولكنّ طيبة قلب جلالته، جعلته لا يرى في ذلك سوى مظهر من مظاهر الوفاء للحياة الزوجية، وهذا، بالطبع لا يحل المشكلة...

فقالت له «صوفيا»، وهي تحاول أن تبتسم:

- لست الزوجة الأولى التي تلتمس من جلالته حظوة اللحاق بزوجها إلى سيبيريا.

فقال «بنكندروف»، بأعلى صوته:

- هذا صحيح! فالأميرتان «تروبيتزكوي» و «فولكونسكي» قد سبقتاك إلى ذلك، وأصبحتا قدوة لك. ولكن، اسمحي لي أن ألفت نظرك إلى أنهما، كلتيهما، تنتميان إلى أسرتين روسيتين كبيرتين، وأننا نستطيع أن نوليهما ثقتنا التامة.

فشعرت بخفقان شديد في قلبها. إذا إنّ الحديث قد اتخذ منحى سيئاً. وسألته:

- هل تعيب عليّ كوني فرنسية الأصل؟

- كلا، والله العظيم! فليس أصلك، بل آراؤك هي موضوع البحث! ولدي هنا تقرير، من أكثر التقارير أهمية...

وتناول مجموعة من الأوراق عن مكتبه، تصفحها، وأخذ يقرأ:

- حسب الشهادات التي تلقيناها في محل إقامتها، في «كشتنوفكا»، وفي أنحاء المنطقة كلها، فإن صاحبة العلاقة، المعنية «المقصودة أنت، أيتها السيدة» تتردد على الكنيسة بدافع الفضول، أكثر من كونها تفعل ذلك بدافع من تقوى حقيقية، تأسف من نظام العبودية وتشكو منه، وتتحدث مع الفلاحين لإقناعهم بأن التعليم سينقذهم من البؤس، ولا تفوّت فرصة لكي تنتقد نظام الحكم القائم، ولكي تدعو للأفكار والنظريات التحررية الفرنسية.

فقالت «صوفيا»:

- هذا غير صحيح! من الذي قال هذا؟

- أشخاص من أقاربك ومن المحيطين بك.

ففكرت بعمها. ألم يسبق له أن قدم عنها أسوأ المعلومات، لكي يحث الحكومة على أن ترفض إعطاءها جواز مرور؟ فهو يمكن أن يفعل أي شيء! ولكن لا، فهذه «الميكافيلية»، وهذا الخداع، غير معقولين، ولا يمكن تصورهما! ويجب البحث عن الفاعل، في مكان آخر! فألسنة السوء ليست قليلة في المنطقة: فهنالك «داريا فيليبوفنا»، و «بسماكوف»، و «بيسشوروف»...

وأخذت الأسماء ترد وتمر في ذهنها، ولكن دائماً، وبإلحاح، كانت شكوكها تعود لتقع على «ميشيل بوريسوفيتش». وشعرت بالحيرة، وبالضياع، فقالت:

- كيف يمكنكم أن تثقوا بأقاويل من الهذر المؤذي والاغتياب، التي تحصل كثيراً في الأرياف؟

فقال «بنكدروف»:

- أنت قادمة من فرنسا، أيتها السيدة، وهي بلاد تنتشر فيها، حتى في الشوارع. السياسة! فهل يمكن أن تكوني قد تخليت عن أفكارك المؤيدة للنظام الجمهوري، بعد أن غادرت فرنسا؟

فأجابت، بعناد:

- دون أن أتخلى عن أفكاري، فأنا لم أحاول أبداً أن أدعو لها أو أن أنشرها حولي، مراعاةً لحسن الضيافة التي أحظى بها في وطني الجديد!

فقال «بنكدروف»، مع نصف ابتسامة:

- إنه لأمر مؤسف، ألاّ يكون زوجك حذراً ومتروياً، مثلك!

- لقد جذبه الآخرون، فانساق معهم...

- ولم تحاولي الإمساك به، ومنعه من الانسياق معهم. ولكننا لسنا هنا لنبحث دعوى «جماعة كانون الأول» ولنحاكمهم...

فقالت «صوفيا»:

- ولا لبحث دعوى زوجاتهم، ومحاكمتهن، يا سعادة الجنرال.

- لا تتحمسي، وتغضبي هكذا، أيتها السيدة. ففي فرنسا كان من الممكن أن يحكم بالإعدام، على كل أولئك السادة!

- على الأقل، كان يمكن أن يتاح لهم محامون للدفاع عنهم!

- في المجال السياسي، المحامون لم يستطيعوا إنقاذ رأس أحد!

- ولكن هذه، هي مسألة مبدأ.

- المبادئ، أيتها السيدة، لا تستخدم ألا للمحافظة على سخط الضعفاء ولإذكاء هذا السخط ضد الأقوياء! وبالنسبة لك، فإنّ فرنسا هي بلد الحضارة والعدالة، ولكن في جميع فترات ومراحل تاريخها، كانت الجرائم السياسية، يعاقب مرتكبوها بدون شفقة! فالجمهورية أعدمت بالمقصلة آلاف الأرستقراطيين والنبلاء، ونظام الحكم الإمبراطوري أعدم الدوق «أنغيان» رمياً بالرصاص. ونظام الحكم الملكي قطع أعناق الرقباء الأربعة، جماعة «لاروشيل»... وتريدين أن تعطي دروساً بالإنسانية للعالم!

وتمالكت «صوفيا» نفسها لكي لا تعارض «بنكندروف» وتخالفه في آرائه. حتى وإن لم يكن قد بقي سوى فرصة ضئيلة لتنجح في مسعاها، فكان عليها أن تلزم حدود دورها كصاحبة مطلب.

وأخذت تفكر بـ «نيقولا»، لكي تستمد الشجاعة على تقبل مذلات أخرى. ولكنّ أسارير وجه الجنرال كانت قد انفرجت وبدت بشكل ودود ومحبب، واستأنف الكلام:

إيه! نعم، مع وحشيتنا المزعومة، فنحن أكثر تسامحاً مع أعداء نظام الحكم الفرنسيين، الذين يتصفون بسعة صدر أسطورية. وإلى أولئك الذين

ما زالوا يمكن أن يشكّوا في ذلك، فإن حلم الإمبراطور حيال عائلات المحكومين، يقدم كل يوم دليلاً، لا يمكن إنكاره.

وبشيء من الجهد، قالت «صوفيا»:

- لكم أودّ أن أستطيع المشاركة مع هذه العائلات بتقديم الشكر والامتنان لجلالة الإمبراطور.

فقال «بنكندروف» وهو يرتد على مسند أريكته:

- سوف تتاح لك هذه الفرصة!

وتوقف لبعض الوقت، كالممثل الذي يستعد لإلقاء أفضل رد لديه، حدّق بـ «صوفيا» بنظرة حادة، وقال، بعد ذلك:

- لديّ مهمة لطيفة تقضي بإبلاغك أنّ الإمبراطور قد وافق على طلبك.

فشعرت بإحساس بالبوهيمية وبحالة لا تمت إلى الحقيقة والواقع، بصلة وبسعادة قصوى، وقفز قلبها في صدرها، وغطّت عينيها غشاوة من الدموع، وهمست:

- أشكرك، يا سعادة الجنرال.

- ليس أنا الذي يجب أن تشكريه، بل الإمبراطور، بل وربما، أكثر منه، يجب أن تشكري الإمبراطورة، التي كان تدخلها لمصلحتك، حاسماً.

- سأكتب... سأكتب لصاحبي الجلالة...

وكان «بنكندروف» يتمتع، كخبير، باضطرابها، وقال، وكأنه لاحظ فجأة أنه يتحدث إلى امرأة:

- إنك فاتنة! وستفتقدك «سان بطرسبورغ» وتأسف لفراقك، إذا كنتِ أنت لا تأسفين لمفارقتها. ألم تطلبي العون من السفير الفرنسي، بشأن طلبك؟

- بلى.

- هذا ما كان يبدو لي! وبمحض المصادفة، فقد أخبرت السيد «دولا فيّروناي» بالنهاية السعيدة التي آلت إليها مساعيك. ولا أشك أبداً بأنه سينوه

بها في برقيته المقبلة. ومن المستحسن أن يعرفوا في باريس أن صلابة القيصر، لا تنفي عنه اتصافه بالعطف الأبوي...

فأدركت «صوفيا» أنّ وراء ذلك يكمن أيضاً عامل الدعاية، وأنها أصبحت ذريعة للبرهنة على جوانب ومظاهر سياسية. وهذا أمر لا يهمها كثيراً! فالأمر الأساسي الذي يهمها، هو أنّ الطريق نحو «نيقولا» أصبح مفتوحاً وسالكاً. وسألت الجنرال:

- متى يمكنني أن أسافر؟

- تريثي قليلاً، ولا تستعجلي أكثر مما ينبغي! فلو كنت تعلمين ماذا ينتظرك هناك!...

- زوجي.

فغمغم «بنكندروف»، وهو ينحني:

- إنه جواب جميل، أيتها السيدة. استعدي إذن للقيام برحلتك. فبعد وقت قصير، سيستدعيك القائد العام للشرطة، لكي يسلمك جواز المرور.

ونهض، معلناً انتهاء المقابلة.

وعندما غادرت «صوفيا» مكتب الجنرال «بنكندروف»، مرت تحملها أجنحة الفرح عبر غرفة انتظار تغصّ بالضباط، ونزلت على درج يقف عنده بعض الخفراء، وسارت أخيراً في الشارع، الذي يزدحم بالمارة، دون أن يجذبوا انتباهها أو أن ينسوها الفكرة التي استقرت في ذهنها. وهي لم تكن مؤمنة. ولم يسبق لها أبداً أن صلت وتوسلت إلى الله أن يساعدها على تحمل مصيبتها. ولكنها بدافع من استعداد نفسي لم تستطع تفسيره، كان الله، هو بالذات، الذي ترغب أن تشكره، آنذاك، وقد أصبحت سعيدة، لاعتقادها بأن جميع الرسائل التي كتبتها، وكل الزيارات التي قامت بها، ما كانت لتجدي نفعاً لو لم تكن هنالك قوة فوق طبيعية، تشبه الوحي الرباني، قد أمرت القيصر، بأن يتفهم وضعها ويلبي طلبها. ودخلت إلى أول

كنيسة مرت بها، كما لو كان هنالك من ينتظرها فيها. كان بعض المؤمنين وقد توزعوا في جناح الكنيسة، يصلون راكعين، ويرسمون، بهدوء وصمت إشارة الصليب على صدروهم. ومنعها مبدأ الشك الذي يكمن في قرارة نفسها، من أن تقتدي بهم. ومع ذلك، فقد كان لديها حدس، بأن العالم لم يكن مكوناً من الأشياء المنظورة، وحسب، وأنّ الحياة الحقيقية، ربما كانت، فيما وراء الحركات والإشارات والكلمات. وتتجاوزها إلى ما بعدها.

وقالت بصوت خافت:

- شكراً... شكراً!

وكانت مئات الشعلات تسطع أمامها. ودون أن تفكر بذلك، اشترت شمعة، أشعلتها، ووضعتها تحت إحدى الصور المقدسة، وأخذت تتأملها وهي تشتعل بين القضبان البيضاء الأخرى. وشعرت بمتعة طفولية. كان الجانب الديني، دون شك، ضعيفاً فيها، وهي تتأمل تلك الشمعة. ولم تكن تجد نفسها، بطباعها القوية والواضحة، في هذه المرأة، الذائبة غبطة. لقد أُزيح عبء ثقيل عن منكبيها. وأصبحت حرة في تحركاتها، وخفّ قلقها، وربما عقلها أيضاً، فاتجهت نحو الباب، حيث كانت تعصف رياح الشتاء الباردة، وفي باحة الكنيسة. مدّ لها المتسولون، وبعض الراهبات، أيديهم التي ازرقت من شدة البرد فتصدقت عليهم كلهم، لأنّ الحظ الذي حالفها في ذلك اليوم كان يقضي بذلك.

وأثناء سيرها، وهي في طريقها إلى المنزل، لم تفكر أبداً بـ «ميشيل بوريسوفيتش»، ولم يخطر على بالها. وفجأة، وجدت نفسها أمامه، في الصالون، حيث كان ينتظرها منذ عدة ساعات. فابتسمت له، مبتهجة ومتألقة، بقبعتها المزدانة بالريش. فأدرك كل شيء، وانقبضت ملامحه، وبهتت نظرته. ولم يكن قد بدا عليه هذا الانزعاج، عندما علم بإلقاء

القبض على ابنه. وحدثته «صوفيا» عن مقابلتها للجنرال «بنكندروف»، وكانت تتكلم بطلاقه وحماسة، وقد جعلتها بهجتها تبدو أنانية. وكانت ترى عمها يتألم، دون أن تشفق عليه أو ترثي لحاله، وعندما صمتت ظل لفترة طويلة، مطرقاً وقد أحنى رأسه، منطوياً على جرحه، ثم قال بصوت خافت وضعيف:

- اذهبي إلى هناك، يا «صوفيا»، بما أنّ هذه هي رغبتك!..

ولكن ارجعي... ارجعي بعد ستة أشهر، بعد سنة!...

فإذا تأخرت كثيراً، وأكثر مما ينبغي، فإني سأموت!...

فحولت نظرها عنه. أما هو، فمخط محدثاً صوتاً كصوت البوق، بينما كانت ذقنه تتحرك بين شعر عارضيه الأشيبين. كان محني الظهر، متجعد الوجه، شارد النظرات كان يبدو بالحقيقة وكأنه يكاد يسلم الروح، ولكنه كثيراً ما كان يتظاهر بالانزعاج والمرض، لدرجة أنها لم تقلق لما بدا عليه من مظاهر الضعف والانهيار، وعلاوة على ذلك، فإنه، هو نفسه أخذ يتظاهر بأنه قد استرد روعه وتغلب على ما يعانيه من ضعف ومن آلام. وقال بلهجة كئيبة، يشوبها الحزن:

- لا تفكري بي، بعد الآن! تصرفي كما تشائين، وتمتعي تماماً بسعادتك يا ابنتي! فأنت تستحقين ذلك!

واحتفظ بهذا الموقف، في الأيام التالية، وقد سهل هذا ظروف الحياة بالنسبة لـ «صوفيا». وخلافاتهما الوحيدة آنذاك ظلت تتعلق بإجراءات السفر والاستعداد له. ومن أسبوع لأسبوع، كانت تنتظر أن يستدعيها رئيس الشرطة. وكان «ميشيل بوريسوفيتش» يطلب أن تتم الرحلة ضمن شروط تتأمن فيها الراحة التامة، وأن تكون جميع النفقات المتعلقة بها على حسابه. ولكن «صوفيا» لم تكن ترغب أن تكون مدينة له بشيء. فباعت بعض الحلي ومعطفاً من الفرو، لكي تحصل على بعض النقود. وبلغ ما حصلت

عليه أربعة آلاف روبل. وهو مبلغ يكفي لتأمين نفقات الرحلة. وكان عليها أن تدفع أجرة الخادمة. وتوسل «نيلتيا» إلى سيدته أن تصطحبه معها إلى سيبيريا فأكدت له بشدة أنه سيلاقي متاعب كثيرة، وخيبات أمل سيئة، لو ذهب معها، ولكنه ظل مصراً على رغبته في تنفيذ مشروعه:

إلى أيّ مكان ستذهبين، يا سيدتي، سأذهب أنا أيضاً!

وهذا واجب، أنا مدين لك به ولـ «نيقولا ميكايلوفيتش»! فأنتما، وليس والدي، اللذان وهبتماني الحياة!

وهذا الإخلاص المطلق، والوفاء الأعمى أثلجا قلب «صوفيا» وأثرا بها كثيراً، ولكنهما بالمقابل أغاظا «ميشيل بوريسوفيتش» وأغضباه.

فمن الواضح أنه كان يغار كثيراً من أيّ شخص تبدي نحوه «صوفيا»، مودة أو تعاطفاً. وحاول أن يقنعها أنّ «أنتيب» يستطيع أن يخدمها بشكل أفضل في محطات الاستراحة، أثناء الرحلة. لكنها رفضت اقتراحه بإصرار. فاستاء، وتجهم وجهه، وقال لها:

- ألا تخشين الأقاويل والشائعات، عندما يراك الناس تسيرين على الطرقات، مع هذا الخادم الغض الشباب والحسن الشكل والمظهر؟

فحدجته بنظرة قاسية تنم عن الاحتقار الشديد، سحرته بها وخلبت لبّه، فهو كان يحب هذا الإحساس بالبرود، في داخل ذاته، وتمتم، وهو ينسحب:

- لا يمكنك أن تنقمي عليّ إذا أبديت بعض الاهتمام والعناية بسمعتك!

وبعد بضع دقائق، سمعت «صوفيا» وهي تمرّ أمام باب غرفة الخدم، لغطاً ومناقشة، فواربت الباب: ورأت «أنتيب» جاثياً أما «ميشيل بوريسوفيتش» وقد ضمّ يديه ومدّهما نحوه وهو يتمتم:

- بما أنّ «نيكيتا» ذاهب، يا سيدي، فلماذا أذهب أنا، أيضاً؟

- لكي يراقب كل منكما الآخر.

- إذن، أرسل، يا سيدي واحداً غيري يكون أكثر فتوة ونشاطاً مني، فأنا لم أعد أتمتع بقوتي السابقة! ولم أرتكب ذنباً، ولم أفعل أي شيء لكي أرسل إلى سيبيريا!

- لست الوحيد الذي يرسل إلى هناك!

فقال «أنتيب» شاكياً ومتوسلاً:

- أشفق عليّ يا سيدي!

كان يكشّر ويقطب كل ملامح وجهه، وبدا كمهرج بشعره الأشقر وأذنيه الكبيرتين.

فصاح به «ميشيبل بوريسوفيتش»:

- اسكت، أيها الكلب! ستفعل ما اطلب منك أن تفعله! فليس من اللائق أن تسافر «صوفيا» مع «نيكيتا» وحده! وعلاوة على ذلك، فإني سأرسل أيضاً «دونياشا» معها. ولن تكونوا، أنتم الثلاثة، أكثر مما ينبغي من أجل خدمتها!

فألقت «دونياشا» وجهها بين يديها، وأخذت تنتحب بقوة. فدخلت «صوفيا» إلى الغرفة، وأعادت النظام، والأمور إلى نصابها ببضع كلمات قوية وجارحة، لدرجة أن «ميشيل بوريسوفيتش» انحبست أنفاسه. فهي لا تريد أن يرافقها أحد سوى «نيكيتا».

فشعر «أنتيب» و «دونياشا» أنها أنقذتهما من النفي إلى سيبيريا، فاندفعا نحوها وأخذا يقبلان يديها. وظل «ميشيل بوريسوفيتش» مستاءً وحرداً، طوال تلك الأمسية. وفي اليوم التالي، بعد أن ذهبت «صوفيا» لشراء بعض الحاجيات، وعادت إلى المنزل، وجدت أمام الباب عربة جديدة وجميلة، مطلية باللونين الأسود والأصفر، وعمها جالس في داخلها. فقد اشترى هذه العربة لكنته، وجلس فيها، ليختبر نوابضها. وقال:

- ستكون هذه آخر هدية أقدمها لك.

فرفضتها على الفور، بدافع من الكرامة، وعزة النفس.

فاستاء، وقال لها:

- هذا سخفٌ فأنت لا تستطيعين أن تقومي برحلة طويلة كهذه في عربة قديمة ونوابضها سيئة! تتعبين كثيراً فيها، وتتأخرين في الوصول بسبب سيرها ببطء شديد! لا تكوني عنيدة! وإلا فإني سأكون عنيداً، أنا أيضاً! وأمنع «نيكيتا» من أن يرافقك!

فسألته، بتعالٍ:

- وكيف يمكنك أن تفعل ذلك؟

- هذا الرجل يخصني: وهو لا يستطيع الذهاب إلى سيبيريا دون إذن خطي مني!

- أي، باختصار، أنك تعرض علي صفقة؟

- صفقة، لا أقصد أن أربح منها شيئاً، إن لم يكن القليل من امتنانك!

- فشعرت أنها مغلوبة على أمرها. فهذه العربة تغريها كثيراً، وهي لا تستطيع أن تشتري واحدة مثلها تؤمن لها الراحة في رحلتها الطويلة والشاقة، ومن جهة أخرى، كانت تحدث نفسها بأنها لا تستطيع أن تستغني عن «نيكيتا» وهي في الطريق إلى سيبيريا. وبعد صراع طويل مع ضميرها. وافقت على قبول هدية عمها. وفي مساء ذلك اليوم نفسه، كتب «ميشيل بوريسوفيتش» الوثيقة المطلوبة منه:

«أنا الموقع أدناه أسمح لعبدي «نيكيتا كريستوفوريتش» بمرافقة كنّتي «صوفيا أوزاريف» الفرنسية الأصل، إلى سيبيريا. وإليكم العلامات الفارقة والخاصة بالعبد المذكور: طويل القامة «١٧٥ سم» أزرق العينين، أشقر الشعر، بيضوي الوجه، مستقيم الأنف، حليق الذقن، خفيف الشارب. عازب، يجيد القراءة والكتابة. أرثوذكسي المذهب».

توقيع كبير، خاتم بالشمع الأخضر، يحمل شعار أسرة «آل أوزاريف» صدقا على الوثيقة. وعندما سلمها «ميشيل بوريسوفيتش» إلى «صوفيا»، قال لها:

- إني لا أخجل من الإذعان لرغبتك، وقد سبقني القيصر إلى ذلك، وأعطاني القدوة الحسنة. ولكن، اسمحي لي أن أقول لك إنه ليس من المؤكد تماماً أنه سيسمح لك أن تأخذي خادماً معكِ!

وكانت متعته عند ذلك، أصبحت تقتصر على مشاكستها، وإثارة شفقتها عليه، لكي يتغذى ويتمتع بتعابير وجهها المختلفة، قبل الفراق. وكانت كل لحظة يقضيها بقربها بمثابة عيد، يعيشه ويحرص عليه حرص البخيل على ماله. وكان يذهب إلى الكنيسة في الصباح، ليصلّي ويتوسل إلى الله لكي لا يرسل رئيس الشرطة الدعوة التي تنتظرها «صوفيا»، ويذهب في المساء إلى الكنيسة أيضاً، لكي يشكر الله، لأنه منحه مهلة يوم آخر. وانقضى، هكذا، شهران طويلان، في التوقع والانتظار. وأخيراً، في السابع والعشرين من أيار «مايس» أتى مأمور، يحمل الدعوة التي تأملها «صوفيا» والتي يخشاها «ميشيل بوريسوفيتش».

وكانت تتوقع أنّ الأمر يتعلق بإجراء شكلي، وسريع، ولكنّ الموظف الشاب الذي استقبلها في مديرية الشرطة، كان ميالاً للتباطؤ والدقة في العمل، فقرأ لها بعض مذكرات وتعليمات الخدمة، التي لم تفقه منها شيئاً، وأخيراً أطلعها على ورقة منسوخة بخط اليد، وتحمل شعار الدولة، وقال لها:

- هذا هو النظام والتعليمات، التي يجب أن توقعي عليها، إذا كنت تصرين على فكرة اللحاق بزوجك.

فألقت نظرة على الوثيقة، بدون اهتمام، وبلا مبالاة، في بداية الأمر، ثم قرأت، وقد استولت عليها الدهشة:

سيكون على زوجات المجرمين السياسيين اللواتي يتبعن أزواجهن إلى سيبيريا أن يقاسمنهم مصيرهم، وأن يفقدن وضعهن السابق، أي أنهن لن ينظر إليهن بعد ذلك إلا كزوجات لأشخاص منفيين، ومحكومين بالسجن مع الأشغال الشاقة، وان أولادهم، الذين يولدون في سيبيريا يصبحون عبيداً للتاج.

ولا يمكن أن يرافق إحداهن سوى شخص واحد، تختاره من بين عبيدها، وذلك شريطة أن يوافق هذا الشخص برضاه وعن طيب خاطر ويعلن عن موافقته إما بشهادة يوقعها، وإما بالتصريح عنها شفهياً إلى الحاكم....

ولا يستطعن رؤية أزواجهن، في السجن، سوى مرتين في الأسبوع...

ولا يحق لهنّ أن يطلبن من السلطات أي حماية من التجاوزات والاعتداءات التي لا تتوقف من قبل أناس منحرفين، ينتمون إلى طبقة محتقرة، ويعتقدون أن لهم الحق بالاعتداء على زوجة مجرم سياسي، واغتصابها، باعتبار أنّ المجرم ضد أمن الدولة، يخضع لمصيرهم نفسه...

وهنّ لن يتمكن أبداً من مغادرة مكان الإقامة، الذي يخصص لهنّ...

ولا يسمح لهنّ بإرسال الرسائل، إلا عن طريق تسليمها مفتوحة إلى حاكم المنطقة...

وجميع هذه الممنوعات، كان من الواضح أنها محسوبة ومدروسة بدقة، وقد وضعت لتثبيط همة وعزيمة زوجات «جماعة كانون الأول» لدرجة أنّ «صوفيا» انتفضت بغضب، وثورة، قائلة:

- هذا ليس جدياً، ولا معقولاً، أيها السيد، لأنه باختصار يعني أنّ الزوجة لا يمكنها أن تلحق بزوجها إلى سيبيريا، إلا إذا وافقت على أن تصبح، هي أيضاً، بشكل من الأشكال، محكومة بالسجن، مع الأشغال الشاقة!

- ليس هكذا تماماً، يا سيدتي.

- حقاً، إنه لم يذكر هنا، في نظامكم أنّ القيود الحديدية ستوضع في أرجلنا!

- ولا بإجباركنّ على العمل! ولا باحتجازكن في أحد السجون!

- كنت أتوقع أموراً أخرى مختلفة عن هذه، من حلم وتسامح صاحب الجلالة الإمبراطورية.

فمدّ الموظف يده ليسترد الوثيقة، وقال:

- ما زال الوقت متاحاً لرفض السفر!

فقالت:

- كلا، أين يجب أن أوقّع؟

فأشار بسبابته، ذات الظفر المدبّب، إلى أسفل الصفحة:

- هنا

فكتبت اسمها بيد ثابتة، مع شعورها بأنها تغامر بمصيرها، بشكل أكثر خطورة من مغامرتها به، يوم زواجها.



الجزء الثاني



١

بعد الخروج من بلدة «تومسك»، اتجه الطريق في جو مغبر رمادي، عبر مساحات ممتدة تغطيها الأعشاب العالية التي تعصف بها الرياح العنيفة، كان كل شيء يرتعش ويهتز، عبر رائحة التراب المحفور.

كان السائق يقود العربة دون أن يرى شيئاً. ونصف دزينة من الأجراس الصغيرة ترن فوق القوس الخشبي المدهون الذي يعلو عنق الحصان الأمامي، الذي كان يخب بشكل متقطع ودون انتظام، وبصعوبة بالغة، بينما كان الحصانان الجانبيان يعدوان بجهد واضح. واقتلعت الريح شجيرة صغيرة، ودفعتها إلى الطريق، فأجفلت الأحصنة، وابتعدت عنها بعنف وبشكل مفاجئ، بحيث أنّ عجلتي العربة اليساريتين نزلتا في حفرة وتوقفتا. فاختل توازن العربة، وكادت تنقلب تماماً. فنزل السائق وهو يشتم ويجدف. وتبعه «نيكيتا» وأمسك بلجام الحصان الأمامي. وأرادت «صوفيا» أن تساعدهما، ولكنها حالما وضعت قدمها على الأرض، لفحتها رياح العاصفة، ولفت عليها فستانها، ووخزت خديها المئات من رؤوس الدبابيس الباردة. شعرت بضيق في التنفس، وشدت على فكيها وأخذت حبات الرمل تصر تحت أسنانها.

فصاح «نيكيتا» بأعلى صوته:

- اصعدي إلى العربة، بسرعة، يا سيدتي!

كان، ورياح العاصفة الهوجاء تجلده، قد بدت قامته منحنية، مشعثة، وكأن ملابسه مصنوعة من الريش والسيور الجلدية. وأخذ الحصان يجمح

أمامه، فأمسك به جيداً، وتواجه رأس الحيوان ورأس الرجل عبر زوبعة من الغبار، وكان أحدهما يصرخ والآخر يصهل. وتفاهما في النهاية. فهدأت الأحصنة، واجتازت العربة، وجميع مفاصلها تطقطق، جانب المرتفع، واستوت على عجلاتها الأربع.

وصعد «نيكيتا» فجلس على المقعد، بجوار «صوفيا»، واعتلى الحوذي معقدة، صفر وأطلق العنان للخيل، فانطلقت محدثة هزة مخيفة، ولم تستطع «صوفيا» اتقاء الصدمات، مع أنها ثبتت قدميها في أسفل العربة، وتشبثت بالحاجز بيديها الاثنتين، فتارة كانت تندفع نحو كتف «نيكيتا»، وتارة كانت تقذف في الهواء فيصطدم رأسها بالقضبان الحديدة التي تحمل غطاء العربة. وكانت محطة الاستراحة التالية، وهي «سيميلوجندي» على بعد ثلاثين كيلومتراً، على وجه التقريب، وكان يبدو من غير المحتمل أن تستطيع العربة الجميلة، ذات اللونين: الأصفر والأحمر، هدية «ميشيل بوريسوفيتش» متابعة السير، بسهولة وبدون متاعب ومشكلات، حتى تلك المحطة.

وفجأة، تلا صخب العاصفة وضجيجها، صمت غريب وغير واقعي. وأخذ الإعصار، بعد أن أثار كثيراً من الغبار، واقتلع الكثير من الأعشاب، يبتعد متجهاً نحو «تومسك». وسكنت البراري وهدأت عبر حرارة شديدة. وخلال الهواء الذي أصبح جافاً جداً، كانت أدق قشة، واصغر حصاة، تبدوان بدقة مذهلة. ولكن «صوفيا» لم يعد لديها حتى القوة على الاهتمام بالمناظر. وبعد مغادرتها «سان بطرسبورغ»، منذ أربعة أسابيع، ظلت فكرة ثابتة واحدة تشغل بالها، وتوجه تحركاتها وهي: «أيمكن أن يكون هنالك أحصنة جاهزة، في محطة الاستراحة التالية؟» وطريقة الروس بالسفر، التي تبنتها على مضض، تقضي بالاستمرار بالسير ليلاً ونهاراً، طالما ظل بالإمكان العثور على الأحصنة الجاهزة لاستبدال الأحصنة المتعبة. وفور

وصولها إلى إحدى محطات الاستراحة، كانت تسرع إلى مديرها لتقدم له جواز مرورها، ولتسجل اسمها في السجل الخاص بالمسافرين، ولتطلب أحصنة مرتاحة وجاهزة لعربتها. فإذا كانت هذه الأحصنة موجودة، كانت تستأنف السفر بعد عشر دقائق، أما إذا لم تكن موجودة، فهي تضطر إلى الانتظار، وهي لم تكن تطيق ذلك، لاسيما وأنه في كل لحظة كان من الممكن أن يحضر فجأة قادم جديد لأوراقه الأولوية على أوراقها. ولم تكن راضية عن هذا التصنيف للمسافرين الذي يقضي باعتبارهم ثلاث فئات، ولا مقتنعة به، وهو يعتمد على نوعية وطبيعة جواز مرورهم. فجواز مرور حامل بريد الديوان الإمبراطوري يحمل ثلاثة أختام، ويسمح له بمصادرة أفضل الخيول، تحت سمع وبصر أولئك الذين كانوا يهمون بالحصول عليها. وينبغي على مدير محطة الاستراحة أن يحتفظ على الدوام ببعض الأحصنة الاحتياطية لمعالجة الوضع في حال وصول إحدى هذه الشخصيات المهمة إلى محطته. ومصلحة البريد، ونقل الرسائل، كانت معتبره من الفئة الأولى. وجواز مرور الفئة الثانية، أي الجواز الرسمي الذي يحمل خاتمين كان جواز ضابط البر والبحر، وكبار الموظفين الإداريين. وحاملو هذا الجواز ليس لهم صلاحية مصادرة الخيول، وإذا لم يكن هنالك خيول جاهزة في الإسطبل، فعليهم أن ينتظروا إلى أن تأخذ آخر مجموعة من الخيول الراحة لمدة خمس ساعات. وبعد ذلك يستطيعون الحصول عليها، ويحرم منها المسافرون الآخرون حتى ولو كانوا قد وصلوا إلى المحطة قبل هؤلاء. وجواز مرور الفئة الثالثة، الذي لا يحمل سوى خاتم واحد، فيعطى للمسافرين العاديين، كالجواز الذي تحمله «صوفيا»، ولذلك كانت تقول في سرها إنه من الظلم أن تكون الأولوية لموظفي البريد، ولحاملي بريد الوزارات، ولرجال الإدارة، وأن يتقدموا عليها، مع أنهم يسافرون من أجل قضايا إدارية تافهة وغامضة، بينما هي في طريقها إلى آخر الدنيا لتنضمّ إلى

زوجها وتحظى بالسعادة. وفي اللحظات التي ينتابها فيها تعب شديد، كانت تشك بأنه سيتاح لها أن ترى «نيقولا» من جديد، في يوم من الأيام. فهي لم تكن تعرف إلى أيّ سجن أرسلوه. وقد قيل لها في مكاتب الشرطة في العاصمة أنّ جميع المعلومات الضرورية سوف تعطى لها في «ايركوتسك»، وهي المركز الذي يجري فيها فرز وتوزيع المحكومين على السجون المختلفة.

ولكن «ايركوتسك» هذه، كانت تقع على مسافة ألف وخمسمئة كيلومتراً من «تومسك»، وهذا يعني، مسيرة خمسة عشر يوماً، على أقل تقدير، وإذا ساعدت على ذلك جميع الظروف! وماذا يمكن أن يحدث هناك، إذا ادعى بعض الموظفين الأغبياء أنهم لا يعرفون شيئاً عن ذلك؟ كان الناس، في العاصمة يروون أن عدة أشخاص من جماعة «كانون الأول» ماتوا في الطريق، أثناء نقلهم في تلك الرحلة الطويلة والشاقة، وأنّ الآخرين يشتغلون في مناجم النحاس، وأنّ إدارة السجون لا تميزهم عن مجرمي القانون العام، أي أنها تعتبرهم كالمجرمين العاديين... ومع أن «صوفيا» كانت ترفض تصديق هذه الأقاويل، فإنها، مع ذلك، تظل مشغولة البال، شديدة القلق، بسببها. وعندما أغمضت عينيها، حصل لديها انطباع بأن الأحصنة السيبيرية الصغيرة تسير بها في الفراغ، وأن مغامرتها لن يكون لها نهاية، وأنها سينتهي بها الأمر، بأن تصل فجأة، وهي حية بمفردها، إلى عالم لا لون له ولا رائحة، ولا يسمع فيها أي صدى، وطرق مسامعها، عبر أحلامها، صوت خافت:

- سيدتي! سيدتي! ماذا بك؟

ففتحت عينيها وتأملت بامتنان وجه «نيكيتا» الذي لوحته الشمس. وكان «نيكيتا» رصيناً وخدوماً يداريها بعناية فائقة. لدرجة أنها لم تكن تتمنى أو تأمل أن توفق برفيق لها في هذه الرحلة، أفضل منه.

وقالت له:

- لا شيء، قليل من التعب.

- ولكنكِ شاحبة جداً! أتريدين أن نتوقف؟

- كلا. هذا لا شيء، إنه أمر بسيط!... فلنتابع السير!...

ولنتابعه!... فليس لدينا وقت نضيعه!..

كان الطريق يمتد عبر منظر طبيعي متموج ومقفر. وفي بعض اللمحات، تغوص النظرة في وادٍ صغير جانبي، حيث تمتد منبسطة موجة الغابات الداكنة.

ثم تبدو بعض البراري بلونها الأخضر اليانع الذي يروي ويبرد الغليل. وبين الأعشاب الطويلة، ترتعش الزهور المتعددة الألوان، وتبدو كالنقاط المتحركة: أزهار الحوذان الصفراء، والأزهار البنفسجية اللون، وأزهار إذن الغار، بلونها الأزرق الزاهي. وفي بعض الأحيان، يتعالى في الجو صوت مبحوح من مزمار أحد الرعاة. وعلى امتداد أحد المرتفعات، اصطفت خيام بعض المهاجرين. وهناك بدت طنجرة على موقد، وقد تصاعد منها البخار.

وأخذ بعض الرجال، بأسمالهم البالية، ينظرون إلى العربة وهي تمر، وقد وضعوا أيديهم فوق عيونهم. وبعد كيلومترين أو ثلاثة، تصطف مجموعة من البيوت الخشبية البائسة «الايسبات» بجانب الطريق. وقد سبق لـ «صوفيا» أن رأت ألف مرة شكل هذه القرية نفسه: بيوت صغيرة من الخشب وجذوع الأشجار، مسودة، ومخلعة، يحيط بها حاجز من القصب والأوتاد الخشبية، غطته النباتات ذات الأشواك كالقراص والعليق، وبئر مزود بمضخة، كنيسة صغيرة مطلية باللون الأبيض، مغطاة بسقف أخضر فاتح، وتعلوها قبة معدنية... بعض الخنازير الأليفة برؤوس تشبه رؤوس الخنازير البرية، هزيلة، صفراء اللون، منفوشة الشعر، تتمرغ في إحدى الحفر. وإوزة تهرب فزعةً. وكاهن يلتفت، وهو يبدو كأحد الرسل، بلحيته الكثيفة، مندهشاً كأحد الأطفال، وبعد ذلك بقليل، لم تعد هنالك قرية.

ويكفي انقضاء بعض الوقت، تنهب خلاله العربة مسافة طويلة من السهول والغابات والطريق الذي يعلوه الغبار، لتبرز القرية الصغيرة التالية، في الأفق. وأسرعت الأحصنة في السير، وانتصب الحوذي على مقعده، وأصلح «نيكيتا» وضع قميصه، وأدخله تحت حزامه:

فها هي محطة الاستراحة.

كان هنالك عمود مخطط بالأبيض والسود، يشير إلى مكتب البريد. وهو مبني من الخشب، يصعد إليه ببضع درجات، وهنالك إفريز لحماية المدخل من الرياح. ولحسن الحظ، كان هنالك خيول جاهزة. وأقسم مدير المحطة لـ «صوفيا» أنه يعطيها أفضل ما لديه من خيل: «نسور، نسور السهوب، أيتها السيدة!» فدست له روبلاً في يده كمكافأة له.

وفكّ أحد عمال الإسطبل الأحصنة المتعبة. لتترك بعض الوقت، كي تسترد أنفاسها، ثم يمتطي الحوذي أحدها، ويجر الآخرين بالرسن ويعود بهما إلى المحطة، وهناك، تتمتع بالراحة النظامية لمدة خمس ساعات، قبل أن تعود إلى القيام بالرحلة نفسها.

وكانت العربة، بالغبار الذي يغطيها، تشبه عربة شبح وتفقد «نيكيتا» الحوائج والأمتعة، وراقب تشحيم النوابض، وفي غضون ذلك، ذهبت «صوفيا» لتسجل اسمها في سجل المسافرين.

وكانت القاعة العامة مماثلة لجميع القاعات التي عرفتها سابقاً:

منضدة كبيرة عليها شمعدان، وحولها أربعة كراسي، مقاعد طويلة منجدة لمن يريد أن ينام، أيقونة، جدول المسافات بين المحطات، تعرفة الأحصنة: «كوبيك ونصف لكل حصان، في الكيلومتر». وصورة «اليكسندر الأول»، فلا بد أنّ صورة القيصر الجديد لم تكن قد وصلت بعد إلى هذه المناطق النائية. كان الدخان يتصاعد من «السماور» فشربت «صوفيا» فنجاناً من الشاي الساخن، وأكلت بيضتين مسلوقتين، وقطعة

من الخبز الأسود، ونادت «نيكيتا» ليأتي ويأكل، ، هو أيضاً. فأتى، بمكنبيه العريضين ووجهه الطفولي، رفض أن يجلس أمامها، ولكنه قبل، وقد احمر وجهه، أن يشاركها في وجبتها. وكان ثوبه القروي، وقد شد عليه بحزام عند خصره، وردي اللون، باهت بعض الشيء، وهذا ما جعل بريق عينيه الزرقاوين، بتأثير التضاد، يبدو أكثر شدة وقوة. كانت الشمس والرياح قد أضفت السمرة على وجنتيه، وغيرت لون شعره وحاجبيه، وشققت شفتيه. كان جائعاً، فأخذ يلتهم الطعام. ولم يكد يمسح فمه بقفا كمه، حتى صاح مدير المحطة:

العربة جاهزة!

كانت الأحصنة السيبيرية جموحة جداً، لدرجة أنّ خدم الإسطبل أمسكوها برؤوسها لتهدئتها. وصعدت «صوفيا» و «نيكيتا» بخفة وهدوء إلى العربة، مع حرصهما على عدم إحداث اهتزازات في عريشي العربة. وبعد أن وثب الحوذي، بدوره إلى مقعده، ابتعد الرجال الذين كانوا يمسكون برؤوس الأحصنة التي انطلقت مباشرة، بعد أن تحررت، واندفعت بقوة السيل الجارف. وكان كل شيء يفرقع وكل شيء يتراقص، على وقع الحوافر ورنين الأجراس. وبعد أن مرّ هذا الاندفاع الأول وانتهى، هدأت السرعة، وسيطر الحوذي على أحصنته التي كانت مزودة بالحبال وبالسيور الجلدية، وهي ببوصها الرمادي الخشن، وشعر أعناقها المنسدل، أخذت تصعد المرتفعات بعزيمة واندفاع وتتجاوزها دون أن تبطىء السير تقريباً. كان الحصان الأمامي وحده يثبت مؤخرته وقائمتيه الخلفيتين، لكي يسند ثقل العربة.

وقالت «صوفيا» للسائق، بأعلى صوتها:

- العربة مزودة بكابح، لماذا لا تستعمله؟

فأجابها السائق:

- إيه! يا سيدتي، إنّ أفضل الكوابح، هي أيضاً مؤخرة الأحصنة!

فألقى «نيكيتا» نظرة قلقة على «صوفيا». لم تكن قد اعترضت أو تذمرت. ولكنه كان يستاء ويتألم في كل مرة يتكلم فيها أحدهم أمامها بصورة مبتذلة.

ولكم كان يودّ أن يجنبها سماع الكلمات الغليظة، واللقاءات السيئة. وشدة الحرارة، وشدة البرد، والجوع والعطش والمتاعب، والهموم بكل أنواعها... وكيف تستطيع إنسانة، لها هذا المظهر الرقيق والناعم، مقاومة محنة ومتاعب هذه الرحلة الطويلة والشاقة، وكيف يمكنها تحمل أعبائها؟ وعلى الرغم من مشقة هذه المسيرة، فإنها لم تفقد شيئاً من ظرفها وأناقتها. هذا ما كان يدور في خلد «نيكيتا» وهو ساهم، أثناء سير العربة. كانت ترتدي فستاناً من القماش الشطرنجي مربعاته رمادية، وكرزية اللون، قفازاً أسود، قبعة من القش، يمسك بها خمار تحت الذقن. وعلى ركبتيها وضعت مظلة مغلقة. ولاحظت أن «نيكيتا» ينظر إليها بدقة، من طرف عينه، فابتسمت. كان الإعجاب الذي يغمرها به، لطيفاً ومحبباً، بالنسبة لها.

وقالت:

- أخذت المناظر تبدو أكثر حيوية هنا.

كانت التلال المغطاة بأشجار الصنوبر والسندر تمتد متموجة إلى ما لا نهاية. والعديد من الأنهار، وهي بعض روافد نهر «الأوبي»، كانت تعترض الطريق، وكان العبور على بعضها يتم على جسور خشبية، تنحني أحياناً عند العبور، وعلى البعض الآخر يتم العبور ضمن معابر ومخاضات، وكانت المياه تتحرك حول الدواليب، وتلامس مرقاة العربة، وعندما تبطئ الأحصنة بالسير، تهاجم المسافرين سحابة من البعوض، فيطردها «نيكيتا» بتحريكه غصناً مورقاً أمام وجه «صوفيا».

ومـن اسـتراحة، إلى اسـتراحة أخـرى، انقـضى النهـار واقـترب المساء، فتحولت زرقـة السماء إلى تـوهج نحاسـي، وزمـردي. وتـلا الحـرارة الـشديدة، برد جاف وقارس. والفروق في درجات الحرارة كانت كبيرة جداً ومفاجئة، في تلك المنطقـة، لدرجة أنّ «صوفيا» اعتقدت أنها انتقلت من الصيف إلى الشتاء، عند غروب الشمس. ولاحظ «نيكيتا» أنّ ملابسها خفيفة، وكـان عليها أن تضع دثاراً مبطناً على كتفيها، وغطاءً على ركبتيها.

ووصلوا، ليلاً، إلى محطة «باتشيتانسكايا» حيث كانت تنتظرهم خيبة أمل مزعجة: كانت قافلة البريد، قد سافرت للتو، وهـي تضم أربع عربات واثني عشر حصاناً، وأصبح الإسطبل خالياً.

وفي القاعة، نحو عشرة مسافرين مستلقين على المقاعد الطويلة المنجدة، وهم يندبون سوء حظهم. وكـان بينهم صينيان يرتديان ملابس من الحرير الأسـود وعلـى رأسيهما قبعتـان صغيرتان مستديرتان. كانـا ينامـان جالسين وقـد اسـند أحـدهما ظهـره علـى ظهـر الآخـر، وأحنـى رأسـه علـى صـدره. كتمثالين صغيرين من الخزف الصيني.. وامرأة شابة، كشفت عن ثديها الكبير الأبيض، وأخذت ترضع طفلها، تحت نظر الزوج، الراضي والمشبع. وعند آخر المنضدة، يرقد تاجر وهـو يشخر، وقد ضم يديه وسند جبهته عليهما، وآخران يشربان الشاي وقد أغمضا عيونهما نصف اغماضة، وفي فم كل منهما قطعة سكر. والذباب يحوم حول المصباح الوحيد المتدلي من السقف. والنوافذ التي سدت شقوقها باللباد، كانت تحتجز في القاعة. رائحة زيت دوار الشمس، والأحذية البالية والملفوف، وسجل مدير المحطة اسم «صوفيا» في سجل المسافرين، وأبلغها بأنها لن تتمكن من استئناف السفر، إلا في اليوم التالي، عند الظهر.

فقالت، وهي تشكو وتتأوّه:

- هذا غير ممكن! فأنا مستعجلة جداً...

ودسّت له ثلاث روبلات في يده. فقبل النقود، مع تحية، عبّر عنها بانحناءة خفيفة، ولكنه ردّد ما قاله بأنه لن يكون هنالك أحصنة جاهزة قبل الموعد الذي ذكره. واستأنف الكلام، قائلاً:

- وعلاوة على ذلك، فإن قسطاً من الراحة يفيدك! وإذا كنت جائعة، فلديّ كل ما يلزم لكي أهيء لك وجبة شهية!

ولكنه بالحقيقة لم يستطع أن يقدم لها سوى البيض، حساء الملفوف واللبن. ولأنه لم يكن هنالك غرفة للمسافرين، فقد استلقت «صوفيا» على أحد المقاعد الطويلة المنجدة وسحبت الغطاء على جسمها حتى عنقها. وتمدد «نيكيتا» على المقعد المقابل لمقعدها. وخفض مدير المحطة فتيلة القنديل وعبر الغبش الذي ساد القاعة، أصبح صوت تنفس النائمين، قوياً يصمّ الآذان. وأخذت «صوفيا» تصغي لتلك الجلبة التي تعلو وتنخفض كالمدّ والجزر، يتخللها الصفير والحشرجة، والتنهدات الندية، ولم تستطع أن تنام. وأخذ الطفل يبكي، فهدهدته أمه بأغنية خفيفة. ونهض أحد الباعة ليشرب كاس ماء. وعندما عاد ليستلقي أيقظ جاره، وأخذا يتهامسان:

- أصغ إليّ، أيها الزميل، لقد فكرت في الموضوع! أخفض لي عشرة كوبيكات من سعر ملاعقك، وسأخفض لك مثلها من سعر قماشي!...

- هل أنت عدو للسيد للمسيح، أم أنت معيلي، لكي تعرض علي اقتراحاً كهذا؟!...

وضاعت بقية الحوار عبر شخير النائمين. وسندت «صوفيا» رأسها على معطفها الذي طوته أربع طيات. كانت جميع أعضاء جسمها تؤلمها. وقد أنهكها التعب، فغاصت في لجة النوم الشديدة السواد. وبعد ذلك بقليل أيقظها من نومها صياح وهرير رتيبان. كان الطفل مصاباً بالإسهال، فغيرت له أمه ملابسه، ولكي تسكته وتهدئه، أعطته ثديها من جديد. وعندما التفتت «صوفيا» نحو «نيكيتا» لاحظت أنّ عينيه مفتوحتان.

وهمس لها، متمتماً:

- لن تستطيعي أن ترتاحي هنا، يا سيدتي! فهل تريدين أن أحاول أقناع أحد القرويين بأن يؤجرنا أحصنة؟ ولكن هؤلاء، في هذه الحالة، لا يتقيدون بالتعرفة، ويطلبون سعراً مرتفعاً!

فقالت «صوفيا»:

- سأدفع ما سيطلب مني، هيا، اذهب بسرعة!

فانطلق نحو القرية، وكانت تقريباً واثقة من أنه سيعود بخفيّ حنين: لأنّ لا أحد سيفتح له باب منزله في عز الليل! ولم يكد يخرج حتى تعالى نباح مخيف، إذ إنّ الكلاب أخذت تنبح وتلاحق هذا الشخص المجهول الذي كان يسير في الوقت الذي كان فيه الآخرون مستغرقين في النوم. وكانت «صوفيا» تستطيع أن تتابع تحركاته في الذهاب والإياب، بواسطة ضجة الاحتجاج التي كان يثيرها عند مروره في الطريق. وظلت تنتظر، فترة طويلة، ونظراتها مثبتة على الباب. وفجأة بدا «نيكيتا»، وعلى وجهه ملامح الفوز والتوفيق في مهمته: لقد عرض عليه أحد القرويين ثلاثة أحصنة بسعر ستة «كوبيك» لكل حصان وعن كل كيلومتر. وحتى محطة «بيريكو لسكوي» التي تبعد سبعة عشر كيلومتراً، تصبح أجرة الأحصنة خمسين روبلاً، مع الإكرامية، وهي أربعة أضعاف التعرفة الرسمية!

وقالت «صوفيا»:

- لا بأس، هيا بنا!

فأيقظ «نيكيتا» مدير المحطة، وعمال الإسطبل. وعلى ضوء الفانوس، الضعيف، شدّ إلى العربة الأنيقة، ثلاثة أحصنة صغيرة الجسم، غزيرة الشعر. وحشية النظرات، وكان واضحاً أنها لم تُخلق لتجر عربة كهذه، بل لكي تجر زحافات وعربات صغيرة. وصاحبها القروي، طلب أن تدفع له الأجرة. مسبقاً. وبعد أن وضع النقود في جيبه، انطلقت الأحصنة بالعربة عبر الظلام.

وتمتمت «صوفيا» بين اهتزازتين:

- إني، بالكاد، أرى الطريق!

فقال لها «نيكيتا»:

- أما هو، فيراه جيداً، يا سيدتي! لا تخشي شيئاً!... وحاولي أن تنامي!...

كانت لا تقوى أبداً على النوم، وأخذت وهي متشبثة بالمقعد، تتفرس يميناً ويساراً بتلك الهاوية المظلمة والسوداء المكونة من الحشائش السوداء وأوراق الأشجار السوداء، ومن الضباب الأسود، حيث كان يلمع هنا وهناك هيكل إحدى أشجار السندر، الذي يبدو أبيض اللون عبر ذلك الظلام الدامس. وفي مكان بعيد، أرسل أحد الحيوانات صوتا يشبه ضحكات الأطفال.

فسألت «صوفيا»:

- ما هذا الحيوان؟

فلم يجب «نيكيتا»، كان قد غفا. وأماله نحو «صوفيا» اهتزاز العربة وتأرجحها. فتلقت على كتفها ثقل رأس دافئ. ولم يسبق أبداً أن وجدت هذه الألفة الحميمية بينهما. وتبادر إلى ذهنها أن «نيكيتا» النائم هو من طبقتها، وعندما يستيقظ، يعود فيصبح خادماً. ولكنه خادم من نوع خاص، خدمته ترفع من شأنه وتعليه، بدلاً من أن تحط من قدره، وتخفضه. وفي المغامرة الخارقة للعادة التي انطلق كلاهما بها، أخذت الفروق والاختلافات بين وضعيهما تزول بالتدريج. وكانا قد طرحا جانباً مبادئ الحضارة، المزيفة، لكي يجدا ويستعيدا جوهر كيانيهما. وهذا التفسير، بل هذا التقارب كان يبدو لـ «صوفيا» كتجسيد للنظريات التي تدعو للمساواة التي أثارت حماستها في مرحلة شبابها. وذلك، بالتأكيد، لأنها كانت فرنسية، ومؤمنة بنظام الحكم الجمهوري. فهي تشعر أنها مرتاحة في وضع على هذه الدرجة من الغرابة.

ولو كانت روسية لما استطاعت أن تنسى، على الرغم من كل أريحيتها وكرم خلقها، أن «نيكيتا» عبد رق. فأي أفكار وأي أحلام تدور وراء هذا الجبين الذي يتحرك بتراخٍ وهدوء على إيقاع هزات وارتجاجات العربة؟ ولو أنها استطاعت أن ترى فيه بواسطة الشفافية، ألا يمكن أن تكتشف فيه صورتها، وكأنها منعكسة في الماء الأسود والأملس ضمن أحد الآبار؟ وكانت تشعر بمداعبة أنفاس دافئة، تلامس صدارتها ويدها. ومن وقت لآخر، كانت الريح الناجمة عن سرعة العربة تشوش كل هذه الانطباعات لدرجة أنها كادت تأمر السائق أن يخفف سرعة العربة.

وطلع الصباح، فبدا شعر «نيكيتا» الأشقر. وكان هذا أول لون يعود إلى الأرض. وعند أول حركة مفاجئة بدرت من الفتى، أغمضت «صوفيا» عينيها، وتظاهرت بأنها نائمة. فلم تكن تتقبل أن يفاجئها وهي تتأمله. وبعد ذلك، أبدت له وجهاً مغلقاً في كل جوانبه، مع محافظتها فيه على ملامح البراءة والفتنة الساحرة. وأدركت أنه يبتعد عنها وينظر إليها، وأنه يرتب غطاءها. وحتى مشارف بلدة «بيريكولسكوي» أطالت فترة تمتعها بالتظاهر بأنها عمياء، لا ترى شيئاً. ثم استيقظت فجأة بشكل طبيعي. وفي الحال أبدى «نيكيتا» اهتمامه لكي يعرف فيما إذا كانت قد نامت جيداً، وأنها ليست متعبة جداً...

وفي وسط القرية، كان أحد رعاة البقر يطلق أصواتاً بواسطة بوق صنعه من قشر شجرة سندر، وعند سماع القرويين هذه الأصوات، فتحوا أبواب حظائرهم، لكي تذهب أبقارهم ومواشيهم إلى المراعي. وسارت العربة بتمهل، ضد تيار تلك المواشي بين مجموعات من جزز الصوف المجعد، والقرون المحدبة، قبل أن تصل إلى محطة الاستراحة.

ولم يكن من الممكن الحصول على خيول قبل مرور ثلاث ساعات. فرضخت «صوفيا» للأمر الواقع. فهي بحاجة للراحة ولتناول الطعام، وفي

غرفة ضيقة ومظلمة، وجدت صنبوراً نحاسياً مثبتاً في الجدار، وتحته وعاء كبير، ففكت أزرار فستانها وغسلت كيفما استطاعت يديها، وجهها ورجليها، وهي تغلق الباب برجلها، لأنه لم يكن مزوداً بمزلاج.

كان الحوذي والأحصنة الذين تواجدوا في الباحة يشبهون بدقة وبكل شيء الحوذي والأحصنة الذين يقومون مقامهم، لدرجة أنّ المسافرين استأنفا رحلتهما حتى دون أن يشعرا بحصول أي تغيير. وبعد أن ابتعدا مسافة ثلاثة كيلومترات عن تلك البلدة، تلبدت السماء بالغيوم. ومن جميع زوايا الأفق برزت قطعان الغيوم السوداء، بجززها المجعدة وقوائمها البخارية الضعيفة التي تزحف على الأرض، ولأنها كانت أثقل من أن تستطيع متابعة زحفها، فقد انهمرت، مطراً، أخذت قطراته الكبيرة تقرع غطاء العربة، الذي أخذ يدوي كالطبل. واختفت المناظر البعيدة وقد أمعنت في فرمها سكاكين زخات المطر. وفي لمح البصر، سالت المياه في الطريق، وأخذت حوافر الأحصنة تغوص في الوحل وتخرج منه محدثة أصواتاً تشبه أصوات الامتصاص. وبعد فترة قصيرة من الوقت، أصبحت الوحول كثيفة وعميقة بحيث أن عجلات العربة أخذت تغوص وتعلق فيها. وبعد عشر خطوات من هناك، كانت عبارة مكونة من جذوع الأشجار تغطي الأرض، وهي العنصر الصلب الوحيد في تلك التربة التي غطتها الوحول الطرية. وبجهد كبير بذلته الأحصنة، صعدت العربة على العبارة الخشبية المتزعزعة، وحصلت صدمة قوية، ومال صندوق العربة، فقفز الحوذي على الأرض، دار حول الخيول، وهو يتعرض لشؤبوب من المطر الغزير، وأعلن أنّ العجلتين الخلفيتين قد تحطمتا.

فقال «نيكيتا»، وهو يلحق به:

- سوف نصلح هذا العطل!

ولكنّ العطل كان أخطر مما تصوره «نيكيتا» فالإطارات المعدنية تحطمت والقضبان الخشبية تهشمت، ولم يكن هنالك مجال للتفكير

بإصلاح العطل، ولا لمتابعة السير على الطريق في هذه الظروف. وكان السائق يعرف منزلاً، بعيداً بعض الشيء عن الطريق، يستطيع المسافران الإقامة فيه، بينما يذهب، هو، ممتطياً أحد الأحصنة، ليجلب صانع العربات في عربة صغيرة من محطة الاستراحة. ولكي يكون «نيكيتا» واثقاً من عودته، قرر الاحتفاظ بالحصانين الآخرين كضمانة لعودته. فقبل الحوذي ذلك، بشكل ينم عن الانزعاج. وقال:

- سأرافقكما إلى هناك، وإلا فإنكما لن تستقبلا بشكل لائق!

فنزلت «صوفيا» للتخفيف عن العربة. وفتح «نيكيتا» ممطرة وناولها إياها وأسرعا تحت المطر المنهمر. وكانت بحيرات الماء، الصغيرة تغلي بفقاقيع كبيرة ضاحكة. ومئات الضفادع الصغيرة تقفز في الأخاديد التي حفرتها عجلات العربات في الطريق والتي تحولت إلى جداول وسواقي. كان الحوذي يقود الأحصنة بتمهل. ومشى «نيكيتا» و «صوفيا» خلف العربة، التي كانت تهتز، تتمايل، تطقطق وتتكسر خشبة فيها عند كل ارتجاجه، وبعد قليل أخذت تسير على قضبان العجلات، ثم على محاور هذه العجلات. وكانت الأحصنة تجر بصعوبة بالغة هذه المركبة الغريبة، التي كانت مؤخرتها تحرث أرض الطريق.

ثم غادروا الطريق وتوغلوا في غابة من أشجار الأرزية الحراجية، الضخمة. حيث يسود الغبش الشديد، كأنه ظلام الليل، ولكن أغصان الأشجار كانت تنخل المطر وتخفف من وقعه. وفي وسط فسحة، خالية من الأشجار، برزت ثلاثة منازل مبنية بجذوع الأشجار. واحد منها بدا وكأنه مأهول بالسكان.

فسأل «نيكيتا» السائق:

- أهذا هو المنزل الذي سننتظرك فيه؟

فأجابه السائق:

- نعم، وسترتاحان، وتكونان على ما يرام، أثناء الانتظار، وأنا سأعود بعد ثلاث ساعات.

- ولكنّ «نيكيتا» لم يكن يبدو عليه أنه مقتنع بما سمع، ولذلك اقتاد السائق وانتحى به جانباً، وتحدث معه بصوت خافت. وعندما عاد نحو «صوفيا» بدا قلقاً، مشغول البال، وقال لها:

- سيدتي، لا ينبغي لنا أن نذهب إلى هذا المنزل.

- ولماذا؟

- لأنه يخصّ أحد السّحرة!

- وما هو الساحر؟

- الساحر عرّاف سيبيري، يعيش بمفرده، يتحدث مع الحيوانات ومع النباتات، ومع الأرواح...

- يا لها من قضية غريبة! أيمكن أن تخاف منه؟

فاضطرب «نيكيتا»، كما لو أنها اعتبرته قليل الحظ من التعليم، وأنها لامته على ذلك.

واستأنفت الكلام:

- ومع كل ما قرأته وتعلمته، كان عليك أن تسخر من هذه الترهات وهذه السخافات! فمن المحتمل أن يكون هذا الساحر رجلاً طيباً، وأنا أشعر برغبة قوية للتعرف عليه. وعلاوة على ذلك، فليس أمامنا خيار آخر.

فتمتم «نيكيتا»:

- كما تشائين، يا سيدتي، ولكن الكتب لا تشرح كل شيء.

وتقدموا نحو البيت. وعندما وصلوا، قرع السائق الباب. فبدا على العتبة رجل قصير القامة، متوسط العمر، اصفر البشرة، وله شقان منحرفان مكان العينين، ليس له حاجبان ولا لحية، فمه ضاحك يبدو فيه سنّ يتخلخل. وعلى رأسه طاقية مدببة، ويرتدي سترة طويلة مصنوعة من جلود

الرنة. وحيّاه السائق، وهو ينحني بجذعه الأعلى، وقال له بضع كلمات بلغة محلية غير مفهومة. عند ذلك، خاطب الساحر المسافرين، باللغة الروسية:

- اسمي «كوبالدو». وليكن منزلي، منزلكم، طوال الوقت الذي ترغبون الإقامة فيه!

فشكرته «صوفيا»، وسبقت «نيكيتا» في الدخول إلى ذلك البيت الصغير، فداهمت أنفها رائحة اللحم المجفف والبول والصوف المغسول. وعلى الجدران بدت بعض جلود الحيوانات: ذئب، سمور سيبيريا «زبلين»، ثعلب، وسنجاب. وهي معلقة بمسامير. دقت في قوائمها الأربع. والنافذة الوحيدة كانت مزودة بالأوعية الرقيقة والشفافة التي تنتزع من جوف الأسماك، بدلاً من الزجاج.

وفي وسط الغرفة كانت النار تشتعل في موقد مكون من ثلاثة أحجار، والدخان يخرج من فوهة في السقف. وكان في الغرفة بعض الصناديق المصنوعة من الخشب الأبيض وتحمل كتابات باللغة الصينية، هي كل ما في البيت من أثاث. ومدّ «كوبالدو» بعض جلود الرنّة، على الأرض ودعا المسافرين إلى الجلوس عليها، وأن يثنيا سيقانهما.

وفي قدر وضع على الموقد كان يحضر الشاي الأحمر، أو شاي «كالموك» الذي يفضله السيبيريون على جميع المشروبات الأخرى.

وكانت «صوفيا» قد سمعت بهذا المشروب المغلي الثقيل، الذي يضاف إليه الحليب، دهن الخروف والملح، ولكنها لم تملك الشجاعة في أي يوم من الأيام أن تبلل به شفتيها. ولكن، عندما قدمه لهما «كوبالدو» كضيافة، لم تستطع أن ترفضه. كان قد ملأ أربع أواني بسائل كثيف، لونه يميل إلى البيج، وتفوح منه رائحة عفن الحظائر. فأفرغ السائق إناءه بجرعة واحدة وبمتعة وسرور، حيّا الجماعة، واعدا بالعودة بسرعة السهم. وبعد أن انصرف، شرب «نيكيتا» و «صوفيا» بدورهما، تحت نظرات

الساحر، الحادة. ومن الجرعة الأولى، شعرت «صوفيا» بحرارة النار في خديها. وهذا الطعم الخاص بالأعشاب المحروقة، وبالدهن، لم يكن يطاق. واشمأزت وشعرت بالغثيان، فطلبت قليلاً من الماء لكي تبرد وترطب فمها.

فقال لها «كوبالدو»:

- سأجلب لك ماء، نأتي به من نبع نقي جداً، لم تعرفي مثيلاً له، على الإطلاق!

كان صوته يشبه صوت امرأة مسنة، ويتكلم اللغة الروسية بلكنة شرقية واضحة واعتبرته «صوفيا» ظريفاً ومسلياً، ولكنّ «نيكيتا» كان ينظر إليه بريبة وحذر. وهمس لـ «صوفيا» بينما كان مضيفهما يتجه وهو يتمايل بمشيته نحو داخل البيت:

- لا ينبغي أن تشربي من مائه، يا سيدتي.

وعاد الساحر، حاملاً بإحدى يديه جرة، وبالأخرى حجراً أسود. وبجدية ووقار، ألقى الحجر في الجرة.

فسألته «صوفيا»:

- لماذا فعلت ذلك؟

فأجابها:

- هذا الحجر ليس حجراً عادياً، إنه نجم سقط من السماء، أمامي، في أحد الأيام. وقد ولد بعيداً، بعيداً جداً في أعالي الفضاء، كالماء الذي أقدمه لك والذي ولد بعيداً جداً، في أعماق الأرض. وعندما أجمع بين الحجر والماء، فإني أغلق حلقة الخليقة. ويمكن أن ينتج عن ذلك سعادة عظيمة...

فهشت له «صوفيا». وبرقت عينا «كوبالدو»: بين جفونه المتقاربة، والمرتعشة، وسألها:

- ألا يمكن أن تكوني بحاجة للسعادة؟

فأجابته:

- أوه! بلى، الآن وفي أكثر من أي وقت، ومن أي شيء كان!

- إذن، لماذا تبتسمين؟ السعادة كالأفعى، تُسحر بالإشارات. وأنا لا أعرفك، ولكني أقرأ في روحك، وما هو في ذهنك. لقد عانيت من كثير من الآلام، وأنت مستعدة لتحمل المزيد من هذه الآلام أيضاً، لكي تلتقي بزوجك. أما هو، فإني لا أراه، ولكني عندما أفكر به، اسمع جلبة سلاسل وقيود...

فظلت «صوفيا» برهة، حائرة منذهلة، ثم قالت في سرها إنّ الساحر قد حصل على هذه المعلومات قبل قليل من السائق، الذي حصل عليها بدوره من مدير محطة الاستراحة. ومع ذلك، فقد بدا «نيكيتا» مندهشاً بالمقدرة التنجيمية التي يتمتع بها «كوبالدو». وخلال لحظة ساد فيها الصمت، اقتربت العاصفة من المنزل، يرافقها انقصاف وطقطقة الأغصان، وانهمار المطر، وزقزقة العصافير المرعوبة. وفي لهب الموقد، كان يبدو صراع الديكة. وريش من الظل والضوء، يتناثر في كل مكان. والعجوز السيبيري، الذي يأتيه الضوء من الأسفل، كان جبلاً من التجاعيد، وبشرة وجهه كانت مجعدة كجلد حذائه. وخلف منكبيه، كان يتحرك على الجدار شبح على رأسه طاقية مدببة.

وسألته «صوفيا»:

- ماذا يمكنك أن تقول لي، غير ذلك الذي قلته؟

- لا أستطيع أن أقول لك شيئاً مهماً. يجب أن تبقي معي وقتاً أطول. إنك تتمتعين بطباع تتصف بالصلابة، وهذا يمنعك من معرفة بعض الأفراح والمسرات والتمتع بها، وهي من أبسطها.

- ليس عني أريدك أن تحدثني.

- عمن إذن؟

- عن الرجل الذي اذهب للقائه.

- أكرر لك ما قلته، وهو أني لا أراه.

- حاول، مرة أخرى!...

ودهشت لكونها شعرت بأنها تدخل في لعبة الخرافات والمعتقدات الباطلة، التي كانت ترفضها وتستنكرها على الدوام. ولكنها وهي في حالة القلق الشديد التي أصبحت تعاني منها، فقد صارت جميع الطرق والوسائل بالنسبة لها مناسبة وصالحة لاكتشاف المستقبل. وبإحساس بالضيق الشديد، ألحت عليه، قائلة:

- هل هو حي؟

فقال الساحر:

- نعم.

فشعرت بالارتياح، وأدركت، في الحال، أنّ هذا أمر مضحك وسخيف. كانت تربيتها العقلانية تتصارع بقوة مع الإغراء باكتشاف الخفايا والأسرار.

- هل هو بصحة جيدة؟

- أعتقد ذلك. ولكني لا أستطيع أن أفيدك أكثر من هذا، وألا فإني يمكن أن أكذب، ومع ذلك، فإن هذا ينبغي أن يكفيك، وعليك أن تستلمي للأقدار، وأن تسيري مع التيار...

وملأ قدحاً خشبياً، حتى حافته، وقدمه لـ «صوفيا». فشربت وبدا لها أنّ عذوبة البراري قد دخلت إلى فمها، وقالت له:

- ماؤك رائع!

فانحنى أمام المرأة الشابة، تناول القدح من يدها، وقدمه إلى «نيكيتا» وأمره قائلاً:

- دورك، الآن.

فقال «نيكيتا»:

- كلا.

- لماذا؟

- لا أشعر بالعطش.

- قل، بالأحرى، أنك حذر وخائف!

- هنالك شيء من هذا، أيضاً!

فتمتمت «صوفيا»:

- هذا غير معقول! هيا اشرب!

وقال الساحر:

- لقد دخلتما سوية إلى بيتي، وستخرجان منه سوية، فإذا رفض أحدكما أن يشرب من ماء السعادة، بينما يكون الآخر قد شرب منه، فكل ما ينبغي أن يكون أبيض، يصبح عند ذلك، أسود.

فبدت تعابير الخوف على وجه «نيكيتا»، وتناول القدح، وأفرغه في جوفه بجرعة واحدة، ثم رسم إشارة الصليب على فمه.

فقال الساحر:

- ارسم قدر ما تشاء من إشارات الصليب. لقد رأيت كهنة ومرسلين، ورجال بعثات وغيرهم، وأعرف كل ما تحويه كتبهم.

وأنا لست عدواً لهم. وكل ما هنالك، أنّ إلههم يعيش في منزل، فوقه صليب، بينما إلهي، أنا، يعيش في ورقة شجرة السندر، في بطن «الزيلين»، سمور سيبيريا، في عروق الأحجار، في بيضة البدغة «أوحية الزجاج»، وفي الضبابة التي تتصاعد من النهر...

فقال «نيكيتا»:

- بالنسبة لنا أيضاً، الله هو كل هذا، ولكن، علاوة على ذلك، هنالك السيد المسيح ودروسه، وتعاليمه التي تحث على الخير والطيب...

فتأرجح «كوبالدو» عدة مرات، من الأمام إلى الوراء، على طريقة إحدى لعب الأطفال.

- أعرف جيداً قصة السيد المسيح. فقد كان ساحراً وعرافاً عظيماً، وربما كان أعظم من جميع السحرة والعرافين... ولكن أنتم، المسيحيين، تقولون إنه مات على الصليب، أما نحن، هنا، فنظن أنه ظلّ حياً، بعد أن تعرّض للتعذيب.

فصاح «نيكيتا»:

- ماذا؟ كيف يمكن أن يكون قد حصل هذا؟

- سأشرح لك ذلك، كما شرحه لي فيما مضى معلمي الذي علمني الحكمة. فالسيد المسيح صلب في يوم الجمعة، أليس كذلك؟

- نعم.

- وقد جرت العادة أن يترك المحكومون، في حالة النزع الأخير، ثلاثة أيام على الصليب، ولكنه هو، فك عن الصليب في اليوم التالي، أي يوم السبت، ولأنه «سبت» وأثناء «السبت» يتوقف كل شيء عند اليهود. والجندي الذي كان يجب عليه أن يجهز عليه بطعنة رمح، سحب له من خاصرته قليلاً من الدم والماء، الأمر الذي يثبت أنه كان لا يزال على قيد الحياة، ثم أعيد إلى أمه. فاعتنت به وعالجته، في مخبأ يقع تحت سطح الأرض. وبعد ذلك بثلاثة أيام، استطاع أن يتكلم. فأطلق حواريوه على هذا الشفاء، اسم البعث أو القيامة. وظل طوال أربعين يوماً يبدو بين الناس المحيطين به. ثم غادر المدينة. ولكنه لم يصعد إلى السماء كما يعتقد أولئك الذين يصلون له، بل لجأ إلى الصحراء وعاش فيها وهو في سن الشيخوخة، منصرفاً إلى التفكير والتأمل.

فتمتم «نيكيتا» وهو يضم يديه:

- السيد المسيح... السيد المسيح عجوز في سن الشيخوخة؟...

أنت مجنون!...

فقال «كوبالدو»:

- ولماذا يكون السيد المسيح العجوز أقل حقيقة من السيد المسيح الشاب؟ وهذا النقاش اللاهوتي أدهش «صوفيا»، وأخذت تتساءل من أين يستمد هذا الساحر المجوسي- وهو، دون شك، لا يجيد حتى القراءة- كل هذه المعرفة.

وسألته:

- متى إذن، حسب رأيك، يكون السيد المسيح قد توفي؟

فأجابها «كوبالدو»:

- لا أعرف شيئاً عن ذلك، بالضبط، ولكن في سن متأخرة، دون شك، تذكري ما حدث لذلك الذي تدعونه القديس «بولس»! «أنت ترين أني أعرف كثيراً من الأمور» عندما يتحدث عن الرؤيا التي حصلت له على طريق دمشق، فهو يكذب. إنه السيد المسيح بلحمه وعظامه هو الذي التقى به. السيد المسيح العجوز، والذي كان في مثل سني أنا الرجل العجوز، بل وربما أكبر سناً مني! والسيد المسيح العجوز أدخل المسافر «بولس» إلى بيته الصغير، وتحدثا معا عن السر العظيم، كما نتحدث نحن في هذه الأمسية. وآمن المسافر «بولس»...

وصمت «كوبالدو»، ولكن قسمات وجهة اللدنة كانت ترتعش، بحيث يُخيل لمن ينظر إليه أنه يتابع الحديث مع أحد ما، غير الشخصين الموجودين، بلغة لا يمكن أن يسمعها عامة الناس. وتعالى صهيل حصان، حزين، كأنه صوت استغاثة، وطلب للنجدة وللمساعدة، فاندفع «نيكيتا» بسرعة، إلى خارج البيت: كان الحصانان هناك، في مربطهما، تحت المطر، وغير بعيد عنهما، كانت العربة المحطمة، وقد بدت غير صالحة للاستعمال. فعاد إلى البيت وقد أحنى رأسه، وكان الساحر، يقدم هناك

لـ «صوفيا»، صحنا فيه حبوب الصنوبر، فقرطت بعضها وقالت عنها أنها لذيذة، وأخذت تسأل مضيفها عما يصطاده في الغابة. فتحمس «كوبالدو» وأخذ يروي لها كيف يهاجم الدب، ويحدثها عن الطريقة التي يجذب بها بعض الحيوانات الأخرى من أوكارها، وكيف يصطاد «اليحامير» والأيائل في حفر مغطاة بأغصان الأشجار.

وقال:

- في معظم الأحيان، عندما يسقط «يحمور» في إحدى تلك الحفر، يلتقي فيها بالذئب الذي كان يطارده، ولكن الذئب، في هذه الحالة، وهو حبيس في الحفرة لا يمس طريدته. بعد أن وحدت المصيبة بينهما...

وحدة المصاب: هاتان الكلمتان ذكرتا «صوفيا» بـ «نيقولا»: فخجلت من الراحة الممتعة التي أتاحها لها هذا التوقف. بينما كان عليها أن تستاء وتلعن كل حادث يعيقها ويؤخرها في رحلتها. وهل حل غسق المساء حتى أظلمت النافذة المغطاة بطبقة رقيقة صفراء؟ فالوقت يمر بسرعة في هذا المكان الذي تخيم عليه الوحدة ومظاهر السحر. كان المطر قد توقف، ولكن قطراته لا تزال تتساقط عن أشجار الغابة.

وألقى «كوبالدو» بعض قطع الحطب في النار، فتصاعد لهيبها. وشعرت «صوفيا» بثقل في رأسها. فربما كان «نيكتا» محقاً عندما حذرها من قدرات الساحر؟ أيمكن أن يكون الماء الذي شربته، شراباً سحرياً، يستطيع أن يغير كل تهيؤات وأحوال النفس البشرية؟ وابتسمت لهذه الفكرة، التي لم تكن من عادتها أن تؤمن بها أو بما يشبهها من الأفكار.

وقال «نيكيتا»:

- ينبغي أن يكون قد عاد!

فتمتمت، وهي شاردة الذهن:

- نعم، دون شك!

- وإذا لم يرجع قبل أن يخيم الظلام، فماذا سنعمل؟

فقال الساحر:

- تنامان هنا، تحت سقف بيتي.

فقال «نيكيتا»:

- كلا، سأمتطي أحد الحصانين، وأذهب لملاقاته...

فقالت «صوفيا»:

- ستكون هذه أفضل طريقة لكي تخطئه ولا تلتقي به!

ثم أضافت، بصوت خافت:

- كما أني لا أستطيع البقاء بمفردي هنا!

فاقترح عليها، قائلاً:

- إذن لنذهب سوية!

- والأمتعة؟ والعربة؟

فاقتنع ورضخ.

وفي غضون ذلك، كان الساحر يفرك يديه الطويلتين المعروقتين ويضحك:

- أيها المسافرون، أيها المسافرون، انسوا من أين أنتم قادمون، أنسوا إلى أين أنتم ذاهبون، انسوا من تكونون! فالحياة أقصر من أن تجعلنا نضيع كل فرص السعادة! يوجد هنا، في مناطقنا، ديك كبير يعيش في الغابات، يزن أكثر من خمسة عشر كيلوغراماً، ريشه رمادي وأسود، حاجباه أحمران، ومنقاره معقوف. في الربيع، ينادي الإناث، من أعلى إحدى الأشجار، بهديل، يتبعه بصراخ حاد ومقتضب. وأثناء إرساله الهديل، يكون الديك- وقد فتح جناحيه، ونفش ريش ذنبه، ومد عنقه نحو السماء، واستسلم للنشوة- قد فقد مفهوم وحس الشعور بالخطر، لدرجة أنه لا يسمع حركة الصياد الذي يقترب منه ليطلق عليه النار. ونحن نطلق على هذا

الطائر لقب: «المتصنع الطرش»، لأنه يصمّ أذنيه عن كل ما لا يتيح له الفرح والسرور، ويجب على المرء أن يستطيع تصنع الطرش، أحياناً، في الحياة...

فأخذ «نيكيتا» ينظر بقلق إلى «صوفيا» ألا يغيظها هذا الساحر العجوز الثرثار؟ كلا، فها هي تبتسم، غير واعية، وخالية البال، كما لو أنها تقوم برحلة ترفيهية من أجل المتعة، وأنّ رفيق طريقها، ليس عبداً رقاً.

وقالت لـ «كوبالدو»:

- حكايتك ظريفة جداً، ولكني إذا كنت قد فهمت جيداً مغزاها، فإنّ الذين يتصنعون الطرش، يكونون على الدوام تقريباً، ضحايا لتهاونهم ولاستهتارهم.

- أليست أفضل ميتة هي التي تخطفك وأنت في ذروة الحياة؟

فقالت «صوفيا»:

- أنا لا أعتقد ذلك.

- أنت رزينة ومتعقلة أكثر مما ينبغي! لا بد أنك لست من بلادنا! وعلاوة على ذلك، فلهجتك غريبة! فأين ولدت!

فأجابته:

- في فرنسا.

فبدأ «كوبالدو» كأنه يحلم عبر جفونه المرتعشة، وقال:

- فرنسا.... بعيدة جداً!... أعرف كثيراً من الأمور عن فرنسا... الثورة... نابليون... سأهيء لكما مرقدين صغيرين بجانب الجدار..

فقال «نيكيتا» بسرعة:

- كلا، لا تفعل ذلك!

فسأله «كوبالدو»، وهو يمط شفتيه، متهكماً:

- أنت تريد أن يسرع سائق العربة بالعودة إلى هنا؟

- نعم.

فالتفت العجوز نحو «صوفيا»، وسألها:

- وأنت، أيضاً، يا سيدتي؟

فأجابته:

- نعم.

- إذن، سيكون الأمر كما ترغبان.

وضمّ الساحر ذراعيه على صدره، أحنى رأسه، وأغمض عينيه. وبعد برهة طويلة، سمعت «صوفيا»، رنين أجراس، يقترب عبر ظلام الليل.

٢

العجلات التي أصلحت في «بود يلنيتشنايا» تحطمت من جديد عند مغادرة «مارينيسك». ومقدمة العربة التي انخلعت رزاتها الحديدية، انفصلت عن الصندوق، في الطريق، بين «مارينيسك» و «سوسلوفا»، وقد غيرت المحاور والنوابض ثلاث مرات بين «سوسلوفا» و «تياجشكايا». وعربة «سان بطرسبورغ» التي قست عليها وأرهقتها طرقات سيبيريا، أخذت تستغيث وتطلب العفو والرحمة. فنصح «نيكيتا» «صوفيا» بأن تبيعها، حتى ولو كان بثمن زهيد، وأن تشتري، بدلاً منها عربة أخرى من نوع «ترنتس» وهي الصالحة للسير على تلك الطرقات، من أجل متابعة الرحلة. ولكنها إذا كانت ترغب بالحصول على عربة جيدة، فإنها ستجدها في «كرسنويارسك» وليس في تلك القرى الصغيرة المنتشرة على جانبي الطريق.

ووصلا في الليل إلى تلك البلدة الكبيرة الممتدة على ضفة نهر «اينيسيي». وبشكل غير متوقع، كان لدى مدير محطة الاستراحة غرفة نوم شاغرة. وهكذا، فقد استطاعت «صوفيا» أخيراً أن تغتسل من رأسها إلى أخمص قدميها، وتعطي ملابسها الداخلية لمن يغسلها، وأن تنام في سرير حقيقي ومريح. وفي اليوم التالي، خرجت مسرورة إلى الشارع، نظيفة ومرتاحة. وبعد أن قطعت تلك المسافات الطويلة وهي في عزلة عن الناس طوال الوقت، فقد شوشت لها نظرها حركة الناس والعربات الناشطة في المدينة. كان أكثر البيوت لونها احمر داكن، بلون الجبال القريبة والمحيطة بها. وعلى الأرصفة المغطاة بألواح خشبية، كان الروس الذين يرتدون الملابس الأوروبية يمرون

بالآسيويين ذوي الوجوه العريضة والصفراء، الذين يرتدون الملابس الواسعة والفضفاضة. واقتاد «نيكيتا» «صوفيا» إلى محل صانع عربات، كان لديه، حسب رأي مدير محطة الاستراحة، أجمل عربات العالم.

فوجدا لديه عربة بأربع عجلات، لا يستند صندوقها على نوابض حديدية بل على ثماني قطع خشبية أسطوانية الشكل، طويلة ومرنة، لكي تخفف الصدمات. واندس «نيكيتا» تحت العربة، لكي يتفحصها جيداً، هو والبائع، ويأخذ القياسات اللازمة، فتبين له أنها مرضيه، بل مثالية، وتفقد أيضاً العجلات، وتلمس أطرها الحديدية، وحك بالسكين طلاء أحد المحاور، الذي ظن أنّ به شقاً، ولكنه وجده سليماً، ومع ذلك فإنّ «صوفيا» كانت قلقة لأن العربة ليس فيها مقعد. فشرح لها البائع الموضوع قائلاً إنّ هذا شيء اعتيادي في هذا النوع من العربات، فالمسافرون يضعون حوائجهم في الصندوق. بطريقة تصبح كالمقعد أو كالمرقد، يسدون الفراغات بالقش، ويمدون فوق الحوائج والأمتعة جلود الخراف والأغطية. وكان للعربة غطاء من الجلد، يبسط ويطوى، حسب رغبة المسافرين، وستار واق عريض يحمي مقدمة العربة. ومقابل هذه العربة الجديدة تقريباً طلب البائع ثلاثمئة روبل والعربة القديمة. وكانت «صوفيا» على استعداد للموافقة على هذه الصفقة، ولكنّ «نيكيتا» استشاط غضباً، ولمع بريق حاد كالخنجر في عينيه الزرقاوين، وأمسك صانع العربات من ياقته، متهماً إياه باستغلال الوضع، وهدده بأن يسحق له «بوزه» إذا لم يخفض الثمن إلى النصف. ولم تكن «صوفيا» تتصور أن خادمها الوديع، يمكن أن ينفجر، غاضباً، بهذا الشكل. والبائع الذي شعر بالخوف، لأنه، على ما يبدو طلب بعربته ثمناً باهظاً، أخذ يتلعثم، قائلاً إنه ليس متوحشاً، وأنه يوافق على المساومة، ومناقشة موضوع الثمن، ومن مبلغ إلى مبلغ، خفض الثمن إلى مئتي روبل. على أن يشمل هذا الرقم تقديم علبة شحم للعناية بمحاور العجلات، وقطع

حبال رفيعة وثخينة، حزمة شموع، ومجموعة مسامير متنوعة، وبلطة وبعض الأدوات الأخرى اللازمة لإجراء بعض الإصلاحات الضرورية على الطريق. وعند ذلك رأى «نيكيتا» أنّ الصفقة أصبحت مناسبة، وأن العرض معقول جداً فمد يده ليشد على يد البائع، إعراباً عن الاتفاق التام على كل شيء.

ومن جملة ما اتفق عليه أن العربة بعد أن تنظف وتشحم، يجب أن تُسلّم، الساعة السادسة صباحاً، أمام مدخل محطة الاستراحة وعندما خرجا من المحل، سألت «صوفيا» «نيكيتا»:

- لماذا غضبت هكذا؟

- لأنّ هذا الرجل كان يحاول أن يغشك وأن يسرقك، يا سيدتي! وقد قرأت ذلك في عينيه، ولم أستطع أن أتحمله!...

وأرادت أن تزور المخازن الموجودة في مركز المدينة. وكانت زينتها تلفت النظر وتُثير فضول المارة، وكان بعضهم يلتفتون لكي ينظروا إليها، فكان «نيكيتا» يحدجهم بنظرة حادة. ولم يعد يمشي على بعد خطوة أو خطوتين خلف سيدته، بل بجانبها وذراعاه متدليان، قوياً حذراً ومتحفزاً، وعلى أتم استعداد للدفاع عنها، فيما لو حاول أحد ما إزعاجها. وكانت تسر لرؤيتها إياه كأنه فارس في خدمتها. كان قد أمضى جانباً من صبيحة ذلك اليوم في الحمام، وما زالت رائحة الصابون تفوح منه، وشعره الطويل يلمع كالقش تحت أشعة الشمس. وقميصه نظيف. وفكرت بأنها كان يمكنها أن تهديه قميصاً آخر، أزرق أو أبيض. ولكنّ هذه الفكرة لم تلبث أن زالت من ذهنها، بعد برهة قصيرة، فالذي ينبغي عمله قبل كل شيء هو تدبير ما يلزم من زاد وأطعمة، من أجل متابعة الرحلة. فاشترت «صوفيا» منها بمبلغ خمسين روبلاً. وبعد أن وضعت العلب والصرر في كيس، حمل «نيكيتا» الكيس على ظهره. وتناولا على العشاء طعاماً سيئاً، في محطة الاستراحة، وناما في وقت مبكر، هي في غرفتها وهو في

القاعة العامة. وقبل شروق الشمس، ذهب فقرع باب غرفتها: كان سائق العربة ينتظر، هو والأحصنة، في الباحة.

في «الترنتس» العربة الجديدة، كانت الارتجاجات أشدّ عنفاً بكثير مما كانت عليه في العربة السابقة، ولكن كان يبدو أنّ تركيب القطع الخشبية يتحمل كل صعوبات وعقبات الطريق. و «صوفيا» وهي نصف مستلقية في صندوق العربة، على حوائجها وأمتعتها، كانت تبدو كإحدى ملكات العصور القديمة، وهي تتنزه بمشقة في هودجها. و «نيكيتا» الجالس بقربها، لم تكن نظراته تتحول عنها، وكانت هذه النظرات تنم عن التوسل، كأنه يريد أن يعتذر بها عن وعورة الطريق. وهبت ريح سريعة شوشت المنظر، وقلبت وضع أغصان وأوراق الأشجار، وحولت تموجات مياه النهر إلى الاتجاه المعاكس. وكان يجب عبور الساعد الأول لنهر «الاينيسيي» بالمعدّية، واجتياز جزيرتين يصل بينهما جسر مكون من عدة قوارب، ثم الصعود إلى معدية ثانية لعبور ساعد النهر، الأخير. ونزل «نيكيتا» و «صوفيا» من العربة. بينما كانت تفك الحبال. وكانت المعدية الثقيلة، المعلقة بحبل معدني ثخين «كبل» ممتد بين ضفتي النهر، تسير بشكل منحرف، مدفوعة بقوة التيار فقط. وعلى مسافة تزيد على كيلومتر، كانت ضفة النهر الأخرى، تبدو ضبابة من الخضرة، تبرز من خلالها قمم الجبال، الوردية والزرقاء. وهذا الانسياب البطيء والصامت على مياه هادئة، أحدث انطباعاً لدى «صوفيا» بأنها تبحر مندفعة نحو سراب. وخلفها كان يتدافع قرويون، عربات صغيرة، خيول وثيران، وكل سكان وماشية إحدى الجزر، مع التيار وعلى غير هدى. وكان الناس والحيوانات، ساكنين لا تبدر منهم أي حركة، ولا كلمة، كالخرسان وكأنهم منذهلون من غرابة هذه الرحلة غير الاعتيادية، وكأنها تحصل في غير وقتها المناسب. وتمتمت «صوفيا» وهي تقف بالقرب من «نيكيتا» متكئة على حاجز المعدية:

- سيستغرق هذا العبور، ساعة على الأقل!

فنظر إليها بحزن:

- نعم، يا سيدتي، فقد نفد صبرك، وترغبين الوصول بسرعة إلى محطة الاستراحة، أليس كذلك؟

- كما هي العادة، دائماً!

- ومع ذلك، فالمنظر الذي نراه هنا، جميل!

- إنه جميل جداً، يا «نيكيتا»، ولكني لست خالية البال ومرتاحة الفكر، كي أستطيع الإعجاب بالمناظر.

- فهمت، فهمت...

فأدركت أنها آذته، وأنه كان يعطي أي شيء لكي يراها تبدو سعيدة، وأنّ هذه الرحلة الطويلة التي لا نهاية لها، المثيرة للقلق ولخيبة الأمل، التي تبدد فيها طاقتها وقواها، حتى دون أن تعرف متى تبلغ هدفها وتحقق الغاية منها، كانت بالنسبة له أجمل مغامرة، كان يمكنه أن يحلم بها في حياته. وأعفاهما من الكلام صوت تلاطم أمواج المياه، الذي تعالى آنذاك. وعلى حاجز الاستناد، شعرت أنّ يد «نيكيتا» قريبة من يدها، وكان الألم بادياً على وجهه. فابتعدت قليلاً. ولكنّ مرفقيهما كانا لا يزالان متلامسين. تغمرهما الحرارة الواحدة نفسها. وفجأة، وبحركة تنم عن الغيظ، ترك المرأة، وذهب فوقف في مؤخرة المعدية. ولم يرجع نحوها إلا عندما رست المعدّية عند ضفة النهر الأخرى. فلم تسأله عن سبب تصرفه الغريب.

كان الطريق يمتد بمحاذاة ضفة النهر اليمنى، ثم يتجه صعوداً مشكلاً منعطفات واسعة على سفح الجبل، حيث لا توجد غابات، بل حجارة وأعشاب، تحت شمس حارة. والعربة سارت بشكل مرضٍ، وتحملت وعورة الطريق وكثرة الحفر والأخاديد المنتشرة فيه. وفي كل محطة استراحة،

كانت «صوفيا» و «نيكيتا» يأكلان ويشربان بينما كان مدير المحطة يشرف على تبديل الأحصنة وتشحيم عجلات العربة.

ووصلت عربتهما على «أديار»، الساعة الحادية عشرة والنصف مساءً، لكي تستأنف السفر منها، عندما ينتصف الليل. والحوذي، وهو قروي في العشرين من عمره، كان ثملاً، وعند أول منعطف، انحرف بالعربة نحو المسيل وتدحرج هناك وأرسلت «صوفيا» صيحة تنم عن الرعب، والأحصنة وقد أجفلت واستولى عليها الذعر أسرعت في الجري، فلم يكن لدى «نيكيتا» إلا أن يمسك بأعنة الأحصنة، ويشدها. فتوقفت العربة عبر ضجة شديدة. ونهض الفتى ولحق بها وهو يضحك ويلوح بيديه، وصعد إلى مقعده، ولكنّ «نيكيتا» وجه له صفعة قوية على فمه، ودفعه جانباً وظل محتفظاً بأعنة الأحصنة، ولكنه لم يكن يعرف الطريق وأخذ يتردد في دفع الخيول إلى السير بسرعة. ومع أن السائق قد صحا من سكره، فقد غفا وهو يستند بكل ثقله على كتف «نيكيتا» كأنه كيس مملوء بالجوز. وكل أربع أو خمس ارتجاجات كان ينبغي تجليسه.

لم يكن الظلام دامساً، وبدت النجوم متلألئة في السماء، وأخذ «نيكيتا» يلتفت من وقت لآخر لكي يرى «صوفيا». لم تكن نائمة. وكان يميز بريق عينيها الذي ينم عن اليقظة والانتباه، في داخل العربة فبماذا كانت تفكر وهي تنظر إليه؟ واحتراماً لها، لم يسبق له أبداً أن اقترب من امرأة. وكان فخوراً، وقد حافظ على عفته وطهارته، بأنّ ليس لديه أي ذكرى لمتعة جسدية تلوث ولعه بها، ولكن منذ أن أعطاه الساحر ليشرب من مائه، أخذ يشعر أنه أسير سحر فاسق ومنحرف.

وهو الذي ما كان ليجرؤ فيما مضى على أن يعتبر «صوفيا» مخلوقة من لحم ودم، أصبح يدهش الآن من الجرأة التي لا يدري إلى أين يدفعه بها خياله. فقد فتحت فوهة في دماغه وأُطلقت جميع الرغبات التي كان

يكبتها، بدافع من الحياء، منذ سنوات عديدة. وهو يعرف أنه ليس سوى عبد رق، غير جدير باهتمام سيدة، هي، علاوة على ذلك تحبّ زوجها، وهي ذاهبة لتلحق به، ومع ذلك، فإنه كان، وهو يقود العربة في الليل لا يستطيع أن يمتنع، خلال بعض اللحظات، عن تناسي وضعه البائس. وبسبب خطيئة الساحر العجوز السيبيري، فقد أصبح حضور «صوفيا» ووجودها، بالنسبة له، ليس نعمة وبركة، كما كان فيما مضى، بل نقمة وعذاباً مقيماً. وفي اللحظة التي كان يعتقد أنه في أقوى حال، يمسه عطر حميمي جداً مؤثر جداً، لدرجة أنه يجعله يفقد سلسلة أفكاره، أو يكون أحياناً تغير في نغمة صوت، في التلفظ بكلمة، في بداية أو مشروع ابتسامة... عند ذلك ينصرف إلى التفكير، وقد التهب صدغاه، بملابس انتزعت، ويضيع تائهاً عبر الحماقات، جارياً وراء ما لا يمكن بلوغه وما هو غير واقعي. ولكن، هي التي شربت من الشراب السحري نفسه، لماذا احتفظت ببرودة أعصابها؟، ولم يكن له أي تأثير عليها؟ فقال لنفسه بجدية وأسى: «ذلك، دون شك، لأنها فرنسية، فأعمال السحر لا تؤثر فيها».

وقرر، بدافع من الانضباط، ألا يفكر بهذه المرأة، حتى الوصول إلى محطة الاستراحة التالية، ولم يستطع التمسك بقراره إلا لمسافة كيلومترين. فعندما التفت نحوها من جديد، كانت تغفو وقد سندت خدها على وسادة من الجلد، وغطت ركبتيها وساقيها بجلد دب.

كان وجهها بمثابة بيضة سحرية وضعها العصفور الناري الذي تتحدث عنه الأساطير الشعبية، في عش مفروش بالزغب الناعم، وهو مجرد فلاح روسي «موجيك» ينقل أعظم ثروة وأثمن ملكية في العالم.

كان جميع السحرة مستنفرين، الطيبون منهم والأشرار، المؤيدون له والمعارضون. وعلى جانبي الطريق، كانوا يبدون، بوجوههم الحجرية، ولحاهم المكونة من الحشائش والأعشاب، وأصابعهم الكثيرة الفروع،

نظـراتهم تـشبه النجـوم وأصـواتهم كهـدير الـسيول، وضـحـكـاتهم خبيثـة كضحكات الثعالب. كانت الأحصنة تستروح وجودهم وتشعر به وبخوف تهـز شـعر أعناقهـا. ولتهـدئتها رسـم عليهـا ثـلاث مـرات إشـارة الـصليب، ولـكنـه، منـذ أن سمـع مـا قالـه لـه الـساحر، لم يعـد واثقـاً مـن الاسـتجابة لدعائـه ولـصلواته. فـإذا كـان الـسيد المسيح لم يمـت مـصلوباً، أيمكـن أن يظل الناس يحتمون بإشارة الصليب؟ لقد ظلّت هنالك الصلاة، وأخذ يتلو: «أبانـا الـذي في الـسموات...» وبـسرعة كـبيرة، تحولـت الـكلمـات القدسية، على شفتيه، إلى تمتمة من الكفر والتجديف:

- أحبّها، أحبّها، أحبّها!...

لم يعد يتمتم أو يهمس همساً، كان يصرخ بأعلى صوته، عبر ظـلام الليل كانت نار الغرائز السيئة تضطرم في أوردته ودمائه. وأخذ يحترق بكليّته في لفحات لهيب الشيطان، وعن بعد، لا بد أن يظنه من ينظر إليه أنه شجرة تحترق وتلتهمها النيران. وهي لا تشك بشيء ولا تشعر بكل ذلك! بل ولم تكن تسمعه! كان ضجيج العجلات يطغي على صوته الهاذي. وهـذا مـن حسن حظه. لأنهـا لولا ذلك، لكانت انزعجت من وقاحته، وأعادته إلى «سان بطرسبورغ». وكان هو، يفضل أن يظل يتعذب ويتألم حتى الموت، على أن يحرم من رؤيتها. وليمت وفي صـدره وهـو القـزم، حلـم رجـل عمـلاق. كانـت الـدموع تترغـرغ في عينيـه وتـشوش عليـه الرؤيـة. فمـاذا يحـدث هنـاك؟ في آخـر الطريـق؟ ومـا هـي تلـك الأضواء؟ آه! هذه محطة الاستراحة! فخفّ هيجانه. كالطائر الذي يشعر بنشوة السكر في الأجواء، فإنّ عليه مع ذلك أن يحط في مكان مّا، لكي يرتاح ويستردّ قواه، وهكذا فإنه يشعر بالارتياح، بالهبوط ثانية إلى مستوى الأرض. فقد خُلق لكي يبلغ أعلى درجات حرارة الوله، ولكن ليس ليظل مقيماً فيها. وإذا كان يريد التمكن من أن يظل يحب بشكل جنوني، فيجب أن يكون، في بعض الأحيان، قد تخلص من الحب.

وأعاد «نيكيتا» أعنّة الخيل لسائق العربة وحتى الفجر تابعت «صوفيا» و «نيكيتا» السير، دون إضاعة الوقت في محطات الاستراحة. وعبر غبش الصباح، لمحت «صوفيا» في الجهة اليمنى، قمم جبال «سايان» المغطاة بالثلج، التي تشكل حدود منغوليا في «كنسك» أنذر مدير محطة الاستراحة زبائنه المسافرين أنّ بعض اللصوص وقطاع الطرق قد شوهدوا في الغابة، على بعد بضع كيلومترات من المحطة: «ليسوا أشراراً وقساة، فهم يستولون على الأمتعة والأحصنة، ويتركون الناس وشأنهم...»

فتحمس «نيكيتا» في الحال. فهو يحلم منذ زمن طويل بأن يجازف بحياته دفاعاً عن سيدته. ويمكنها عند ذلك، أن ترى ماذا يستطيع أن يفعل. فتأثرت «صوفيا» بما أبداه من شجاعة وتصميم. واستأنفا رحلتهما برفقة سائق جيد وأحصنة سيئة. وكان «نيكيتا» من أعلى مقعده، وفي قبضته سكين كبيرة، يتفحص جوانب الطريق، وهو يفكر: «أن أهزم عشرة، عشرين عدواً، وأن أُصاب بعدة جروح، وتغطيني الدماء، والفظ النفس الأخير عند قدمي سيدتي، وأنا أبوح بحبي! نعم، وأنا على وشك الموت، سأجرؤ على أن أقول لها ذلك، ولكن ليس قبل أن أكون في النزع الأخير، ليس قبله، وليغفر لي الله!» وفيما يتعلق باللصوص فإنهم لم يلتقوا بأحد منهم، بل التقوا بمجموعة من النساء العجائز، يسرن بخطوات وئيدة، وكل واحدة منهن على كتفها خرج وفي يدها عصا تتوكأ عليها.

فصاح بهن سائق العربة، بعد أن أوقف أحصنته:

- إلى أين تذهبن، يا أمهاتنا العزيزات؟

فأجابته إحداهن:

- إلى دير **La Trinite De Sanint Serge**

- هذا الدير يقع بالقرب من موسكو! فلن تصلن إليه، قبل سنة، من الآن!

- ليس للوقت حساب، ولا أي اعتبار، بالنسبة لمن يحمل الله في قلبه!
كان لهن وجوه غطاها الغبار والتعب، وعيون بلون المطر.

فتصدقت «صوفيا» عليهن، فبالغن بشكرها وبتحيتها. وبجانب حافة الطريق، كانت مجموعة من الحيوانات تراقب المشهد، منتصبة على قوائمها الخلفية الطويلة، وقوائمها الأمامية نحيلة وقصيرة، ملتصقة على صدورها، وقد مدّت آذانها، وأخذت تحملق بعينيها.

فسألت «صوفيا»:

- أهذه سناجب؟

فأجابها السائق:

- كلا، إنها يرابيع! وهي كثيرة هنا!

وعندما فرقع بالسوط، هربت اليرابيع، بقفزات متوالية. كانت تقفز، تستدير، وتحرك أذنابها في الهواء. ثم اختفت فجأة وآوت إلى أوكارها. وتوقفت جميع مظاهر الحياة في الأماكن المجاورة، بينما أخذ نسر يحلق في الجو.

وبعد «كليوتشنك»، دخلوا في غابة صنوبر. والطريق المحصور بين جدارين من أشجار الصنوبر كان فيه من الحصى أكثر من مجرى أحد الأنهار.

وفي الليلة التالية، وعند أسفل مرتفع، وبينما كانت الأحصنة منطلقة بسرعة، دوّت فرقعة، مالت العربة إلى الجهة اليسرى، وتدحرجت وهي ترتج، على مسافة طويلة، وتوقفت بصدمة مفاجئة، وأضطرت «صوفيا» إلى أن تتشبث بـ «نيكتا» لكي لا تهوي في الفراغ. كانت إحدى العجلات قد أفلتت من محورها، فأسرع السائق، وهو يجدف ليبحث عنها ويحضرها. وأشعل «نيكيتا» المصباح، وتوغل، هو أيضاً في الغابة. و «صوفيا» وقد بقيت وحدها في العربة، كانت تسيطر بصعوبة على مخاوفها. كانت تسمع

حفيف أوراق الأشجار، تحملق بعينيها في الظلام وهي تفكر باللصوص. وأخيراً، عاد الرجلان. وبحسن حظ يصعب تفسيره، فقد وجدا ليس العجلة وحسب، بل أيضاً العزقة، وحتى المسمار الذي يستخدم لتثبيتها. وبعد ذلك بعشر دقائق، سارت العربة، بعد أن أصلحت، بشكل جيد، يرافقها رنين الأجراس.

وفي اليوم التالي، انفرجت الغابة، وبدا الأفق واسعاً، وأخذت «صوفيا» تحصي الكيلومترات التي تفصلها عن «ايركوتسك»، حيث تستطيع معرفة المكان الذي سجن فيه «نيقولا»، والطريقة التي تتمكن بها من اللحاق به. ومع اقترابها من هذه المدينة، كانت أشباح ورؤى الرحلة تتبدّد من ذهنها لتحل محلها رؤية صحيحة للواقع وللحقيقة. ولأنها كانت متوترة الأعصاب، وقد نفد صبرها، فلم تعد تلاحظ حتى تعابير الحزن الواضحة على وجه «نيكيتا» وكان أشد ما يقلقها، على الخصوص، هو أن تعرف فيما إذا كانت العجلة ستقاوم وتعمل بشكل جيد حتى الوصول إلى المحطة التالية.

وفي «بوكوفسكايا» كان لا بد من إضاعة ساعة من الوقت من أجل إصلاح طوق إحدى العجلات. ولكنّ المحطة الرابعة والأربعين، وهي الأخيرة، لم تكن تبعد أكثر من ثلاثة عشر كيلومتراً. وأقسم السائق بأنه سيقطع هذه المسافة بثلاثة أرباع الساعة. كان طويل القامة، بديناً، ينتعل جزمة ضخمة، ويشد على خصره زناراً أحمر، شعره قصير، يقود العربة وهو واقف، ويغني بأعلى صوته. وفي السهل كانت تمر قطعان من الخيول البرية، وكان بعضها يروق له مرور العربة، فيرافقها بشيء من السرعة والمرونة، وشعر أعناقها تتلاعب به الريح، وعيونها دائبة الحركة، ثم تتوقف فجأة، لتلهو ببعض الأعشاب والحشائش التي كانت تهتز مع الريح.

وبعد أن اجتازت العربة أراضي جرداء ومرزغيه سبخة، وسارت بمحاذاة جدران دير ضخم، أسطحة أبنيته خضراء اللون، اتجهت نحو رصيف، من

ألواح خشبية، قائم على أعمدة، عند ضفة نهر «أنغورا». كان كثير من القرويين، جالسين على صناديق ورزم الأمتعة، وفي العربات، ينتظرون وصول المعدّية. ولكن المسافرين المزودين بورقة مرور، كان لهم الأولوية عليهم، ولذلك ابتعدوا لكي يفسحوا الطريق لتمر العربة. فدوى وقع حوافر الخيل على الألواح الخشبية. وعلى الضفة المقابلة، بدت «ايركوتسك» هادئة، عبر الغبش.

وفوق المنازل الصغيرة البيضاء، كانت قباب الكنائس، البصلية الشكل والمذهبة، تلمع كالخضروات الندية في بستان مدهش وعجيب.

٣

قال الجنرال «زيدلير»، حاكم «ايركوتسك» لـ «صوفيا»، وهو يدعوها للجلوس في مكتبه:

- أهنئك على سرعة قيامك بهذه الرحلة، يا سيدتي.

كان يتكلم بلغة فرنسية سليمة، ويلثغ بحرف الراء، وبدا شعره أشيب، وكتّافيتاه قد خف بريق ذهبهما، وقماش بزته، الأخضر يميل إلى الأصفر في مكان الطيات.

وتابع كلامه، بمودة ولطف:

- هل أنت مرتاحة في إقامتك؟

فقال له «صوفيا»:

- لم يتح لي الوقت لا تأكد من ذلك، فإني لم أكد أصل، حتى أسرعت إلى هنا!

- بالتأكيد! بالتأكيد! لقد نزلت عند ابن وطنك «بروسبير رابودان»؟

- نعم.

- فندق جيد! الفندق الفرنسي الوحيد في المدينة! وللأسف، فإنّ «ايركوتسك» ليست «سان بطرسبورغ»! وأتصور أنك بعد متاعب الطريق، وهذه الرحلة الطويلة، لا بد أن تكوني سعيدة بأخذ قسط من الراحة!

- سأكون سعيدة أكثر، على الخصوص، بمتابعة السفر بسرعة!

فتجهم وجه الجنرال «زيدلير» الأجرد، وكشفت ابتسامة لا تنم عن الفرح، عن أسنانه الصفراء:

- جميعهن متشابهات! الأميرة «تروبيتزكوي» والأميرة «فولكونسكي» لم تعبرا عن أفكارهما بصورة مختلفة، آه! لقد عقّد الإمبراطور مهمتي بصورة غريبة، بإرساله هؤلاء السيدات على طرقات سيبيريا!

فقالت له «صوفيا»:

- المعذرة، يا صاحب السعادة، فأنا قلقة جداً!... ألا تستطيع أن تدلني على المكان الموجود فيه زوجي؟

- وكيف لا أدلك على ذلك المكان، إنه في «تشيتا» فردّدت بلهجة تنم عن الشك والحيرة:

- في «تشيتا»؟

- نعم.

- وما هي «تشيتا» هذه؟

- قرية أقيم فيها أحد البيوت، خصيصاً لسجن المنفيين السياسيين.

- وهل هي بعيدة من هنا؟

- نعم، للأسف يا سيدتي!... ثمانمئة وسبعة وسبعون كيلومتراً!... وهي تقع فيما وراء «بايكال»!... طرقات فظيعة!... وعلاوة على ذلك، فالمنطقة ليست آمنة!...

- يا صاحب السعادة، أريد أن أطلب منك خدمة كبيرة: أيمكنني أن أحصل على أحصنة، غداً صباحاً؟

فصاح الجنرال «زيدلير»:

- وكأنك تريدين السفر بهذه السرعة! قليلاً من الصبر! ارني أوراقك، أولاً.

فناولته «صوفيا» تصريح مرورها، جواز سفرها وجواز سفر «نيكيتا».

فتفحص الجنرال هذه الأوراق بدقة وعن قرب، لدرجة أنه بدا وكأنه لا يقرؤها بل يشمها، ثم دسها في أحد أدراج مكتبه. وعندما سمعت «صوفيا» صوت المفتاح وهو يدور في القفل، انتفضت وسألته:

- لماذا احتجزت هذه الوثائق؟

- لكي تكون في مكان آمن، يا سيدتي، فهنالك خطورة، بالنسبة لك إذا فقدت.

- ولكني سأحتاجها.

- ليس قبل مرور بعض الوقت.

- وكيف ذلك؟

- إني أنتظر بعض التعليمات لكي أعرف فيما إذا كنت أستطيع أن اسمح لك بمتابعة رحلتك.

فظلت «صوفيا» لحظة، لا تفهم ماذا يعني، وأخيراً، تمتمت:

- هنالك، بالتأكيد، سوء فهم... القيصر، بالذات، أصدر أمره... وأوراقي نظامية!...

- وأوراق الأميرة «تروبيتزكوي»، والأميرة «فولكونسكي»، والسيدة «مورافيف» كانت أيضاً نظامية، ومع ذلك فقد احتفظت بها هنا، طوال الوقت الضروري من اجل إجراء تحقيقات إضافية. وفيما يتعلق بك أنت، فإن توصيات السلطات العليا هي أيضاً أكثر وضوحاً ودقّة. فقد تلقيت الأمر بوجوب القيام بتفتيش حقائبك وأمتعتك...

فصاحت:

- هذا عمل شائن ومعيب!

- مجرد إجراء شكلي، يا سيدتي، ورجالي أصبحوا الآن في الفندق، وبين لحظة وأخرى، ستصلني نتيجة التفتيش الذي قاموا به.

كانت تستشيط غضباً بعجز ودون جدوى. وفي وسط المكتب، كانت توجد إضبارة، كتب على غلافها اسمها، بخط اليد وبالحبر الأحمر.

وفك الجنرال رباط الإضبارة، تناول وثيقة من بين الأوراق وأجال نظره فيها دون اهتمام، وكأنه يريد أن يتذكر بعض الأفكار، وقال:

- آهّ يا سيدتي، لو أنك بقيت في المكان الذي كنت فيه!

إن إصرارك على المجيء إلى هنا سيسبب البؤس والمتاعب للمقربين منك، دون أن يحقق السعادة لزوجك...

وبدلاً من أن تصغي «صوفيا» لمحدثها، كانت تنظر إلى الورقة التي يمسكها بيده. فقد عرفت الخط، ولم تكن تستطيع أن تصدق عينيها: إنه خط عمها! فلماذا أرسل رسالة إلى حاكم «ايركوتسك»؟

وسألت:

- وما هذه، يا صاحب السعادة؟

فامتنع الجنرال عن الإجابة، وفتح الإضبارة لكي يعيد إليها الورقة المكتوبة بخط اليد. ولكنّ «صوفيا» سبقت حركته، وبسرعة البرق، نهضت وتناولت الرسالة، وقفزت نظرتها من جملة إلى أخرى: «ماضي كنتي السياسي... أرجو من سعادتك...»

فقال لها الجنرال «زيدلير» بصوت مدوٍ، ودون أن يتحرك عن أريكته:

- أعيدي لي هذه الورقة!

وبالكاد سمعته «صوفيا» وهي تائهة في ضباب ثورة غضبها، وتراجعت إلى طرف الغرفة وتابعت القراءة كيفما اتفق: «هل من المنطق، بعد أن أبعدت الحكومة إلى سجن الأشغال الشاقة المسؤولين عن تمرد الرابع عشر من كانون الأول «ديسمبر» الشائن والمعيب، تعود فتسمح لإحدى أشدّ المتحمسات لنشر أفكارهم والدعاية لها، بالإقامة بالقرب من السجن الذي يقضون فيه عقوبتهم؟... كان هنالك خطوات تقترب منها يرافقها رنين مهمازين. «وهذه المرأة التي نشأت في فرنسا، وتربّت على الطريقة الفرنسية، في بيئة تحتقر نظام الحكم الملكي والدين، تشكل خطراً جسيماً على النظام العام...

وما زال بإمكانك أن تمنع حدوث أسوأ ما في الأمر... احتجزها، وامنعها من متابعة رحلتها... أرجعها إلى «كشتنوفكا»...»

وانتُزعت الورقة من يدي «صوفيا»، وكأن هبّة ريح قوية قد خطفتها. واكتشفت الجنرال «زيدلير»، يقف بالقرب منها، طويلاً، نحيلاً، شاحب الوجه، جاحظ العينين، هزيل الخدّين، كان جثة مصعوقة.

وقال، مزمجراً

- جرأتك ستكلفك غالياً، أيتها السيدة!

فقال له «صوفيا»:

- إذا كنت لا تريد أن آخذ الورقة، فلماذا وضعتها بشكل واضح، تحت نظري؟

- لكي أذهلك وأربكك.

- إيه! لقد حصل ذلك: فها أنا منذهلة! ولكن بشكل يختلف عما تظن! منذهلة من خسة وأنانية عمي!...

والشكوك التي ساورتها عند زيارتها للجنرال «بنكندروف» قد تأكّدت الآن بشكل عنيف. فكانت كما لو أنّ حبلاً قد اعترض طريقها وأوقفها وهي منطلقة بأقصى سرعة. كانت تعتقد أنها حرة طليقة، فتبين لها أنها مربوطة بمقود. وبعد أن أوقفها «ميشيل بوريسوفيتش»، ألن يسحبها مرحلة بعد مرحلة، إلى الوراء؟ فهو يتحكم بها عن بعد. وقد اغتاظت كثيراً، لأنها لم تتبين مسبقاً هذه الإساءة، ولم تعرف كيف تتلافاها وتردّ عليها. كان الغيظ والقرف يصطخبان في رأسها. وفجأة، فقدت كل ثقتها بنفسها ورباطة جأشها. لأنها شعرت أنها تقاتل عدواً لا تستطيع النيل منه، فانهارت:

- إني آسفة، يا صاحب السعادة، بسبب الحركة التي قمت بها... ولكن، حاول آن تفهمني... هذه الرحلة الطويلة والمتعبة... وبوصولي إلى هنا، هذه الخيبة الفظيعة... فقد احتدّيت...

كانت تشعر بالخجل من الاعتراف بضعفها، ولكنها، في الوقت نفسه، كانت تعتقد أن الجنرال «زيدلير» سيتأثر بذلك. ومع شدة اضطرابها وقلقها،

شعرت بحدس نسائي ينذرها بأنها باستسلامها وباعترافها بالهزيمة تستطيع أن تحصل من هذا الرجل أكثر مما تحصل عليه فيما لو عاندته وقاومته.

وقال لها وهو يعود ليجلس في مكانه:

- اهدئي، أيتها السيدة، أريد أن أتناسى تماماً غرابة تصرفك، مراعاة لما تعاني من تعب وحزن. ومع ذلك، فإنّ عليّ أن آخذ هذه الرسالة بعين الاعتبار، فقد وصلتني عن طريق التسلسل الإداري.

فصاحت «صوفيا»:

- هذه الرسالة تثبت فقط أنّ عمي على استعداد لاستخدام أي وسيلة لكي يرجعني إليه!

فمطّ الجنرال «زيدلير» شفتيه بابتسامة جعلت فمه يبدو كالجرح وقال بهدوء:

- لا ينبغي لي التدخل في خلافاتكم العائلية! و «ميشيل بوريسوفيتش» شخص، سمعته لا غبار عليها، وتأييده لنظام الحكم الإمبراطوري يعرفه الجميع، بينما أنت، يا سيدتي- واعذريني!- أجنبية، وزوجة محكوم ومنفي سياسي. أليس طبيعياً، والحالة هذه، أن نمنح ثقتنا للأب الذي تغلّب على ألمه، لكي يظل وفياً وموالياً للقيصر، وليس للزوجة التي تحاول اللحاق بزوجها لأنها تؤيد الأفكار التي أدين من أجلها.

فقالت «صوفيا» بحماسة:

- ليس للسياسة أي شأن أو علاقة بالرحلة التي قمت بها!

فأنا أحب زوجي! ولا أطيق أن يكون تعيساً وأنا بعيدة عنه! وإني لأتساءل كيف يستطيع رجال يدعون دائماً تمسكهم بالدين، أن ينسوا أنّ أي حكم على الأرض لا يمكنه أن يفصل ما وصله الله!...

وسكتت، بعد أن شعرت بالخوف لأنها تكلمت بقوة أمام خصم يمكن أن يغضب بسرعة. ولكنه كان ما يزال يبتسم وهو ينظر إليها، وكأنه

مسرور، وهو يراقب ارتباكها واضطراب أفكارها. كانت هي الزوجة الرابعة لأحد المبعدين، التي يستقبلها في مكتبه. ولا شك في أنه كان يجري مقارنات بين هؤلاء النسوة. ولكي تستمد بعض الشجاعة، أخذت تفكر بأنها لا يمكن أن تفشل حيث نجحت النساء الثلاثة اللواتي سبقنها. ويجب عليها أن تتفهم هذا العسكري القاسي الغضوب الذي يتمسك بواقع الأمور أن تسحبه خارج أكداس أوراقه، إثارة اهتمامه وعطفه، إغواؤه وجعله يلين قليلاً... ولذلك تمتمت:

- ساعدني، يا سعادة الجنرال، أتوسل إليك أن تساعدني!

- إنك تعتقدين أنّ لي من السلطة أكثر مما لي في حقيقة الأمر، فلست أنا صاحب القرار، يا سيدتي، بل الجنرال «لافنسكي»، حاكم سيبيريا الشرقية، هو صاحب القرار، وهو نفسه أيضاً، لا بد له من أن يأخذ رأي المسؤولين في العاصمة.

- كل هذا بسبب هذه الرسالة السخيفة وغير المعقولة، المحشوة بالأكاذيب، والتي استطيع أن أقول عنها أنها مجرمة!

- بالطبع، هذه الرسالة لا تساعد على تسهيل الأمور وتسييرها، ولكننا، على أي حال، كان لا بد من أن نستبقيك هنا بضع أيام.

- ولماذا؟

- لكي نستطيع التعرف عليك بشكل أفضل، من جهة، ومن جهة أخرى، لإتاحة بعض الوقت لكي تفكري خلاله. فهل تعرفين الآن لأيّ مصير تعرضين نفسك؟ فأنت ستفقدين جميع حقوقك المدنية. وتصبحين مماثلة للمحكوم عليهم بالسجن مع الأشغال الشاقة، وستحظر عليك العودة إلى روسيا...

- كل هذا أعرفه، وقد شرحوه لي مئة مرة. ووقعت على الأوراق المتعلقة بذلك.

- ولكني أقدم لك فرصة أخيرة...

- قدم لي أحصنة، بدلاً من هذه الفرصة الأخيرة!

فقال الجنرال «زيدلير» متأوّهاً:

- إننا ندور في متاهة، أيتها السيدة!

وقرع الباب، فدخل صف ضابط، أحمر الوجه، بادي الاهتمام، ووضع ورقة على مكتب الحاكم. فقرأ الجنرال «زيدلير» الوثيقة، بصوت خافت:

- «بيان موجودات الحقائب والأمتعة... ليس هنالك كتب فرنسية، ولا كتب روسية، وليس هنالك رسائل ولا صحف. ملابس نسائية، مساحيق، فراشي، عطور وكولونيا، وأشياء نسائية أخرى...»

وقال صف الضابط، بصوت مبحوح:

- لديّ قائمة بالمفردات، إذا كانت ضرورية، يا صاحب السعادة!

فغمغم الجنرال «زيدلير» وعلى شفتيه ابتسامة خبيثة:

- لا حاجة لي بها، كل هذا يبدو لي طبيعياً.

فألقى صف الضابط نظرة من طرف عينه على «صوفيا» عبس، وأضاف:

- عليّ أن أبلغ سعادتك أنّ العبد الرق، خادم المسافرة، حاول معارضتنا أثناء قيامنا بعملنا.

فقال الجنرال «زيدلير»:

- يا للشيطان! وما الذي حصل، عند ذلك، إذن؟!

- لقد ضربناه قليلاً، لاعطائه درساً، ثم أوقفناه.

- حسن جداً!

ففقدت «صوفيا» صوابها، فهي لا ترى سوى الأعداء في كل مكان، وصاحت، بأعلى صوتها:

- ولماذا فعلتم ذلك؟ عليكم أن تخلوا سبيله!...

فاختفت ابتسامة الجنرال، الماكرة والساخرة، وتجهم وجهه، وقال:

- كلا، أيتها السيدة، لا أحد يستطيع مخالفة أوامري، دون أن ينال العقوبة على هذه المخالفة.

- اسمح لي أن أراه، على الأقل!...

- سيمضي خادمك الليلة في السجن. وسأستجوبه غداً، وإذا كانت إجاباته مرضية، فسأرسله لك إلى الفندق، وهذا هو كل ما أستطيع أن أعدك به.

فتمالكت، نفسها، خوفاً من أن تبدّد بملاسنات كلامية، قوة الإقناع التي قد تحتاجها في المعركة الأخيرة والحاسمة.

ورافقها الجنرال «زيدلير» إلى الباب، مودعاً إياها، وعند العتبة، تمتمت:

- لم تقل لي، يا صاحب السعادة، شيئاً محدداً وواضحاً عن قضيتي. فماذا أستطيع أن آمل؟

- حالما يصدر أيّ قرار يتعلق بقضيتك، سأعمل على إبلاغك إياه.

- كم من الوقت، تعتقد أنّ عليّ أن أنتظر؟

- لا أدري.

- الأميرة «تروبيتزكوّي»؟...

- بقيت في «ايركوتسك» ثلاثة أشهر.

- هذا غير ممكن!...

- بلى، وللأسف! هذا ما حصل يا سيدتي، ولك تحياتي.

هيكل عظمي في بزة عسكرية رسمية، صلب، متجمد، كان يقف أمامها. وسمعت صوت الكعبين يدقان الأرض بحركة تشبه حركة كسارة البندق فخرجت وقد استبد بها اليأس.



في الفندق، وجدت حقائبها مفتوحة، وبعض الملابس ملقاة على السرير، و «بروسبير رابوندان» صاحب الفندق، يتأوّه ويشكو. فقد خاف كثيراً عندما عارض «نيكيتا» رجال الأمن، وحاول أن يمنعهم من تفتيش الحقائب.

وقال: بلهجة سكان منطقة «بيري» القريبة من باريس:

- لو أنك رأيته، يا سيدتي، وهو يقف بحزم أمام باب غرفتك. كانت عيناه تبصقان اللهب! وهو يدفع قبضتيه إلى الأمام! وبالكاد استطاعوا السيطرة عليه! مع أنهم كانوا أربعة!

- على ألا يكونوا قد جرحوه، على الأقل؟!

فاقسم صاحب الفندق، أنهم لم يفعلوا ذلك. ولكنها كانت تظن أنه قد انسحب قبل أن ينتهي العراك. كان بديناً وأصلع. وفمه الرخو يمتد كالبزّاقة بين خديه. وعيناه الصغيرتان طافحتان بالماء.

وأضاف مغمغماً:

- ما كان ينبغي له أن يفعل ذلك! وهل يمكن إقناع هؤلاء الناس بأي شيء؟ ومن حسن الحظ أنّ حاكمنا رجل طيب! فإذا وعدك بأنه سيعيده لك غداً. فإنه سيفعل ذلك. وإذا لزم الأمر، فإني سأتدخل أنا في هذه القضية. فأنا لي وزني وبعض النفوذ لدى هؤلاء السادة، بفضل مائدتي، ثم إني أعلمهم اللغة الفرنسية...

وسألته «صوفيا» كيف حدث أنه موجود هنا، بعيداً جداً عن فرنسا؟ وهو لم يكن ينتظر سوى هذه الفرصة لكي يروي مطولاً وبالتفصيل قصته: فهو ضابط سابق في جيش «كوندي» انتقل سنة ١٧٩٤ إلى الخدمة في الجيش الروسي وكان من الممكن أن يحصل فيها على مركز جيد في السنوات الأخيرة من عهد «كاترين الثانية» لو لم تخطر له الفكرة المزعجة بأن يجرح بالمبارزة رفيقاً له في الفوج، وأن يهرب، بعد أن تم توقيفه، وبعد أن يقتل أحد الخفراء، أثناء هربه. وبعد ذلك ألقي عليه القبض من جديد،

وحوكم، أدين، وأبعد إلى سيبيريا. وبعد عشر سنوات أمضاها في السجن، مع الأشغال الشاقة، وضع في الإقامة الإجبارية وتحت المراقبة في «ايركوتسك» وهنا، فتح فندقاً، لأنه لا يحب شيئاً أكثر من الطعام الطيب.

كان يجلس على جانب السرير في غرفة «صوفيا» التي كانت تصغي بضيق وانزعاج لهذا الثرثار الذي يشبه الطباخ بأكثر ما يشبه أحد العسكريين. أيمكن أن يكون التقدم بالسن والتعرض للمذلات وللشبهات، قد أفسد إلى هذه الدرجة رجلاً، وحط من قدره، بعد أن كان في فترة شبابه مزهواً، يتطلع إلى مستقبل باهر؟. وأغرب ما في الأمر وأصعبه، هو أنه يبدو سعيداً بمصيره وبحالته الراهنة. ومع ذلك، فإنه عندما كان متحمساً في حديثه عن نجاحه في الميدان التجاري، مرّ ظل في عينيه، وتغيرت ملامح وجهه، فتنهد وقال:

- آه! فرنسا، يا سيدتي!... لقد غادرتها منذ خمسة وثلاثين سنة! وأنت، غادرتها منذ نحو عشر سنوات، أليس كذلك؟

- وكيف عرفت هذا؟

- نحن، هنا، نعيش في صحراء. وتسليتنا تعتمد على تقصّي الأخبار عن المسافرين المنتظر وصولهم إلى هنا، من مكتب حاكم المدينة، ويتناقل الناس هذه الأخبار فيما بينهم. وقبل وصولك بأسبوع، كنت مطلعاً على جميع مشكلاتك: زواجك، إقامتك في روسيا، أفكارك السياسية، تمرد «جماعة كانون الأول». المساعي التي قمت بها لتلحقي بزوجك إلى سيبيريا... وكنت كبير الأمل بأنك ستقيمين في فندقي! فشكراً لثقتك! والآن ستتذوقين طبخي! طبخ بلادنا، وطعامها الحقيقيين!...

وفي نهاية الأمر انزعجت منه وصرفته، مدّعيه بأنها متعبة. كانت رسالة عمها لا تزال منقوشة في ذهنها. وبين جميع المشاعر التي كانت تعذبها

الأشد حدة كان الاحتقار، ولم يكن هنالك كلمات جارحة بما فيها الكفاية لكي تواسيها. ليتها تستطيع مجابهة «ميشيل بوريسوفيتش» وجهاً لوجه، والعينان بالعينين! وجلست لكي تكتب له، بحثت عن الجملة التي تبدأ بها الرسالة، ثم غيرت رأيها وعدلت عن الكتابة. فليس هنالك أي شك أنها وضعت تحت المراقبة منذ أن غادرت العاصمة! وسوف تفتح رسالتها في دائرة البريد، وسيحاط الجنرال «زيدلير» علماً بمضمونها، فيتخذ منها حجة لإطالة فترة احتجازها في «ايركوتسك» والحكمة تقضي عليها بأن تصبر وتخضع. وبذلت جهداً إرادياً كي تكتم غيظها وألمها، كما يفعل أحدنا لكي يسيطر على ألم جسدي ويتحمله.

وفي المساء، نزلت إلى قاعة الطعام، مع أول جلبة أحدثتها أواني المطبخ. كان هنالك مائدة كبيرة، جلس إليها جماعة متلاصقين، وقد أخذوا يتحدثون بصوت عالٍ. وكانت النسبة بينهم: امرأة واحدة مقابل ثلاثة رجال. وفوق المناشف البيضاء المربوطة تحت الذقون، كانت الوجوه تلمع، كالكرات المصنوعة من الخشب المدهون. وتحولت جميع الأنظار نحو القادمة الجديدة، بينما أخذت الأحاديث طابع الهمس والوشوشة. و «صوفيا»، وقد انزعجت من هذا الفضول الذي يتميز به سكان الأرياف، حصلت من «بروسبير رابوندان» على موافقته بأن يُقدم لها الطعام لوحدها على مائدة صغيرة، خاصة بها.

وبعد توقف قصير، عادت الأحاديث إلى سابق عهدها. كان الجميع يتكلمون باللغة الروسية. ولكنّ الجدران كانت مزينة بكتابات فرنسية، وقرأت «صوفيا»، بكثير من الدهشة: «ليس هنالك كلام طيب ولا طعام طيب إلا ومصدره باريس...»، «من فرنسا يأتي الميل إلى الطعام الطيب، والشراب الطيب، والحب الطيب، التي لولاها يصبح الإنسان كالحيوان...»، «عاش خمر البورغونيه الذي يضع الياقوت الأحمر في

كأسي!...» وبين الأوراق التي تحمل هذه العبارات، علقت صور صفراء تمثل الأزياء والملابس الريفية الفرنسية، وصورة «لويس السادس عشر» وصورة ثانية لـ «هنري الرابع» ومناظر لميدان «الكوكوندر»، وحدائق القصر الملكي، وطواحين «مونتمارتر» وتحت إناء زجاجي، مروحة مزينة بأزهار الزنبق، بطاقة مسرح، وورقة عليها أختام وتواقيع، لا بد من أن تكون شهادة ما أو جواز مرور. كان هنالك كثير من السخف ومن الأسى في محاولة إعادة تجسيد ذكرى الوطن المفقود، بواسطة ترهات كهذه، الأمر الذي جعل «صوفيا» تتأثر وتشعر بالشفقة نحو صاحب الفندق، الذي علق هذه الكتابات على الجدران.

وقال لها، مزهواً وهو يشير بحركة واسعة إلى تلك الكتابات والصور التي زين بها جدران القاعة.

- سأشرح لك كل هذا بالتفصيل، فيما بعد، والآن علينا الاهتمام بما ترغبين تناوله من طعام!

وأكد لها أنها ستتذوق، في أعماق سيبيريا، حساءً لم يعودوا يعرفون كيف يطبخون مثله في باريس. وكان الزبائن الذين يتناولون طعام العشاء على المائدة الرئيسية الكبيرة، قد شموا رائحة الحساء. وأخذوا ينشطون ويتلمظون. كما أنّ بعضهم بالغ بالمجاملة إلى حد تعبيرهم عن رضاهم واستحسانهم، باللغة الفرنسية: «لذيذ! طيب ورائع!» وكان صاحب الفندق يشكرهم على مديحهم ويحييهم ويده على قلبه، ومع ذلك، فإنّ هذا المديح المعتاد لم يعد يكفيه، فهو ينتظر رأي وحكم بنت وطنه.

ولكنها، منذ أن تناولت أول ملعقة من هذا الحساء، اعتقدت أن الأمر لا يتعدى كونه مزحة سخيفة. فهل يمكن أن تكون شهرة الطبخ الفرنسي كبيرة جداً في العالم، كي يهتف كل هؤلاء الناس، إعجاباً لهذا الحساء الباريسي المزعوم، في حين أنه يفضل عليه أي حساء يطبخ في بيت القروي

الروسي! وعند تناول الحلوى التي كانت عبارة عن «كريمة» وقشدة ثقيلة محشوة بالعنب المملح، جلس «بورسبير رابودان» بالقرب من «صوفيا»، وهمس لها:

- إيه، ما رأيك؟

وبمراوغة، أجابته، متهربة من الإجابة بصراحة:

- إنه طيب جداً.

- غداً سوف أقدم لك طبقاً من «محمرة الدجاج»، وهو أطيب وأنجح الأطباق التي أقدمها في فندقي!

- أعندك نزلت الأميرة «تروبيتزكوي»؟

- كلا، ولم يحصل لي الشرف أيضاً بنزول الأميرة «فولكونسكي» ولا السيدة «مورافيف»، فقد تلقين نصائح سيئة بشأن إقامتهن! ولكني رأيتهن، وتحدثت إليهن!...

- وكيف رأيتهن؟

- مدهشات يثرن الإعجاب، إنهنّ قديسات! أو ربما كنّ مجنونات وأرجو المعذرة! فمع كونهن جميلات جداً، واسعات الثروة والغنى، ومتميزات بشكل واضح، ومع ذلك فليس في رأسهن سوى فكرة واحدة: الوصول إلى سجن الأشغال الشاقة! ولديّ حتى الانطباع بأنّ إحداهن- ولا أريد أن أذكر اسم أحد- قد اكتشفت أنها تحب زوجها، منذ اللحظة التي أدين فيها وحكم عليه بالسجن مع الأشغال الشاقة! ولكنه عندما كان سعيداً لم تكن تشعر نحوه إلا باللامبالاة. وعندما وضعت السلاسل والقيود في رجليه أصبح بطلاً، بالنسبة لها. فهذا غريب، أم لا؟

فقالت «صوفيا»:

- أنا لا أراه غريباً.

- عندما أفكر أنّ الأميرة «فولكونسكي»، لكي تنطلق في هذه المغامرة، تركت ابنها في المهد، والسيدة «مورافيفّ» تركت أطفالها الثلاثة!

أنت، على الأقل، لم تتركي أحداً وراءك!...

وخيم صمت ثقيل. وفتح باب المطبخ، فتسربت رائحة الطبخ والقلي القوية. وأخذت «صوفيا» تفكّر بالصغير «سيرج» وقد حزمت أمرها على ألاّ تندم على ما فعلت. وإذا كان عليها أن تضحي من أجل أحد مّا، فليس من أجل هذا الرضيع، الذي سينمو ويترعرع بسهولة وبشكل جيد بدونها، ستفعل ذلك، بل من أجل «نيقولا»، لأنها، هي وحدها، تستطيع مواساته وتخفيف آلامه. والحقيقة هي أنها ليس لها طفل آخر سوى زوجها.

وقد لاحظت أنها أخذت تفكر به أكثر فأكثر تبعاً للراحة التي ستؤمنها له وليس تبعاً للسعادة التي يمكن أن تحصل عليها بالمقابل. وما كانت تحب فيه، هو حاجته لها، وهذا ما كان يستدعي وفاءها الخاص له! وكانت أفكارها تسير بسرعة كبيرة في اتجاه غريب جداً، لدرجة أنها قطعت مسيرتها بعنف، وقالت:

- أنا لا أستطيع أن افهم كيف أنّ الحكومة بعد أن سمحت لزوجات المحكومين بالذهاب إلى سيبيريا، تعمد بعد ذلك جاهدة لإيقافهن وتأخيرهن بكل الوسائل، وهن في الطريق إلى هناك!

فقال لها «بروسبير رابودان»:

- ذلك، لأنّ لديك عقلية منطقية أكثر مما ينبغي، يا سيدتي. ففي روسيا، لا يتقرر أي شيء أبداً، بصورة قطعية ونهائية. فهم يعطون بيد، ويستردون بالأخرى. فإذا توصل الجنرال «زيدلير» لإقناعك بالعودة من حيث أتيتِ، فسيكونون في غاية الامتنان منه في «سان بطرسبورغ».

- ولكن، لماذا؟

- لأنّ ليس للقيصر أي مصلحة بتحويلك أنت ومثيلاتك إلى شخصيات أسطورية. وليرفض لامرأة أن تلحق زوجها إلى سيبيريا، والرأي العام يعمل منها شهيدة، في الحال! ولكن إذا وصلت إلى «ايركوتسك» وفترت عزيمتها

وشعرت باليأس، فعادت من تلقاء نفسها، عند ذلك، تفقد، بشكل من الأشكال، قدرها وقيمتها، وتصبح في وضع عادي جداً، لا تستطيع أن تثير إعجاب معارفها ولا شفقتهم.

فقالت «صوفيا» في سرها إن هذا الرجل البدين يتمتع بالنباهة والدهاء، وعلى أي حال، فقد كانت سعيدة، لأنها وجدت فرنسياً في «ايركوتسك» بحيث أصبحت تشعر تقريباً أنها بين أفراد أسرتها، وهي تسمع هذا الصوت الذي يدوي في أذنيها، ويذكرها بلهجة سكان منطقة «بيري» القريبة من باريس.

وقالت له، متمتمة:

- على أي حال، فأنا مصممة على عدم التراجع.

فقال لها «بروسبير رابودان»:

- وهذا هو انطباعي عنك!، ولولا ذلك، لما أجريت معك هذا الحديث. وأنا، في شبابي، ناضلت في فرنسا، في صفوف المؤيدين لنظام الحكم الملكي، ولكن، بعد أن عرفت السجن والجلد والأشغال الشاقة، غيرت رأيي.

- أتؤيد الآن نظام الحكم الجمهوري؟

فابتسم ابتسامة عريضة، غمز بعينه، وقال:

- أنا أؤيد «بروسبير رابودان» تحت أي نظام حكم وفي أي مكان!

فرجته أن يحدثها عن المحكومين بالسجن مع الأشغال الشاقة، ففعل ذلك، على مضض:

- نعم، إنه شاق ومضني... كنت أعمل في مناجم النحاس، في «نيترشينك»... القيود في رجليّ، والطعام سيئ للغاية... ولكن ما العمل؟ المرء يعتاد على كل شيء!...

كان واضحاً، أنه لم يكن يريد إخافة «صوفيا» وإزعاجها بالتحدث إليها عن تفاصيل الآلام التي عاناها. وقال أخيراً:

- ليس هنالك أي سياسة تستحق أن يدمر الإنسان نفسه من أجلها. وإذا كنت تذهبين إلى «تشيتا» بدافع من الواجب، والأريحية، فإني أنبهك إلى خطورة عملك، وعلى النقيض من ذلك، إذا كنت تشعرين أنه لا يوجد لك أي فرصة لكي تحظي بالسعادة خارج «تشيتا»، إذن لا تترددي، تقدمي، حانية الرأس.

وتغلبي على جميع العوائق التي تقف في طريقك وعلى كل الحكام!..

وأخذ يضحك، بينما شعرت هي بالقلق والاضطراب، وقالت:

- إني لا أتصور العيش بعيدة عن زوجي.

- مرحى لك! اسمحي لي أن أقدم لك مشروباً فرنسياً...

فوافقت على تناول القليل من شراب الـ «cassis» وكان حلواً جداً، ونسبة الكحول فيه عالية، فشعرت «صوفيا» بالحرارة تصعد إلى خدّيها. وبدا لها قدرها غريباً بشكل مذهل. أصحيح أنها هي، التي كانت تتحدث، في ذلك الفندق النائي، الذي يقع بالقرب من بحيرة «بايكال» عن مشاعرها وعواطفها إلى أحد المحكومين سابقاً بالسجن مع الأشغال الشاقة، والذي سبق له أن خدم في جيش «كوندي»: «gonde»؟[1]. وعندما ينهي «نيقولا» المدة التي سيمضيها في السجن، ستقيم معه في المدينة التي ستحددها الحكومة لإقامتهما. وسيعيدان بناء بيتهما وحياتهما من جديد، كما فعل «بروسبير رابودان»، بعد أن فقدا كل شيء، ويتابعان العيش، محاولين نسيان ماضٍ محببٍ جداً إلى نفسيهما. وكم يوجد في سيبيريا من

---

[1]- أسرة ((كوندي)) فرع من أسرة ((آل بوربون))، وكوندي، المقصود هنا هو الأمير ((لويس جوزيف دوبوربون)) (١٧٣٦- ١٨١٨) أحد الأرستقراطيين والنبلاء الأوائل الذين هاجروا منذ سنة (١٧٨٩). وفي سنة (١٧٩١) شكل الجيش المضاد للثورة، الذي أطلق عليه اسم: ((جيش كوندي)). - المترجم-

هذه المخلوقات التي اقتلعت من أماكن إقامتها الأصلية ونقلت إلى هنا حيث تجد صعوبة كبيرة في التأقلم والتكييف مع موطنها الجديد؟

وسألته:

- ألم تجد مشقة في استئناف العيش بصورة طبيعية بعد إطلاق سراحك؟

فأجابها:

- كلا، كنت قد جمعت مبلغاً صغيراً، وساعدني بعض الأصدقاء، ولم يكن يوجد مطعم جيد في «ايركوتسك»...

- أنا لا أسأل عن الجانب المادي.

فأدرك «بروسبير رابودان» ما تقصد، وقال موافقاً:

- بالنسبة للجانب المعنوي والنفسي، فالأمر مختلف. كيف تريدين من المرء ألاّ يعاني ويتألم في المنفى؟ فالناس العاديون يعيشون حياتهم قطعة واحدة وعلى الوتيرة نفسها. وعندما يفكرون بماضيهم يرون أنفسهم ينمون، يكبرون، يتطورون ويشيخون بهدوء، ويعرفون أنفسهم ويتذكرونها في جميع الأعمار. أما نحن، الذين قضينا فترة معينة في السجن، ثم اخلي سبيلنا، فقد اقتطع كل منا إلى اثنين وحياته إلى حياتين. فبعد أن بدأنا حياة معينة، فرض علينا، بعد أن بلغنا الثلاثين أو الأربعين من العمر، أن نبدأ حياة أخرى.

والناس الذين يسمعوننا نحكي أننا كان لنا عمل، مركز، ثروة، وأصدقاء مشهورون، يسخرون منا، ويتهموننا بأننا متبجحون كذابون. عند ذلك ينتهي بنا الأمر لأن نعمل مثلهم، فلم نعد نصدق ذكرياتنا ولا نؤمن بها، لكي لا نحزن كثيراً من الحالة التي أصبحنا فيها، وهكذا، فأنا أقول لنفسي، في بعض الأحيان، يا سيدتي، أني لم يسبق لي أبداً أن عشت في فرنسا، وأني لم أرتدِ مطلقاً البزة العسكرية. وأني لم يسبق لي أن كنت سوى صاحب فندق في «ايركوتسك»!

وبدرت منه ابتسامة هازئة تنمّ عن الهزيمة والإخفاق.

فقالت له «صوفيا» وهي تشير إلى الكتابات والصور الملصقة على الجدار:

- وكل هذه، ماذا تعني إذن؟

فغمغم:

- ما كان ينبغي أن أفعل هذا، فهذه الأشياء لا تسبب سوى الألم والأذى للنفس! وسيأتي يوم، سأنزعها فيه، عن هذا الجدار!

ونظر إلى «صوفيا» بقوة، وأضاف:

- سترين، يا سيدتي، أن المؤلم والشاق، ليس السجن- لأنّ المرء في السجن يظل يأمل- ولكن بعد الخروج من السجن، عندما يتبين للمرء أنه إلى أن يلفظ النفس الأخير، يجب عليه أن يرضى ويقنع بهذه الحرية الضيقة والمحدودة، في هذه المدينة الصغيرة، بين هؤلاء الناس البسطاء الذين هم من عامة الشعب!

وربت بباطن يده على بطنه:

- كنت نحيفاً كالسرع، كقضيب الكرمة، فأصبحت بديناً. كنت شجاعاً متهوراً، فأصبحت عاقلاً، متروياً، كنت فقيراً بكبرياء، فاغتنيت دون متعة أو سرور، كنت مستاءً من كل شيء- وهذا دليل على التمتع بروح نضالية- والآن، لست مسروراً من شيء- الأمر الذي يدل على الخضوع والتخلي عن كل شيء!

وأراد أن يملأ كأس «صوفيا» مرة أخرى، ولكنها وضعت إصبعها على فوهة الزجاجة، ابتسمت وهي تهز رأسها:

- كلا، شكراً.

- لا بد أنكِ تعتبرينني صاحب فندق، غريب الأطوار! ولكنّ الحقيقة هي أني من زمن طويل لم أتحدث إلى أحد، كما تحدثت إليك، وهذا الحديث

أثلج صدري وأنعش فؤادي، والآن، المعذرة، أرجو أن تسمحي لي؟! فعليّ أن أهتم قليلاً بزبائني الآخرين.

وتركها ليقوم بجولة حول المائدة الكبيرة، حيث كل واحد من الزبائن لديه كلمة يقولها له. لم يكن قد تغير شيء في ظاهر الأمر، بالنسبة لـ «صوفيا»، منذ أن سمعت هذا الحديث، ومع ذلك فقد أخذت تشعر بالحيرة والضياع، كما لو أنّ بعض الأفكار التي كانت تعتبرها موثوقة ومؤكدة قد فقدت صحتها وحقيقتها. ولأنها تحب المواقف والأوضاع الصريحة والواضحة، فقد أصبحت تتألم لكونها دفعت إلى عالم كل شيء فيها ملتبس وغامض: الناس، الأنظمة، الطقس، المناظر، المسافات والتوقعات... وتذكرت نقاشها مع الجنرال «زيدلير»، وعثرت على ألف ردّ قوي وحاد وذكي، كان بإمكانها استخدامها لكي تفحمه. ولكن كان عليها أن تؤجل القيام بذلك فسيأتي يوم تحاصره فيه في مكتبه، وتنتصر عليه بطريقة الإنهاك والاستنزاف. فأولاً عليه أن يخلي سبيل «نيكيتا» كما سبق له أن وعدها. فلا بد أنّ الفتى المسكين يتميز غيظاً، ويعاني من قلق شديد، في سجنه. وغداً سوف تلومه على مبالغته وإفراطه في الحماسة والاندفاع على العنف. وانتشرت الحرارة في أفكارها، فنهضت واتجهت نحو الباب، بخطوات وئيدة، وعندما مرت من أمام الطاولة الكبرى التي يجلس حولها رواد المطعم، حياها بعضهم بمودة واهتمام. وكانت بعض الشمعدانات مصفوفة على أحد الرفوف، فتناولت واحداً منها، وعند ذلك أسرع ثلاثة رجال لكي يشعلوا لها الشمعة. وأخذت الولاعات تقدح حولها، بينما كانوا يتحدثون إليها، ويتأملونها وهم ينفخون على قطعة الصوفان. وأتى «بروسبير رابودن» فأبعد الجميع عنها، ورافقها إلى أسفل الدرج، وودعها، متمنياً لها ليلة سعيدة.

كان سقف غرفتها منخفضاً، والدخان صبغ جدرانها باللون الأسود، أرضيتها الخشبية مطلية باللون الأحمر، وبقع الشمع منتشرة على قطع الأثاث. وغطاء السرير عليه بعض بقع الدهن. فأخرجت شرشفين من حقيبتها، وطلبت من الخادمة أن تهيء لها سريرها، وأن تجلب لها كمية كبيرة من الماء الساخن، ثم أغلقت الباب بالمفتاح، وتعرت، ثم اغتسلت، في سطل كبير مصنوع من الخشب. وهي منذ زمن طويل، لم تعتنِ بجسمها. وبينما كانت تنحني وتنهض وهي تفرك بالصابون فخذيها، بطنها وثدييها، كان هنالك مرآة تعكس لها صورتها الذهبية عبر الغبش. ولاحظت أنها قد نحفت أثناء رحلتها الطويلة، وكان هذا أبعد ما يكون من أن يسيئ إليها أو يشوه جمالها، وعلى النقيض من ذلك فقد أضفى على قامتها مزيداً من الرشاقة والمرونة، وجعل عنقها الجميل يبدو أكثر طولاً. وعلى الرغم من أنها ترفض أن تفكر بحالها وبجسمها. فإنّ الراحة والرفاهية اللتين شعرت بهما بعد أن اغتسلت، قد أدّتا بها إلى أحلام وهواجس كان يتزايد طابعها الشهواني. واستلقت على سريرها، مشوشة الذهن، متيقظة البشرة والحواس، سحبت الغطاء على جسمها، أطفأت شمعتها، وعصفت بالليل، بالنسبة لها، حركة، هي أشبه ما تكون بحركة أمواج البحر.

٤

كانت قد أوت إلى سريرها، ونامت في «ايركوتسك»، ثم استيقظت في فرنسا على صوت خشن له طابع محلي كأنه صادر من مدينة «بورج» أو «سنسيّر»، يناديها من خارج الباب:

- سيدتي! سيدتي! لقد عاد خادمك!

فأمضت برهة من الوقت حتى استردت روعها، وتذكرت من هو «بروسبير رابودان»، ومن تكون، هي نفسها، ثم أجابت:

- حسن! فلينتظرني تحت!

فقال «بروسبير رابودان»:

- اعتقد، يا سيدتي، أنّ عليك أن تنزلي بسرعة.

- ولماذا؟

- لأنه بحاجة إليك.

فنهضت وقد انتابها القلق، ولم تدر كيف لبست ثيابها، ونزلت مسرعة على الدرج. وفي قاعة الطعام، كان شاربو الشاي متحلقين حول «السماور» يحتسون كؤوسهم وهم في غاية الراحة والسرور. ودون أن تعيرهم «صوفيا» أي انتباه، تبعت «بروسبير رابودان» إلى غرفة الخدمة. كان «نيكيتا» هناك، جالساً على أسكملة، شاحب الوجه، شفته متورمة، وإحدى عينيه مغمضة قليلاً، وفي الأخرى بريق ينم عن الحمى، ومن منخريه تتدلى جلطات متجمدة، من الدم، وقميصه ممزق. وبيده اليمنى يضم إلى جسمه ذراعه الأيسر، الذي بدا هامداً كأنه أصيب بالشلل.

فصرخت «صوفيا» وقد شعرت بشفقة شديدة نحو «نيكيتا».

- «نيكيتا»! يا إلهي ماذا فعلوا بك؟

فهمس لها:

- اعذريني يا سيدتي، لقد حصل هذا في مخفر الحرس... فقد انقضوا عليّ... كلهم في وقت واحد... كالأنذال!... أوه! لقد دافعت جيداً عن نفسي!... وقد نالوا هم أيضاً حصتهم التي استحقوها!..

وحاول أن يتحرك ولكنّ تكشيرة تنم عن الألم بدت على وجهه.

فسألته «صوفيا»:

- أين تشعر بالألم؟

- في كتفي... فهنالك يوجد شيء ليس على ما يرام...

- يجب استدعاء أحد الأطباء بسرعة!

فقال «بروسبير رابودان»:

- إذا كان الأمر يتعلق بكسر أو بذراع أو مفصل مخلوع، فإنّ المجبر يعالجه بشكل جيد، ومن حسن الحظ أنّ لدينا هنا العجوز «ديديم» وهو ماهر، له يدان ذهبيتان.

وبينما ذهب أحد الغلمان ليبحث عن «ديديم» كان بقية الخدم يتزاحمون حول الجريح، وعلى وجوههم ملامح الفضول الذي يتسم بالبلاهة والغباء. كانت شفقتهم تشوبها المسرة، كما لو أنّ مصيبة الآخرين كانت تواسيهم عن قدرهم وتجعلهم يتآلفون معه. ولم يكن من المناسب ترك «نيكيتا» في غرفة الخدمة، حيث حركة الذهاب والإياب مستمرة.

ولذلك سألته «صوفيا» إذا كان يستطيع الصعود إلى الطابق الأول.

فأقسم أنه يستطيع أن يفعل ذلك، ولكن وهو يصعد الدرج، شعر بالوهن وانثنت ركبتاه، فسنده «بروسبير رابودان» بينما أسرعت «صوفيا» أمامهما وفتحت الباب، وأدخلته إلى غرفتها، أجلسته على

كرسي، ومسحت له برفق وجهه بمنديل مبلل بالماء. كان يتنفس بصورة متقطعة:

- أنت طيبة القلب جداً، يا سيدتي!... وأنا أسبب لك كثيراً من المتاعب!... يجب أن لا تهتمي كثيراً وتشغلي بالك بي!... فقد تحسنت حالتي كثيرا!...

وتركته يتكلم دون أن تردّ عليه، وظلت تضع له الكمادات، دون أن تضغط على الجروح. وفي كل لحظة، كان أحد الخدم يخرج مسرعاً لكي يرى فيما إذا كان المجبر قد أتى. وفي اللحظة التي كاد فيها صبر «صوفيا» ينفد فتح الباب، ودخل فلاح، وجهه كالجلد المدبوغ، ولحيته تتخللها شعرات بيضاء. كانت ملامحه صلبة وقاسية. ولكنّ مرحاً طفولياً يشع من عينيه الضائعتين في شبكة من التجاعيد. فوقف «بروسبير رابودان» أمامه، وأخذ يومىء له بالإشارات، عن عراك حصل بين رجل بمفرده وعدة خصوم. فهزّ «ديديم» رأسه، وأرسل غمغمة مبحوحة، فأدركت «صوفيا» أنه أصم أبكم، وقالت:

- هذا مزعج جداً، ويدعو إلى الأسف، فكيف يمكنه أن يشرح لنا ما الذي أصاب «نيكيتا»؟

فقال لها «بروسبير رابودان»:

- إنه لن يشرح لنا شيئاً، بل سيكتفي بمعالجة الإصابة والألم الذي سببته. وقد شهدته عدة مرات وهو يعمل. ويمكنك أن توليه ثقتك وتكوني مطمئنة.

واقترب «ديديم» من «نيكيتا»: وساعده على خلع قميصه. وكان لا بد من قص الكم بالطول، لتحاشي تحريك العضو المصاب الذي يسبب الألم. وعندما أصبح جذع الشاب عارياً تماماً، لاحظت «صوفيا» أنّ كتفه الأيمن بارز العضلات ومكور، بينما بدا لها كتفه الأيسر مخلوعاً، هابطاً، دون سند، ودون حياة.

وأغمض المجبر عينيه ،أخذ يتحسس المنطقة المصابة، بطرف أصابعه، كما يفعل الأعمى. فتقلصت ملامح «نيكيتا» وتلألأت قطرات العرق عند منابت شعره. وبعد أن انتهى «ديديم» من إجراء الفحص، فرقع بإبهامه وإصبعه الوسطى.

فسألت «صوفيا»:

- ماذا يعني بهذا؟

فأجابها صاحب الفندق:

- لا أدري، ولكن على أي حال، لا يبدو أنّ الحالة خطيرة، وإلا لكان بدا ذلك في تعابير وجهه!

- ومع ذلك، فإني من الممكن أن أكون أكثر اطمئناناً، لو أنك استدعيت أحد الأطباء!

- كلا، كلا، لا حاجة لذلك!..

وعند ذلك، كان «ديديم» يضم يده على شكل قمع صغير، ويتظاهر بأنه يشرب.

فصاح «بروسبير رابودان»:

- هذه المرة، لقد فهمتّ! هو يريد قليلاً من «الفودكا».

فقالت «صوفيا»:

- ولماذا؟ وماذا يفعل بـ «الفودكا»؟

- لكي يخدر مريضه. هذه هي عادة المجبرين. فالرجل الثمل يخف شعوره بالألم.

وبينما أسرع أحد الخدم ليجلب زجاجة «فودكا» من المطبخ، التفت «ديديم» نحو «صوفيا» حيّاها، وبكل احترام أشار لها إلى الباب.

فقال لها «بروسبير رابودان»:

- إنه يرجوك أن تغادري الغرفة! لأنّ المشهد يمكن أن يكون مؤلماً...

فهزت كتفيها:

- هذا شيء سخيف! فأنا أستطيع تماماً البقاء! وأريد أن أبقى!...

وإن كانا قد تحدثا باللغة الفرنسية، فإن «نيكيتا» كان قد فهم فحوى الحديث، وتمتم:

- حقّاً، يا سيدتي، يجب أن تذهبي.

فنظرت إليه بعطف، وهزّت رأسها. كانت أسنانه تصطكّ. وجلب له الخادم زجاجة «فودكا»، فشرب منها أربعة أقداح، بصورة متوالية، فاسترخت ملامحه، وغطت حدقتيه غشاوة شفافة، ثم عاد لهما بريق وثبات النجوم. وتراءت ابتسامة حزينة على شفتيه، لقد أصبح مستعداً. وبناءً على إرشادات «ديديم»، فقد ساعدوه لكي يستلقي على الأرض، على ظهره. فأخذ قلق «صوفيا» يتزايد: ألا يهمّ هذا المجبر الأخرس بخلع عظام «نيكيتا» نهائياً، بدلاً من تجبيرها وإعادتها إلى أماكنها؟ وعلى أي حال، ومهما كان سيحدث، فقد دسّت وسادة تحت رأس «نيكيتا». الذي كان لا يزال يبتسم بشكل ينم قليلاً عن عدم الوعي. كانت «صوفيا»، وهي تقف بالقرب منه، ترى ذلك الجسم الكبير المصعوق، ذا الأعضاء المتباعدة والصدر العريض، والقامة النحيفة التي كانت شقرتها تبرز بدقة مثيرة على طلاء الألواح الخشبية، الأحمر القاني، وتفكر بـ «أيكاروس الأسطوري» الذي سقط من الجو في البحر. ومع كل مرة يستنشق فيها «نيكيتا» الهواء، كان بطنه يتقلص تحت حزام سرواله، المرتخي. كانت بشرته تلمع من العرق في تجويف الترقوة وفي الأخدود العمودي الذي يفصل بين عضلات صدره. كان ذراعه الأيمن المرفوع قليلاً بارتخاء، يكشف عن إبط قوي، حيث يتجعد شعر ناعم ذهبي اللون. لم تكن الشمس قد لوّحت سوى وجهه ويديه: فكأن على وجهه قناعاً وفي يديه قفازاً من الاسمرار ولفح الشمس. كل هذا، كانت «صوفيا» تلاحظه، بدرجات متفاوتة من الوعي والعمد،

بينما كانت ترتفع نحوها، على دفعات، رائحة رجل، فتيّ وعاري، وهو أيضاً حار الجسم.

ومع أنّ «ديديم» كان ينتعل حذاءً ضخماً، فقد وضع رجله الكبيرة في إبط «نيكتا»، رفع برفق يده اليسرى، بحث عن أفضل وضع، قطب حاجبيه، وشدّ بحركة- عنيفة الذراع المصاب. و «نيكيتا» وقد فوجيء بعنف الصدمة، أرسل صرخة وحشية. فارتعشت حتى الأعماق، أعصاب «صوفيا». كأن سنارة قد انغرست في جسمها وأخذت تنتزع أحشاءها. كان وجه «نيكيتا» ينهض ويرتفع نحوها بصورة متقطعة وبلا انتظام، وبدا وكأنه يطلب منها الرحمة والعفو. ثم انقلب إلى الخلف. كان شاحب الوجه، تغطي خديه، جبينه وذقنه قطرات العرق. وفكه الأسفل يرتجف. وكانت إحدى العضلات ترتعش تحت جلد بطنه. وجثت «صوفيا» لكي تجفف له العرق عن وجهه. و «ديديم» الذي كان يجلس القرفصاء في الجانب الآخر، لزم الصمت وقد بدا عليه السرور، وقدّم له قدحاً من «الفودكا»، فشرب منه جرعة بقرف واضح. كانت حدقتاه منقلبتين ومضطربتين، وبدا وكأنه يكاد يصاب بالإغماء. ولكنّ كتفه الأيسر، الذي كان في السابق مسطحاً، عاد فأصبح مكوراً بشكل جميل. وأخذ المجبّر يتأمل برضا العمل الذي قام به. وأخيراً وقد اطمأنت «صوفيا» فقد انتابها ضعف شديد جعلها تشعر بدوار في رأسها. وتمتمت وهي تضع يدها على جبين «نيكيتا»:

- انتهى الأمر، لن تشعر بأيّ ألم بعد الآن، وعليك أن تدع المجبر يتابع معالجتك، وأن تكون هادئاً وعاقلاً أثناء ذلك...

فحرّك شفتيه، وسمعته يقول عبر لهاثه:

- نعم، يا سيدتي...

وطلب «ديديم» قماشاً، قصه على شكل شرائط، وغلّف كتف «نيكيتا» بضمادات مبلله بالماء المالح. وبعد ذلك، ربط له ذراعه الأيسر،

بشكل جعله مطوياً ومشدوداً إلى جانب صدره. وبعد أن انتهى من عمله، تناول، هو أيضاً، جرعة من «الفودكا»، غمز بعينه، ورفع ثمانية أصابع أمام وجه «صوفيا».

فقال لها «بروسبير رابودان»:

- إنه يعني بإشارته أنّ خادمك سيشفى بعد ثمانية أيام!

- ولكن، ما هي العناية والأدوية التي يجب أن نقدمها له؟

- ولا أي عناية أو أدوية.

- وكيف عرفت ذلك؟

- إنه يهم بأن يشرحه لك!

وبالفعل، فقد أخذ «الأصم والأبكم» يبيّن بالإشارات، أنه لا ينبغي أن يمس أحد شيئاً أثناء غيابه، وأن كل شيء على ما يرام، وأنه سيعود ليراه بعد فترة وجيزة. فأعطته «صوفيا» حوالة حكومية بعشرين روبلاً.

فهمس «بروسبير رابودان» في أذنها:

- هذا كثير، وأكثر مما ينبغي.

فوضع «ديديم» الأوراق النقدية في جيبه، جثا أمام «صوفيا» وقبل ذيل فستانها، ثم وقف، وخرج وقوراً مزهواً، كأحد السادة الكبار. وظل «نيكيتا» مستلقياً خلال خمس دقائق، ثم نهض واقفاً دون أن يساعده أحد على ذلك. ولكنه بعد أن خطا خطوتين، ترنح وكاد يسقط، فجلس بصعوبة على أحد الكراسي. كان الجهد الذي بذله قد أنهك قواه، فأنحنى رأسه على صدره.

عند ذلك، قالت «صوفيا»:

- إنه بحاجة لراحة!

لم تكن تستطيع أن تتركه في غرفتها، ولا تريد أن ترسله إلى مهجع الخدم، فاقترح عليها «بروسبير رابودان» أن تجعله يقيم في غرفة صغيرة،

لا نافذة لها، تقع في آخر الممر. فجلبوا له فراشاً، أغطية، شمعةً وجرة ماء. ولم يكد «نيكيتا» يستلقي، حتى استغرق في النوم.

وأخذت «صوفيا» تنظر إليه بانتباه، وهو نائم. كانت لا تزال تتذكر الصرخة التي أرسلها من شدة الألم الذي شعر به آنذاك. كانت كاهتزاز يستمر في داخلها، دون علمها. لم تكن تجرؤ على التصديق أنّ كل شيء قد سويّ بهذه السرعة. وقد احتاجت لكثير من قوة الإرادة لكي تتوقف عن التأمل، وأن تذهب، دون أن يكون لديها أي أمل، لكي تتقصى الأخبار.

واستقبلها الجنرال «زيدلير» وهو واقف، في مكتبه، وقد بدا منزعجاً من إلحاح زائرته:

- لقد حصل لي الشرف، وبحت لك البارحة بكل ما أعرفه، فماذا تريدين أيتها السيدة، زيادة على ذلك؟

فردّت عليه بلهجة حادة:

- أريد أن أشكرك، لأنك أعدت لي خادمي، وبالمناسبة فإني أبلغك أنّ جنودك كادوا يقتلونه! وقد خلعوا له أحد كتفيه!

- وأحد جنودي كسرت له سنّان، والحقيقة هي أني لم يكن ينبغي لي أن أخلي سبيل خادمك، وإذا كنت قد فعلت ذلك، فإكراماً ومراعاة لك. فلا ترغميني على أن أندم على ذلك!

فقالت، في سرها، إنه محق فيما قال، واستأنفت الكلام بلطف ورقة:

- لقد خطرت لي فكرة، يا صاحب السعادة. فقد سبق أن قلت لي إنّ القرار المتعلق بسفري، ليس بيدك، بل بيد الجنرال «لافنسكي»، حاكم سيبيريا الشرقية، أليس كذلك؟

- تماماً.؟

- لدي رغبة شديدة بأن أطلب مقابلته.

فتنهد الجنرال «زيدلير»:

- هذا مستحيل، يا سيدتي.

- ولماذا؟

- لقد سافر الجنرال «لافنسكي»، الأسبوع الماضي، للقيام بجولة تفتيشية في منطقة «لامور».

فصاحت «صوفيا»:

- واليوم فقط، تقول لي هذا؟

- كنت أعتقد أنك مطلعة على ذلك.

- أبداً، وعلى الإطلاق!... إنّ هذا... هذا مذهل ومروع!... واستسلمت في الحال لدوّارٍ سببه لها الغيظ والذعر، ثم تمالكت نفسها، وسألته:

- وهل سيطول غيابه؟

- لا أدري.

- لا بدّ أن يكون هنالك من ينوب عنه، أثناء قيامه برحلاته؟!

- ليس عندما يتعلق الأمر بقضايا دقيقة وحساسة كقضيتك. لأنّ توقيعه ضروري، بشأنها.

- ألا يمكن الاتصال به أثناء رحلته؟

- إنه اليوم هنا، وفي اليوم التالي، في مكان آخر.

- لو أنك تكتب له...

- لن يفوتني أن أفعل ذلك، ولكنه ربما يعود قبل أن يتلقى رسالتي.

و «صوفيا» وهي تتفرس في وجه الجنرال «زيدلير» النحيل، لم تكن تستطيع أن تتبين فيما إذا كان يقول الحقيقة أم أنه يقول ذلك لكي يتخلص منها. وعلى أي حال، فإنها نادراً ما شعرت أنها مرتبطة إلى هذه الدرجة بإرادة الآخرين. وغادرت المكتب وهي متأكدة أنها قد تراجعت، وخسرت الجولة، في حين أنها أتت لكي تحقق فوزاً ولتحصل على ميّزة.



تعافى «نيكيتا» بسرعة، وأخذ يرافق «صوفيا» أثناء جولاتها في المدينة. كان ذراعه معلقاً على صدره، ونظراً لطول قامته، كان يطل على جميع المارة. وفي الوقت الذي كان يخطو فيه خطوة، كانت «صوفيا» تخطو خطوتين. واشترت له قميصاً أبيض ليلبسه بدلاً من القميص الذي تمزق أثناء المشاجرة.

كانت المدينة صغيرة. يكثر فيها الغبار، شوارعها مستقيمة، وغير مرصوفة، أرصفتها مغطاة بألواح خشبية، وبيوتها من خشب. وفيها حديقة صغيرة عامة، غُرست فيها بعض أشجار الصنوبر والسندر تجتمع فيها، كل مساء، عائلات الموظفين والتجار. وإن كانوا آنذاك في شهر آب «أغسطس» فإنّ روّاد الحديقة كانوا يبدون متدثرين بالمعاطف لأن البرد كان قارساً في الأمسيات. وحاول بعض وجهاء «ايركوتسك» دعوة «صوفيا» لتناول طعام الغداء أو العشاء: كان يدفعهم الفضول لسؤال هذه القادمة الجديدة والاستفسار منها عن أخبار «سان بطرسبورغ» وعما يدور فيها من أحاديث ومن قيل وقال. ولكنها، وهي الحريصة على راحتها وطمأنينتها، كانت ترفض جميع الدعوات. وبالمقابل، كانت تتحدث عن رضا وطيب خاطر، إلى رواد مطعم الفندق. وبعد ما قاله لها «بروسبير رابودان» عن سكان «ايركوتسك»، كان يسليها ويسرها أن تتبين من بينهم، أولئك الذين كانوا من سكان المدينة الأصليين، والذين يقيمون هناك بعد أن حددت لهم الإقامة فيها، تحت المراقبة. وفي معظم الأحيان كان الفرق بين هاتين الفئتين، بادياً للعيان. كانت لغة سكان المدينة الأصليين خشنة وبذيئة أحياناً ونظرتهم واثقة، ومطمئنة، وأسلوبهم في التعامل مع الآخرين يبدو فظاً في معظم الأحيان. أما المبعدون فيبدون أكثر تميزاً، وأكثر رقة وحياءً في آن واحد، وكأنهم يستمرون في البقاء على قيد الحياة، عبر أحزانهم.

والكثيرون منهم بعد أن انقضت مدة عقوبتهم، أصبحوا موظفين ممتازين في الدوائر الإدارية المحلية، وأخذ آخرون يعملون في الزراعة أو في التعليم، والبعض أصبحوا تجاراً، من الطبقة الثانية. ومع ذلك، فإنّ «بروسبير رابودان» كان على صواب: فهؤلاء، لم يبق منهم سوى النصف سوى الثلث من ذاتهم. وما يبدو ويرى منهم، لا يؤبه به بالمقارنة مع الجزء الغاطس المختبئ تحت خط العوم. وقد تعرفت على عجوز في السبعين من العمر، كان في سجن الأشغال، بناء على أمر من «بوتمكين»، الذي كان يتمتع بالحظوة لدى «كاترين الثانية» وكان أفضل صديق لذلك العجوز «كونت» بولوني يعمل موظفاً في الجمارك، كانت الإمبراطورة نفسها قد نفته، لاشتراكه، سنة «١٧٩٤» في التمرد الذي قاده المناضل الوطني البولوني: «كوسيوزكو» «kosciuszko». وبين رواد الفندق كان يوجد أيضاً أستاذ سابق في جامعة موسكو، كان أثار غضب «بول الأول» عليه، لأنه تطرق إلى موضوعات فلسفية أثناء إحدى محاضراته في علم الفلك، وكان هنالك أيضاً أمير من «جورجيا» اتهم بالخيانة، وملازم شاب من فوج «سيميو نوفسكي» الذي حصل فيه تمرد سنة «١٨٢٠» فقمعه بكل عنف وقسوة «أليكسندر الأول». بل وكان هنالك أيضاً عجوز آخر، ما زال نشيطاً، يدير مؤسسة حمامات، يدعى «ريدنيجر» وهو «ألزاسي» الأصل، كانت قد نفته الإمبراطورة «أليزابيت بيتروفنا»، لأنه قتل عن طريق الخطأ عقيداً في فرقته، ظناً منه بأنه أحد ضباط العدو. وعندما روى حادثته المزعجة لـ «صوفيا»، لم تشأ أن تصدقه، وسألته:

- إذن، كم كان عمرك آنذاك؟

- تسعة عشر سنة، وقد بلغت الآن السابعة والثمانين.

- خمسة عهود من الحكم انقضت، وقد بدأ عهد سادس، ولم يشملك أيّ عفو، حتى الآن؟!

فقال «ويدنجير» وهو يتأوه:

- لقد نسيني المسؤولون، دون شك، وكثيراً ما يحدث ذلك، وفي غضون هذه المدة، تزوجت، ولديّ ستة أبناء، وخمسة وعشرون حفيداً، وجميعهم يشتغلون في الحمّامات...

هذا الخضوع وهذه القناعة، جعلا «صوفيا» تسترسل في التفكير. وأخذت «ايركوتسك» تبدو لها أكثر فأكثر مكاناً تلتقي فيه الأحلام الخائبة والطموحات البائدة والمظالم التي أدامها وثبتها الزمن. ومستودعاً يلتقي فيه المتمرّدون وسيّؤ الحظ في جميع الأزمنة، حالما يتوقف عملهم في مهنتهم وينقطع مجرى حياتهم. إنها مدينة خيالية، وغير واقعية، تسكنها الأشباح. وعند كل اختلاجة أو اضطراب يحدث في التاريخ. تتدفق موجة جديدة من المنفيين، على سيبيريا فبعد البولونيين، جماعة «سيميونوفستي»، وبعد هؤلاء «جماعة كانون الأول»... وكما يقرأ عمر الأرض في طبقات الرواسب المتوضعة فوق بعضها، يمكن تصور تاريخ روسيا بتأمل هذه المخلوقات الفتية والمسنة. أو هؤلاء الضعفاء السقماء الذين يجمعهم قاسم مشترك واحد، وهو أنه سبق لهم أن اصطدموا ذات يوم بالسلطة الإمبراطورية الحاكمة. حقاً، كان هنالك، علاوة على هؤلاء القطيع الكبير من المجرمين العاديين، الذين، بعد أن خرجوا من سجون الأشغال الشاقة أخذوا يكسبون لقمة عيشهم بالعمل كخدم، أو كعمال عاديين، أو حتى كمتسولين، ويعرفون بأنوفهم المشطبة والمجرحة ولكن المظاهر يمكن أن تكون خداعة في بعض الأحيان. ففي صباح أحد الأيام، صعدت «صوفيا» إلى إحدى العربات، يحمل صاحبها هذه العلامة المذلة في وجهه، فأخذت تتحدث إليه، فعلمت منه أنه كان، فيما مضى، نقيباً في فوج «أسترخان» المشكل من الفرسان حاملي الدروع، وأنه اتهم خطأ بقضية تتعلق باختلاس أموال الدولة. فهل قال الحقيقة أم أنه كان يكذب، لكي

يدعي أنه كان شخصية ذات شأن؟ وعلى أي حال، فإنه على الرغم من وجهه الذي يبعث على القلق، ولحيته المشعثة، وملابسه العتيقة والوسخة. فإنه كان يعبر عن أفكاره بعناية فائقة. فانزعجت «صوفيا» لأنها خاطبته دون كلفة وبصيغة المفرد، طوال المشوار، كما تخاطب أحد الفلاحين، واستدركت، عند الوصول، فسألته، بصيغة الجمع.

- بكم أنا مدينة «لكم»؟

وعندما روت ما حدث معها لـ «بروسبير رابودان» ابتسم بأسى، وصرح، قائلاً:

- إنّ هذه الحكاية ذات مغزى. ولو كان عليّ أن أصف سيبيريا، لقلت إنها بلاد، يخاطب فيها أحدهم الناس، عندما يلتقي بهم لأول مرة بصيغة المفرد، وبعدم تكليف، ويخاطبهم بعد ذلك بشكل رسمي وبصيغة الجمع، أي على العكس مما يحصل في أي بلد آخر!

* * *

يوم الأحد، استيقظت «صوفيا» باكراً، رغبة منها بالذهاب إلى الكنيسة. وطلب منها «نيكيتا» أن تأذن له بمرافقتها وكان قد تزّين وأصلح هندامه، بهذه المناسبة: قميص أبيض، زنار أحمر، وحذاء لماع، مدهونة كل طياته. ولم يعد ذراعه معلقاً إلى عنقه، وشعره الأشقر ينسدل متدلياً على عنقه، وتحت أشعة الشمس كان يبدو كأنه متوج باللهب. واستقلا عربة، فجلس «نيكيتا» بجانب السائق.

كانت الكاتدرائية تغصّ بالمصلين. كان هناك جميع موظفي المدينة، بملابسهم الرسمية، فذهبت «صوفيا» إلى الجهة اليسرى، حيث تجلس النساء. وفي الصف الأول، الأقرب إلى الله، لم يكن هنالك، سوى القبعات النسائية المزدانة بالريش وبالشرائط، وسوى معاطف الفرو، والحلى والمجوهرات... ووسط الكنيسة، كان يشغله البسطاء، من عامة الشعب،

وكان الناس الأكثر بؤساً، متجمعين بالقرب من الباب. وكان الكاهن، الرائع المظهر، المجلل بالذهب، يرتل الصلاة، متمهلاً، تشاركه فيها جوقة من المرتلين، بأصواتهم الخشنة. وأقيمت للقيصر صلاة خاصة. فركع الجميع، وفعلت «صوفيا» كما فعل الناس كلهم. وكانت وهي تحني رأسها وتضم يديها، تتذوق تناقض وعبثية وضعيةٍ ترغمها على أن تتظاهر بأنها تطلب رضى الله ونعمائه لذلك الذي تعتبره مسؤولاً عن مصيبتها. وكم كان يوجد بين هؤلاء المؤمنين الراكعين، من تخفي حركتهم التي تنم عن الورع والتقوى، شعور الكراهية نحو نظام الحكم الملكي؟ ربما لم يكن عددهم كبيراً، بالقدر الذي تتصوره «صوفيا»! فالإيمان بالقضاء والقدر، مستقر في قلوب أفراد الشعب الروسي.

وتساءلت «صوفيا» فيما إذا كان «نيقولا» لم يكن قد أخذ يكتشف هو أيضاً، أنّ نفيه إلى سيبيريا، قد حصل انصياعاً لمقتضيات ضرورة عليا، - ولكم كانت تود أن تجنبه هذا الخضوع وهذا الاستسلام، وفي الوقت نفسه، كانت تقول لنفسها، إنّ هذه، ربما كانت، بالنسبة له، أفضل وسيلة لكي يستعيد الطمأنينة والراحة النفسية. ألن تجعله يشعر بالمزيد من الألم، إذا منعته من أن يرضخ وينحني كما فعل رفاقه؟ وبصورة غير متوقعة أخذت تشك بأنها ستحمل له معها السعادة. وقد راودتها هذه الفكرة للمرة الأولى.

واستسلمت، ناسيةً معنى الصلوات العادية والعامة، إلى الحاجة لرعاية تفوق قدرة البشر، لكي تشجعها وتشد من عزيمتها. وكان هذا حديثاً مع نفسها أكثر مما كان انطلاقه نحو السماء. كانت تصيغ الأسئلة والأجوبة، وفي هذا التبادل، كان الظل يتحول إلى ضياء، والمرارة إلى أمل. وعلى حين غرة، بدا لها أن الله يملأ أعلى روحها، كدخان عائم فوق الأرض، في غرفة مغلقة.

وبعد انتهاء الصلاة، شعرت بالحيرة والذهول، وهي تقف في ساحة الكنيسة. وكان المؤمنون السعداء بعرض زينتهم وملابسهم الجديدة والجميلة الخاصة بيوم الأحد، ينظرون إلى بعضهم بعضاً، يحيون بعضهم ويتجمعون، تحت أشعة شمس باردة صفراء. وكان المتسولون يذهبون من مجموعة إلى أخرى، وقد حمل كل منهم بيده صفيحة صغيرة يلتقط بها قطع النقود. وكان الجنرال «زيدلير» يقف، عالي الرأس بين مجموعة من الضباط. وعندما لمح «صوفيا» تقدم نحوها، بمشية متمهلة. فقدرت له هذا التكريم الذي يمنحها إياه، علناً، وعلى ملأ من الناس، وشكرته عليه بابتسامة عريضة:

- ألديك خبر جديد لي، يا صاحب السعادة؟

فقال لها:

- لكم أنت نافدة الصبر ومتلهفة على السفر! وعلى أي حال، فأنت لم تصلي إلى هنا ألا منذ ما يقرب من عشرة أيام.

- هذه الأيام العشرة بدت لي أطول من قرن من الزمن!

فبدرت منه تكشيرة بدا معها وجهه كالرق المجعوك، وهو يقول:

- في هذه الحال، أنا أخشى كثيراً من أن تصابي بخيبة أمل شديدة. فقد تلقيت، صباح هذا اليوم، رسالة من الجنرال «لافنسكي» الذي يتعلق به مصيرك. يقول فيها إنه لا ينوي العودة إلى «ايركوتسك» قبل أربعة أو خمسة أسابيع...

فتمتمت «صوفيا»:

- خمسة أسابيع! ولكنّ هذا مستحيل! فهذا سيجعلني أبقى هنا حتى أواخر أيلول «سبتمبر»!...

- مدينتنا جميلة، وجوها لطيف في هذا الفصل! وسأقدمك لبعض العائلات المرموقة والمتميزة، إذا كان ذلك يحلو لكِ...

- كلا، وشكراً لك، يا صاحب السعادة.

وأنهت الحديث بسرعة، ومرت بعشر مجموعات، أفرادها يتهامسون فيما بينهم. بينما كان الرجال يحنون قاماتهم، والنساء يرفعن ذقونهن نحوها، عند مرورها، وذهبت لتلحق بـ «نيكيتا» الذي كان ينتظرها بالقرب من العربة.

وفي مساء ذلك اليوم، نفسه، استشارت «بروسبير رابودان»، بعد تناولها طعام العشاء، بشأن الطريقة التي يمكنها أن تسرع بها بحل مشكلتها. فلم يكتمها بأنّ لديه انطباعاً سيئاً عن هذه المشكلة.

وقال:

- من البديهي أنّ «زيدلير» لا يستطيع أن يدعك تسافرين، دون موافقة «لافنسكي»، ولكن لأنه يوجد بينهما على الدوام، حساسيات، ومنافسات على السلطة، فإني أتهم حاكم «ايركوتسك» بأنه يحتجز الاضبارات لديه فترة طويلة، قبل أن يحيلها إلى حاكم سيبيريا الشرقية، آملاً أنّ هذا الأخير سيتعرض للتوبيخ، في يوم من الأيام، وإلى اللوم، بسبب تأخير تسيير الأمور، وحل المشكلات الطارئة.

- ألا أستطيع أنا إذن، في هذه الحال، أن أقدم عريضة إلى الجنرال «لافنسكي»؟

- إذا أرسلتها بواسطة «زيدلير» فإنه سيتدبر الأمر، بحيث يجعلها لا تصل إلى «لافنسكي» قبل انقضاء عدة أسابيع!

- وإذا أرسلتها، بصورة مباشرة؟

- سيطلع «زيدلير» على ذلك، عاجلاً أم أجلاً، وسينقم عليكِ، لأنك تجاوزته، وقفزت فوق رأسه:

فغمغمت «صوفيا» بلهجة حالمة:

- إنها مجازفة، عليّ أن أقوم بها!

كانا قد جلسا في آخر القاعة، إلى مائدة صغيرة، كأنهما متآمران يحيكان مؤامرة، وأمامهما زجاجة شمبانيا من النوع السيئ، وكأسان.

وعلى الجدار المقابل، علقت لوحة عليها كتابة تمتدح الحب، والخمور والأغاني الفرنسية.

وسألته «صوفيا»:

- أتعرف أحداً في مكتب الحاكم العام؟

- نعم، أعرف الملازم «كوفشينيف» مرافق «لافنسكي» ومساعده المقرب منه.

- والملازم «كوفشينيف» هذا، ألا يستطيع أن يطلب إضبارتي من «زيدلير»؟

- بلى، إني أظن أنه يستطيع أن يفعل ذلك...

- وبعد أن يفحص إضبارتي، ألا يقبل بأن يرسل للجنرال «لافنسكي»: تقريراً مناسباً يؤيد فيه قضيتي؟

- ولماذا لا يقبل أن يفعل ذلك؟ ولكن، إذا رفض «لافنسكي» التقرير، أو أهمله، فتكونين قد خسرت، على الصعيدين: أي بعد أن تكوني قد أغظتِ حاكم «ايركوتسك»، دون أن تحظي باهتمام حاكم سيبيريا الشرقية، فإلى من ستتوجهين بعد ذلك للخروج من هذا المأزق؟ وعليك أن تنتبهي، فأنت تكادين تتخلين عن الطريدة، وتلاحقين ظلها! وعصفور في اليد، خير من عشرة على الشجرة!..

كانت «صوفيا» تصغي لهذه التحذيرات بلا مبالاة، فعلى الرغم من ضعف إمكاناتها ووسائلها، كانت تؤمن بفضيلة الإصرار والمثابرة. وبالنسبة لها، لم يكن هنالك خطأ، يتابع ويلاحق لزمن طويل، إلا ويمكن أن يؤدي إلى حقيقة ما. وبعد أن تعبت من النقاش والإلحاح، وعدها «بروسبير رابودان» بأن يرتب لها موعداً لمقابلة الملازم «كوفشينوف».

وبهذه المناسبة، اعتنت بشكل خاص بزينتها: فستان من موسلين «الأورغندي» الشفاف، بلون أوراق الشجر، اليابسة، سترة قصيرة من القماش الإيطالي السميك، مشدودة جداً على الخصر، لونها أخضر زيتي، معطف مخملي باللون نفسه، وشاح مصنوع من قماش صوفي، فرنسي، أسمر ذهبي، على كتفيها. وعندما رآها صاحب الفندق مرتديه هذه الملابس، أبدى صيحة تنم عن الإعجاب. فتقبلت مديحه وتهنئته لها بمتعة وسرور، وصباح ذلك اليوم، شعرت أنها رشيقة، خفيفة وواثقة من نفسها. كان حفيف القماش يحيط بها، ويذكرها بأنها امرأة.

وقدم لها «بروسبير رابودان» ذراعه، عند الخروج.

كان قصر الحاكم العام، المبني بالأحجار، أوسع وأجمل من قصر حاكم المدينة. وفي إحدى غرف الانتظار، كان يتدافع عدة ضباط، تبدو الأهمية على سيمائهم، مثلهم في ذلك مثل ضباط «سان بطرسبورغ»، ولكنّ بزاتهم أقل جمالاً وعناية، من بزات أولئك الضابط الذين يقيمون في العاصمة.

فهل لأن الجنرال «لافنسكي» كان غائباً، أخذوا يتكلمون جميعهم بصوت عالٍ إلى هذه الدرجة؟ ومرافق الجنرال استقبل «صوفيا» و «بروسبير رابودان» في مكتب جيد الإضاءة، تحت لوحة كبيرة مطبوعة، تمثل رؤوس كبار قادة الحرب الوطنية، وقد ضُمت على شكل إكليل حول «ألكسندر الأول»، الذي بدا متألقاً.

كان الملازم «كوفشينوفّ» في ريعان الشباب، نضر الوجه، فمه كالزهرة، والشعر قليل على رأسه، عارضاه أشقران، منسدلان، على شكل شبه جزيرتين على خديه الموردين. وقد أدهشته قصة «صوفيا» وأثارت اهتمامه. وكان واضحاً أنه يرى فيها فرصة ممتازة ليقوم بحيلة يزعج بها الجنرال «زيدلير».

وقال، باللغة الفرنسية:

- إنه رجل طيب، ولكنه يتطاول قليلاً على صلاحيات الجنرال «لافنسكي». وسنذكره بلطف بوجوب التقيد بالقانون وبالنظام.

فقالت «صوفيا»:

- إني لا أريد، مقابل أي شيء في العالم، أن أزعج أياً كان، بالمسعى الذي أقوم به!

فصاح «كوفشينوف»، وهو يفرك يديه:

- إنكِ لن تزعجي أحداً! وستؤدين خدمة لكثير من الناس! ورئيسي الجنرال «لافنسكي» سيكون ممتناً لك، لأنك توجهت إليه بطلبك. ومنذ الآن، يمكنك أن تعتبري أنّ قضيتك قد سويت. وكل هذا على درجة كبيرة من الغرابة! لدرجة أنها تثير الضحك! وكان من الممكن أن تتبيني ذلك بشكل أفضل، لو أنك كنت تقيمين في «ايركوتسك» منذ بعض الوقت!...

كان مبتهجاً، يضحك بقوة وبشكل غير معقول، وبدا كطائر الحمام الذي يختال نافشاً ريشه، ولا بد أن هذه الحيل والدسائس تشكل أفضل تسلية له، في عمله اليومي. أما «صوفيا»، من جهتها، فلم تكن تجرؤ على أن تصدق أن قضيتها يمكن أن تسوّى بهذه السرعة، وبهذا الشكل المفاجئ، بعد العديد من خيبات الأمل. فلماذا لم تقرع هذا الباب منذ وصولها؟!

وقالت:

- آه! يا سيدي، كيف أستطيع أن أشكرك؟

فأجابها بأنه لا ينصاع ألا لمقتضيات واجبه، عندما يساعدها على الحصول على جواز مرورها، ونصحها بأن تستغل أيامها الأخيرة التي ستمضيها في «ايركوتسك» لشراء كل ما يمكن أن تحتاجه في «تشيتا»:

- لن تجدي شيئاً هناك، يا سيدتي، لا قماش، ولا خيطان ولا ابر ولا طناجر ولا مكواة...

- وكم من الوقت يبقى لي للقيام بهذه المشتريات؟

- نحو ثمانية أيام، على أبعد تقدير!

- كان يمكنها أن تقفز على عنقه لكي تقبله، على هذا الخبر السار، بل هذه البشارة.

ومنذ بعد الظهر، بدأت جولتها على الأسواق. وأخذت البضائع والحاجيات تتكدس في زاوية غرفتها. وعند المساء، كانت تسجل المواد في قائمتها. وفيما عدا الطعام، كان كل شيء باهظ الثمن في «ايركوتسك». ولكنها لم تكن تستطيع أن تتخلى عما هو ضروري وأساسي. فهي امرأة تزوجت حديثاً، وتريد أن تؤثث وتجهز بيتها. وقد سرتها هذه المناسبة. فهي بطبيعتها، وطوال حياتها كانت تحب أن تنشىء وتبني.

وبعد زيارتها للملازم «كوفشنيوف!» بثلاثة أيام، عادت لتراه. فاستقبلها ليس كصاحبة قضية، وكمراجعة، بل كشريكة وحليفة له. ألم يكن لهما خصم مشترك في شخص حاكم «ايركوتسك»؟

وقال لها:

- كل شيء على ما يرام، فبناءً على طلبي العاجل، تخلى «زيدلير» عن اضبارتك، واعتماداً عليها، نظمت على الفور تقريراً مناسباً وإيجابياً، وأرسلته إلى الجنرال «لافنسكي». ولكن، آه! يا سيدتي، أنا أعمل من أجل سرعة رحيلك، بينما يتحقق سرورنا جميعاً بالاحتفاظ بك أطول وقت ممكن في هذه المدينة! ألا توليني شرف مرافقتي، الأحد القادم، عند الظهر إلى حفلة موسيقية، في الحديقة العامة؟

لم يكن لديها أي رغبة بأن تخرج مع هذا الرجل، ولكنها خشيت أن تغيظه إذا رفضت دعوته. وهي في وضعها الراهن، كانت بحاجة لحليف

قوي. وأتى على الفندق، وهو في غاية الأناقة، لكي يصطحبها إلى الحديقة.

وفي الحديقة العامة، كان هنالك جوقة موسيقية تعزف الألحان «zluck» بكثير من الحماسة، وكانت العلامات والنوتات الخاطئة والنشاز. تضفي طابعاً غير متوقع على هذه الموسيقا الهادئة والمتعقلة. كانت المدينة كلها موجودة هناك، والجميع يجلسون على كراسي خشبية قاسية.

ولم يكن الضباط يختلطون بالموظفين المدنيين، الذين كانوا هم أيضاً، يجلسون بعيداً عن التجار. ولدى بعض العائلات، كثيراً ما تبدو فساتين الأم وبناتها وقد فصلت من قماش واحد. وفي الوقت الفاصل بين معزوفتين، كان الملازم «كوفشينوفّ» يحدث «صوفيا» عن حياته الرتيبة في «ايركوتسك» وعن طموحاته الفكرية والإدارية. وكان جيرانهما ينظرون إليهما خلسة. ولا بد أنهم كانوا يعتقدون أنهما متفاهمان ومتفقان على كل شيء.

وكان الملازم «كوفشينوف» مزهواً بهذا الانطباع الوهمي الذي حصل لديهم عنهما. وبين فصلي الحفلة، انحنى نحو «صوفيا»، وقال لها خفية:

- لماذا لا تعودين إلى «ايركوتسك»، بعد أن تذهبي إلى «تشيتا»؟ وسأنظم لك أوراقاً لكي تتمكني من التجول بحرية...

وكان عليها أن تتمالك نفسها لكي لا توقفه عند حده، وقالت:

- أعتقد أنك لم تفهم الغاية من رحلتي وهدفها، فأنا لست ذاهبة لأقوم بزيارة زوجي، بل لألتحق به، وأبقى معه، على الدوام...

- ربما غيرت رأيك، بعد أن تمضي بعض الوقت هناك!

- كلا، بالتأكيد، أيها السيد!

- لا ينبغي أن يجزم المرء بأي شيء، في سيبيريا، وأن يؤكده، حتى ولو كان فرنسياً!... أتدرين أن لك أجمل يدين في العالم؟

فرشقته بنظرة تنم عن دهشة شديدة، لدرجة أنه لم يذهب بعيداً متمادياً في الملاطفة والإطراء. وحتى نهاية الحفلة لم يتبادلا سوى الأحاديث التافهة والمبتذلة. كانت تشعر برغبة تغريها بأن تبدو كريهة ومزعجة، ولكنها كانت تبذل الجهد لكي تبتسم، وهو، من جهته كان يكتم خيبته، ويتصنع المرح وعدم الاهتمام. ورافقها إلى الفندق، سيراً على الأقدام، وهو يمشي بالقرب منها، ويقدم لها ذراعه، عند كل حافة رصيف. وتبادر إلى ذهنها: «لم أكن لطيفة معه بما فيه الكفاية، ألن أجعله ينقلب ضدي، وأضيع بذلك آخر فرصة لي؟».

وافترقا أمام الفندق، بكل فتور، وقد بدا عليهما الجمود والتصنع. وفي الرواق، وجدت «صوفيا» «نيكيتا» ينتظرها، وبالكاد، عرفته: كان قد ذهب إلى المزين في غيابها وطلب منه أن يقص له شعره. ومن الشعر الطويل والكثيف الذي كان على رأسه لم يبق سوى بقايا قصيرة على الجبهة وحول الأذنين. وبدا رأسه قد صغر حجمه، فوق عنقه الطويل البارز العضلات. وبعد أن قص شعره بهذا الشكل، أصبح يشبه أي فلاحٍ عائدٍ من البازار. فغضبت، وأدرك ذلك، وأخذ يعتذر:

- حقاً، لقد كان شعري طويلاً، يا سيدتي، وأطول مما ينبغي!

فهزّت «صوفيا» كتفيها، وقد فوجئت ودهشت، هي نفسها، من استيائها وغضبها. فأي أهمية له، في حياتها شعر «نيكيتا»؟!

٥

مع مرور الأيام، أخذ أمل «صوفيا» يضعف، على الرغم من تأكيدات «كوفشينوف»، وبدأت تقول في سرها إنها بمحاولتها كسب الوقت، لم تنجح ألا في تعقيد قضيتها والتشويش عليها. وأخيراً، تلقت يوم الثامن من أيلول «سبتمبر» دعوة من حاكم «ايركوتسك». وقبل عشرين دقيقة من موعد المقابلة، كانت موجودة في غرفة الانتظار.

واستقبلها الجنرال «زيدلير» بكل برود، وكان التكلف بادياً على وجهه، ونظرة حادة كسلك الفولاذ تبرق بين جفنيه. فقدرت خطورة المجازفة التي قامت بها، بجرحها هذه الطبيعة المتكبرة. ودون أن يدعوها إلى الجلوس، قال لها:

- لقد اعتقدت أنه من المناسب، أيتها السيدة، أن تقفزي وتتجاوزي درجة لكي تتوجهي بطلبك إلى الجنرال «لافنسكي». وهذا التصرف الفظ الذي يخلو من المراعاة والمجاملة، بالنسبة لي، كان من الممكن أن يكلفك غالياً!

فتمتمت «صوفيا»:

- إني لم أشأ أن أغضبك، يا صاحب السعادة، ولكني في حالة القلق التي أعيشها وأعاني منها، لم أستطع أن أقف مكتوفة اليدين، وكان عليّ أن أحاول عمل أي شيء...

فقاطعها، بلهجة حاسمة:

- من حسن حظك، أنّ الأنظمة والقواعد الإدارية هي شيء، ونزوات الإداريين شيء آخر. ويبدو أنك كنت محقّة وعلى صواب بتجاهلك طريق

التسلسل و- اسمحي لي!- وأبسط قواعد اللياقة! فقد تلقيت للتو الأمر- وأعني تماماً الأمر- بأن استجيب لطلبك.

فشعرت بفرحة عارمة تغمرها، وقد تدفقت كتدفق المياه من أحد الينابيع. وقالت:

- أشكرك، يا سعادة الجنرال.

- بدلاً مني، عليك أن تشكري الجنرال «لافنسكي» فجواز مرورك يحمل توقيعه، وليس توقيعي.

- ومتى أستطيع أن أسافر؟

- متى تشائين، وهذه هي أوراقك.

وأعطاها جواز سفرها وجواز مرور، مختوماً بالشمع الأحمر.

فقالت له «صوفيا» وهي تضع الوثائق في حقيبته يدها:

- لديك أيضاً جواز سفر خادمي.

فمرت على وجه «زيدلير» ارتعاشة خفية وغريبة. وشدت شفتيه نحو الأسفل، تجعيدتان رفيعتان كأنهما آثار جرح، وقال دون اهتمام:

- جواز السفر هذا، سأحتفظ به.

- وكيف ذلك؟

- إيه! نعم، فأنا لم أتلق تعليمات ألا فيما يتعلق بك شخصياً، وأنا أنصاع لهذه التعليمات بكل دقة. فلا تطلبي مني زيادة على ذلك.

فاستشاطت «صوفيا» غضباً.

- ولكنّ هذا الرجل أتى من «بطرسبورغ» معي! ولا أستطيع أن أتركه هنا، وأتخلى عنه!

فقال الجنرال «زيدلير»، بلهجة ساخرة:

- أرجو أن تعفيني من المشاركة بهذه الاعتبارات العاطفية فجمعت كثيراً من الكراهية في نظرتها، لدرجة أنّ الألم انتشر وشعّ حول حاجبيها. وبقدر

ما كانت هي تبدو ساخطة وغاضبة، كان الجنرال يبدو هادئاً ومرتاحاً: كان يتمتع بانتقامه بكل توئدة وهدوء، وخطوة خطوة، دون أي استعجال.

وقالت، دون أي روية أو اعتبار:

- سأراجع الجنرال «لافنسكي» بشأن هذا الأمر.

فردّ بقوله:

- لقد سبق لك أن نجحت في هذا المجال، ولذلك فأنت تخطئين إذا لم تعاودي الكرّة! ومع ذلك، فعندما يعود الجنرال «لافنسكي»، سأجد نفسي مضطراً لاطلاعه على أنّ خادمك، قد استخدم العنف ضد رجالي. وفي هذه الحالة، فأنا أشك بأنّ حاكم سيبيريا الشرقية، سيلبي طلبك، مرة أخرى، ضد رأيي.

لقد هزمت وشعرت بالمذلة، وكان عليها أن تكتم غيظها. وابتسامة الجنرال «زيدلير» العريضة، شملت كل تجاعيد وجهه الشاحب والمسنّ.

وقال أيضاً، :

- ولنتكلم فيما بيننا وحسب: أنت تحزنين لأمر تافه جداً!

فما هو العبد؟ إنك ستجدين كل الخدم الذين تريدينهم، في «تشيتا»!

هذا الكلام الذي ينم عن الوقاحة، ويقوله بمنتهى البرود، جعل غيظ «صوفيا» يبلغ أقصى مداه، وكأنّ شبكة قد ألقيت عليها، ومع كل انتفاضة، كانت تعرقل حركتها وتمسك بها الشبكة أكثر فأكثر.

وأنهى الجنرال «زيدلير» حديثه، قائلاً:

- لم يبق عليّ، سوى أن أرجو لك أيتها السيدة رحلة موفقة وسعيدة!

وعندما غادرت مكتبه، أسرعت إلى قصر الحاكم العام، لكي تطلب الدعم والمساعدة من الملازم «كوفشينوف»، فاستقبلها هذا، على الفور. وكانت تظن أنه، بكلمة واحدة، سيبدد كل الغيوم، ولكنه، بعد أن استمع إليها، تجهم وجهه، وقال:

- نعم، هنالك خطأ ارتكب في الأساس، ومن البداية، ففي تقريري الذي أرسلته إلى الجنرال «لافنسكي»، لم أتحدث إلا عنك، ولم أكن أتصور أنه ستحدث لك متاعب من أجل الخادم. والآن، فإنّ ما أخشاه هو أن يعتبر الجنرال «زيدلير»، وهو شديد الحقد، أنّ الموضوع يتعلق بكرامته، ويبذل كل جهده لكي يمنع خادمك من السفر.

- ولكن! الجنرال «لافنسكي» يستطيع أن يتدخل!...

- لقد تدخل لمصلحتك، ولن يتدخل لمصلحة عبدك! وإلا، فإن هذا يعني توجيه إهانتين متتاليتين للجنرال «زيدلير». ونحن لم ندخل بعد في حرب معلنة بين إدارتينا! وبالطبع، يمكن أن أكون مخطئاً... فإذا لم تكوني على عجلة كبيرة من أمرك، انتظري عودة الحاكم العام. فهو سيكون هنا، بعد أسبوعين. وتعرضين عليه، أنت بنفسك، قضيتك.

فتمتمت، وهي في غاية الحيرة والقلق:

بعد أسبوعين؟!

كانت الفكرة الأولى التي تبادرت إلى ذهنها، هي أنها ليس لها الحق بأن تبقى لمزيد من الوقت في «ايركوتسك». وأنّ كل ساعة تكرسها لـ «نيتكا»، ستصبح من الآن فصاعداً، مسروقة من زوجها. وكما يدفع الحصان بقوة لاجتياز أحد الحواجز، فقد استجمعت كل قوة إرادتها، لكي تقرر السفر. ولكنّ قرارها تراخى حتى قبل أن تكون قد عبرت عنه: هذا الفتى الذي تبعها إلى قلب سيبيريا، أيمكنها الآن إهمال مصيره، وعدم الاهتمام به؟ والخدمات التي أداها لها، والإخلاص الذي أبداه لها، كل هذا يستحق تماماً أن تتأخر بضع أيام لكي تحاول أن تحلّ له مشكلته.

وقد قوّت هذه الفكرة من عزيمتها، فجابهت نظرة الملازم «كوفشينوف» الفضولية، أحمر وجهها قليلاً، وتمتمت:

- يستحيل علي أن أسافر، في هذه الحالة... «نيكيتا»... خادمي... قطع هذا الطريق الطويل حتى أتى إلى هنا، لذلك لا أستطيع أن أتركه!... لو تركته، وتخليت عنه... لكان تصرفي غير إنساني!...

- إذا كان جواز سفره نظامياً، فإنه يستطيع دائماً أن يجد عملاً في «ايركوتسك»! فما هو العمل الذي يجيده؟

- إنه يجيد القراءة، والكتابة، ومسك الحسابات...

فصاح «كوفشينوف»، ضاحكاً:

- إيه، حسن! وماذا في ذلك إذن؟ من أي شيء تخافين عليه؟

سافري، دون أن تقلقي عليه! فلن يمضي أسبوع على هذا الشاب النشيط إلا ويكون قد وجد عملاً ممتازاً!

فهزت «صوفيا» رأسها:

- كلا... أؤكد لك... إني أفضل أن أنتظر عودة الجنرال «لافنسكي»...

فابتسم «كوفشينوف» ابتسامة مرنة ومترددة، وبرقت عيناه. ودفع أنفه إلى الأمام:

- أيّاً كان سبب إصرارك وعنادك، فإني أبارك الظروف التي تحتجزك بيننا!

وقالت «صوفيا» مترددة، وكأنها أرادت أن تخفف من غرابة خيارها، وقرارها:

- بالطبع، فإني إذا غيرت رأيي، سأكون سعيدة جداً إذا استطعت الاعتماد عليك، مرة أخرى!...

- طبعاً، يا سيدتي العزيزة، كوني مطمئنة تماماً. فمهما حدث، فإني لن أنسى هذا الشاب الذي تشمليه برعايتك.

كان يختبيء وراء ستار من الكلام العذب والمعسول. واستأذنت «صوفيا» للانصراف، دون أن تستعيد توازن أفكارها. وعلى الرغم من المظاهر، فإنها

كانت تذهب فارغة اليدين. وجواز المرور، الذي ظلت زمناً طويلاً تشتهي الحصول عليه، لم يعد كافياً لكي يجعلها تشعر بالسعادة. كانت تشعر بأنها مذنبة بحق زوجها، لأنها بدلاً من أن تفكر به وحده، كانت تحمل وتجترّ هموماً، لم يكن له علاقة بها أبداً. وعندما أصبحت في الشارع، أخذت تطمئن نفسها وتؤكد ذلك، لكي تشجع نفسها بأنّ الأسبوعين سينقضيان بسرعة، وعلاوة على ذلك، فمن الممكن أن يعود الجنرال «لافنسكي» قبل الموعد المقرر، وعلى أي حال، فإنّ «نيقولا» لن يتألم بسبب هذا التأخير، لأنه كان يجهل أنها قد بدأت رحلتها. وماذا لو قلنا إنّ كل هذه العقبات والعوائق كان يمكن تجنبها، لو أنها استطاعت أن تصبر قليلاً، وتركت الجنرال «زيدلير» يقوم بعمله! ولكنها، كعادتها دائماً، فهي على عجلة من أمرها، عنيدة، أكثر مما ينبغي، متهورة وحادة الطبع!...

ولم تكد تعود إلى الفندق، حتى استدعت «نيكيتا» إلى غرفتها، فبدا وعلى وجهه تعابير الأمل والامتنان، وهذا ما جعلها تضطرب. وأخذت تحدق به، وقد تصاعدت من أعماقها موجة صاخبة من المتعة والسرور، دون أن تكون قادرة على التحكم بها أو السيطرة عليها. ولأنها ظلت صامتة، فقد شعر بالقلق، وسألها بهدوء:

- ماذا، يا سيدتي؟ ألديك أخبار سيئة؟

فتمتمت:

- أوه! كلا، أو بالأحرى، نعم... إني لم أستطع أن أحصل لك على جواز مرور...

فتجلت الصدمة التي حصلت له، بارتعاش خفيف في حدقتيه.

واستأنفت الكلام:

- أخيراً... ليس بعد، ولكن يمكن أن يسوى كل شيء وكل شيء سيسوى، وأنا متأكدة من ذلك!

وتبين لها، وهي تلفظ هذه الكلمات الطريق الخطير الذي تتجه نحوه. وما اكتشفته فجأة في قرارة نفسها، أخافها، كما لو أنها، وهي تتأمل نفسها في المرآة، قد اكتشفت فيها امرأة غريبة، ذات ضحكة جنونية. كانت لا تزال تستطيع أن تغير رأيها، وأن تهرب من «نيكيتا» قبل أن يكون قد فات الأوان على ذلك. ولكي تتيح لنفسها بعض الوقت للتفكير، أخذت تحدثه بإسهاب عن زيارتها لـ «زيدلير»، ثم عن زيارتها لـ «كوفشينوف». وعندما أنهت حديثها، سألها:

- إذن، ستسافرين وحدك؟

فأخذت نفساً طويلاً وعميقاً، وفجأة، كان قرارها قد اتخذ. فالمستقبل يتعلق بالوقت الحاضر. ويجب الضرب بسرعة وبقوة، لكي يكون الجرح صحيحاً.

وقالت:

- نعم.

فتقلص فكا «نيكيتا»، وشعرت «صوفيا» بارتداد صدمة هذا الألم، كما في اليوم الذي رأته فيه، يعصف به الألم، وهو مستلقٍ في غرفتها، على أرضيتها الخشبية الحمراء. كان هو الذي يتألم، وكانت هي التي تشعر بغصة في حلقها وبالدموع تطفر من عينيها، ولأنها خشيت من عدم تمكنها من كبت عطفها وحنانها، فقد أضافت:

- ليس هنالك وسيلة أخرى للعمل.

فقال:

- إني أتفهم ذلك، يا سيدتي، ومتى ستسافرين؟

- غداً.

- بهذه السرعة؟

فقالت بصوت ضعيف:

- نعم، يا «نيكيتا»، فالطريق إلى «تشتيا» طويل جداً!...

كانت الحياة تنسلّ منه، أو الوعي، على الأقل. كان نائماً وهو واقف، تغطيه مصيبته. فخافت من هذا الهدوء غير الطبيعي.

وقالت بحماسة مصطنعة:

- لقد وعدني الملازم «كوفشينوف» بأنه سيهتم بك، وربما سمحوا لك بعد بضع أيام، أنت أيضاً، بأن تسافر؟!...

فقال:

- لن يسمحوا لي أن أسافر، وأنت تعلمين ذلك جيداً!

وأنا لن أراك ثانية، لن أراك ثانية، على الإطلاق...

وعلى وجهه البسيط المتوج بالشعر الأشقر القصير، كان الحب العنيف والمشبوب يمتزج بيأس لا تحدّه حدود. فاضطربت «صوفيا» حتى أعماقها، وكانت على استعداد للاستسلام إلى المسرات المشوشة التي تتيحها الشفقة والرحمة، ولكنها تماسكت، وقالت:

- هذا سخف، وغير معقول! إني أمنعك من أن تقول هذا وأن تتكلم بهذا الشكل! وسترى ماذا يمكنك أن تشتغل في «ايركوتسك» ريثما تحصل على أوراقك. يجب أن تجد عملاً ومسكناً... وسأترك لك بعض النقود، لكي لا تكون معدماً تماماً، في البداية... بلى، بلى!... هذا ضروري جداً!...

وتوقفت، وهي تلهث، عن الكلام. إذ إنّ التحوّل الذي فرضته على نفسها، كان قد حطّم قواها. وكان يبدو لها، أنها في أقل من ثانية، كانت قد التمست وقوع الكارثة، وتجنّبتها. وبشكل مفاجئ، شعرت بالانزعاج لوجودها، على انفراد مع «نيكيتا» في غرفتها. كان الهواء، بينهما يبدو مثقلاً بتدفق شحنات كهربائية. والأشياء لها منظر جاف، غير اعتيادي، ينذر بالخطر، كما يحدث قبل هبوب العاصفة. ففتحت «صوفيا»

الباب، ونادت «بروسبير رابودان» بحجة أنها تريد أن تناقش معه مستلزمات سفرها. وعندما رأت ذلك الوجه الطلق والواضح، شعرت بالارتياح. واقترح في الحال أن يضم «نيكيتا» إلى عمال مطعمه كنادل:

- إنه لطيف ونشيط، وسينال الكثير من المكافآت والإكراميات! فماذا تريدين أكثر من ذلك؟

فتظاهرت «صوفيا»، بأنها فرحت كثيراً بهذا التوفيق غير المتوقع:

- يا لها من فكرة مدهشة! أترى، يا «نيكيتا» أنّ كل شيء قد سوّي؟!

كانت تبالغ بإظهار سرورها، كما لو أنها كانت منحنية، وبيدها قدح من المرق، نحو مريض يرفض الغذاء. «نيكيتا» لم يكن يسمع شيئاً ولا يرى شيئاً، كان دون شك يعير انتباهه لانهيار يحصل في داخله. ولكي تخرجه من غفلته، طلبت منه أن يتفقد العربة، ويتأكد من أنها جاهزة لمتابعة السفر. وذهبا لكي يتفحصاها سوية، في محل صانع العربات، القريب من محطة الاستراحة ومركز البريد. كانت كل الإصلاحات، قد أجريت لها، وكانت النوابض مغطاة بالشحم، وحزامات العجلات، المعدنية تلمع، كأنها جديدة، وأخذ «نيكيتا» يتأمل بأسى هذه العربة، التي حظيت بعناية فائقة، والتي كان عليه أن يتابع رحلته فيها، ولكنها ستُقلّ الآن، «صوفيا» وحدها، نحو بلاد لن تعود منها أبداً.



وفي اليوم التالي، عند الفجر، توقفت العربة، وقد شُدتّ إليها ثلاثة أحصنة، أمام مدخل الفندق. فخرج جميع الخدم لمشاهدة رحيل «صوفيا».

فصعدت إلى الصندوق وجلست كأحسن ما استطاعت بين حزم قشّ مغطاة بالقماش. وحزم «نيكيتا» الحوائج والأمتعة، شاداً عليها الحبال. كان شاحب الوجه، أحمر العينين، ويتنفّس بقوة، وقد امتنع عن الكلام. ومنذ

أن أعلنت له عن سفرها، بدا وكأنه يريد أن ينفصل عنها، وأن يقبع في قوقعته لكي لا يتعذب. وجهز «بروسبير رابودان» سلة، وضع فيها ثلاثة فراريج باردة، خبزاً، دهناً، سكراً، وثلاث زجاجات نبيذ.

فقالت «صوفيا»:

- هذا أكثر مما ينبغي، بعشرين مرة! فأنا لست مسافرة إلى أمريكا!

- لا أحد يعرف ماذا يمكن أن يحصل!

وأضاف صاحب الفندق، مقدماً لها بعض النصائح:

- في المحطات احذري الناس الذين يطلبون منك أن ترافقيهم في الطريق. وإذا اقترح عليك سائق عربتك أن يسير بها في طريق مختصر، ارفضي اقتراحه. ولا تدفعي ثمن مشترياتك بأوراق نقدية كبيرة...

وأكثر لها من هذه النصائح التي كانت تسمعها وهي شاردة الذهن، أكثر انشغالاً بمتابعة حركات «نيكيتا» وبالقراءة في أفكاره. فهذا الفتى كان رفيق دربها، والنجيّ المؤتمن على متاعبها، على مخاوفها، على آمالها، وهو حاميها، كما كانت، هي حاميته. ولماذا كان ينبغي أن يبدو أنه يطلب منها شيئاً آخر، غير الثقة؟ ولماذا لم تكن تستطيع أن تجعله يلاحظ كل الحزن لافتراقهما، دون أن تجازف بأن تسبب له المزيد من الألم والعذاب؟ كان هنالك، أمامها، حياً تماماً، لديه كثير من القوة في عضلاته، وكثير من الضعف في روحه!

لم يكن قد ضاع شيء بعد، وخلال بضع دقائق... لم تكن تستطيع التخلي، الاستسلام والخضوع. وشعرت بضيق شديد في صدرها. شعر «نيكيتا» الأشقر، الذي أصبح قصيراً بعد قصه، وجنتاه الملوّحتان. قزحيتا عينيه، بلونهما الأزرق المائل إلى البنفسجي، كل هذا شيء يفوق الوصف...

وسألها الحوذي:

- ماذا هنالك، يا سيدتي، ألا ننطلق؟

فارتعشت. ورفع «نيكيتا» رأسه، وقد جحظت عيناه، كانتا تعبران بقوة عن الحزن، والرعب، والمحبة والحنان، لدرجة أنّ «صوفيا» شعرت أنّ الأمواج أخذت تتقاذفها. وتمتمت:

- لحظة! أريد من أحد الخدم أن يذهب ويتأكد من أني لم أنسَ شيئاً في غرفتي...

فأسرع أحد الخدم بالذهاب إلى غرفتها. فكسبت بعض الوقت، دون أن تدري ماذا تفعل خلاله. كانت نظرتها مسمّرة على نظرة «نيكيتا» وبصعوبة كانت تتحمل هذا الارتباك الذي يسبق الوداع.

وقال «بروسبير رابودان»:

- سيكون في أفضل حال، معنا هنا، سأضعه ليعمل في الخدمة أولاً، ثم في المطابخ، وبعد ذلك- ولماذا لا يكون الأمر هكذا؟- سيعمل في المحاسبة...

ومن السماء الداكنة والمكفهرة، التي تحجبها الغيوم المنخفضة، تساقطت بعض القطرات. وريح باردة، تهب من فوق بحيرة «بايكال» أحدثت ارتعاشة في ذراعي «صوفيا». فالتفّت بالغطاء المصنوع من جلد الدب. وعاد الخادم، دون أن يكون قد وجد شيئاً في الغرفة، فلم يعد هنالك أي ذريعة للتأخر، ويجب الانطلاق. فرسم السائق إشارة الصليب على صدره، وقالت «صوفيا»:

- إلى اللقاء، سيد «رابودان» إلى اللقاء «نيكيتا»!

فهمس «نيكيتا»:

- ليحفظك الله ويرعاك، يا سيدتي!

وبحركة جنونية، أمسك يد «صوفيا» ورفعها إلى شفتيه. وعامل الإسطبل، الذي كان يقف أمام الأحصنة، قفز جانباً، كأنه يبتعد، مفسحاً المجال لمرور انهيار جارف. واندفعت الأحصنة إلى الأمام، وقد أثارها صفير الحوذي وفرقعة سوطه.

وأخـذت النـوابض والعجـلات والعـوارض تطقطـق عنـد كـل ارتجاجـة. والتفتت «صوفيا» وفي أعماق قلبها شعور مفاجئ بـالفراق. وهنـاك، في وسـط الطريق، وقفت مجموعة صغيرة من النـاس أخـذوا يلوحـون بأيـديهم. وكـان بينهم، شاب أطول من الآخرين، عـريض المنكبين، شـعره أصفر بلـون قش الزرع. وبينـه، هـو الـذي بقـي، وهـي الـتي هربت، أخـذ ربـاط يمتـد، ويشدّ، ويكـاد ينقطع... وفجأة شعرت بالخلاص:

كـانـت العربـة قـد انعطفت عنـد زاويـة الـشارع. واجتـازت «صـوفيا» كـل المدينة، دون أن ترى شيئا، ولم تستيقظ مـن أحلامهـا وتأملاتهـا، إلاّ عنـدما لمحت، بجانب الطريق، نهـر «الأنغـارا» العـريض المجـرى، بجـزره الـصخرية، وأحراجه السوداء المعلقة فوق صخور ضفتيه، وتجمعات السنونو، التي تطـير وهـي تزقزق، فوق خليج رملي صغير.

٦

كان قد بدأ يخيم الظلام، عندما غادرت العربة محطة الاستراحة الثالثة. والطريق لم يعد سوى ممر تكثر فيه الحصى، حُفر بصورة غير منتظمة، في سفح الجبل. وفي الأسفل، نهر «الأنفارا»، يجري تياره السريع، ويبصق غاضباً على الصخور التي تعيق مجراه. وكان هنالك جذع شجرة، حطت عليه طيور بيضاء، يقوم متأرجحاً بين الأمواج. ومع كل دورة عجلة، كان الوادي يبدو أكثر اتساعاً. وأخذ الهواء الذي أصبح أكثر برودة يرطب وجه «صوفيا» وينعشه. وعبر صرير لوالب العربة ونوابضها، ميزت صوت مدّ وجزر، رتيب: هو صوت ارتداد الأمواج. وامتد أمامها بحر رمادي مسطح ومستوٍ، وفيما بعده، قمم تغطيها الثلوج، ويكتنفها الضباب الكثيف.

وقال السائق:

- ها هي «بايكال» بحيرتنا، ذخيرتنا الاحتياطية المقدسة، من الأسماك؟

كانت السيول المزبدة المتدفقة من الجداول والأنهار، والصخور المنتصبة: والعالية، التي تعلوها أشجار الصنوبر والسندر، وتموج المياه القاتمة، والغيوم الكثيفة التي تبدو معلقة في الأفق، كل ذلك كان يضفي على المشهد طابعاً يتسم بالوحشية والعزلة والخفاء، كان يبدو أنّ السائق نفسه أخذ يشعر به. وأوقف أحصنته عند منعطف يطل على البحيرة، فسألته «صوفيا»:

- ماذا حدث؟

- لا شيء. إنها العادة: عند الوصول إلى هنا، كل واحد يجب أن يفكر ملياً وبقوة بما يرغب أن يتحقق له. ففي وسط النهر توجد «صخرة الساحر» فإذا سمعك الساحر الموجود في الصخرة، فتُستجاب دعوتك وتتحقق رغبتك. أعلني عن أمنيتك، يا سيدتي!

في «سان بطرسبورغ» كان من الممكن أن تسخر من هذا المعتقد السخيف وغير المعقول، ولكن، هنا، فقد كانت أقل ثقة بنفسها. ولا بد أنّ لهذه البلاد التي تسافر عبرها، قدرة فائقة على السحر وإطلاق العنان للخيال، وتأثيراً شديداً على الذهن، بحيث يصبح كل شيء استيهاماً، وتصوراً خيالياً خادعاً، في هذه الصحراء الفسيحة التي تبدو وكأنها لا تحدها حدود. ولم تستطع الامتناع عن التفكير بـ «نيقولا» وبـ «نيكيتا» بحمية وورع وهميّين. وشيئاً فشيئاً، أخذت الحركة تدب من حولها عبر الظلام. كان هنالك آلاف الطيور التي اطمأنت لتوقف العربة وهدوئها، فأخذت تحيي قدوم الليل، بالزقزقة، والتغريد والصفير، على استحياء وبأصوات خافتة في البداية، ثم أخذت تزداد قوة وشدة. وبعض طيور البط البرية العائدة من الصيد في البحيرة أخذت تتبادل فيما بينها الصياح الحاد، قبل أن تحط على شاطئ البحيرة، وبعد ذلك، أتى دور طيور البجع والإوز الضخمة ، التي هيمنت لفترة طويلة، على أصوات وجلبه بقية الطيور، باصطفاق أجنحتها، وبأصواتها القوية والحادة، وعندما ضعفت أصوات طيور البط والإوز وسمعت أصوات وتغريد بعض الطيور الأخرى الصغيرة، أرسلت بجعة صيحة، كأنها نشيد النصر، وبعد قليل، تابعته جميع الطيور التي تنتمي إلى فصيلتها والتي كانت متجمعة على ضفة البحيرة. وبلغت الضجة ذروتها، ثم لزمت جميع الطيور الصمت، بشكل مفاجئ، وكأن هنالك قائداً لهذه الجوقة، قد أوعز لها بالتوقف عن الإنشاد.

وبدا جانب من القمر، بين سحابتين. وحدثت ارتعاشات فضية، جعلت مياه البحيرة تتموج. ولم يعد يعكر صفو الليل وهدوءه سوى صفير عصفور صغير، هو «أبو الرؤوس» الذي يقال عنه أنه يبشر بالمطر، والذي تابع الصفير، وهو يركض على رمال ضفة بحيرة «بايكال».

وأسفت «صوفيا»، لأن «نيكيتا» لم يكن بالقرب منها ليسمع هذه الأصوات الساحرة. فمنذ مغادرتها «ايركوتسك» كانت تروي له أبسط أحداث الطريق التي تحصل معها. فلو تأملت منظراً أعجبها، أو تذمرت من طريق سيئ، أو نفد صبرها، أو شعرت بالقلق، أو بالسعادة والسرور، فإنما معه كانت ترغب بتبادل الآراء والانطباعات. وتلمظ السائق وتمطّق بلسانه، فانطلقت الخيول، دون أن توجه «صوفيا» أي أمنية إلى الساحر المختبيء في الصخرة.

وعند منتصف الليل، توقفت العربة أمام بيت محطة الاستراحة، الخشبي. وكان ما يقرب من عشرين مسافراً يغفون وهم مستلقون على مقاعد القاعة العامة. وجميعهم ينتظرون السفينة التي ستنقلهم في اليوم التالي، مع عرباتهم، إلى ضفة البحيرة الأخرى، عابرة البحيرة في المكان الذي هي فيه الأقل عرضاً، أي بين «ليستفنيتشفوي» و «بوارسكوّي». فتدافعوا وانضموا فيما بينهم وهم يتذمرون، لكي يفسحوا مكاناً لـ «صوفيا»، فجلست بين عجوز قصيرة، قبيحة الوجه، ورجل بدين، كثيف الشعر، طويل اللحية، ينتعل حذاءً، ضخماً، وهو على ما يبدو، تاجر مواشي، يُعرف بذلك، من رائحة الحظيرة التي تفوح من ملابسه. وكان هنالك مصباح زيتي ينشر بصيصه الكئيب على تلك الوجوه التي جعلها التعب تنحني نحو الأرض. وفجأة، شعرت «صوفيا» بفخذ التاجر، الحار، يلتصق بفخذها. فابتعدت عنه، فاقترب منها. ودون أن يلتفت تقريباً، كان يوجه لها، من طرف عينيه نظرة شهوانية معسولة. وكانت شفتاه الغليظتان

المفتوحتان في غابة من الشعر الأشقر، ترسلان نفساً لاهثاً. ولم تكن «صوفيا» تستطيع أن تبتعد أكثر مما ابتعدت دون أن تدفع العجوز القصيرة، ومعها كل الناس النائمين. ولذلك همست:

- دعني وشأني أيها السيد!

فلم يبدُ عليه أنه سمعها، وقرّب ركبته وكتفه، لكي يلمسها، ويلتصق بها بشكل أفضل. وفي اللحظة نفسها شعرت بحكة مشبوهة فألقت نظرة على يديها. كان هنالك عدة بقّات تركض فوقها. فانتفضت واقفة بقفزة واحدة. نفضت ثيابها، ومشت بخطى ثابتة نحو الباب: فهي تفضّل أن تمضي تلك الليلة في عربتها، وكان عليها أن تتخطى بعض القرويين المستلقين على أرضية الغرفة، الخشبية، فشعروا بتحرك الهواء، عند مرورها، وفتحوا أعينهم وأخذوا ينظرون إليها، من الأسفل إلى الأعلى. هم أيضاً كان البق يهاجمهم، ولكنهم، وهم معتادون عليه، ما كانوا يهتمون به.

وخارج مركز الاستراحة، غسل لها وجهها هواء بارد. وكانت الغيوم قد أنجزت التهام القمر، فلم يعد لبحيرة «بايكال» ضفاف، وكانت تسمع صوت تلاطم أمواجها عبر ظلام الليل الدامس. وأمضت «صوفيا» فترة طويلة تبحث عن عربتها حتى وجدتها بين كل تلك العربات المتوقفة أمام محطة الاستراحة وبعد أن استلقت في صندوق العربة على رزم القش، وضعت مسدساً محشواً بالقرب من يدها. كان «بروسبير رابودان» هو الذي أوصاها بأن تأخذ هذا السلاح معها، في رحلتها، وبناءً على نصيحته، أيضاً، كانت قد خاطت كل نقودها في ذيل فستانها. ولكن، هل تستطيع حقاً، أن تدافع عن نفسها لو هاجمها أحد ما؟ وبعد أن سحبت الغطاء، الذي كان جلد دب، حتى ذقنها. وخفضت غطاء العربة ظلت ترتجف من البرد، وهي تتفرس أمامها في ذلك الظلام المجهول، الذي يمكن أن يبرز منه الخطر في

أي لحظة. وكان قلبها يتوقّف عن الخفقان، عند أول ارتعاشة هواء، وعند أول فرقعة أو انقصاف غصن في شجرة، كانت تقدّر مدى الجنون الذي ارتكبته بمتابعتها السفر بمفردها. ولا يزال أمامها ما يقرب من ثمانمئة كيلومتراً، أي نحو عشرة أيام، عليها أن تقضيها على الطريق، ولم يكن باستطاعتها التصديق بأنها ستصل إلى «تشيتا» دون عائق أو حادث! آه! لو كان «نيكيتا» إلى جانبها، فبأي سكينة وطمأنينة كانت تستطيع أن تنعم وهي نائمة، هذه الليلة، في العربة! وأخذت تتصوره، ساهراً على أمنها وراحتها، رافع الرأس، هادىء المنكبين. وبقدر ما كانت تفكر به، بقدر ما كانت تكتشف أنها ضعيفة، ومعرّضة لخطر لا تستطيع ردّه أو مقاومته، وبهذا القدر أيضاً كانت تشعر بالحاجة إلى حضوره، إلى قوته، وإلى لطفه ومودّته. وفيما يشبه الهذيان، نادته بصوت خافت، وهي تهزّ رأسها. وتقلّبه على الوسادة. وبدا لها، أنه لو ظهر أمامها في تلك الدقيقة، لكانت ألقت نفسها بين ذراعيه. فهل كانت ستفعل ذلك بدافع الخوف، بدافع الامتنان والاعتراف بالجميل، أم بدافع العطف والمحبة؟ إنها لم تعد تعرف بأي دافع كان من الممكن أن تفعل ذلك حمّى التعب قد ألهبت خدّيها، والدموع أخذت تضايقها وتعذبها. وفجأة، سمعت وشوشةً وأصواتاً لا يحصى عددها، كما لو أنه كان هناك جيش يقترب وهو يطأ الأعشاب والحشائش ويدعكها تحت النعال. فأمسكت مسدسها، وقد تجمدت من الرعب، وأخذت يدها ترتجف. ولكنّ الصوت تحدّد وأتّضح: مطر غزير، كبير القطرات، أخذ يقصف الأرض، بالعنف الذي يبلل كل شيء، يميت كل شيء ويجرف كل شيء. فاطمأنت «صوفيا» بعد أن شعرت أنها أصبحت معزولة عن العالم بستائر من الماء. فلن يجازف أي لص، بالمجيء نحوها، عبر هذا الطوفان. ولأنّ «نيكيتا» لم يستطع أن يأتي، فقد أرسل لها، عن طريق السحر، هذه الوسيلة لتؤمن لها الحماية. ودهشت من هذه

الفكرة، التي لا تتفق مع طبعها ولا مع عقليتها. فهل كانت على وشك التغيّر والتحول، تحت تأثير المناخ، والمخلوقات والأحداث؟ وغفت، منهكة، وهي تصغي للّيل، وهو يسيل ويتنهّد.

وعندما استيقظت، كانت الشمس تنير مشهداً طبيعياً بارداً، مبللاً ولامعاً برّاقاً. والأخطار التي كانت تتهدّدها، زالت مع زوال الظلام. وكان مركز الاستراحة يعجّ بالمسافرين، وتدوّي فيه أصوات مختلفة ومتنافرة. ولا بد من أن يكون هنالك أكثر من عشرين شخصاً يحاصرون «السماور» ويتحلّقون حوله. وعبرت «صوفيا» الطريق، ونزلت نحو البحيرة. كان الشاطئ مغطى بحصى متعددة الألوان، مصقولة وناعمة جداً: أزرق فاتح، أحمر غامق، أخضر لوزي، بنفسجي فاتح، وكانت هذه الحصى منتشرة، على امتداد منحدر هادىء، يصل بها حتى الماء.

كانت بعض سحب ونتف الضباب لا تزال عالقة في فروة الجبال، السوداء. وأخذت ريح سريعة ومرحة، تهب من عرض البحيرة تهز غطاء العربة. و «صوفيا» التي كانت تشعر بالبرد والألم، وضعت قليلاً من السكر والحلوى في سلتها، وذهبت إلى القاعة العامة لتشرب الشاي الساخن. والتاجر الذي حاول الاقتراب منها عشية ذلك اليوم، استقبلها بتحية حارة ومرحة، وسألها عما إذا كانت قد أمضت ليلة مريحة، ونعمت بنوم هنيء. فلم تجبه. فاستاء، وقال:

- كنت أعتقد أن حالة الحرب قد انتهت بيننا، منذ عهد نابليون!

كانت قد انتهت من شرب الشاي ومن تناول ما جلبت معها من حلوى. عندما أعلن مدير المحطة عن وصول السفينة. وهذه السفينة كانت ضخمة وقديمة، سطحها واسع ومسطح، ومزوّدة بحلقات ومحاور للمجاذيف، ومنذ تلك الساعة، كان بعض القرويين، قد أخذوا يجرّون العربات إلى قرب رصيف الركوب والشحن. وعند نزول تلك العربات حافة الضفة، كانت

تسير بسرعة، فيحني الرجال ظهورهم، ويشدونها لتخفيف سرعتها، وإلا كان من الممكن أن تندفع نحو الماء وتغوص فيه بما تحمل من أمتعة وحوائج. والجسر العريض الذي يربط بين السفينة واليابسة، كان يهتز وينحني تحت ثقل العربات، التي أخذت تتوقف، الواحدة بعد الأخرى، على ظهر السفينة.

كانت «صوفيا» تهمّ بالصعود على متن السفينة، عندما وصلت أربع عربات للبريد، وهي ترسل رنين أجراسها، ليسمعه جميع المسافرين الذين أخذوا ينظرون إلى بعضهم بحيرة وذهول: فلأنّ مصلحة البريد لها الأولوية على الجميع، لذلك كانوا متأكدين بأنهم لن يجدوا خيولاً في «بوايارسكوي».

وفي الساعة الثامنة صباحاً أقلعت السفينة. ولم يكن هنالك حاجة لاستخدام المجاذيف. فقد هبّت باستمرار رياح قوية، دفعت السفينة بسرعة إلى الأمام. وإذا لم تضعف، فإن السفينة ستصل إلى الضفة الأخرى، عند الساعة الخامسة مساءً، على وجه التقريب.

كان على ظهر السفينة، نحو عشر عربات، من مختلف الأنواع والأحجام. وقد تكدست طرود ورزم الحوائج والأمتعة قرب «درابزون» السفينة. وكانت الفسحة المخصصة للمسافرين ضيقة جداً، لدرجة أنّ الكثيرين منهم فضلوا الجلوس في عرباتهم. وكانت «صوفيا» وهي جالسة في وسط صندوق عربتها، وسندت ظهرها على وسادة صغيرة، تتأمل بإعجاب البحيرة، وهي في كامل روعتها عند الصباح: كان سطح الماء الأخضر بلونه الزمرّدي، يرتعش برفق، مع مرور الريح فوقه. وإلى الشمال، كان الأفق فسيحاً دون حدود كأفق أحد المحيطات. أما في الجنوب فيصطدم النظر بجبال عالية: النسق الأول منها، تبدو الجبال فيه واضحة وسوداء، والأكثر بعداً تصبح زرقاء، والأخيرة، في النهاية، تتفتت، تتذرر،

وتبدو تحت أشعة الشمس، كالطبشور المسحوق. تذكرت «صوفيا»، والأمواج الخفيفة تهدهدها، يوم عبرت نهر «الانسيّي» على متن معدّية: الانسياب المنتظم نفسه بين لا نهائية السماء ولا نهائية المياه، وتجرّد الذهن نفسه...

ولكن آنذاك، كان «نيكيتا» يقف بقربها وقد استند بمرفقيه على حاجز المعدّية. وخيل لها أنها تسمع صوته المألوف: «أنت متلهفة إلى الوصول، يا سيدتي... ومع ذلك، فجميل جداً، هذا الذي نراه هنا!...»

فطردته من ذهنها، وقد عصف بها الحزن، ودفعت به إلى حياته الجديدة. فلا بد أنه قد بدا عمله في مطعم «بروسبير رابودان»، وأخذ يسرع الخطى بين المطبخ وبين مائدة رواد المطعم، الكبرى، ولم يعد لديه وقت للتفكير بها. ويمكن أنه سينساها وهو يثرثر ويضحك مع خدم المطعم الآخرين. وهكذا يكون الأمر حسناً جداً. كانت قد أعطته مئة روبل عند سفرها. ولن ينقصه شيء ولكن، ماذا لو حصل على أوراقه، ولحق بها إلى «تشيتا»؟...

فشعرت بنفحة من الحرارة، عندما تبادرت هذه الفكرة إلى ذهنها، وأخذت الصور تتوالى في ذهنها، موجة بعد موجة، الواحدة منها تمحو الأخرى. وما تقوم به هنا، متى وكيف كانت قد رغبت به أو أرادته؟ وبأي وسيلة، بل بأي قيد تركت نفسها تُجرّ منقادةً إلى آخر الدنيا؟ لقد خيل لها أنّ خطأ خفياً في الاتجاه قد أدخل في حياتها أحداثاً لم تكن مخصصة، ولا مقدرة لها!

استمر إبحار السفينة، بكل هدوء، حتى المساء. وكانت الطيور التي تصدح بأصواتها بقوة، تلامس الأمواج وتتابع طيرانها في الأعالي إلى ارتفاعات مذهلة. وعندما غربت الشمس، بدا في الأفق بريق كشعلة من النار. وأخذت الضفة تتراقص، سوداء، على انعكاسات دموية، ذهبية

ولازوردية. وكان هنالك مكسر يشكل رصيفا على أعمدة، يمتد بعيداً فوق المياه. ودون أن ينتظر المسافرون أن ترسو السفينة، أخذوا ينزلون من عرباتهم ويتجمعون أمام بوابة الحاجز. فدهشت «صوفيا» في بداية الأمر من عجلتهم ثم ما لبثت أن أدركت سببها: فمصلحة البريد سوف تستولي على جميع الخيول في ذلك النهار، ولكنّ هذا لا يقلل من أهمية التسجيل في دفتر مدير مركز الاستراحة، لأنّ المسافرين المسجلين أولاً، سيكونون، في اليوم التالي، أول من يغادر المركز. والحال هي أنّ مركز المحطة كان على بعد خمسمئة خطوة من رصيف الميناء وحالما وضع جسر العبور، تدافع جميع المسافرين نحو مركز المحطة. راكضين متدافعين، متسابقين، وهم يتسلقون حافة الضفة. وكان التاجر الضخم في طليعتهم، بينما كانت عجوز قصيرة القامة تسير وهي تتعكز على عصاها، في آخر المتسابقين. فلو كان «نيكيتا» هنا لكان سبق الجميع. و «صوفيا» التي كانت فاترة العزيمة والهمة، هي آخر من غادر السفينة، دون أن تسرع أو تستعجل أبداً.



طـوال الليـل، ظـلّ «نيـكيتـا» يقلّـب المـشروع في ذهنـه. وعنـد الفجـر، استيقظ قبل جميع الخدم، تناول صرة ثيابه، واجتاز المهجع على رؤوس أصابعه وبكل هدوء لكي لا يوقظ أحداً، وخرج إلى الشارع. كان ضباب رمادي داكن يتصاعد من النهر وينتشر في المدينة. لا أحد على الأرصفة. هنا وهناك لا يزال أحد المصابيح يسطع في أعلى عموده، كان بائع الأحصنة الذي حدثوه عنه بالأمس، في غرفة الخدمة، يسكن في الجانب الآخر من «ايركوتسك» على ضفة نهر «الأنفارا» أنه أحد المحكومين السابقين بالسجن مع الأشغال ويدعى «غولوبنكو.» ويقال عنه أنه متساهل في تعامله مع زبائنه. وكان «نيكيتا» يأسف لأنه لم يفكر قبل ذلك الحين بالذهاب لمقابلته. فقد أضاع يومين! إنهما يومان طويلان قضاهما، وهو يغسل أواني المطبخ في الماء الدسم، ويشعل النار ويكنس القمامة والأوساخ، دون أن يكف عن التفكير بسيدته، وهو يشعر باليأس. ولأنه لا يستطيع أن يعيش بعيداً عنها، فإنه كان يفضّل أن يتعرض للسجن، للجلد، بل وللموت أيضاً، ولذلك فانه سيحاول اللحاق بها. كان قد أدرك هذا عند استيقاظه وهو يتلو صلاة الصباح. ودفعته هذه الفكرة الثابتة التي لازمت ذهنه إلى الذهاب بسرعة لمقابلة بائع الخيول «غولوبنكو». وكان هذا، رجلاً ربع القامة، أصلع الرأس، وجهه مجعد وقاسٍ كالقبضة المضمومة. وأدخل «نيكيتا» إلى سقيفة قريبة من الإسطبل، ودعاه إلى الجلوس إلى مائدة عليها زجاجية «فودكا».

فقال له «نيكيتا»:

- ليس لديّ الوقت لهذا، فأنا أريد أن أشتري منك حصاناً.

فسأله «غولوبنكو»:

- ما هو نوع الحصان الذي تريد شراءه؟ هل تريده من أجل العمل، من أجل التنزه، أم من أجل السفر؟

- أريده من أجل السفر.

أتريد أن تسافر بعيداً؟

- نعم.

فبدا في عيني «غولوبنكو» الصغيرتين السوداوين، بريق ساخر وماكر، فشعر «نيكيتا» أنّ الرجل قد اكتشف أمره. وسأله البائع، ملحّاً:

- وهل تنوي السفر بعيداً جداً؟ نحو الشرق؟ أم نحو الغرب؟.

- هذا لا يعنيك!

- أحسنت الإجابة، يا بنيّ! ولكن، بدلاً من المجيء إليّ لماذا لم تذهب إلى مركز الاستراحة والبريد لكي تحصل على حصان؟ فهناك تحصل عليه بسعر أقل من سعري هنا! فهزّ «نيكيتا» كتفيه ولم يجب.

فاستأنف «غولوبنكو» أسئلته:

- ألا يمكن أن تكون، بالمصادفة، قد أضعت أوراقك؟ وانفجر ضاحكاً، عندما رأى الشاب يستشيط غضباً:

- لا تقلق، يا بنيّ! فلست أنا من يلومك فيما إذا كنت في وضع غير نظامي مع السلطات! وأنا أشعر بالمودة نحوك وبالتعاطف معك! وسأبيعك حصاناً، وحصاناً جيداً! ولن يكون غالي الثمن!

فهيأ «نيكيتا» نفسه لتلقي الصدمة: لم يكن يملك سوى المئة روبل التي أعطته إياها «صوفيا» وعندما يفكر بأنه كاد يرفضها! وماذا يمكنه أن يفعل إذا طلب «غولوبنكو» ثمناً لحصانه، أكثر من هذا المبلغ؟

فشعر بأنه يكاد يصاب بالجنون، وتمتم:

- أنت لا بد أنك تدرك أني لست غنياً!

- إني أشك في ذلك، ولكن، أنا أيضاً، عليّ أن أؤمن معيشتي! خمسون روبلاً، أيناسبك هذا السعر؟

فبدت الشمس على وجه «نيكتا» وقال:

- نعم، إنه يناسبني.

- سيرشدك أحد رجالي لكي تخرج بأمان من المدينة، وبعد ذلك عليك أن تتدبر أمورك. وعليك، بقدر ما تستطيع، أن تتجنب الطرق العامة والرئيسية.

فسأله «نيكيتا» وقد تشجع بما أبداه البائع من رعاية نحوه:

- ألا تعرف أحداً يمكن أن يدبر لي حصاناً آخر، عندما يتعب حصاني؟ وسأدفع له فرق الثمن...

- كيف تريد مني أن أجيب على سؤالك، وأنا لا أعرف في أي اتجاه ستسير؟

فأجابه «نيكيتا» معترفاً:

- أريد السير باتجاه بحيرة «البايكال».

فصب «غولوبنكو» «الفودكا» في قدحين. وشربا وأكل كلّ منهما قطعة من سمك الرنكة، ومسحا فميهما بكمّيهما. وقال «غولوبنكو»:

أضف خمسة روبلات، لأعطيك المعلومات التي تحتاجها.

أعدك بذلك.

ضع النقود على المنضدة.

هاهي النقود.

فعدّها «غولوبنكو» لفها، دسّها في حذائه، وقال:

- عندما تصل إلى «ليستفينيتشنوّي» الواقعة على ضفة البحيرة، توقف عند شخص يدعى «سبيريدون» وقل له إنك قادم إليه بتوصية من قبلي، فيساعدك، وأقسم لك، على هذا، بالسيد المسيح!

وبينما كان يتكلم، أخرج من جيبه خيطاً ثخيناً، علقت به ثلاث قطع صغيرة من العاج مخروطية الشكل.

فسأله «نيكيتا»!

- ما هذه؟

- أسنان ذئب، أعطيك إياها كهدية. فعندما تريد السير بسرعة كبيرة، تعلقها فوق عنق حصانك، فيشعر بخوف شديد، وينطلق بأقصى سرعة! فلا يستطيع أحد اللحاق بك!

فقال له «نيكيتا»:

- أشكرك.

فشربا قدحاً آخر، ثم أمسك «غولوبنكو» «نيكيتا» من ذراعه، واقتاده إلى الإسطبل.

وبعد ما يقرب من ساعة، كان «نيكيتا» منطلقاً على صهوة حصانه، في أرض مكشوفة. وبناءً على نصيحة «غولوبنكو» لم يكن يسير على الطرق الرئيسية، بل على دروب موازية لها، وضيقة، لا تسير فيها العربات. كان حصانه الآسيوي الصغير، ذو الأعضاء القوية والنشيطة وشعر العنق الطويل الرمادي اللون، يسير خببا، دون أن يفكر بذلك، بل بشيء آخر. وألهب له «نيكيتا» حماسته، بدفعة ليقفز فوق بعض الجداول، ثم دفعه إلى العدو بسرعة، دون أن يثيره كثيراً. ولا بدّ من أنّ «بروسبير رابدون» قد لاحظ رحيل خادمه الجديد، ولكنه لم يكن ذلك الرجل الذي يعمد إلى إخبار السلطات بذلك، فلا ينبغي أن يخشى «نيكيتا» شيئاً من هذه الناحية. كانت الصبيحة جميلة. وجذوع أشجار السندر، البيضاء والملساء، ترتفع

عالياً، في السهل، كشموع الكنائس، الضخمة. ودوى رنين جرس في قرية بعيدة.

كان «نيكيتا» يأمل أن يصل إلى ضفة البحيرة، قبل أن يخيم الظلام. فإذا وجد بديلاً لحصانه، وإذا كانت «صوفيا» قد تأخرت لبعض الوقت، في الطريق، فربما استطاع اللحاق بها قبل الوصول إلى «تشيتا»! وبعد أن يكون قد رآها، فسيتبعها عن بعد، لكي يتحاشى أن يسبب لها المتاعب. وعندما تبادرت إلى ذهنه فكرة لقائهما، شعر بسيل يتدفّق في أوردته.

كان الله يدفعه من ظهره. وكان عليه أن يتعقل وأن يثوب إلى رشده، لكي يجعل حصانه يسير هوناً ومتمهلاً من وقت لآخر.



ولأن مواعيد انطلاق العربات للسفر تحدّد حسب التسجيل في سجل المركز، كانت عربة «صوفيا» هي الأخيرة التي انطلقت في صف مؤلف من ست عربات. وكانت وهي قابعة تحت غطاء العربة تتنفس الغبار الذي تثيره العربات التي سبقت عربتها. وكان ضجيج العجلات ذات الأطواق الحديدة، يدوي في أذنيها ويزعجها كثيراً. وأخذت تفكر في الازدحام الذي سيحصل في محطات الاستراحة التالية، وتشعر بالغيظ الشديد، لأن كل هؤلاء الناس سيكونون واثقين من أنهم سيحصلون على حاجتهم من الخيل قبلها. فصاحت وهي تشد سائق عربتها من كم سترته:

- حاول أن تتخطى هذه العربات وتسبقها!

فأجابها الرجل

- هذا ممنوع، بموجب النظام، يا سيدتي!

فناولته روبلاً. فأخذه من فوق كتفه، وقال:

- كلّا، يا سيدتي.

وعندما ناولته الروبل الثاني، غيّر رأيه:

- ليكن الله في عوننا! تشبثي بالعربة جيداً!

وانطلقت الأحصنة، وقد جلدت بعنف بالسوط، وانحرفت العربة قليلاً إلى اليسار، وسارت اثنتان من عجلاتها على قارعة الطريق واثنتان على الحشائش والأعشاب، وتجاوزت العربة الأولى، التي تعالت منها صيحات الاحتجاج. وحصل للعربات الأربع الأخرى، ما حصل للأولى. لأنها كانت ثقيلة الحمولة، لا تستطيع أن تجاري عربة «صوفيا» في سرعتها. وبعد فترة وجيزة أصبح صرير نوابض تلك العربات ورنين أجراسها، يتلاشى عن بعد. وقالت «صوفيا» في سرّها، بعد أن شعرت بشيء من الخجل بسبب هذه المخالفة للنظام، باحثة عن معذرة تتذرع بها، بأن لا أحد لديه مبرر للإسراع أقوى من المبرر الذي لديها. وكان عليها أن تردد دائماً بينها وبين نفسها أنها ذاهبة لترى زوجها لكي تزكي، وتجدّد الحماسة الضرورية في مشروعها الذي تقوم به.

«بعد ثمانية أيام، سأكون بقربه. فيا لفرحته ويا لامتنانه! وسنكون سعداء من جديد! ويجب أن يحصل ذلك، وإلا، فلن يكون لأيّ شيء معنى بعد الآن، لا رحلتي، ولا حبي ولا حتى الكون كله الذي نعيش فيه!...»

وعند وصولها إلى استراحة «كابنسك» تلقت صدمة قوية: «نيكيتا» كان في الباحة. كادت تصرخ. ولكنّ الوهم تبدّد في الحال.

فكيف استطاعت أن تظن أنّ عامل الإسطبل، هذا الشاب الطويل الأشقر ذو الوجه الذي لا روح فيه ولا حياة، هو «نيكيتا»؟ وهي التي أنهكها الحزن، لم تكد تشعر بالسرور، عندما أخبروها بأنها ستحصل على أحصنة مرتاحة، وجاهزة للانطلاق، بعد ساعة فقط. كان قد خيم الظلام، فأشعل مدير المحطة مصباحاً. وفتحت «صوفيا» سلة زادها،

وتناولت الطعام بمفردها على زاوية المنضدة، وهي تفكر بوجبات أخرى تناولتها في هذه الرحلة، كان لها حلاوة وعذوبة لا تشعر بطعمها في هذه الوجبة في الوقت الحاضر.

☆☆☆

انسحبت الغربان لتنام في أعالي أشجار الصنوبر الضخمة، وتغلغلت القبرات بين الحشائش والأعشاب التي تغمرها المياه، وطيور السنونو أخذت ترسل نداءاتها الأخيرة قبل أن تحطّ على تلال الرمل البارزة، و «نيكيتا» الذي كان يسير على صهوة حصانه بمحاذاة نهر «الأنفارا» أخذ يستعد للاستمتاع بسكون وصمت غسق المساء، عندما تعالت، فجأة، ومن جميع الجهات دفعةً واحدة، أصوات البط والإوز والبجع البري، فأوقف حصانه مندهشاً، وقد خلبت لبه هذه الموسيقا الطبيعية. فهذا النشيد الليلي لم يخلق ليشنّف آذان الإنسان. كانت أرواح الحيوانات تثور وتتهيج به حتى النشوة والإغماء وفقدان الوعي. فهل سمعت «صوفيا» هذه الحفلة الموسيقية الغريبة التي سمعها هو؟ إنه لم يكن يريد أن يعيش أو أن يرى شيئاً جميلاً، عظيماً، مثيراً ومؤثراً، دون أن تنال نصيبها منه. وكل مكان يمر به، كان يقول في سره إنها قد مرت به قبله، ولذلك فإنه أصبح مطهراً ومقدساً، كان يبحث عنها في أخاديد الطريق، على سفوح الجبال، في تشابك أغصان الأشجار، وبين غيوم السماء. وكم من الكيلومترات تفصل أحدهما عن الآخر؟ مئه وخمسون، مئتان؟... كان «نيكيتا» يحسب ويقدر البعد، والمسافة التي تفصل بينهما، يتوه، يخطئ، ويضيع في حساباته، ثم يعاود الحساب ويعمد إلى الغش. وكان حصانه الذي أنهكه التعب، يتقدم بمشقة وصعوبة. فلم يمنحه وقتا للراحة سوى ثلاث مرات، منذ أن غادر «ايركوتسك». وإذا كان «غولوبنكو» لم يكذب عليه، فسيجد حصاناً آخر في «ليستفينتشنوّي».

وعندما وصل إلى هذه القرية، بدت له جميع بيوتها مستغرقة في النوم. وإن لم تكن هذه القرية كبيرة، فقد كان يوجد فيها محطة للاستراحة: ومن الممكن أن يكون فيها أيضاً مخفر للشرطة.

ولذلك، لم يجرؤ «نيكيتا» على المجازفة بالمرور في الشارع الرئيسي. بل ترجّل، ودخل إلى أحد المروج القريبة. أليس من الأفضل أن يرتاح هنا، هو وحصانه لمدة ساعتين أو ثلاث ساعات، ثم يستأنف السفر على الحصان نفسه، دون أن يطلب شيئاً من أحد؟ ولكن الحصان ربما لن يستطيع متابعة السير، فهو يعرج وقد بدا لاهثاً وكأنه فقد أنفاسه. فداعب له عنقه. فصهل، فخاف «نيكيتا» واقتاده ليخفيه عن الأعين في غابة صغيرة من أشجار الصنوبر. وهناك وجد نفسه وجها لوجه مع فتى في الثانية عشرة من العمر، كان ينضح الماء من أحد الآبار، فنظر أحدهما إلى الآخر، وقد استولت الدهشة على الاثنين معاً. وفتح الفتى فمه ليصرخ، ولكنّ «نيكيتا» بادره بسرعة بالسؤال:

- أتعرف أين يسكن «سبيريدون»؟

وابتسم للفتى لكي يطمئنه. فتردّد هذا، لحظة، وهو بين بقية من خشية وحذر، وبداية من تعاطف ومودّة. كان رأسه صغيراً مكوراً، وعيناه براقتين وأنفه أفطس. وأخيراً، قال وأخذ يبتسم، هو أيضاً:

- إنه يسكن في آخر بيت، من هذه الجهة! وأعلى الباب مطلي باللون الأزرق. ولا مجال لكي تخطىء في الوصول إليه.

وابتعد، وهو يتمايل في مشيته بين سطلين كانا يفقدان قليلاً من الماء، عند كل هزة أو ارتجاج

ودار «نيكيتا» حول القرية لكي لا يراه أحد. وأمام مسكن «سبيريدون» عاوده القلق من جديد: ألا يخشى أن يقع، وهو محني الرأس، في فخ نصب له هنا؟ ولكنه استمع لصوت عقله وقرع الباب. والرجل الذي

فتحه له كان نحيلا طويل القامة، لحيته سوداء تتخللها شعرات بيضاء. والوشم الذي يدل على أنه قد حكم، سابقاً، بالسجن مع الأشغال الشاقة، واضح في أعلى خده: وفي هذا المكان لم يعد ينبت الشعر أبداً. وأوقف «نيكيتا» عند عتبة الباب، وهو مقطب الحاجبين، وقد أطبق قبضته، وسأله بصوت أجشّ:

- ماذا تريد مني؟

- إني قادم من طرف أحد الأصدقاء

- ليس لي أصدقاء.

- «غولوبنكو».

فانفرجت في الحال أسارير وجه «سبيريدون»، وصاح:

- آه! «غولوبنكو»! «غولوبنكو»! هذا الوغد العجوز!

ألم يمت بعد؟ حسن! هكذا أفضل، وهذا من حسن حظك!

فأي ذكريات لأي جريمة ولأيّ سجن تربط هذين الرجلين، أحدهما بالأخر. وأدخل «سبيريدون» «نيكيتا» إلى البيت وهو يتنهد، ويضحك من سرور يعود إلى زمن مضى. كان هناك مصباح زيتي على منضدة، يضيء المنزل. ومصباح آخر، أصغر من الأول، علق أمام الأيقونات، فرسم «نيكيتا» إشارة الصليب على صدره. وفي آخر الغرفة، عبر الغبش الذي يخيم هناك، كانت ترقد امرأة على فراش مكون من الخرق.

انهضي، يا «أوديكسي»!

وتلبية لأمر رب البيت، نهضت «أودكسي»،

وهي بقميص النوم، كانت لا تزال في سن الصبا، عيناها واسعتان، يبدو فيهما الرعب، ذقنها مستديرة، وعلى كتفها تدلت غديرة سميكة، صفراء اللون. قدمت خبزاً ودهناً للزائر. وبعد أن أكل «نيكيتا» إلى أن شعر بثقل في بطنه، بدأ يتحدث في موضوع الحصان.

فصرّح «سبيريدون» بأنه على استعداد لاستبداله، مقابل زيادة بسيطة لا تتعدى العشرين روبلاً لأنه يعتبر ذلك خدمة يؤديها لأحد أصدقائه، وبقبول «نيكتيا» عرضه هذا، يبقى في جيبه خمسة وعشرون روبلاً فقط، لما يحتاجه من نفقات، حتى نهاية رحلته، وكان هذا قليلاً جداً، ولذلك، أخذ يساوم، وتم الاتفاق، في نهاية الأمر على اثني عشر روبلاً، وخمسين «كوبيك». وبعد ذلك، أخبر «سبيريدون» «نيكيتا» أنّ أحدهم، ويدعى «فالوييفّ» ويسكن في الجانب الأخر من بحيرة «البايكال» في قرية تدعى «كابنسك» يستطيع، عند الحاجة، أن يقدم له حصاناً بدل حصانه، بالسعر نفسه:

- عليك أن تقول له إنك قادم إليه من قبلي، فسيعاملك كأنك أحد الأمراء. وقبل كل شيء، ستقضي هذه الليلة هنا!

فقال له «نيكيتا»:

- كلا، يجب أن استأنف السفر، في الحال.

- لا تستطيع ذلك! فالسفينة لا تعود إلا بعد يومين!

- ألا يوجد طريق يدور حول البحيرة؟

- بلى، ولكنه سيئ، ومسافته طويلة!

- وليكن، فأنا في عجلة من أمري.

- ولكنك متعب، ولم تعد تستطيع الوقوف على قدميك!

- سأنام على سرج الحصان.

كانت «أوديكسي» تنظر إليه، بعطف وانجذاب، وهي ناعسة، مسترخية، وقد برز نهداها تحت قميصها.

وقال «سبيريدون».

- هذا حسن، سأهيئ لك حصاناً، وأدلك على الطريق.

نخب صحتك!

وتبادلا الأنخاب، وهما يحتسيان «الكواسّ» «Du kwass»

واضطجعت «أوديكسي» من جديد، ولكنها وهي بعيدة عبر الغبش لم تكفّ عن النظر إلى المسافر، وعن مراقبته، وقد أدرك هو أنها أعجبت به، وهذه الفكرة زادت من انزعاجه. ففي كل مرة، كان يكتشف فيها لدى أي امرأة إحدى سمات الشبق أو الحيلة والشهوانية ينزعج، ويشعر بصدمة قوية، كما لو أنها قد اقترفت جريمة، بإساءتها إلى الجنس الذي تنتمي إليه «صوفيا». وشعر بالارتياح عندما أصبح، عبر ظلام الليل، خارج المنزل.

وبقدر ما كان الطريق يتجه صعوداً في الجبل، كان الأفق يتراجع ويضيق، والبحيرة تمتد وتبدو أكثر اتساعاً، تحت ضوء القمر، وكانت مياهها الملساء مخططة، هنا وهناك، بخطوط من ماس. وأحياناً كانت ستارة من الأشجار تتقدم خبباً، وتحجب المنظر. وأشجار الصنوبر الساكنة والداكنة تبدو بارزة كأعمدة من حديد، وظلالها التي لها شكل أسنان المنشار، كانت تسد الطريق وتقطعه، وكان الحصان يجتازها، ويخرج منها، ماراً، سليماً معافى لم يُمس بسوء.

كان يسير بشكل جيد، ولم يكن «نيكيتا» بحاجة لأنه يقوده أو يحثه على السير. فيما مضى، ربما كان يخشى من السفر، ليلاً، بمفرده، بين الأشباح، والأرواح الشريرة. وهذا المساء، كان لديه انطباع بأنه، هو نفسه، شبح. وكان، وهو مستسلم لهدهدة السرج، على ظهر الحصان، قد فقد الإلمام بجسمه، ولم يعد يفكر. وبالكاد، هو موجود. واستغرق في النوم، واستيقظ مذعوراً، لم يكن قد تغير شيء، والحصان لا يزال يسير بين أشجار سوداء، تحت ضوء قمر، بلون الحليب.

☆☆☆

في «فيركني- أودنيسك» توقفت «صوفيا» مرة أخرى، لعدم وجود أحصنة. وأخذ مدير المحطة يقسم أنه سيحصل على عدّة أحصنة، خلال أربعة وعشرين ساعة. ولتمضية الوقت، قامت «صوفيا» بزيارة البلدة، التي كانت تنتشر منازلها الخشبية على ضفة نهر «السيلنكا». وهي لم تشعر، في أي مكان آخر، أنّ الصين قريبة إلى هذه الدرجة. حقاً، لقد كان هنالك كاتدرائية، ترتفع في السماء قبابها ذات الألوان الزاهية، والرابية القريبة التي تقع عليها المقبرة، كانت مزروعة بالصلبان الأرثوذكسية.

ولكنّ حوانيت ومخازن ساحة السوق، تنتشر عليها كلها كتابات باللغتين الصينية والروسية. أحرف صفّت بصور عمودية، لوحات مذهبة ومنقوشة، معلقة على الواجهات، مصابيح صغيرة مغطاة بالورق، ملابس المارة الغريبة الأشكال والألوان، ولهجتهم الخاصة ذات النبرات الحادة، كل هذا كان يجعل «صوفيا» تشعر بالغربة وبالتسلية. ومرّت بالعديد من الصينيين الشرقيين «des Bauriates» ذوي الوجوه الصفراء، الزيتية اللامعة. كان أكثرهم فقراً وبساطة يرتدون ملابس صنعت من جلود الماعز أو الغنم، ويضعون على رؤوسهم طاقيات مدببة تنسدل حوافّها على آذانهم. والأكثر غنى يلبسون فساتين طويلة زرقاء مزينة ومطرزة بخيوط متعددة الألوان، وعلى ظهورهم جديلة من الشعر، وعلى رؤوسهم قبعات صغيرة، مزدانة في أعلاها بزرّ فضي. وزينة رؤوس وشعر السيدات الأنيقات كانت مزيجاً من العقود والسلاسل المعلقة بها حلقات وقطع معدنية، بل ونقود نحاسية، فضية وذهبية، كنّ يحملن كل ثروتهن على رؤوسهن وأجسامهن. وكانت هذه الحلي تُحدث أصواتاً ترافقهن، كأنها موسيقى وأناشيد تمتدحهن، وتتغنى بجمالهن.

وكثير من الأشياء الموجودة في المخازن، والصادرة من الصين أعجبت «صوفيا»، وأغرتها بالشراء: الأقمشة الجميلة والغالية الثمن، الفراء المتنوعة، التماثيل العاجية الصغيرة...

ولكنّ النقود التي خاطت عليها ذيل فستانها، كانت مقدسة، فهي لن تنفقها إلا عند الضرورة القصوى، وهي تحتفظ بها من أجل تحسين معيشة «نيقولا» وظروف حياته! وعادت إلى مركز الاستراحة، وهي مسرورة لأنها لم تشترِ شيئاً.

وفي اليوم التالي، استأنفت رحلتها عبر سهل رملي، تبرز فيه من بعيد، الواحدة بعد الأخرى، الخيام المخروطية الشكل التي تسكنها بعض العائلات من سكان البلاد الأصليين، وهم من «البوريات»: « les Bauriates» الذين يسكنون وحدهم هذه المنطقة، ويديرون كل مراكز الاستراحة، ويقدمون للمسافرين جميع الخيول التي يحتاجونها، والتي كانت جموحة جداً، لدرجة أنّ الذين ربوها ودربوها، كانوا وحدهم الذين يستطيعون قيادتها واستخدامها. ومن محطة إلى أخرى، كانت «صوفيا» ترى سواقين يتوالون على مقعد قيادة عربتها، كلهم من الفتيان ذوي الوجوه المغولية، متدثرين بفروات وسخة، وليس معهم كسوط سوى قضيب قصير جداً، عُلّقت بطرفه قطعة حبل صغيرة. وكانت العجلات تقتلع من الأخاديد زوابع من الغبار الرمادي والحصى اللامعة. وعبر سحابات الغبار هذه، كان يبرز أحياناً، معتمراً قبعة مدببة. ويحمل قوساً، معلقاً على كتفه، وجعبة ملأى بالسهام. كهنوتي، كان يرصد «صوفيا» من أعماق العصور.

وفي مكان آخر، كان هنالك قطيع يسد الطريق ويعرقل المرور، والمرأة التي تسوقه كانت تضع كل ساق في جهة وهي تركب أحد الثيران.

كانت ترتدي سترة صنعت من جلد الخروف وسروالاً من الجلد، شعرها مجدول ومزين بالمداليات، وأخذت تضحك ملء فمها الواسع الذي بدت فيها أسنانها النخرة.

ونزل سائق العربة ليساعدها على إخلاء الطريق، بضربات من القضيب الذي يحمله لكي يسهل مرور العربة.

فانقسم نهر من القرون وأخذ يجري على جانبي العربة. وأخذت الأحصنة ترتعش من الخوف، واستأنفت السير عبر حفلة من الخوار.

وعندما خيم الظلام، توقفت العربة في قرية مكونة من خيام مغولية كبيرة، وكانت أوسعها تستخدم كمحطة للاستراحة. لم يكن قد بقي هنالك خيل. ومدير المحطة الذي كان يتكلم باللغة الروسية برطانة واضحة، دعا «صوفيا» للدخول إلى خيمته. وهناك، رأت جميع أفراد الأسرة، متربعين أمام الموقد. والوجوه التي تضيئها النار من الأسفل، كانت تشبه أقنعة خشبية، نقشت بصورة سيئة. والدخان الكثيف كان يتصاعد على طول العمود الذي يحمل سقف الخيمة. والأثاث كله كان مكوناً من ديوانين، تغطيهما قطعتان من اللباد، بضع مساند مغلفة بالجلد ومنضدة صغيرة تحمل تماثيل صغيرة لآلهة بوذية، وبعض الطبول والأبواق، المخصصة، دون شك، لإقامة شعائر العبادة. كانت «صوفيا» تشعر بالجوع وبالبرد. وقدم لها مدير المحطة قطعة من لحم الخروف النيء المجفف تحت أشعة الشمس والمملّح، وقال لها:

- إنه طعام قبيلة «البوريات» الوحيد، وهو طيب ولذيذ جداً! جربي! وذوقيه!

فتأملت «صوفيا» قطعة اللحم المسودّة، الصلبة والمثيرة للقرف والاشمئزاز، التي قدمها لها مضيفها، وهو يمسكها بطرف أصابعه، فهزت رأسها، ولم تشعر بأي قابلية لتناولها، فشعر بخيبة الأمل، وألح عليها، كي تشرب، على الأقل، من الشاي الخاص الذي يحضرونه على طريقتهم، والذي زعم أنه يقوي الجسم. فتذكرت، عند ذلك، الشراب الكريه، الرمادي اللون، الدسم والذي تفوح منه رائحة دهن الغنم، الذي ذاقته في منزل الساحر، عندما تعطلت عربتها في الطريق. وبرزت لوحة المنظر كلها في ذاكرتها، بوضوح مثير. بينما كانت زوجة مدير المحطة

تملأ لها كأسها. ووجه «نيكيتا» الذي نمّت تعابيره عن القلق الشديد، عندما ألقى الساحر العجوز حجراً سحرياً في الماء: «ما كان ينبغي أن تشربي منه، يا سيدتي!» فابتسمت بحزن، كما لو أنّ هذه الذكرى كانت أغلى شيء في حياتها. فهل سترى «نيكيتا» من جديد، في يوم من الأيام؟ كانت بحاجة شديدة لهذا الأمل لكي تتابع رحلتها. وفجأة داهمها شعور بالخوف: «المهم، هو ألاّ يسافر دون جواز سفر، ودون تصريح بالمرور! كان عليّ أن أجعله يقسم بأنه لن يحاول اللحاق بي، إلا عندما يصبح وضعه نظامياً! وكيف أمكنني أن أنسى إلى هذه الدرجة طبعه المتهور؟... ولكنه يعرف جيداً أنه إذا أتى إلى «تشيتا» فسأمنعه من البقاء معي، إذا لم يكن مزوداً بأوارقه النظامية! فهو مع ذلك، لا يمكن أن يتصور أن يقضي حياته بصورة غير نظامية وكخارج على القانون! بل ربما أنه سيفعل ذلك! إذ إنّ تهوره، بل جنونه، سيدفعه ليفعل كل مالا يخطر على البال!

وإذا تجاوز القانون، وتخطى كل العقبات، ولحق بي، فماذا سأفعل؟! أوه! في هذه الحالة، من المؤكد أني سأتدبر الأمر لإخفائه، لإنقاذه!...

ولكن لماذا أفكر هكذا وأبحث في هذا الأمر؟ فهو، بالأحرى، كان يبدو مستسلماً، قانعاً وراضياً، يوم افترقنا...».

وهكذا، فقد أخذت تهدأ، و «نيكيتا» عاد، فأصبح من جديد فتى عاقلاً، يحترم القانون والشرطة، ومواظباً على عمله.

وسألها مدير المحطة:

- ألا تشربين، يا سيدتي؟

كان جميع أفراد هذه الأسرة المغولية متجمعين حول «صوفيا» يراقبونها بمودّة. ولكي تجاملهم، أفرغت كأسها، فالتهب فمها، وتحاشت أن يبدو عليها أي امتعاض، وإن كانت تشعر بقرف شديد.

وهيّؤوا لها مرقداً بالقرب من النار. فاستلقت عليه. وكانت متعبة جداً لدرجة أنّ جفونها كانت تنغلق بصورة متقطعة.

وبين فترتين من الاستغراق في ظلام النوم، كانت تفتح عينيها، فترى أمام الموقد، أشخاصاً، هم أشبه بالأشباح، بل أشبه بالعفاريت، يجلسون متربعين، بملابسهم الجلدية الفضفاضة والواسعة جداً. وكانوا كلهم من الرجال والنساء، يدخنون الغليون. ولا أحد منهم يتكلم.

وهذا الصمت، هذا السكون، وهذا الوميض المتراقص، كل ذلك أخذ يصبح شيئاً فشيئاً، عناصر تشكل حلماً من الأحلام. وغفت «صوفيا» وهي تشعر أنها أكثر أمناً وطمأنينة في هذه الخيمة المغولية مما كانت عليه في غرفتها في «سان بطرسبورغ».

☆☆☆

كان حاجز «فيرخني- أودنيسك» تحت الحراسة العسكرية مثله في ذلك مثل جميع حواجز البلدات المهمة. ولمح «نيكيتا» من بعيد ريشات بعض القبعات العسكرية، فابتعد على الفور، لكي يدور حول البلدة، دون أن يدخل إليها. كان ينوي أن يتابع السير على صهوة حصانه، عبر الدروب الضيقة أطول وقت ممكن، قبل أن يعود إلى السير على الطرقات الرئيسية والواسعة، مع أنّ السير على هذه الأخيرة، كان أسهل بكثير من السير على الأولى. ولسوء الحظ، فإنّ الحصان الذي باعه إياه «فالوييفّ!» في قرية «كانبسك» لم يكن قوياً كالحصانين السابقين. وهو بالحقيقة ليس حصاناً، بل فرساً، ذات لون رمادي مرقّط وجميل، ولكنّ رأسها ينم عن الجنون. وقد سببت له هذه الدابة الشديدة العصبية، ضياع الكثير من الوقت، وبالإضافة إلى ذلك فهي هزيلة وضعيفة، وقد أخذت، منذ البداية، ترغي وتزبد، ترتجف وتنفخ وتفرقع بمنخريها. ولأنّ الطريق أخذ يتجه

صعوداً ، بعض الشيء ، فقد كانت تتوقف في كل لحظة ، وكان لا بد من دفعها ، ضرباً بالكعبين، كي تستأنف السير.

وعند الظهر ، وكان الحر على أشده ، وصل إلى قرب غابة صغيرة من أشجار الصنوبر ، تقع على رابية ، تطل على الطريق الترابي الذي تسلكه عربات البريد. فترجّل «نيكيتا» ونزع السرج عن ظهر فرسه. كان العرق يبلل ظهرها. فجفف لها بحزمة من الحشيش والأعشاب ، وأخذ يسير بها بشكل دائري ، منتظراً أن ترتاح وتهدأ لكي يقودها إلى أحد جداول الماء ، وأخذ يفكر أنها بعد ساعتين أو ثلاث ساعات ، تكون قد ارتاحت ، وعند ذلك يستطيع أن يستأنف رحلته. وهو ، نفسه ، كانت عظامه محطمة ، وعضلاته مخدرة ومتصلبة ، ورأسه ثقيلاً كالرصاص ، لولولا حماسته التي كانت تدفعه وتحثه على بلوغ هدفه ، لكان أنهار من شدة التعب. ومع ذلك ، ففي مجمل الحال ، كلا شيء كان يجري على أفضل شكل ممكن.

ولو أنه استطاع أن يتنبأ أنّ اجتياز سيبيريا بالغش وبصورة مخالفة للنظام وللقانون ، سهل إلى هذا الحد ، لكان انطلق وبدأ رحلته على ظهر الحصان ، في الوقت نفسه الذي سافرت فيه «صوفيا»!

أخرج من صرة ثيابه قطعة من ذلك اللحم المجفف الذي يجعل منه جماعة «البوريات» المنغوليين ، طعامهم اليومي ، وعلى طريقتهم ، أخذ يعض بأسنانه قطعة اللحم ، ويقطعها بالسكين على مستوى شفتيه. ولحم الخروف ، بعد أن يعلك ويمضغ جيداً يفقد طعمه وعلى الأقل ، كان هو يحاول أن يتأكد من ذلك! وبعد أن شبع وضع سكينه في قرابها المعلق بحزامه. ثم ربط فرسه بجذع شجرة واستلقى على الأرض ، حيث تجمعت أبر الصنوبر وشكلت له مرقداً مرناً ، وسند رأسه على جذر شجرة ملتوي على شكل مخدة.

وكان يرى بعينيه المفتوحتين، في الأعلى، فوق رأسه، تفرع وتشابك أغصان الأشجار، بشكل معقد، وعبر هذه الأغصان المتشابكة والمتصالبة، كانت السماء تبدو أكثر علواً وارتفاعاً وأكثر روعة وجمالاً. وكان يردّد في سره: «عليّ ألاّ أنام!» وعلى الخصوص، ينبغي ألاّ أنام! ولكنه، استغرق في النوم وأيقظه مذعوراً، وبشكل مفاجيء، شعوره بالفراغ حوله. فأخذ ينظر في كل الاتجاهات ولم ير فرسه، فهل شدّت على رسنها حتى أفلتت منه وهربت؟! فوقف «نيكيتا» وقد استولى عليه قلق شديد، وشعر أن ساقيه مشلولتان ومتصلبان، وبلا راحلة، فسوف يقضي عليه، وليس معه من النقود ما يكفي لشراء راحلة أخرى.

وهو لا يستطيع أن يتابع رحلته سيراً على الأقدام!: «هذه الدابة لا يمكن أن تكون قد ذهبت بعيداً! سأبحث عنها وسأجدها!»

وأخذ يفتش عنها في الغابة، وهو يصيح ويصفر ويطقطق بلسانه. كانت جذوع الأشجار تتباعد عند مروره لتريه مناظر بعيدة، رتيبة ومقفرة. وعندما وصل على آخر الغابة، أخذ يتفرس في الطريق، عند أسفل المنحدر، وفجأة عادت له فرحته: كانت فرسه، هناك. ترعى العشب، بجانب الطريق، وهي في غاية الراحة، فقال «نيكيتا»: «شكراً، يا إلهي!» ونزل بسرعة على ذلك المنحدر، وهو يقفز فوق الأحجار التي تعترض طريقه. وعندما وصل إلى أسفل المنحدر، كانت الفرس قد اختفت من جديد، ولكنه سمع صهيلها، في دغلٍ على بعد مئة خطوة. فهي دابة خبيثة وعاصية. وركض في ذلك الاتجاه، أبعد أغصان أشجار تلك الأجمة، فوجد نفسه وجهاً لوجه أمام اثنين من رجال الدرك الخيالة. كان كل منهما يمسك بمقود حصانه، ويحيطان بالفرس، التي كانت لا تزال تعلك بعض القش اليابس، بكل براءة وراحة، وتطرد الذباب بذنبها. فغاص قلب «نيكيتا» بين جبينه، وارتخت ركبتاه. كان أحد الدركيين مسناً، مفتول الشارب، على أنفه

ثؤلول، عيناه ذابلتان، وسيماؤه لا تنم عن الشر. أما الآخر فكان بديناً، أحمر الوجه، خداه كخدي نافخ الزجاج. والاثنان يرتديان معطفين رماديين ويحمل كل منهما بندقية على الكتف وسيفاً على الجنب.

وسأله «الدركي» الشاب:

- ماذا تريد؟

فأجابه «نيكيتا» متمتماً:

- هذه الفرس.

- أهي لك؟

- نعم.

- وما الذي يثبت لي ذلك؟

ففقد «نيكيتا» وعيه، ولم يكن وجهه يعرف أن يكذب، فغمغم:

- لا شيء... كانت معي في تلك الغابة الصغيرة... فأفلتت وهربت... فأتيت أبحث عنها، وهذا كل ما هنالك...

- وماذا كنت تعمل في الغابة الصغيرة؟

- كنت نائماً.

- أنت مسافر؟

- نعم.

- ولماذا لا تسير على الطريق الرئيسي؟

- الدروب الفرعية والضيقة أقلّ ازدحاماً.

- وربما أقلّ خضوعاً للمراقبة! أرني أوراقك!

فخيم ظلام الليل في رأس «نيكيتا» ثم تبادرت إلى ذهنه فكرة، اخترقته بسرعة البرق فقال:

- لقد بقيت أوراقي في صرة ملابسي، في المكان الذي كنت نائماً فيه.

- سنذهب لنراها!

وامتطى الدركيان حصانيهما.

فسألهما «نيكيتا»:

- هل أستطيع أن أمتطي فرسي؟

فأجابه «الدركي» المسنّ:

- نعم، ولكن عليك أن تسير بيننا.

فامتطى «نيكيتا» الفرس، بلا سرج، شدّ عليها جيداً بساقيه، واستجمع كل قواه، وكل هدوئه ورباطة جأشه، كما لو كان سيمثل أمام الله.

وسأله «الدركي» العجوز، من جديد:

- من أين أنت قادم؟

فأجابه، بمحض المصادفة:

- من «تومسك»!

- وإلى أين أنت ذاهب؟

- إلا «بوغرومنسكيّا»...

- ولأي غرض أنت ذاهب إلى هناك؟

- من أجل قضية عائلية... لي عم هناك، مريض جداً... وهو يريد... يريد أن يراني... ليودّعني ويباركني...

وبينما كان يتكلم، تناول خلسة من جيبه عقد أسنان الذئب الذي اعطاه إياه «غولوبنكو» ووضعه على عنق الفرس. وفي الحال تنبهّت ورفعت أذنيها، وارتعشت أوردتها. ولكمها «نيكيتا» بكعبيه على خاصرتيها، وضربها بباطن يده ودفعها إلى الأمام، فانطلقت تعدو بشكل مرعب، كما لو كانت تطاردها، فعلاً، مجموعة من الذئاب. والدركيان وقد أذهلتهما المفاجأة، في بداية الأمر، انطلقا لملاحقة الهارب، وهما يصرخان::

- توقف! توقف!...

وأخذ «نيكيتا» يفكر: «أمّا أني أسبقهما وأنجو، وأما أنهما يمسكان بي، وعند ذلك، يكون الموت أفضل، بالنسبة لي. هيا! انطلقي يا جميلتي، أسرعي، يا عصفورتي!» كانت تفهمه، وتستجمع كل قواها، كل فتونها، في استرخاء مرنٍ جداً، لدرجة أنّ الأرض كانت تضحك تحت حوافرها. وخلفها، كان الدركيان يلهثان على حصانيهما اللذين يعدوان بسرعة. و «نيكيتا» الذي كان يتحاشى أن يلتفت خوفاً من أن تبطئ الفرس في عدوها، أخذ يشعر أنّ الخطر يبتعد عنه مع كل خطوة. وبدلاً من أن يصعد نحو الغابة الصغيرة، اتجه مسرعاً نحو الشرق، ويصبح موازياً للطريق. عشر دقائق أخرى، على هذه السرعة، ويصبح لوحدة في الصحراء. ودوّى طلق ناري، لم يؤذه وأثار سخريته، إنه تجديف البارود، تهديد فارغ ينطلق في الهواء، قبل التخلي عن الجولة، ودوى طلق ناري ثانٍ، أكثر سخفاً وغباءً من الأول. و «نيكيتا» الذي أسكره انتصاره، ربّت على عنق الفرس، لكي يشكرها. وفي اللحظة ذاتها، انهارت تحته، وكأنها سقطت فالتقفتها هاوية، وباندفاع شديد، سقط معها على الأرض. فشعر بالدوخة من عنف الصدمة. كان رأسه قد اصطدم بالأرض. الارتجاج استمر في أذنيه وفي فكّه. وأمضى برهة حتى أدرك أنّ الفرس مجروحة. كانت تصهل من شدة الأم، ورفعت رأسها، جحظت عيناها، من الرعب. وكان هنالك ثقب يسيل منه الدم في فخذها الخلفي الأيسر. وصدرها اللاهث يضغط على ساق «نيكيتا» ويكاد يسحقه. ولم يستطع التخلص، وقد لحق به الدركيان واقتربا منه، الشاب أولاً، ثم الآخر، بعده. وقال «نيكيتا» في سره، أخيراً: «لقد ضاع كل شيء!» وبذل جهداً كبيراً كي يقف على قدميه، وبالغريزة، وأن كان لم يعد أمامه أي فرصة للهرب والنجاة، فقد انطلق، مباشرة، وهو يعرج، فلحق به الردكي، وامتشق سيفه ولوح به، بكثير من الغيظ والرعونة، وهو يصيح:

- يا لك من كلب قذر!

فتحاشى «نيكيتا» الطعنة.

وأراد «الدركي» أن يضربه مرة أخرى، وسمع «نيكيتا»، هذه المرة، صفير حد السيف قرب أذنه، فانتابه غيظ جنوني من هذا الرجل الفظ، المعرض للإصابة بالسكتة الدماغية، ذي الشارب الكثيف، الذي يحاول منعه من اللحاق بـ «صوفيا». وأمسك بذراعه، بسرعة، ولواه بعنف شديد، لدرجة أنّ السيف سقط من يده، فجدّف، بصق وانحنى على سرج حصانه. وبهزة قوية، انتزعه «نيكيتا» عن السرج، كما لو أنه كان يسحب كيساً من الطحين إلى الأسفل على لوح من خشب، ولكنه، وقد جذبه ثقل خصمه، سقط هو أيضاً، وتدحرج كل منهما على الآخر، وأخذا يتبادلان اللكمات، ويحاول أحدهما أن يخنق الآخر، وكل منهما يدفع كراهيته وخوفه على وجه الآخر.

وحدّث «نيكيتا» نفسه: «آه، لو استطعت أن أستولي على حصانه!» ولكنّ «الدركي» أفلت منه، قفز واقفاً على قدميه، والتقط سيفه. فاستلّ «نيكيتا» سكينة الطويلة من قرابها.

فصرخ «الدركي»:

- اترك هذه! اتركها! أمجنون أنت؟ سترى الآن!...

ومشى نحوه ليهاجمه، ملوحاً بالسيف، وقد بدا عابساً، مكشّراً شرساً، بكل بلادة وغباء. ففكر «نيكيتا» وهو يرتعش متوسّلاً ومصليّاً: «اختر، يا إلهي: هو أو أنا!» ومرة، مرتين، تحاشى الضربة بقفزات إلى هذه الجهة أو إلى تلك ونجا من طعنات رخوة وضعيفة. وفي المرة الثالثة أصابته ضربة مقلوبة، في كتفه، فترنّح، صرف بأسنانه، ودفع سكينه في المعطف الرمادي الذي كان يتقدم لمهاجمته. فيا لها من بساطة! لقد ثقب نصل السكين القماش، شق جلد البطن، دهنه وعضلاته، اهتزّ قليلاً، واخترق

بعد ذلك، بسهولة اللحم والأحشاء، فجحظت عينا «الدركي»، حتى كادت تخرج من محجريها. وبدت هيئته غريبة ومنفّرة. وما حدث له، كان غير مقبول! وكان «نيكيتا» يفكر بذلك ويؤمن به أيضاً. ولشعوره بالاحترام حيال هذه الكتلة التي ترنّحت وهوت. فقد خطا خطوة إلى الخلف، لكي لا يتلقاها وهي تسقط فوقه. واعترت ذلك الجسد هزّة قوية، فانطوى وهوى منهاراً على الأرض، وبسقوطه هكذا، والسكين ظلت مغروزة فيه، فقد تعمق الجرح، وانتشرت بقعة كبيرة حمراء، على العشب الأخضر.

وخلف ظهر «نيكيتا» أخذ يقترب وقع حوافر حصان، ولكنه لم يسمعه، كان مستغرقاً وتائهاً في حلم من خضرة ودم: «لقد قتلتُ رجلاً، وكان لا بدّ من ذلك، اغفر لي يا ربّي!» ثم نظر إلى حصان الرجل الذي مات: «أأهرب؟! وهل بقي لديّ وقت لأفعل ذلك؟» وكان الجواب ضربة رهيبة على مؤخرة عنقه. فقد لحق به «الدركي» الآخر، وأدركه، وأخذ يضربه بالسيف. فأغمي عليه، وفقد الوعي تماماً.



توقفت العربة، والصرير يتعالى من جوانبها، على ضفة النهر، فالتفت السائق نحو «صوفيا» أشار بالسوط إلى الضفة المقابلة، ابتسم ابتسامة مغولية صغيرة، وقال، فقط:

- «تشيتا»!

وأن كانت منذ زمن طويل، مهيأة لهذه اللحظة، فلم تستطع أن تصدّق أنّ الرحلة قد انتهت. كانت سعادتها شبيهة بالقلق والاضطراب. وها هي الأرض الموعودة منبسطة أمامها: مرتفع رملي، عليه بضع أكواخ خشبية، تحيط بمنزل أحمر، يرتفع فوقه علم، وعلى البعد، تبدو منتصبة في الأعالي قباب إحدى الكنائس، البصلية الشكل، والتي أكمدّ لون النحاس الذي يغطيها.

ويبدو منظر المنطقة المجاورة مكوناً من أعشاب هزيلة، وبعض أدغال وشجيرات العلّيق، وبرك صغيرة من المياه تعكس منظر السماء. وتحيط بالأفق وتحدّده، تلال قليلة العمق والارتفاع، مزرقّة اللون.

كانت كل منها منزاحة بالنسبة للأخرى، كقطع كرتون أدخلت في شقوق. أراد السائق أن يستأنف السير، ولكنّ «صوفيا» أوقفته: فهي لا تستطيع مقابلة حاكم «تشيتا» دون أن تصلح زينتها قليلاً. ففتحت حقيبتها، وأخرجت منها مشطاً، فرشاة، قوارير مختلفة، ومرآة صغيرة. وفي إطار هذه المرآة. بدا وجه شاحب، تعبر ملامحه عن التعب، ويعلوه الغبار. كانت بعض خصل الشعر تتدلى منسدلة على جبينها وعلى خديها. فقدّرت

أنها كريهة الشكل، فأعادت تسريح شعرها، وغسلت وجهها بمنديل بلّلته بماء الورد، ونفضت الغبار عن فستانها وأصلحت وضع قبعتها المخملية، الخضراء اللون، ذات الشرائط الذهبية المعقودة تحت ذقنها. كان ذلك مسألة كرامة، وخطة نسائية في آن واحد. وكان السائق يلتفت من وقت لآخر، وينظر إليها، وهو فاغر الفم من شدة دهشته. وعندما أصبحت راضية تماماً عن صورتها في المرآة، قالت:

- انطلق، الآن. وعليك أن توقف العربة أمام منزل الحاكم.

كان يجب عبور النهر من إحدى المخاضات. ونزلت العربة المنحدر، ودخلت في الماء، فغمرها حتى منتصف عجلاتها. وعلى الضفة الأخرى، أمسك بعض الفتيان بمقود الأحصنة وشدّوها لكي يساعدوها على الخروج من الوحل. وبعد بضع انزلاقات، وصلت العجلات إلى الأرض الصلبة. وأصلحت «صوفيا» من جديد وضع قبعتها على رأسها، بعد أن مالت قليلاً، بسبب اهتزاز وارتجاج العربة التي اتجهت على الشارع الوحيد في القرية، وهي تهتز وترتج، والمياه تسيل على عجلاتها. وأخيراً، شدّ السائق مقود الخيل:

- هنا، يا سيدتي.

فعرفت «صوفيا» البناء الكبير المطلي باللون الأحمر، الكائن وسط حديقة جميلة، والمحاط بحاجز، الذي كانت قد لمحته عن بعد. وعند المدخل، يقف خفير، يتولى الحراسة، في محرس مخطط باللونين الأسود والأبيض. وأمرت «صوفيا» السائق أن ينتظرها، مرت أمام الخفير، الذي لم يعرها اهتمامه، واتجهت بخطى ثابتة نحو الدرج.

لم تكن تعرف شيئاً عن الرجل الذي ستقابله، سوى أنه برتبة لواء، وأنه يدعى: «ستانيسلاس رومانوفيتش ليبارسكي» وأنّ القيصر «نيقولا الأول» قد عيّنه، على الرغم من أنه في الثانية والسبعين من العمر، مديراً لسجن «تشيتا» الجديد.

واستقبلها ضابط صف، في الرواق، سألها عن اسمها، وطلب منها أن تنتظر، فصاحب السعادة مشغول. ففكرت «صوفيا» بخضوع وتسليم: «ها هو أيضاً، صاحب سعادة آخر!» فهل رأت منهم بما فيه الكفاية، منذ أن بدأت القيام بمساعيها وبمراجعاتها؟! كان يبدو أنه لا يمكن عمل أي شيء، في روسيا، دون الاصطدام، من مرحلة إلى أخرى. بضابط برتبة لواء «جنرال» يجلس خلف منضدة مثقلة بالأوراق. كانت متعجّلة جداً للحصول على أخبار «نيقولا» لدرجة أنها، على الرغم من تعبها، أخذت تمشي في كل الاتجاهات، داخل غرفة الانتظار، لتهدئة أعصابها. وبعد بضع دقائق، انقضت ببطء شديد، وكأنها ساعات، بدا من جديد ضابط الصف، أدى التحية وفتح أحد الأبواب.

وعندما دخلت «صوفيا» إلى المكتب، راودها شعور بأنها سبق لها أن أتت إليه في حياة أخرى: قطع أثاث مصنوعة من خشب «الأكاجو» ستائر خضراء اللون، صورة القيصر، أكداس من الأضابير بأغلفة صفراء، محبرة معدنية: كانت هذه هي الزخارف والمحتويات الاعتيادية في الدوائر والمكاتب الإدارية. حتى الجنرال، الذي انحنى أمامها، لم يكن مجهولاً بالنسبة لها، وإن كانت تراه آنذاك للمرة الأولى. كان له وجه عجوز، مجعّد، مورّد الوجنتين، شاربه أشيب ومشعث، عيناه صغيرتان تنمان عن البرود والخبث. وشعره غير الكثيف مسرح ومسدل إلى الأمام، على جبينه وعلى صدغيه، وجوخ بزته، الأخضر اللون، مطوّى على صدره.

وقال لها، بالفرنسية:

- علمت بقرب وصولك، عن طريق رسالة تلقيتها من «ايركوتسك» يا سيدتي، فأنا أرحب بك في «تشيتا».

كان يتكلم الفرنسية دون لكنة أو رطانة، تقريباً، بصوت يتسم برجع أنفيّ كالخنين. وتبادر إلى ذهنها على الفور: «هذا هو إذن سيد «نيقولا»،

الذي تتوقف عليه سعادتنا، نحن الاثنان، خلال السنوات المقبلة!» وكبتت همها وقلقها، وشكرت الجنرال «ليبارسكي» على كلماته اللطيفة، وأضفت سحراً رصيناً على ابتسامتها، واستجابت لدعوته لها للجلوس.

فاستأنف الكلام:

- أعتقد أنك متعجلة للحصول على أخبار زوجك، يا سيدتي.

فتمتمت:

- نعم، يا صاحب السعادة، ولكني لم أجرؤ أن أطلب منك ذلك، ولكني، أكاد أموت قلقاً! فكيف حاله؟

- إنه في أحسن حال!

- هل علم بوصولي إلى هنا؟

- لم يعلم بذلك بعد.

- هل أخبرتموه، على الأقل، أني في طريقي إلى هنا؟

- أنا لا أريد أن أعطي السجناء آمالاً، يمكن أن يبددها، حادث عرضي، طارئ.

- لا شك، يا صاحب السعادة، في أنك مصيب بذلك...

ومتى أستطيع أن أراه؟

- الأربعاء، وهو اليوم المخصص للزيارات.

فتأملته «صوفيا» مندهشة، وحائرة:

- ولكن، ما زلنا في يوم الاثنين!

- فعلاً، هذا صحيح.

- ومن الآن، إلى الأربعاء؟...

- لا جدوى من الإلحاح، يا سيدتي.

وهذه النهاية هكذا، بالرفض وعدم القبول، استاءت منها «صوفيا» وكادت تثور وتغضب، ولكنها غيرت رأيها، وكظمت غيظها. فقد تعلمت

مـن تجربتهـا ، ،أصـبحت تعـرف الآن أنّ اللطـف والرقـة أكثـر جـدوى مـن الغضب والحدة، في هذا النوع من الخلافات.

وتمتمت:

- أتوسـل إليـك يـا صـاحب السـعادة، أن تفهمـني! لقـد غـادرت «سـان بطرسـبورغ» منـذ ثلاثـة أشـهر ونصـف! وقطعـت سـتة آلاف «فرسـت»[1] لكـي انـضم إلى زوجـي! فـلا تجعلـني، بعـد كـل هـذا، أنتظـر أيضـاً يـومين كـي أحظى بفرحة اللقاء به!

وبينما كانت تتكلم بحماسة شديدة، كان الجنرال «ليبارسكي» يراقبها باهتمام ينم عن الهدوء. ولا بد أنه قد اعتاد على سماع شكاوى واعتراضات النسـاء، بعـد أن قابلتـه «كـاترين تروبيزكـوّي»، «مـاري فولكونسـكي» و «أليكسندرين مورافيفّ». وحصل لدى «صوفيا» انطباع بأنها موجودة أمام الجنـرال «بنكنـدورفّ» في «سـان بطرسـبورغ» أو أمـام الجنـرال «زيـدلير» في «ايروكوتسك» ولدى هؤلاء الجنرالات إن كانوا كباراً أم صغاراً، فالوظيفة تطغى على إنسانية الرجل وتقضي عليها. وإذا كان أحدهم يحمل أكثر من الآخر أوسمة على صدره، فجميعهم لديهم الصلابة نفسها في المظهر والتعامل، والتهذيب المصطنع والمتكلف نفسه، وبرودة العاطفة نفسها: إنهم رجال آليون، تتحكّم بهم وتسيّرهم عن بعد السلطة المركزية.

وقال لها «ليبارسكي»:

- إني آسف، يا سيدتي، لأني لا أستطيع تلبية طلبك، لأنه يستحيل علي أن أفعل ذلك. فالأمور يجب أن تأخذ مجراها النظامي، وعلاوة على ذلك، فلديّ وثيقة، يجب أن توقّعي عليها... وهي مجرّد ملحق متمم للتعليمات التي أطلعت عليها في العاصمة...

---

[1] ـ «فرست»: (verste) مقياس روسي للطول يساوي: (١٠٦٧) متراً. ـ المترجم ـ

وقدم لها ورقة. فقرأت بسرعة، ما كتب عليها:

١- أتعهد بعدم محاولة رؤية زوجي بوسائل وطرق غير مشروعة، وبعدم الالتقاء به إلا في الأيام التي يحددها الحاكم.

٢- أتعهد بألاّ أوصل له نقوداً ولا ورقاً ولا حبراً ولا قلماً، بدون إذن الحاكم.

٣- أتعهد بألا أرسل له أي مشروبات كحولية، لا «فودكا» ولا نبيذ ولا بيرة.

٤- أتعهد بألا أتكلم معه أثناء الزيارات بغير اللغة الروسية لكي يفهمني الحارس الذي سيراقبنا.

٥- أتعهد بعدم إرسال أي رسائل إلا بواسطة الحاكم، وأن أسلمه إياها مفتوحة.

فانزعجت «صوفيا»، وقالت، دون أن تستمر بالقراءة، حتى النهاية.

- هذه، كلها تفاصيل!...

- للتفاصيل، هنا، أهمية تفوق أهمية العموميات الإجمالية، يا سيدتي، تفضلي وقّعي في أسفل الصفحة.

فنفذت ما طلب منها. وعند ذلك تناول الورقة، ووضعها في أحد الأدراج، دون أن يحوّل نظره عن «صوفيا». وكانت النظرة المتفحصة التي يلقيها عليها، كنظرة عالم الحشرات، مزعجة جداً بالنسبة لها. ففي أي نوع سيصنفها؟ «عنيفة الطبع، قوية العزيمة، متكبرة، ولكنها ضعيفة وعطوب، في بعض النواحي...» واحمرت خجلاً.

وأضاف الجنرال:

- لقد كلفت أحد رجالي بأن يحجز لك غرفة في منزل أسرة أحد الفلاحين. ويجب أن تعذريني لعدم استطاعتي أن أقدم لك مكاناً لإقامتك أفضل من هذا. وسيصطحبك هذا الرجل ليدلك على هذا المنزل.

- هذا حسن جداً، يا صاحب السعادة، ولكن، ماذا بشأن لقائي مع زوجي؟

- ألم أقل لك؟ سيكون هذا اللقاء بعد غد!

وقد أوقفتها هذه الجملة، وهي مندفعة بكل حماسة، وأدركت أنّ «ليبارسكي» لن يوافق لها على ما تريد، فحزنت، وأحنت رأسها، وقد انتابها غيظ شديد.

وبعد ذلك، وجدت نفسها ثانية، في عربتها التي تسير بها، يرافقها جندي يمشي بجانب الخيل. وتوقفت العربة في آخر القرية، أمام منزل صغير مبني من جذوع الشجار. وكان يقف على عتبة الباب فلاح نحيف الجسم، مشعث الشعر، لوحت الشمس وجهه، وإلى جانبه وقفت زوجته، وهي أصغر سناً منه، وعلى رأسها وشاح أحمر اللون. حيّا الاثنان «صوفيا» بحرارة، وعرّفاها بنفسيهما على اعتبار أنهما مضيفاها: «بورفير زكرييتش» و «بولشيري».

وتم إنزال الأمتعة والحوائج بسرعة. ودخلت «صوفيا» إلى غرفة صغيرة، منخفضة السقف، مجهزة بسرير، بمنضدة وبكرسي. وبعد أماكن المبيت القذرة وغير المريحة التي عرفتها أثناء رحلتها الطويلة، بدت لها هذه الغرفة نظيفة، ومريحة. ونافذتها الوحيدة تطل على وادٍ صغير، تغطيه شجيرات العليق. وتجري فيه مياه أحد الجداول. وكان هنالك خراف، صوفها أسود وكثيف، ترعى، على الضفة المقابلة. وبينما كانت «صوفيا» تتفحص مسكنها الجديد، كان «زكرييتش» و «بولشيري» يتفرسان، على استحياء يتسم بالإجلال والاحترام، هذه الأجنبية الغريبة التي أتت من العاصمة لتقيم في منزلهما الوضيع.

وقالت، وهي تبتسم للاثنين، معاً:

- سأكون مرتاحة، وفي أحسن حال هنا.

وفجـأة، تنبهـت وأصـاخت الـسمع، كـان هنالـك همـس ووشوشـة، وتحركات خلف الحاجز، فظنت أنّ جماعة يراقبونها ويتجسسون عليها، فقالت، بحدّة:

- ما هذا؟

فانحنى «زكريتش» كثيراً، وهو يضع يده على قلبه، وقال:

- إنهنّ ينتظرنك، هنا، بالقرب من المنزل.

- ومن هنّ؟

- السيدات الأخريات.

وفي تلك اللحظة قرعت درفة الباب بهدوء، وغرد صوت ناعم، يسأل باللغة الفرنسية: «هل نستطيع الدخول؟» وعندما فتحت «صوفيا»، وجدت نفسها أمام ثلاث نساء شابات، ينظرن إليها بفضول عطوف.

وصاحت إحداهن:

- أخيراً، ها أنت قد وصلت، نحن ننتظرك منذ البارحة! أنا «كاترين تروبيتزكوّي». وهذه «ماري فولكونسكي»، وتلك هي «أليكسندرين مورافيفّ»! ألست متعبة كثيراً من هذه الرحلة الطويلة والشاقّة؟ كيف استقبلك «ليبارسكي»؟ ألستِ بحاجة لأيّ شيء؟

و «صوفيا» التي أذهلها قليلاً لطف الزائرات، أخذت تتفحصهن وهي تجيب على أسئلتهن: كانت الأميرة «كاترين تروبيزكوّي» مربوعة القامة، نحيفة، عيناها واسعتان، زرقاوان ووجهها شاحب كان يبدو أمراً لا يصدق أن تستطيع هذه المرأة، القصيرة نوعاً مّا، ذات المظهر الذي ينم عن الهشاشة والضعف، أن تؤثر على إرادة القيصر، بإصرارها ومثابرتها وأن تفتح الطريق لباقي زوجات المحكومين السياسيين. وإلى جانبها، كانت الأميرة «ماري فولكونسكي» الطويلة، والممشوقة القامة والظريفة، تبدو كطفلة

تائهة بين أشخاص من كبار السن. وفي وجهها الأسمر الفاتح والرقيق الملامح، الذي يتوّجه شعر كثيف أسود، تزيل ابتسامتها، أثر الحزن الذي يشوب نظرتها. إنها لم تكد تبلغ العشرين من عمرها! ولكي تأتي إلى سيبيريا لتنضم إلى زوج لم تكن تحبه أبداً، والذي تجاوز الأربعين من عمره، فقد تركت هناك ابنها الذي لا يزال في المهد وقطعت علاقتها مع أسرتها. والسيدة «أليكسندرين مورافيفْ» من جهتها، تركت أيضاً ابنتين وابناً، وانطلقت، فاقدة الوعي، في طريقها إلى «تشيتا». وهي جميلة جداً، جدية ووقورة، ذات بشرة سمراء، وعينين سوداوين، وهذا ما يضفي عليها الطابع الأسباني. وكانت «صوفيا» تعرف قصة هؤلاء النساء الثلاث، كما، هنّ، دون شك، يعرفن قصتها. كانت قضية واحدة توحّد بينهن، أكثر مما كانت يمكنها أن تفعل سنوات عديدة من العلاقات الاجتماعية في «سان بطرسبورغ». وكما سألت «ليبارسكي»، سألتهنّ عما إذا كان لديهن أخبار جديدة عن زوجها.

فقالت لها «ماري فولكونسكي»:

- اطمئني، فهو بصحة جيدة، ونبأ وصولك رفع كثيراً من معنوياته.

فقالت «صوفيا»:

- وكيف؟ فهو يعرف إذن؟...

- بالتأكيد! فقد أرسلنا له بطاقة، بطريقة سرية، صباح اليوم! ومتى ستقابلينه؟

- ليس قبل بعد غد!

فقالت «كاترين تروبيزكوّي»، متأوهة:

- هذا ما كنت أخشاه، إذ إنّ الجنرال «ليبارسكي» يتحصّن دائماً خلف الأنظمة والتعليمات ويتذرّع بها!...

وقالت «ماري فولكونسكي» مقترحة عليهن أمراً:

- لا ينبغي أن ندعه يتحكم بنا كما يشاء. سنذهب سوية، كوفد، لمقابلته! ونعرض له كل ما في موقفه من عداء وعدم مودّة، وقسوة، و... ساديّة! تماماً... سادية!

وسرّت لأنها تجاسرت على التلفظ بهذه الكلمة، وأخذت تنظر إلى صديقتها بزهو طفولي، يطالب بالموافقة والتأييد.

وسألت «صوفيا»:

- إلى أي نوع من الرجال ينتمي هذا الجنرال، المدعو: «ليبارسكي»:

فأجابتها «ماري فولكونسكي»:

- سجّان! معذّب للنفوس وللأرواح! غول مخيف!

فقالت «كاترين تروبيتزكوّي»، مصحّحة:

- ربما كان يريد، بشكل خاص، أن يبدو هكذا، ولكني أعتقد أنه أساساً، وفي قرارة نفسه، يحاول عمل المستحيل لكي يوفق بين قسوة الأوامر والتعليمات التي يتلقاها، وبين المودّة التي نوحي له بها.

وقالت «ماري فولكونسكي»:

- بالطبع! هذا إذا كنت تقارنينه بذلك المخيف:

«بورناشوفّ»!... فهذا كان هو «المسيح الدجّال» شخصياً. كان حاكم مناجم «بلاغوداتسك» التي كان يشتغل فيها أزواجنا. لأنك ربما كنت تجهلين يا سيدتي أن سجناء الفئة الأولى الثمانية، أرسلوا إلى تلك المناجم، وظلوا يشتغلون فيها أكثر من سنة! ومنذ خمسة عشر يوماً، كنا لا نزال هناك، معهم! وقد نقلوهم منذ فترة وجيزة إلى «تشيتا» لينضموا إلى رفاقهم الذين حكموا بعقوبة أخفّ من عقوبتهم! ونحن أيضاً، كما ترين مما قلته لك، قد أتينا، حديثاً، إلى هذه القرية!

- لكن، وزوجي؟

فقالت لها «أليكسندرين مورافيفْ»:

- لقد ظل طوال الوقت، هنا، في «تشيتا». وفي غضون ذلك تمّ توسيع السجن...

وهذه المعلومات الأولية، بدلاً من أن تطمئن «صوفيا» وتهدّىء من روعها، أزكت قلقها وزادت من تذمرها ونفاذ صبرها. فقد كانت تتألم لأنها لا تستطيع أن تراه وهي على بعد خطوتين عنه، أكثر مما لو كانت لا تزال تفصل بينهما مئات الكيلومترات. لقد وصلت إلى الهدف، ولا شيء، على ما يبدو قد تغير بالنسبة لها. ووسيلتها الوحيدة هي الاستفسار عما ينتظرها من أحداث وانفعالات، من النساء اللواتي سبقنها إلى هناك. ولحسن الحظ، فإنّ لطف النساء الثلاث معها وحدبهنّ عليها بعث في نفسها بعض الراحة والهدوء. وكانت متعة وأي متعة، بالنسبة لها، أن تنشيء من جديد، بعد عدة أشهر من الاغتراب والصعوبات والمتاعب، علاقات مع أناس من محيطها ومن مستواها.

وهؤلاء النساء الثلاث كنّ يرتدين أبسط الملابس. وكانت وجوههن ذات الملامح الرقيقة والناعمة، تشكل تناقضاً صارخاً، مع فساتين الخادمات، التي يلبسنها.

وأحضر «زكرييّتش» اسكملات، فجلسن حول مائدة فارغة، لا تحمل شراباً ولا طعاماً.

وسألت «صوفيا»:

- كيف تحصل الزيارات؟ هل نذهب، نحن، إلى السجن، لنرى أولئك السادة؟

فأجابتها «ماري فولكونسكي»:

- كلا، إنهم سيحضرون لكِ «نيقولا ميكايلوفيتش» تحت الحراسة، وعند ذلك، يصغي جندي أبله لكل ما تتهامسان به، أنت وزوجك، وبعدما

يقرب من ثلاثين دقيقة، يعود زوجك، في الطريق الذي أتى منه، إلى السجن!

- هذا شائن ومعيب!

- يبدو ذلك هكذا، في المرة الأولى!، ولكن بعد ذلك، نألفه ويصبح اعتيادياً. بل وننتظر هذه اللقاءات القصيرة الأمد، وكأنها لحظات نقضيها في جنة الفردوس. ولكننا نثرثر ونثرثر، ،وألهتنا الثرثرة، ويكاد يحين الموعد!

- أي موعد؟

فقالت لها «أليكسندرين مورافيفّ»:

- إنها مفاجأة، وأنا أدعوك إلى مسكني.

فقالت «صوفيا»:

- دعيني، على الأقل، لبعض الوقت كي أرتاح وأغير ملابسيّ

- كلا! كلا! عند ذلك، يكون قد فات الوقت!

كانت ثلاثتهن منفصلات متهيجات ومتكتمات كثلاث طالبات في مدرسة داخلية يحضرن خدعة أو مقلباً. ودهشت «صوفيا» من هذه البهجة الصبيانية، ومن هذه السذاجة الشجاعة، اللتين تزدهران في ظل سجن الأشغال الشاقة. فغريزة العيش وحب البقاء هي أقوى من الأنظمة والضغوط التي ابتكرها بنوا البشر، للقضاء عليها.

ووضعت «صوفيا» قبعتها على رأسها وتبعت النسوة إلى الشارع كان الظلام قد بدأ يحجب السماء، عندما وصلن إلى مسكن «أليكسندرين مورافيفّ». وهناك رفعن أذيال فساتينهن وتسلّقن، الواحدة بعد الأخرى السلم الذي أوصلهن إلى المستودع الكائن في العليّة أو سقيفه المنزل، حيث كانت مكدسة، الصناديق والأكياس والأدوات والخرق تحت الستائر الرخوة المكونة من نسيج العنكبوت.

وأخذت السيدات يمشين بحذر شديد، بين تلك العقبات وذلك الركام. وكانت الأرضية الخشبية. النخزة والبالية تصرّ وتفرقع تحت أقدامهن. واقتربت «صوفيا» تقودها «ماري فولكونسكي» من كوّة واسعة تشكل منوراً للمستودع.

وقالت لها «كاترين تروبيتزكوّي»:

- انظري! إلى الأمام، مباشرة!

وعندما انحنيت «صوفيا» على فتحة المنور، اكتشفت في الأسفل، حاجزاً ممتداً، مكوناً من الأوتاد، يحيط بفسحة كبيرة مستطوال الشكل. وكان باب تلك الفسحة المسوّرة مغلقاً.

وأمامه خفير، يسير ذهاباً وإياباً وسلاحه على كتفه، بالقرب من محرسه. وداخل الحاجز، اصطفت بيوت خشبية صغيرة. وكان في تلك الباحة المسوّرة نحو خمسين شخصاً غير واضحي المعالم يتحركون في مختلف الاتجاهات.

وهمست «ماري فولكونسكي»:

- هؤلاء هم السجناء!

فحملقت «صوفيا» بعينيها، وهي تتنفس بصعوبة وجهد: هل من الممكن أن يكون «نيقولا»- حبيبها «نيقولا»- بين هذا القطيع من السجناء الكئيبين والكامدين، الباهتي الألوان؟ وحاولت أن تعرفه، وتميزه بينهم، ولكنّ الغبش والبعد كانا يمنعان تمييز الوجوه.

وتساءلت «ماري فولكونسكي»:

- ألا يمكن أن يكون هو، ذلك الذي يرفع عجلة نقالة، هناك، بعيداً، في آخر الباحة؟

فقالت «صوفيا» بلهجة تنم عن اليأس:

- ربما كان هو... لا أدري!...

كان يخيل لها أنّ «نيقولا» قد ذاب في المجموع، وأنه فقد فيه وجهه وروحه، وأنها لن تجده بعد ذلك أبداً.

وصرّحت «كاترين تروبيتزكوّي»، قائلة:

- أنا أعتقد أنّ «نيقولا ميكايلوفيتش» هو الذي يقف قرب باب السقيفة، مع زوجي.

فصاحت «أليكسندرين مورافيفّ»:

- ما هذا الذي تقولينه، يا «كتاش»؟ «نيقولا ميكايلوفيتش» أطول من هذا الرجل بكثير. وهذا الذي تحدّثت عنه، هو السيد «لورير»، وأنا أراهن على قطع يدي، فيما أقول!

وقالت «ماري فولكونسكي» متأوّهة:

- آه! لو كان فقط لدينا منظار مقرّب.

وأخذ بعض السجناء الذين لمحوهن، يرفعون أيديهم تحية لهنّ.

وقالت «كاترين تروبيتزكوّي» لـ «صوفيا»:

- ابقي وحدك قرب الكوة، وهكذا سيعرف زوجك أنك وصلت. فابتعدت النساء الثلاثة، وأخذت «صوفيا» تلوح بمنديلها، وكانت توجه إشارتها لرجل واحد، فردّ عليها ثلاثون رجلاً.

فقالت، وهي تخفض يدها:

- لا جدوى من ذلك، أبداً! ولكن ماذا يفعلون في الباحة؟

- منذ يومين، لم يعودوا يخرجون للعمل، يل يقومون ببعض الإصلاحات داخل السجن. بهذا أجابتها «أليكسندرين مورافيفّ» على سؤالها، وأضافت: عما قليل سيقتادونهم لتناول طعام العشاء.

ولأنّ بعض السجناء قد استمروا في إبداء الإشارات، فقد تدخل الحراس، وحدثت مشادة، دون قسوة أو عنف، بين البزات العسكرية الرسمية، وألبسة السجن النظامية. وطرقت بعض الصيحات مسامع «صوفيا». ثم هدأ السجناء.

وقرع طبل، يدعوهم إلى الدخول، فانتظموا في صفين. وكان يخيل لمن يراهم أنهم كانوا في باحة إحدى المدارس، يقضون فرصة الاستراحة. وأخذوا يسيرون خطوة خطوة وبتثاقل وكأنهم يراوحون في أماكنهم وسمعت «صوفيا» طقطقة قوية شبيهة بتلك التي تحدثها المئات من قطعة النقود المعدنية إذا حرّكت وهي في أحد الأكياس: كانت هذه الطقطقة ناجمة عن سلاسل وقيود المحكومين. ولم يكن أبداً قد فكرت بدقة، بالسلاسل والقيود التي يحملها «نيقولا»، فشعرت ببرد مميت يخترق جسمها حتى العظام. كانت تلك الطقطقة تنزل إلى أعماق كيانها، وتمتزج بحياتها الحميمية الخاصة، وبأصداء قلبها، ولن تستطيع أبداً أن تنساها. وعندما أمعنت النظر، رأت شيئاً لم تكن قد تبينته، في بادئ الأمر: رزمة من الحلقات السوداء، بين ساقي كل سجين. كانوا يترنحون وهم يحملون تلك الأثقال في أرجلهم. وعندما حاولوا الإسراع في سيرهم، للعودة إلى مهاجع سجنهم، قويت طقطقة السلاسل. فسدّت «ماري فولكونسكي» أذنيها، وصرخت:

- هذا شيء مخيف، لا أستطيع التعوّد على سماع هذه الطقطقة!

فسألت «صوفيا»:

- ألا ينزعون لهم سلاسلهم أبداً:

فتبادلت النسوة الثلاث، النظرات، بحزن وأسى، وقالت «أليكسندرين مورافيفّ»:

- أبداً، وعلى الإطلاق، وسيحضرون لك «نيقولا ميكايلوفيتش» وهو مقيد هكذا بالسلاسل والأغلال. وعليك أن تستعدي لتلقي صدمة قوية. ومن جهتي، أنا، فقد انفجرت بالبكاء والنحيب!

وقالت «ماري فولكونسكي»:

- وهذا ما حدث لي أنا، أيضاً. لقد بدا زوجي منهكاً جداً، وفي حالة من البؤس الشديد، من تلك السلاسل والأغلال التي تقيد رجليه!

فلم أستطع التحمل والمقاومة، ودون تفكير، جثوت أمامه، وقبّلت سلاسله!

فقالت «كاترين تروبيتزكوي»؛ وهي تردّ بهدوء، وشاحاً من الصوف الأسود على كتفيها.

- وأنا أيضاً، بدرت مني الحركة نفسها التي بدرت منك.

وهناك، كان الرجال يغيبون ببطء، وقد أحنوا رؤوسهم، عبر أحد الأبواب، وجميعهم تقريباً، كانوا يلتفتون نحو تلك الكوة الكبيرة قبل أن يختفوا وراء جدران السجن.

وتمتمت «صوفيا»:

- إنه لأمر غريب، فأنا يبدو لي، أني، عندما أرى سلاسل وقيود زوجي الحديدية، لن أشعر بأي رغبة بأن أقبلها، بل برغبة شديدة بأن أنزعها من رجليه!

فقالت لها «أليكسندرين مورافيفّ» وهي تبتسم:

- لكم أنت، حقاً، فرنسية!

كانت طقطقة السلاسل المعدنية قد تلاشت عبر الغبش و «صوفيا»، التي انحنت، موجهة نظرها نحو آخر السجناء في الصف، كانت لا تزال تبحث عن «نيقولا» وهي تشعر بالألم لأن التقاء نظراتهما، كان إلى ذلك الحدّ، مشكوكاً به، ولم يكن مؤكداً أبداً. وعندما خلت الباحة، ولم يعد فيها أحد، شعرت بدوخة تنتابها. وسقطت وطأة رحلتها على منكبيها، فخبّأت وجهها بيديها.

وسألتها «كاترين تروبيتزكوّي»:

- أتوافقين على تناول طعام العشاء معنا، هذا المساء؟

٩

عند شروق الشمس، أتى جنديان، فأخرجا «نيكيتا» من زنزانته، فهو الذي قتل دركياً، رأى قضيته قد سويت وبُت فيها بسرعة: فلا تحقيق، ولا نقاش أو جدل، حتى ولا محاكمة، بل مجرد قرار إداري. وبعد أن تقرر أن تكون عقوبته مئة جلدة، فقد عرف أنه سيموت. وكان العميد «بروكوروفّ» حاكم «فيركني- أودنيسك» قد وعده بتخفيض عقوبته إلى النصف، إذا اعترف بكل شيء. ولكنه لم يكن يريد أن يعلن عن اسمه، ولا عن سبب وجوده في سيبيريا، ولا عن وضعه كعبد رق، تابع لآل «أوزاريف»، خوفاً من أن يسبب القلق والمتاعب لـ «صوفيا»، بسبب غلطته. وعلى أي حال، فلأنه أصبح يستحيل عليه بعد الآن، اللحاق بها، فهو لا يرى لديه أي مبرر للبقاء على قيد الحياة. وأخذ يسير في ممرّ، ويداه مربوطتان خلف ظهره، مفكراً بالسعادة التي أتاحتها له أثناء الرحلة.

وبعد أفراح ومسرات على هذه الدرجة من الروعة والسمو، أليس من الطبيعي أن يرحل المرء عن هذا العالم؟ فالكمال يحمل في طياته وفي ذاته طعم الأبدية والخلود. وفي أعلى قمة الجبل، لم يعد هنالك سوى السماء لمن يريد أن يحقق مزيداً من الصعود. وكان «نيكيتا» يرتفع ويروي غليله في الوحدة وفي العدم، وهو أقوى من جميع الويلات وأصناف البؤس والشقاء التي تصيب بني البشر. ولم يعد يخجل من حالته البائسة، ولا من اشتهائه الأثيم. وهو لم يعد فلاحاً وعبداً رقّاً، لأنه يجب أن يموت، فهو أمير، ضابط وشاعر... و «صوفيا» ستكون له بكليتها في العالم الآخر، بالشكل الذي

لم يكن من الممكن أن تكون له فيه، في هذا العالم. وكان «الساحر» هو الذي قرر ذلك عندما سقاهما كليهما، من مائه السحري. وما هو إذن ذلك الطائر، الذي حدثهما عنه؟ آه! نعم، إنه «المتصنع الصمم» ديك الغابات العجيب، الذي يثيره الهوى والوله، إلى الحدّ الذي يجعله يتعرض معه، للقتل، دون أن يحترس من هذا الخطر. «وبعد ذلك، كل شيء سيصبح واضحاً، بالنسبة لها ولي. غبطة فائقة وفوق طبيعية. ليس في مجال الأجساد، بل في مجال الأرواح، وعلى صعيدها...»

وكاد يتعثر ويسقط، فقد داهم عينيه نور مبهر. وفي باحة صغيرة، خلف مركز الحراس، رأى جنوداً مصطفين، وقد تنكبوا أسلحتهم وخوذاتهم على رؤوسهم. وأمامهم يتمشى العميد «بروكوروفّ»، الذي بدا قصير القامة، بارز البطن. وفي وسط الباحة، ركز في الأرض بصورة عمودية لوح خشبي عريض. في أعلاه توجد فتحة من أجل رأس المحكوم، وفي جانبيه فتحتان، ليديه. ويقف بجانب منصب التعذيب هذا، فتى قوي البنية، ذو وجه آسيوي أصفر. يرتدي قميصاً أحمر وسروالاً فضفاضاً أسود، وهو يشبه حوذياً مرتدياً ملابسه الخاصة بالاحتفالات والأعياد. ولا شك بأنه الجلاّد. وفك الجنود الرباط الذي يقيد يدي «نيكيتا» ونزعوا عنه قميصه، ودفعوه يركع على ركبتيه، وأخلوا له عنقه ورسغيه في فتحات لوح التعذيب. فأخذ يتوسل إلى الله أن يجعله يموت بسرعة، بعد أن قيدت حركته، وثبت من كل الجهات، وتقوس ظهره، واتجه وجهه نحو السماء. كان نادماً بكل صدق، وآسفاً لأنه قتل «الدركي». ولكنه لم يكن يشعر أنه مذنب، لأنه تصرف بدافع الحب. وهل يمكن النظر بنفس الطريقة والاعتبار للحريق الذي تشعله يد آثمة، للحريق الذي تشعله الصاعقة؟ «وأنت تعرف هذا، يا إلهي، أليس كذلك؟ بشكل أفضل، وأكثر من هؤلاء الذين يقيمونني ويحكمون عليّ! وأنت معي، وإلى جانبي، ضدهم، وأنت مثلي، عاشق،

مغرم بـ «صوفيا»!» وهذه الفكرة الغريبة عبرت ذهنه في اللحظة التي اعترض فيها ظل بينه وبين الشمس. وأخذ العميد «بروكوروف» يلوي خيزرانة بيديه المستفزتين، وهو يسأله:

- إيه؟ هل نويت أن تتكلم؟ من أنت؟ ومن أين أتيت؟

ولكنه لم يجب. كان جبينه يتصبب عرقاً. ولكي يلهو ويسلّي نفسه أخذ يتأمل السماء الرمادية اللون، كالرخام، والمزدانة بعروق وردية. كان الجو جافاً وبارداً. والجنود، وجميعهم متشابهون، كانت أنفاسهم عبارة عن بخار، وعيونهم مثبتة في الفراغ. وكأنّ ما يحدث هناك لا يعنيهم أبداً.

وقال العميد:

- لا بأس! يمكنك أن تبدأ.

فتراجع الجلاد ببطء عشر خطوات، ثبت جيداً بقبضته السوط الذي يحمل سيراً طويلاً ينتهي بلسان من جلد صلب، ثم تقدم بسرعة نحو لوح التعذيب، رف بجفنيه، ولوح بالسوط، وخلال جزء من الثانية، انتظر «نيكيتا» الصدمة بقلق شديد. واخترق عظمي كتفيه «الرابلين» حرق آلمه بشكل فظيع. وجانبا السير المثنيان على الداخل والمرقّقات، بحيث أنهما أصبحا حادّين وقاطعين كحد موسى الحلاقة، انغرزتا في جلده، وبدلاً من أن يرفع الجلاد السير إلى الأعلى لكي يخرجه ويبعده، كان يسحبه أفقياً نحوه، فينتزع نتفاً من لحم المحكوم عليه بهذا التعذيب الشنيع. فأرسل «نيكيتا» صيحة، هي أشبه بالحشرجة، من بين أسنانه التي يكزّ عليها بكل ما بقي لديه من قوة... ثلاث، أربع، خمس... والضربات تنهال متوالية ومتصالبة من الكتف الأيمن إلى الخاصرة اليسرى ومن الكتف الأيسر إلى الخاصرة اليمنى، وبين كل جلدتين، يعود الجلاد فيبتعد قليلاً، ينفخ ويهز سير السوط، لإزالة الدم عنه. وعند الجلدة العشرين، توقف ليحتسي كأساً من «الفودكا». وظهر «نيكيتا» لم يكن سوى جرح كبير. وكأنّ مسلفة

حديدية قد وضعت فوقه. وقلبه أخذ يقفز قفزات السمك، المتقطعة وغير المنتظمة، وطعم له مذاق الحديد كان يسيل على لسانه. وأخذ ينادي الموت بكل ما لديه من قوة. ولكن، كان في داخله شيء يرغمه على البقاء على قيد الحياة، وجسمه الذي يتعرض للتعذيب كان يقاوم ببلاهة وغباء التدمير والخلاص. والعميد «بروكوروفّ» كان قد أصبح شاحب الوجه، وأخذت وجنتاه ترتجفان، فهو، دون شك، لا يطيق مشاهدة الآلام. وصاح بغضب، كما لو أنّ «نيكيتا» بعناده وإصراره على الكتمان، قد عقّد له مهمته:

- ألا تتكلم، أيها القذر؟ إنك لو تكلمت تتخلص من هذا العذاب! وسأجعلهم يتوقفون عن جلدك بعد خمسين ضربة...

«لقد فكوا السيد المسيح، وأنزلوه عن الصليب، معتقدين أنه مات. ولكنّ أمه اعتنت به وعالجته في كهف تحت الأرض. فشفي واستعاد القدرة على الكلام. واختبأ في مكان بعيد يقع في قلب الصحراء. وعاش حتى بلغ سن الشيخوخة، وأصبح شيخاً هرماً جداً، يعيش في العزلة والوحدة، ويقضي وقته بالتفكير، والتأمل...» وما قاله «الساحر» كان يمنع «نيكيتا» من أن يسمع ما يقوله العميد. والسيد المسيح، ألم يغير رأيه وأفكاره بعد أن شاخ وتقدمت به السنّ؟ وهل كان موافقاً على ما يدعو إليه، باسمه، حواريوه وتلامذته؟ ألم يكن يعتبر الإنجيل عملاً من أعمال الفتوة والشباب، وأنه ينبغي إعادة النظر فيه وتنقيحه وتصحيحه؟ ومن يدري، فيما إذا كان، عندما بلغ السبعين أو الثمانين من العمر، لم يكن قد تصوّر رسالة أخرى إلى العالم، رسالة تتضمن المزيد من الحكمة، وتتيح المزيد من السعادة لبني البشر، رسالة تقرّب المخلوق من الخالق، والليل من النهار، والحياة من الموت؟ لم يسمع أحد الكلام الأخير الذي قاله السيد المسيح.

فقد حملت صوته وأودت به رياح الصحراء، ودفنت سرّه. ولذلك لا يزال بنو البشر أشراراً. وانحنى على «نيكيتا» مسيح متغضن، مجعّد

الوجه، ذاوٍ، حزين النظرات، أبيض اللحية، شيخ تقدمت به السن. فارتعد «نيكيتا» من شدة الخوف. فماذا لو كان الشيطان هو الذي بدا بهذه الصورة، وهذه الملامح؟ وأراد أن يرسم إشارة الصليب، ولكنّ يديه كانتا محصورتين في لوح التعذيب. وكانت أسنانه تصطك من شدة الحمى. «أنت الذي تعرّضت للتعذيب، ساعدني وأعنّي على تحمل العذاب والآلام!».

كان يعيش في عصر «بونس بيلات»: «Ponee Pilate»[1] يحيط به اليهود الحاقدون والمبغضون. فتلا في سره: «أبانا، الذي في السموات...»

وصاح العميد:

- هيا، تابع!

«ليكن اسمك مباركاً ومقدساً...»

وقطعت في الحال، وبشكل حاسم، صلاته، ضربة شديدة العنف. فأرسل صرخة سلخت حلقه. وأخذت الآلام، بعد ذلك تتوالى على فترات منتظمة، وتتكدّس فوق بعضها، وترسم مربعات ومعينات. وبالكاد، كان يتاح له الوقت ليلتقط أنفاسه بين جلدتين بالسوط، على كتفيه. وعندما يسترد وعيه خلال ثانية أو أقل من ذلك، كان يستطيع أن يرى ويميز أمامه، أحذية الجنود، الوسخة، بركة صغيرة، فيها ماء متجمد، كومة من روث الخيل، جداراً من الآجر، ثم يتشوش ويختفي كل شيء، ويغوص

---

[1]- ((بيلاطس البنطي)): (Ponee Pilate): الحاكم الروماني لمقاطعة جنوب فلسطين، (في القرن الأول الميلادي) من سنة ٢٦ إلى سنة ٣٦. ذكر عنه في الأناجيل أنه أصدر الحكم بإعدام ((يسوع)) أي السيد المسيح، بناء على اقتراح المجلس اليهودي الأعلى. وتعرض صورته وهو يغسل يديه، إشارة ودليلاً على عدم مسؤوليته عن ذلك الحكم. -المترجم-

غارقاً في غثيان وخمود مميتين. ثمانية وعشرون، تسعة وعشرون... هل وصلت الآن «صوفيا» إلى «تشيتا»؟ وهل رأت «نيقولا ميكايلوفيتش» من جديد؟. إذا كانت الإجابة: «نعم» فهي منصرفة الآن بكلتيها للتمتع بسعادتها، ولم تعد تفكر بـ «نيكتا». وكان عليه أن يعتبر أنّ هذا هو أفضل ما ينبغي عليه أن يأمله: فلكي يستطيع أن يمتلكها في الموت، كان من الأهمية بمكان، أن تنساه في الحياة.

وهذه الفكرة الجنونية كانت تنغرز في جلده وبشرته، مع كل ضربة سوط.

ومن جديد، توقف الجلد، لتبديل الجلاد. ورشق جندي سطلاً من الماء على وجه «نيكيتا»، فاستنشق بشرهٍ عذوبة هذا الينبوع. وعاودته طفولته: النهر، القرية، وشاح أحمر في حقل تتموّج فيه سنابل القمح... وبعد ذلك بقليل، استؤنف التعذيب بانتظام قاسٍ ودقيق. كان السوط يصفر، يتكاثر، كرفّ من طيور العقبان الكواسر، التي تأتي من كل نواحي الأفق، وتنقب في ظهر «نيكيتا» تتطور وتتزايد. وأصبح يشعر بالاكتواء بشكل أقل من السابق وبالصدمات بشكل أكثر وأقوى. كل شيء كان يحصل في الداخل. كل ضربة كانت تهز جسمه وتزعزعه خفية، حتى الجذور، توقف الدم في أوردته، وتقطع الهواء عن رئتيه.

وبعد الضربة الرابعة والخمسين لم يعد يعرف كم أصبح عددها، ولم تعد أي فكرة تخطر على باله. والكون أصبح بالنسبة له شيئاً مغلقاً، بعيداً جداً، ومعادياً، ليس لديه ما يعمله فيه. وأغمي عليه، ثم فتح عينيه من جديد وشعر بأنّ موجة من البرد تصعد من ساقيه إلى صدره، وتحيط بقلبه. وبعد ذلك، لم يعد يرى شيئاً. ومن أعماق ظلام الليل، دوّت بعض الأصوات:

- أتريد أن تتحقق، أرجوك...

- إنه لا يزال على قيد الحياة، يا صاحب السعادة، فماذا نعمل؟

- تابعوا.

وبعد الضربة السابعة والثمانين، توقف الجلاد، من تلقاء نفسه، فمنذ برهة وهو يضرب لحماً خامداً لا حياة فيه. وفك الجنود الجسم وحاولوا أن يجلسوه على أحد الطبول. فانهار «نيكيتا» وهوى والتصق وجهه بالأرض. كان قد فارق الحياة. فأسرع طبيب، أمسك بالشعر ورفع الرأس، وتركه يسقط، وقال:

- انتهى يا صاحب السعادة.



كان «نيقولا»، وهو جالس على فراشه القشي، في ظلام الليل، الذي يتخلله ضوء القمر، ينظر إلى صفوف رفاقه النائمين، ويفكر بحظه وظروف حياته. فهو، بعد البرهان عن الحب، الذي تلقاه، لن يكون له الحق أبداً، بعد الآن، أن يشكو أو أن يتذمر. فغداً صباحاً، سيقتادونه، تحت الحراسة، للالتقاء بـ «صوفيا»، ولكم كان يودّ أن يصرخ، معلناً سعادته للجميع. ولكنّ التزامه بوجوب احترام حق الآخرين بالراحة والنوم كان يخنق صوته ويمنعه من الصياح. ولكن كيف يستطيع جيرانه أن يخلدوا إلى الراحة، بينما كان هو ينتظر، بفارغ الصبر طلوع الفجر، وكأنه الخلاص بالنسبة له؟ وفجأة، شعر بعطش شديد، وفكر بأنه بعد أن يشرب سيكون كل شيء على ما يرام. وكانت الجرة في الجهة الأخرى من القاعة، موضوعة على منضدة، فدفع أغطيته، ربط سلاسله بواسطة سير من الجلد، بحزامه، ونهض واقفاً بينما أخذت حلقات السلاسل تطقطق. وهذا الصوت لم يوقظ أحداً، فهو يشكل، بالنسبة للجميع أمراً عادياً وطبيعياً بين كل الأصوات والضجّات التي تحدث في السجن. حتى أثناء الليل، كانت تحركات النائمين، اللاشعورية تحدث هذه الموسيقا، بصورة متقطعة، ومن وقت لآخر.

والأسرّة، التي كانت موزعة، كل عشرين في غرفة، صفّت بصورة متقاربة جداً، لدرجة أنه كان ينبغي على من يريد المرور بين صفين منها أن يندس بينهما بصورة جانبية. وكان هنالك مدفأة، قرب الباب، يتصاعد

منها الدخان، الذي ينشر رائحة السخام اللاذعة. رائحة مقابل رائحة أخرى، تلك التي تفوح من السطل الكبير، المعدّ لقضاء الحاجات الطبيعية، وهي أيضاً أقوى من الأولى. وفي هذا الجو الموبوء، كان السجناء الذين أنهكهم التعب، يحلمون بالحرية.

وأخذ «نيقولا»، ينظر، وهو يسير بخطى وئيدة، إلى هذه المقبرة التي دفنت فيها الطموحات والآمال. فليس بين هؤلاء المحكومين بالسجن مع الشغال الشاقة، من لم يكن رجلاً محظوظاً، ميسوراً، وسعيداً: فبينهم شعراء، أمراء، ضباط قادة، جنرالات، وأبناء عائلات عريقة، حولوا إلى قاسم مشترك واحد. ومن ينظر إليهم يستطيع أن يتبين مقدار هشاشة، عرضية ووقتية خيرات وثروات هذا العالم، وكيف أنّ سوء الحظ، أو الخطأ الذي يحصل، يكفي إلى التدهور في الهاوية... ومع ذلك، فإنّ مصيرهم لم يكن قاسياً جداً في سيبيريا. فهم يستخدمون لمدة ثماني ساعات في اليوم. في أعمال حفر عبثية، وغير مجدية. والطعام الذي يقدم لهم رديء جداً، ولكنّ كميته كبيرة. والحراس يعاملونهن برعاية واحترام. وليس بينهم أيّ مجرم عادي، حكم بموجب القانون العام. ولا أحد، غير «جماعة كانون الأول». وكان يتبادر إلى ذهن «نيقولا» أنّ أقسى شيء يعانون منه، هي تلك السلاسل والأغلال. ولكن هذه أيضاً يمكن، بالاعتياد، وبحكم العادة، أن تصبح محتملة، بالنسبة له، على الأقل، بسبب «صوفيا» ومن أجلها! كان النائمون يتنفسون، يئنون، يتقلبون في بؤسهم وشقائهم، وكان يتأملهم بشفقة ودّية، كما لو أنه كان ملكاً بين متسولين.

وعندما وصل إلى قرب المنضدة، ملأ قدحاً وشربه بجرعة واحدة، وسمع سعالاً حاداً، صدر من آخر القاعة: إنه «يوري ألمازوف» الذي أصيب بالبرد، تحت المطر، الأسبوع الماضي. وأخذ أحدهم يتكلم في نومه: إنه

«شيمكوفّ»، فهو كثيراً ما يتعرض للكوابيس. وهنا وهناك، كان ضوء القمر يضفي خطاً فضياً إلى حرف أنف، إلى استدارة كتف، وإلى تشابك الحلقات المعدنية بين قدمين، وأصابع، كأنها لجثث أشخاص قد فارقوا الحياة. بعد أن روّى «نيقولا» عطشه، عاد أدراجه. كان قد ربح خمس دقائق من الوقت الذي بقي له قبل أن يرى «صوفيا» من جديد. خمس دقائق! والليل لم يكن قد انقضى منه سوى النصف. وجلس ثانية على فراشه القشي، وهو يطقطق بسلاسله. فماذا لو أيقظ أحداً مّا، ويمكنه دائماً القول أنّ ذلك قد حصل عن غير قصد. كان جاره من جهة اليمين يرقد، متشحاً بالسواد، لا تبدر منه أي حركة، كأنه جذع شجرة: فليس هنالك أي أمل من جهته أبداً! أما جاره من الجهة اليسرى، «يوري ألمازوف»، فيبدو، بالمقابل أكثر تقبلاً للمقاربة وللحوار. كانت الحمى تعذبه. وأخذ يتنحنح، وهو بين النوم واليقظة.

فسأله «نيقولا»:

- هل أنت نائم؟

فلم يجب، وبنيّة سيئة، كرّر «نيقولا» سؤاله.

فاستند «يوري ألمازوف» على أحد مرفقيه، وغمغم، متذمراً:

- ماذا تريد؟

فأجابه «نيقولا»:

- لا شيء، لا شيء، ظننت أنك لم تكن نائماً... هذه المدفأة تنشر دخاناً كثيفاً... سنموت مختنقين... يجب أن نعلم بذلك ضابط الحرس...

- سنعلمه بذلك! أرجو لك ليلة سعيدة!

- إذا كنت مصاباً بالرشح، عليك أن ترفض الذهاب إلى العمل، غداً. و «ليبارسكي» سيتفهم ذلك جيداً...

- سأشعر بالانزعاج لو بقيت في السرير، أكثر مما لو ذهبت معكم!

- أتخاف من الوحدة؟

- نعم، وأنت؟

- وأنا أيضاً، أخافها. وكلما فكرت بها، كلما اعتبرت أنّ من حسن حظنا أننا التقينا كلنا في «تشيتا» لأنهم كان بإمكانهم أن يفرقوا بيننا، ويوزعوننا على سجون كثيرة منتشرة في جميع أرجاء روسيا. وكان يمكنهم أن يضعونا بين المجرمين! فلو حصل ذلك لأصبت بالجنون! وهنا، نحن على الأقل بين أصدقاء موثوقين، ولدينا أفكار مشتركة! وروح الرابع عشر من كانون الأول، ظلت سليمة لم تمس، فيما بيننا...

فهمس «يوري» وهو يوليه ظهره:

- تحدّثْ مع نفسك!

ولكنّ «نيقولا» وقد وجد من يتحدث إليه، كان أكثر سعادة من أن يتركه يعاود النوم:

- ماذا؟ ألست موافقاً، على ما قلت؟

- أشعر بالنعاس... وأريد أن أنام... سنتناقش بذلك غداً...

- لحظة واحدة يا «يوري»! الأمر بالغ الأهمية! يجب عليك أن تجيبني بصراحة! لو كان يجب القيام بذلك مرة أخرى، أيمكن أن توافق؟

- أعتقد... أخيراً، يبدو لي... ولأني أعرف ما أعرف... ولأني رأيت النتيجة...

- ليس هذه هي المسألة! فأنا أسألك، فيما إذا كنا، حسب رأيك، لم نكن على صواب، بمجازفتنا بكل شيء في سبيل الحصول على كل شيء؟..

- لم نكن مستعدين، ولم تكن فرصة وإمكانية نجاحنا تتعدى نسبتها واحد من مئة...

- ولكنّ هذه الفرصة من الممكن ألاّ تتاح لنا قبل مرور قرن من الزمن! فهل كان ينبغي علينا أن ندعها تمر، وتفلت منا، ونضيعها؟

فاستغرق «يوري» بكل ثقله في صمت عميق. وأخذ تنفسه يتسم بالصفير. فقد سبق لهما أكثر من مئة مرة أن ناقشا موضوع هذا الخيار الصعب، وكثيراً ما كان ينتهي بهما الأمر إلى نتائج مختلفة. وكان هذا، أهم موضوع للنقاش وللحديث بالنسبة لجميع السجناء.

ويوماً بعد يوم كانوا يدرسون ويحللون فيما بينهم أسباب فشلهم في علمية الرابع عشر من كانون الأول، بدم بارد وذهن مرتاح. لو كان لهم، فقط، أصدقاء موثوقون بين فرسان الحرس، ولو أنهم، بدلاً من البقاء منتظمين في مربعات في الساحة، انطلق فوج موسكو وهاجم قصر الشتاء. ولو أن المتمردين كانوا يحققون النصر، ويخرجون من سراب تخيلاتهم، والسلاسل والأغلال تقيد أرجلهم.

واستأنف «نيقولا» الكلام.

- لقد سبق لي أن ساورتني الشكوك، كما يحصل معك، ولكني أصبحت متأكداً، أننا لم نكن نستطيع التصرّف بطريقة أخرى. فلو أننا لم نتحرك في الرابع عشر من كانون الأول...

فقاطعه «يوري»، قائلاً:

- لو أننا لم نتحرك في الرابع عشر من كانون الأول، لكنا اليوم في «سان بطرسبورغ» سعداء، محترمين، يراودنا كثير من الآمال، يمكننا أن نذهب إلى المسارح وإلى حفلات الرقص، حيث نرى كثيراً من النساء الجميلات!...

وأصيب بنوبة سعال جعلته يحني ظهره كثيراً.

فقال «نيقولا»:

- وكان من الممكن أن ينهشنا ويقضي علينا تبكيت الضمير.

- ذلك أفضل من أن تنهشنا وتقضي علينا الهوام والحشرات!

- اسكت! لا شيء أغلى على الرجل من تقديره لذاته. حتى وإن كان عملنا مرتجلاً ومبتسراً، فسيكون له دويّ في تاريخ روسيا. وأفضل أصدقائنا سيولدون فيما بعد!

فغمغم «يوري»:

- كلّ منا يواسي نفسه كما يستطيع، وبالنسبة لي، فإنّ إعجاب الأجيال القادمة لا يستحق أن يضحى من أجله بكأس شمبانيا أو بضحكة امرأة. تذكّر، يا «نيقولا»، تلك الراقصة الصغيرة التي تعمل في «المسرح الكبير»... «كاتيا»... في دورها بمسرحية: «أسيس وغالاتي»... تلك القفزات، وحركات القدمين، السريعة... وفي الأمسية العشاء، عند الغجريات، في «الملهى الأحمر»... فأين هي «كاتيا» الآن؟... وعلى من تتدلل، ومن الذي يغازلها؟ لا شك أنه ضابط، كان أقل غباءً منا، يوم الرابع عشر من كانون الأول، فانضم إلى الجماعة الفائزة!... وعما قريب، يتجمد نهر «النيفا»... وتبدأ المشاوير في الزحافات... والأغاني...

ودندن بصوت مفتعل:

أيتها الفتاة الظريفة، الشقراء والموردة الخدين، أرني رجلك الصغيرة!

كلا، كلا، يا سيدي لا أجرؤ على ذلك!

فماذا سيقول خطيبي؟...

كان يتمايل على سريره، وسلاسله تطقطق، وفق الإيقاع، وفجأة فاضت دموعه وكاد يختنق، فاستاء وصرخ:

- يا لك من قذر! كنت هادئاً، مطمئناً، وكدت أغفو وأنام!

فلماذا أثرت أشجاني بحكاياتك؟...

فالتفت أحد السجناء نحوهما، وصاح:

- ألم تنهيا ثرثرتكما؟ إذا كنتما لا تشعران بالنعاس، فعلى الأقل، دعا الآخرين ينامون!

فاقترب «نيقولا» من «يوري» وقال له، بصوت خافت:

- اعذرني! كنت بحاجة ماسة للتحدث مع أحد الأصدقاء، هذا المساء!.. وأريد أن أجعلك تشاركني بجانب من ثقتي... هنالك جملة في التوراة، كان يردّدها لنا «ستيبان بوكروفسكي» في كل مناسبة: «نور العادلين يمنح الفرح، ومصباح الأشرار سينطفىء...»

- إيه، وماذا في ذلك؟

- أليست هذه صلاة جميلة ضد اليأس؟

- ولكن علينا أولاً أن نعرف من هم أولئك الذين يعترضون بالقوة على سعادة البشرية، لكي يحافظوا على امتيازاتهم الخاصة!

- والعادلون؟

- هم أولئك الذين يضحون برفاهيتهم، بطمأنينتهم وبحياتهم في سبيل مبدأ سامٍ وعن قناعة تامة!

- أي باختصار، أناس مثلك ومثلي.

- نعم يا «يوري»

- إذن، دعني أقول لك، إنّ العادلين، في الوقت الحاضر، هم في الظلام، وأنّ مصباح الأشرار وآلاف النماذج منه تشع في جميع أرجاء روسيا.

- هذا سيتغير، يا «يوري».

- بعد أن نكون قد متنا!

- ربما قبل ذلك.

- إنّ وصول زوجتك هو الذي يجعلك متفائلاً إلى هذا الحد؟!

فتمتم «نيقولا»:

- كلا، وأقسم أنّ وصولها لا علاقة له بالموضوع...

- بلى!.. فأنت لم تعد تستطيع الاستقرار في مكان!... تكاد تنفجر!... وتودّ أن يكون الجميع سعداء، لأنك أنت سعيد!..

وخيم الصمت، لفترة طويلة، ثم سأله «نيقولا»:

- أتعتقد أنها استطاعت أن تعرفني، عن بعد، بين كل الآخرين؟

فغمغم «يوري»:

- لا أدري، لا أظن...

- أما أنا، فقد عرفتها.

- طبعاً! لأنها كانت تقف وحدها قرب المنور!

- ليس هذا ما عنيته! لقد عرفتها كما كانت في ذكرياتي. فزوجتي مخلوقة عجيبة، وغير عادية، يا «يوري»!

- نعم، نعم...

- أولاً، هي جميلة... جميلة جداً!...

- نعم...

- وهي تتحلّى بروح من «كريستال»، صافية كالزجاج الصافي، روح ترنّ بشكل صحيح وسليم، عندما تُمس...

- نعم...

وأخذ صوت «يوري» يبحّ ويضعف.

- أتعرف كيف تعرفت عليها في باريس؟

ولكنّ سؤال «نيقولا» ظلّ بلا جواب، فـ «يوري» نام، وانطوى على نفسه واضعاً ركبتيه في بطنه. ووجد «نيقولا» نفسه وحيداً، مع جميع مشكلات حياته. ومن حوله، لم يكن هناك سوى أصوات تنفس النائمين تتردّد بأنغامها المختلفة، وتحركات الأعضاء الثقيلة، وطقطقة السلاسل الحديدية، وتقصف القش في الفرشات. فتمدد، واضعاً يديه تحت رأسه، مثبتاً نظره على السقف، وأخذ يحاول أن يتذكر، بكل دقة، ودون أن يهمل أبسط التفاصيل، كل ما سيقوله لـ «صوفيا»، في اليوم التالي.

وعند الساعة الرابعة صباحاً، حجبت القمر بعض الغيوم، وأخذ يهطل المطر.

***

صاحت «بولشيري»:

- ها هم، قد أتوا، يا سيدتي! أسرعي، أسرعي!

فخرجت «صوفيا» وهي تركض، ووقفت تحت الإفريز الخشبي، الذي عند عتبة باب المنزل. وكان هنالك رذاذ بارد يبدو معلقاً بين السماء والأرض، ومتردداً في السقوط. وفي هذا الجو الرطب بدت «الإيسبات» بيوت القرويين، مجعدة ومتقلصة كنباتات الفطر، تحت قبعاتها السوداء اللامعة. وكان هنالك قرقعة معدنية تصدر من أعماق الشارع.

وبدا السجناء وهم يتقدمون وقد انتظموا اثنين اثنين، في صف طويل، كانوا يرتدون ملابس السجن الرمادية اللون، سترات من جلد الخراف ومعاطف عتيقة ممزقة ويحملون على أكتافهم معاول ورفوش، يحيط بهم من الجانبين جنود مسلّحون بالبنادق. وقد تراكضت كلاب القرية، وراءهم وهي تنبح.

وقالت «بولشيري»:

- إنهم ذاهبون ليعملوا بالقرب من «قبر الشيطان». و «صوفيا» وقد انتابها انفعال شديد أخذت تتفرس في ذلك العرض من الوجوه الشاحبة الملتحية والهزيلة التي كانت تتمايل ببرود على إيقاع المشية. ومن واحد إلى آخر، كانت تبحث عن زوجها، ولا تجد سوى أشخاص مجهولين. فهل، سيحضرونه لها، حقاً، ، صباح هذا اليوم؟ فإذا رفضوا أن يتيحوا لها هذه الفرحة، فإنّ أعصابها المتوترة بسبب نفاذ صبرها، لن تتحمل خيبة الأمل، هذه. لم تكن قد نامت تلك الليلة. وعند الفجر، كانت قد تهيأت على عجل، وكانت رغبتها بأن تحظى بإعجاب «نيقولا»، تحدّ منها خشيتها من أن

تبدو له متكلفة أكثر مما ينبغي، في فستانها وفي تسريحة شعرها وقبعتها. ولم تكن تريد له أن يشعر، وبقسوة أيضاً، حيالها، بفعل التناقض والتضاد، بسوء وبؤس حالته. ولو أنها استطاعت أن تخمد بريق عينيها ولمعان شعرها وحرارة سحنتها ولون وجهها، لفعلت ذلك، لكي تجعله يشعر بالارتياح. وعلى الأقل، فهي تعتقد هذا، بينما هي تسرّ، بصورة لا شعورية، لفكرة كونها ما زالت تستطيع إغراءه، ونيل إعجابه. كانت قد ارتدت فستاناً رمادياً، ياقته من الدنتيلا البيضاء. وأخذت الريح تشوش تسريحة شعرها، وتورّد وجنتيها. وكان جميع أولئك السجناء ينظرون إليها، عند مرورهم، بالقرب منها، وهي تقف على رؤوس أصابع رجليها، باحثة بينهم عن زوجها وقد تبادر إلى ذهنها، أنه ربما يكون البعض منهم قد راقصوها فيما مضى في إحدى حفلات الرقص التي تقام في «سان بطرسبورغ» وكاد العرض ينتهي، ومر صف السجناء، بكامله، تقريباً، ولم يبدُ «نيقولا»، فانتابها القلق. وفجأة أرسلت صيحة قوية: في آخر الصف، هذا الرجل الطويل القامة، النحيل، ذو الملابس الرثة، المقيد بالسلاسل... وأخرجه من الصف، ضابط صف وجندي.

- «نيقولا»!

وأسرعت «صوفيا» للقائه، وتعانقا تحت المطر المنهمر. فالتف السجناء الآخرون نحوهما، وأخذوا ينظرون إليهما بغيرة وحسد، وهم يتابعون التعثر والتخبط في الوحل. وظلت «صوفيا» برهة طويلة ملتصقة بصدر «نيقولا» تشد نفسها إليه، تدسّه، تستنشق رائحته، وهي تردّد، بأعلى صوتها:

- هذا أنت! هذا أنت تماماً! في آخر الأمر!...

أمّا هو، فلم يستطع أن يتكلم، وأخذت الدموع تفيض من بين جفونه المحمرة، وكانت شفته السفلى ترتجف كشفة المحموم.

وقالت له «صوفيا»:

- تعال!

وأمسكت بيده لتقتاده إلى المنزل. كان يمشي ببطء، وهو يجرّ سلاسله. ودخل صف الضابط خلفه إلى الغرفة، بينما بقي الجندي في الرواق.

***

قالت «صوفيا» متوسلة:

- خمس دقائق أخرى، من فضلك، لا أكثر من خمس دقائق!

فتظاهر صف الضابط بالكبرياء، ودرس الموضوع في رأسه الكبير، الذي يشبه رأس الكبش، وقال:

- حسن، لا بأس، بالنسبة لهذه المرة، سيكون لكما ذلك!...

واستند على الجدار، ووضع في فمه حفنة من حبوب الصنوبر، وانصرف إلى أحلامه، وهو يمضغها، وجلس «نيقولا» و «صوفيا»، ثانيةً على حافة السرير. وبعد أن حصلا على هذه المهلة، شعرت «صوفيا» فجأة، أنها لم تعد تدري ماذا يمكنها أن تقول. فلم يعد يدور في خلوها سوى كلام تافه ومبتذل. فالآن، وقد رأت زوجها من جديد، وسمعت منه قصة أيامه، وكيف يقضي وقته في السجن، روت له أخبار رحلتها، فقد بدت وأنها حائرة، ومنذهلة، لكونها توصلت إلى القيام بذلك. لم يعد هنالك عوائق ينبغي التغلب عليها، ولا متاعب للتصدي لها وتحملها! لم يعد لديها أي عمل تقوم به، فهدأت، مرتاحة، وأخذت تتفحص «نيقولا» بمحبة وعطف. لقد نحف جسمه كثيراً، ولكنه يبدو سليماً معافى، وبصحة جيدة. ولا بد أنهم حلقوا له ذقنه، استعداداً لهذه الزيارة. وبدا معطفه وسخاً، وقد بليت أطراف كميه. وبين قدميه، رقدت، كحيوان أليف، كتلة من السلاسل: لقد كانت «ماري فولكونسكي» على صواب فيما قالت: الأكثر فظاعة في ذلك هو منظر تلك السلاسل التي تعيق وتقيد مخلوقاً عزيزاً، كما لو أنه قاتل. وفي كل لحظة- وكان الأمر أقوى منها ويحصل رغماً عنها- كانت «صوفيا» تخفض نظراتها وتلقيها على قدمي «نيقولا»، الذي لاحظ ذلك وقال لها:

- هذا، يسبب مفاجأة ويثير الدهشة، في البداية... ثم يصبح اعتيادياً... وعما قريب، لن تعودي تنتبهين له...

وبدا «نيقولا» متمتعاً بشجاعة هادئة. وكانت «صوفيا» فخورة به، وترغب بأن تؤمن وتثور به، ربما كان ذلك لكي تبرر تصرفها ومشاعرها حيال ذاتها، ولكي تثبت لنفسها أنها محقة وعلى صواب بقيامها باللحاق به... وما هي قيمة الشكوك والأحقاد القديمة، حيال الفرصة التي أتيحت لها اليوم لمواساته في محنته؟ كان بحاجة لها لكي يبقى على قيد الحياة. وهذه الفكرة كانت تحدث لديها نشوة عارمة.

وفجأة، سألها:

- وفي «سان بطرسبورغ» ماذا يحدث، في هذه الأيام؟

وهذا السؤال أدهش «صوفيا» كثيراً، كما لو أنّ «نيقولا» كان يتكلم، وألقاه عليها من كوكب آخر.

وقالت:

- لقد سافرت، وغادرتها منذ زمن طويل!...

- نعم، نعم... أخيراً، وعلى أي حال لا بد أنّ لديك بعض الأخبار!...

ماذا يقولون عنا؟ وما هو رأيهم فينا، هناك؟

- لا شيء، يا «نيقولا» لقد استأنفت الحياة مجراها الطبيعي...

فهزّ «نيقولا» رأسه:

- كان ينبغي توقع ذلك!... ولكن في ذات يوم، أو في آخر، سوف يعترف الجميع بحقوق الإنسان... عند ذلك، سيعترف لنا جلادونا، أنفسهم، بحقوقنا... والذي ينقصنا، ونفتقده أكثر من أي شيء هنا، هي الكتب، الصحف، المعلومات والأخبار... فمن الممكن أن تنشب ثورة في فرنسا، دون أن نعرف عنها شيئاً، وحتى دون أن نسمع بها!...

ما كان من الممكن أن تصدّق «صوفيا» أنّ ولعه بالحرية استطاع أن يقاوم لديه تلك الصدمة القوية، ومعها خيبة أمل رهيبة إلى تلك الدرجة. وتبادر إلى ذهنها أنّ هذا الإصرار على التعلل في الفراغ، ودون أمل واضح، ناتج عن مزيج من البطولة ومن الزيغ والانقياد الأعمى، والتصرف الصبياني. وبعد أن شجعته في اندفاعه وحماسته، أخذت تتردد باتباعه، كما لو أنّ ما كان لديها مما هو أكثر عمقاً وأكثر أنثوية، أخذ يعارض نشاطات وألاعيب السياسة بقوة كقوة غريزة حب البقاء. وكيف يستطيع الإنسان، والأيام التي يتاح له أن يقضيها على سطح الأرض، قليلة ومحدودة، إضاعة وقته في مناقشات نظرية، في حين أن عناصر قدره ومصيره، الأساسية، هي منذ آلاف السنين، إثارة الحب، ولادة طفل، موت شخص عزيز، الجوع، العطش، تعاقب الفصول والانتقال من فصل إلى آخر، حرارة جسدين متحدين على فراش واحد؟ والسعادة ليس موقعها في الغيوم، وفوق السحّاب. بل على مستوى وصعيد الأرض. وفي قطعة من الخبز يوجد قدر من الحقيقة أكثر مما في جميع كتب الفلسفة في العالم.

وتساءلت وقرّبتها من الحياة. وتمتم «نيقولا» الذي كان يراقبها منذ برهة:

- بماذا تفكرين؟

- بلا شيء.

- كان يبدو عليك أنك مشغولة البال ومستغرقة في التفكير.

- كلا، ... هذا بسبب التعب، والشعور بالغربة...

فألقى نظرة، تفحّص بها الغرفة، وقال:

- أرجو أن يرضيك هذا المنزل وأن تكوني مرتاحة فيه. ولكن، يلزمك خادم، على الأقل!

فقالت له «صوفيا»:

- «بولشيري» تساعدني كثيراً، وفيما بعد، سأجد من يخدمني، دعني الآن أستقرّ وارتب شؤوني...

- مما يؤسف له أنّ «نيكيتا» لم يستطيع أن يأتي معك!

فاضطربت. وهبّت ريح محرقة على جميع أفكارها، وقالت:

- نعم، إني آسفة لذلك، ولكنه في وضع جيد في «ايركوتسك».

- ربما استطاع في نهاية الأمر أن يحصل على أوراقه...

- ربما...

- كان عليك أن تكلمي الجنرال «ليبارسكي» بشأنه.

وبصورة غير متوقعة على الإطلاق، تصورت من جديد «نيكيتا» مستلقياً، وهو نصف عاري، على أرضية غرفتها الخشبية، الحمراء اللون، في «ايروكوتسك»، شعره الأشقر مشعّث، ملامحه منكمشة ومتقلّصة من شدة الألم، وحدقتاه الزرقاوان، اللتان تميل زرقتهما إلى البنفسجي، متسعتان، وتنفسه مضطرب ومتقطع. كان قريباً جداً منها، على الرغم من الغياب، بحيث أنها، وقد انبهرت، أطبقت جفنيها. كانت هذه الذكرى تملؤها بلذة خفية وغامضة. وشعرت بالخوف من الانفعال الذي انتابها، فقالت على عجل:

- لديّ أمور أخرى، أكثر أهمية، علي أن أطلبها من الجنرال «ليبارسكي»،

- وما هي، مثلاً؟

- أن يسمح لي بأن أراك لمرات أكثر، ولفترات أطول، ولأرسل لك ملابس تدفئك، وبعض الأطعمة، والكتب...

فتمتم، وهو ينحني عليها ويقبل يديها:

- يا عزيزتي! ستكون الحياة في «تشيتا» قاسية جداً بالنسبة لك! وأنا لا أدري كيف أشكرك! اغفري لي! أحبك! أحبك!...

كانت تحمل على ركبتيها، ذلك الرأس الثقيل، كأنه كرة معدنية، وهي تشعر نحوه بشفقة تخدر أعصابها وتجعلها تسترخي بارتياح.

والرغبة التي كانت تلازمها، تحرّضها وتستنهض همتها على الدوام طوال رحلتها، قد فارقتها، بعد أن بلغت الهدف. وبعد أن أصبحت بالقرب من «نيقولا» فإنها مهما حثّت نفسها على الجنون، فإنّ حواسها تظل خامدة، تخلد للراحة. كانت تداعب له، بصورة آلية، شعره، تحلم بشعر آخر، وبوجه آخر، وبطريق يقطع سهلاً لا نهاية له. وفي الانتظار الفارغ الذي طال أمده، حصل لديها انطباع أنّ الزمن يسير بشكل مقلوب.

كان الجو رمادياً وبارداً. وصف الضابط يعلك حبوب الصنوبر، عبر اصطكاك أسنانه المبلل، دون أن يحوّل نظره عن الزوجين الصامتين. وبعد برهة، غمغم:

- هيا، لقد انتهى وقت الزيارة!

فلم تعترض «صوفيا». ونهض «نيقولا»، فأحدثت سلاسله طقطقة مسموعة. وهمست له «صوفيا» وهي تقدم له شفتيها:

- سنلتقي، ثانية، يوم الأحد!

وتعانقا. كانت هادئة، مطمئنة، متسامحة ومحسنة، تحت ذلك الفم الذي يسحق فمها بنهم شديد. ولمس صف الضابط كتف «نيقولا» لكي يجعله ينفصل عن «صوفيا»، التي سألته:

- إلى أين أنت ذاهب، الآن؟

فأجابها «نيقولا»:

- لأنضم إلى الآخرين، في موقع العمل.

وخرجت، فوقفت تحت إفريز الباب لتنظر إليه، وهو يذهب بين حارسيه. كان يجرّ رجليه، متخبطاً في الوحل، ويتعثر أحياناً، بسبب السلاسل. وكلما خطا بضع خطوات، كان يلتفت ليراها. فكانت تبتسم وتلوح

بيدها. وعندما ابتعد، انتابها قلق شديد، وبشكل مفاجئ، لدرجة أنها شعرت أنّ تنفسها قد توقف من الدهشة التي اعترتها، وتساءلت: «ماذا أتيت لأعمل هنا؟»

أمام ناظريها، كانت تصطف منازل الفلاحين، الصغيرة: «الايسبات» تحيط بها حواجز من القصب والأوتاد الطويلة. وكان هنالك مدخنة، يتصاعد منها الدخان عبر الضباب. ومرّ قروي، يسحب ماعزاً برسنها. فحيا «صوفيا». فردّت عليه بحركة من رأسها، ودخلت إلى المنزل.

منشورات دار علاء الدين في مجال القصص والروايات

- مساء ذبول الوردة
  . . . . أردال أوز
- قلب كلب
  . . . . ميخائيل بولغاكوف
- قرب النهر أبكي
  . . . . باولو كويلهو
- محارب النور
  . . . . باولو كويلهو
- بؤس الشيطان
  . . . . بريم ستوكر
- جاز
  . . . . توني موريسون
- هيجان محاكمة وقتل لوركا رواية
  . . . . جوزيه لويس دي فيلالونغا
- إيفا رواية من روائع الأدب العالمي
  . . . . جيمس هادلي شيز
- مرآة الحبر مختارات
  . . . . خورخي لويس بورخيس
- انماط غريبة من الحب قصص قصيرة من روائع الأدب العالمي
  . . . . سومرست موم
- خصيصاً للحمير
  . . . . عزيز نيسين
- يساري أنت أم يميني ؟!!
  . . . . عزيز نيسين
- يسلم الوطن
  . . . . عزيز نيسين
- حكاية البغل العاشق
  . . . . عزيز نيسين
- فصل الراحة
  . . . . غور فيدال
- قصص من حياة دوستويفسكي
  . . . . ف. جيلزنياك
- أنا وملك سيام
  . . . . مارغريت لاندن
- فالس الوداع
  . . . . ميلان كونديرا
- رفاق شقائق النعمان
  . . . . هنري ترويا
- سيدات سيبيريا
  . . . . هنري ترويا
- ألوشا
  . . . . هنري ترويا
- عائلة كاردينال رواية من الأدب العالمي الساخر
  . . . . لدوفيك هاليفي
- محاكمة سقراط
  . . . . يوري فانكين
- التجربة الأخيرة
  . . . . يوليا إفانوفا

La Lumiére

Des Justes

مجد المهزومين



امتلأت النفوس بضياء الحرية والعدل والمساواة، وتعمَّقت الهُوَّة بين عالم الظلم والعبودية من جهة، وبين مجتمع تضمَّخ بعصر الأنوار من جهة أخرى.

وتهوي هراوة القيصر على الانتفاضة الثورية فتبعثرها ما بين أعواد المشانق ومنافي سيبيريا ويتناثر الحلم شظايا تجوب الآفاق وتصبح بذاراً مباركاً لعقود قادمة.

هذا الجزء من الرواية مسكون بالحب والتضحية، وصدق المبادئ والوفاء لها، ومجد التحدي الذي لا يعرف الانكسار.

يطلب الكتاب على العنوان التالي: دار علاء الدين للنشر والطباعة والتوزيع - سوريا - دمشق

ص.ب. ٣٠٥٩٨ - هاتف ٥٦١٧٠٧١ - فاكس ٥٦١٣٢٤١ - بريد إلكتروني ala-addin@mail.sy